تفسير القرآن الحكيم

المشتهر باسم تفسير المنار

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول ، الذى يبين حكم التشريع ، وسنن الله فى الإنسان ، وكون القرآن هداية للبشر فى كل زمان ومكان ، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون فى هذا العصر وقد أعرضوا عنها ، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها ، مراعى فيه السهولة فى التعبير ، مجتنبا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون ، بحيث يفهمه العامة ، ولا يستغنى عنه الخاصة وهذه هى الطريقة التى جرى عليها فى دروسه فى الأزهر حكيم الإسلام

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(رضى الله عنه)

الجزء الأول

(تأليف)

السيد محمد رشيد رضا

منشئ المنار

الطبعة الثانية فى سنة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م

أصدرتها دار المنار ١٤ شارع الانشاء بالقاهرة

فاتحة تفسير القرآن الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الّذى أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ لهُ عِوجاً * قيِّماً لِيُنذرَ بأساً شديداً مِنْ لدُنهُ ، ويُبشِّرَ المؤمنينَ الذينَ يعملون الصَّالحات أنَّ لهمْ أجراً حسناً ، ماكثينَ فيهِ أبداً * ويُنذرَ الّذينَ قالوا اتَّخذَ اللهُ ولداً * مَالهمْ بهِ مِنْ علمٍ ولا لآبائهمْ . كبُرتْ كلمةً تخرُجُ من أفواههمْ ، إنْ يقولون إلاَّ كذباً * (١٨ : ١ ـ ٥)

ألم . ذلكَ الكتابُ لا ريْبَ فيه هُدًى لِلْمتقينَ (٢ : ١) وإنْ كنتمْ فى رَيْبٍ مِمّا نزَّلْنا على عبدنا فأتوا بسُورةٍ من مثلهِ وادْعوا شُهداءكم مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ * فإن لم تفعلوا ـ ولَنْ تفعلوا ـ فاتقُوا النَّارَ الّتى وقودُها النّاسُ والحِجارةُ أُعِدّتْ للكافرينَ (٢ : ٢٢ ، ٢٣)

الم . اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحىُّ القيُّومُ . نزَّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يديهِ . وأنزلَ التوراةَ والإنجيلَ مِن قبْلُ هُدًى للنَّاس وأنزلَ الفرْقانَ (٣ : ١) هُوَ الذى أنزلَ عليكَ الكتابَ مِنْهُ آيات مُحْكَماتٌ هُنَّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتشابهات ، فأما الّذينَ فى قلوبهم زَيْغٌ فيتبعُون ماتشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله ، وما يعلم تأويلهُ إلا اللهُ ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا بهِ كلٌّ من عند ربِّنا ، وما يذَّكَّرُ إلا أُولُوا الألبابِ (٣ : ٥)

أَ لَر . كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَنْ لا تَعْبُدوا إلا اللهَ ، إنى لكم منهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبوا إليهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حسناً إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَيُؤتِ كلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فإنى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبيرٍ * إلى الله مرجِعُكم وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ (١١ : ١ — ٤)

أَلَر . تلك آياتُ الكتاب المبين * إنا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نَقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصص بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ وَإِنْ كنتَ من قبلهِ لَمِنَ الغافلينَ (١٢ : ١ — ٣) لقد كان فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولى الألبابِ ، ما كان حديثاً يُفْتَرَى ، وَلكنْ تصديقَ الذى بينَ يديْهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةً لقومٍ يؤْمنونَ (١٢ : ١١١)

وكذلكَ أنزلنا إليكَ الكتاب ، فالَّذِينَ آتيناهُمُ الكتابَ يُؤمنون به ، وَمِنْ هؤلاء مَن يؤمنُ بِهِ . وما يَجْحَدُ بآياتِنَا إلا الكافرون * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينكَ ، إذاً لارتاب الْمُبْطِلونَ * بلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَات فى صُدورِ الذين أُوتُوا العلمَ وَمَا يَجحدُ بآياتِنَا إلا الظالِمُونَ (٢٩ : ٤٧ — ٤٩)

كتابٌ أنزلنَاهُ إليكَ مُبارَكٌ ليدَّبَّروا آياتِه وليتَذَكَّرَ أُولُوا الألبابِ (٣٨ : ٢٨) أفلا يتدبَّرون القرآنَ ؟ ولو كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً (٤ : ٨١) اللهُ نزَّلَ أحسَنَ الحديث كتاباً مُتشابِهاً مثانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْه جُلُودُ الذين يخشَونَ رَبَّهُمْ ، ثُم تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلكَ

هُدَى اللهِ يَهدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِن هَادٍ (٣٩ : ٢٣) لَوْ أَنزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشيةِ اللهِ ، وتلكَ الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون (٥٩ : ٢١)

إنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يصلون على النَّبِيِّ . يا أَيُّهَا الذين آمنوا صَلُّوا عليهِ وَسَلِّمُوا تسليماً (٣٣ : ٥٦)ما كان مُحَمَّدٌ أبا أحدٍ مِن رجالِكم ، ولكن رَسولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وكانَ اللهُ بكلِّ شيءٍ عليما* يا أَيُّهَا الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذكراً كثيراً ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصيلاً * هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عليكم وملائكتُهُ لِيُخْرِجَكُم من الظلمات إلى النُّورِ . وكان بالمؤمنين رَحيما * تَحِيَّتُهم يَوْمَ يَلْقَوْنَه سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٣٣ : ٤٠ ـ ٤٤)

أما بعد، فيا أيها المسلمون : إن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدى ونورا ليعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم ، ويعدكم لما يعدكم به من سعادة الدنيا والآخرة ، ولم ينزله قانونا دنيويا جافا كقوانين الحكام ، ولا كتابا طبياً لمداواة الاجسام، ولا تاريخاً بشرياً لبيان الأحداث والوقائع ، ولا سفراً فنياً لوجوه الكسب والمنافع ، فان كل ذلك مما جعله تعالى باستطاعكم ، لا يتوقف على وحى من ربكم . وهذا بعض ما وصف الله تعالى به كتابه فى محكم آياته(١) تدبرها سلفكم الصالح واهتدوا بها فأنجز لهم ماوعدهم من سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة فى مثل قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٢٤: ٥٣) وفى قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين (٣٠ : ٤٦) وقوله (ولن يجعل الله

(١) إشارة إلى الآيات السابقة ولنا فتوى فى حكمة إنزال القرآن أوردنا فيها ٢٤ آية من أمثال هذه الآيات و١٥ حديثا فى معناها فتراجع فى ص٢٥٨م٨من المنار

للكافرين على المؤمنين سبيلا (٤ : ١٤٠) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (٦٣ : ٨) وقوله ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين (٣ : ٣٩)

وعدهم الله تعالى هذه الوعود فى حالى قلتهم وضعفهم وفقرهم و بعدهم عن الملك والسلطان ، وأنجز لهم ماوعدهم بما قضاه وجعله أثراً للاهتداء بالقرآن .

هدى الله بهذا القرآن العرب ، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم ، فكانوا به أئمة الامم ، فبالاهتداء به قهروا أعظم دول الأرض المجاورة لهم . دولة الروم (الرومان) ودولة الفرس ، فهذه محوها من لوح الوجود بهدم سلطانها وإسلام شعبها ، وتلك سلبوها ماكان خاضعا لسلطانها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة ، ثم فتحوا الكثير من ممالك الشرق والغرب حتى استولوا على بعض بلاد أوربة وألفوا فيها دولة عربية كانت زينة الأرض فى العلوم والفنون والحضارة والعمران

حاربوا شعوبا كثيرة كانت أقوى منهم فى جميع مايحتاج إليه القتال من عدد وعدد ، وسلاح وكراع ، وحصون وقلاع ، و قاتلوها فى عقر دارها ، ومستقر قوتها ، وهم بعداء عن بلادهم ، نازحون عن مقر خلافتهم ، و إنما كانوا يفضلون أعداءهم بشيء واحد ، وهو صلاح أرواحهم الذى تبعه صلاح أعمالهم ، والروح البشرى أعظم قوى هذه الارض، سخر الله تعالى له سائر قواها ومادتها كما قال (٢ : ٢٨ هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا) (٤٥ : ١٢ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعاً منه . إن فى ذلك الآيات لقوم يتفكرون)

كان أرقى حكام الروم والفرس وغيرهم علما وفنا وأدبا وسياسة يفسد فى الارض ، ويعبث بالمال والعرض ، أو كما قال الله تعالى (٢ : ٢٠٤ و إذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد) وكان المسلم العربى يتولى حكم بلد أو ولاية، وهو لا علم عنده بشيء من فنون الدولة، ولا من قوانين الحكومة ، ولم يمارس أساليب السياسة ، ولا طرق الادارة ، و إنما كل ما عنده من العلم بعض سور من القرآن ، فيصلح من تلك الولاية فسادها ، و يحفظ أنفسها وأموالها وأعراضها ، ولا يستأثر بشيء من حقوقها ، هذا وهو فى حال حرب ، وسياسة فتح، مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها ،

وسد الذرائع لانقاض أهلها . وإذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به وتتولى أمره ، فالإنسان سيد هذه الأرض ؛ وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده ، وليست الثروة ولا وسائلها من صناعة وزراعة وتجارة هي المعيار لصلاح البشر ، ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة : فان البشر قد أوجدوا كل وسائل الملك والحضارة من علوم وفنون وأعمال بعد أن لم تكن - فهي إذاً نابعة من معين الاستعداد الإنساني ؛ تابعة له دون العكس ، ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد ، فاننا نحن المسلمين وكثيراً من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدها من العدم : ممن أضاعوها بعد وجودها بفساد أنفسهم .

صلحت أنفس العرب بالقرآن إذ كانوا يتلونه حق تلاوته في صلواتهم المفروضة وفي تهجدهم وسائر أوقاتهم - فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها ، وهذب أخلاقها وأعلى هممها ، وأرشدها إلى تسخير هذا الكون الأرضي كله لها ، فطلبت ذلك فأرشدها طلبه إلى العلم بسننه تعالى فيه من أسباب القوة والضعف ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، فهداها ذلك إلى العلوم والفنون والصناعات ، فأحيت مواتها ، وأبدعت فيها مالم يسبقه إليها غيرها . حتى قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب : إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال ، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد .

قد شاهدنا ولا نزال نشاهد في بلادنا : أن طلب العلوم والفنون مع إهمال التربية المصلحة للنفس لم تحل دون استعباد الأجانب لنا ، كما جرى في دولتي الآستانة والقاهرة وغيرهما . ترى الرجل المتعلم المتفنن يتولى ولاية أو وزارة فيكون أول همه منها تأسيس ثروة واسعة لنفسه وولده لأجل التمتع بالشهوات واللذات والزينة ، وهكذا تفعل كل طبقة من رجال الدولة ، يستنزفون ثروة الأمة بالرشى والحيل وأكل السحت ، ويكون كل مافضل عن شهواتهم بل جل ماينفقونه عليها نصيب الأجانب ، وقد شرحنا هذه الموضوعات من قبل في مواضعها من المنار والتفسير فلا نطيل فيها هنا . وإنما طرقنا هذا الباب لنذكركم أيها القارئون لهذه

الفاتحة بوجوب فهم القرآن والاهتداء به ، وبأن فقهه يتوقف على تفسيره لمن لم يؤت من ملكة لغته وذوق أساليبها وروح بلاغتها ومن تاريخ الاسلام وسيرة الرسول ﷺ وهدى السلف الصالح مايمكنه من فقهه بنفسه .

إنما يفهم القرآن و يتفقه فيه من كان نصب عينه ووجهة قلبه في تلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة ما بينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله ، وفائدة ترتيله ، وحكمة تدبره من علم ونور ، وهدى ورحمة ، وموعظة ، وعبرة وخشوع وخشية ، وسنن في العالم مطردة . فتلك غاية إنذاره وتبشيره ، و يلزمها عقلا وفطرة : تقوى الله تعالى بترك مانهى عنه ، وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة ، فإنه كما قال (هدى للمتقين)

كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية ، والهداية السامية ، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ، ونكت المعاني ومصطلحات البيان ، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين ، وتخريجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، و بعضها يلفته عنه بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات ، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده ، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن .

نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن : فنون العربية لابد منها واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضا ، كقواعد النحو والمعاني ، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن

وأما الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير فمنها ما هو ضروري أيضاً ، لأن ما صح من المرفوع لايقدم عليه شيء ، و يليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم ، والصحيح من هذا

وذلك قليل . وأكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب، كما قال الحافظ ابن كثير ، وجل ذلك فى قصص الرسل مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل وعوج بن عنق ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها و بعدها ، وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة (رض) ، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة، كبعض كتب الحديث و بيان قيمة أسانيدها، ثم يذكر فى التفسير ما يصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث فى كتب الفقه ، لكن يعزى إلى مخرجه كما نفعل فى تفسيرنا هذا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : والاختلاف فى التفسير على نوعين : منه مامستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ومنه مالا يمكن ذلك ، وهذا القسم — الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه — عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته ، وذلك كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، وفى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل ، فما كان منها منقولا نقلا صحيحاً عن النبى ﷺ قبل، ومالا — بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب — وقف عن تصديقه وتكذيبه لقوله ﷺ « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وكذا ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. وما نقل عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابى بما يقوله كيف يقال : إنه أخذه عن أهل الكتاب ، وقد نهوا عن تصديقهم ؟

«وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه : فهذا موجود كثير ولله الحمد وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى . وذلك لأن الغالب عليها المراسيل . وأما ما يعلم بالاستدلال لابالنقل فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان» ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ (وإحداهما) حمل ألفاظ القرآن على معانى اعتقدوها لتأييدها به ـ أقول: كجميع مقلدة الفرق والمذاهب فى الأصول والفروع المتعصبين لها فانهم قد جعلوا مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يحمل عليها ، وهذا شر أنواع البدع وتفسير القرآن بالرأى المذموم فى الحديث (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن ، وهو الله عز وجل ، والمنزل عليه والمخاطب به ـ وفصل ذلك بما يراجع فى محله .

فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع ماعرف أنه من رواة الإسرائيليات ، وهذا فى غير ما يقوم الدليل على بطلانه فى نفسه . وصرح فى هذا المقام بروايات كعب الأحبار ووهب بن منبه مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما . فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شىء منه ولا حومت حوله ؟ ـ وكذا مانقل عن بعض التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ـ يعني بخلاف ما اتفق عليه أهل الرواية من علماء التفسير وغيره منهم ، فانه يكون أبعد من أن يكون عن أهل الكتاب . وإنما الوقف فيما ينقل نقلا صحيحا عن كتب الأنبياء كالتوراة والإنجيل التى عندهم ، لا نصدقهم فيه لاحتمال أنه مما حرفوا فيها ، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوا منها ، فقد قال تعالى فيهم : إنهم (أوتوا نصيبا من الكتاب)

وأنت ترى أيضاً أنه لم يجزم بما روى عن الصحابة (رض) من ذلك ، وإنما قال إن النفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين . لأن احتمال سماعه من النبى ﷺ أقوى من احتمال سماعه من بعض أهل الكتاب لقلة رواية الصحابة عنهم ، وهذا ينقض قول من أطلق الحكم بأن ما قاله الصحابى الثقة مما لايعرف بالاستدلال

بل بالنقل له حكم الحديث المرفوع . وقد علم أن بعض علماء الصحابة رووا عن أهل الكتاب، حتى عن كعب الأحبار الذى روى البخارى عن معاوية أنه قال « إن كنا لنبلو عليه الكذب » ومنهم أبو هريرة وابن عباس (رض) ومن الصحابة من روى عن بعض التابعين الذين رووا عن أهل الكتاب فالحق أن كل مالا يعلم إلا بالنقل عن المعصوم من أخبار الغيب الماضى أو المستقبل وأمثاله لا يقبل فى إثباته إلا الحديث الصحيح المرفوع إلى النبي ﷺ وهذه قاعدة الإمام ابن جرير التى يصرح بها كثيرا

هذا و إن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد، فإنه لم يعن به أنه لا يوجد فى تلك الثلاثة رواية صحيحة ألبتة . و إنما يعنى أن أكثرها لا يصح له سند متصل وما صح سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذى يحتج به

وغرضنا من هذا كله أن أكثر ما روى فى التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول ، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات ، التى لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً ، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى عنه كما تقدم .

فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه ، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح ، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه فى المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه . ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر . فى سهولة التعبير ، ومراعاة أفهام صنوف القارئين، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ، إلى غير ذلك مما تراه قريبا ــ وهو ما يسره الله بفضله لهذا العاجز ، وهاك موجزاً من نبأ تيسيره له

كنت من قبل اشتغالى بطلب العلم فى طرابلس الشام مشتغلا بالعبادة ميالا إلى التصوف ، وكنت أنوى بقراءة القرآن الاتعاظ بمواعظه لأجل الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا . ولما رأيت نفسى أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلم على قلته صرت أجلس إلى العوام فى بلدنا أعظهم بالقرآن مغلبا الترهيب على الترغيب والخوف على الرجاء ، والانذار على التبشير ، والزهد فى الدنيا على القصد والاعتدال فيها .

فى أثناء هذه الحال الغالبة علىّ ظفرت يدى بنسخ من جريدة العروة الوثقى فى أوراق والدى فلما قرأت مقالاتها فى الدعوة إلى الجامعة الاسلامية و إعادة مجد الاسلام وسلطانه وعزته ، واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه – أثرت فى قلبى تأثيراً دخلت به فى طور جديد من حياتى وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات فى الاستشهاد والاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز ، وما تضمنه تفسيرها مما لم يحم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم فى الكتابة ، ومداركهم فى الفهم . وأهم ما انفرد به منهج العروة الوثقى فى ذلك ثلاثة أمور :

(أحدها) بيان سنن الله تعالى فى الخلق ونظام الاجتماع البشرى ، وأسباب ترقى الأمم وتدليها ، وقوتها وضعفها (ثانيها) بيان أن الاسلام دين سيادة وسلطان ، وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ومقتضى ذلك أنه دين روحانى اجتماعى ، ومدنى عسكرى ، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة ، والهداية العامة ، وعزة الملة ، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة (ثالثها) أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم ، فهم إخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة .

تلك المقالات التى حببت إلىّ حكيمى الشرق ، ومجددى الاسلام ، ومصلحى العصر : السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهما اللذان أنشآ جريدة العروة الوثقى فى باريس سنة ١٣٠١ عقب احتلال الانكليز لمصر فى أواخر سنة ١٢٩٩ وكان الكاتب لتلك المقالات العالية فيها هو الثاني ولكن بإرشاد الأول وإدارته وسياسته ، وهو أستاذه فى هذا المنهج ومربيه عليه .

توجهت نفسى بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السيد جمال والتلقى عنه وكان قد جاء إلى الآستانة فكتبت إليه بترجمتى ورغبتى فى صحبته وأنه لا يصدنى عنها إلا إقامته فى الآستانة لاعتقادى أنه لا يستطيع طول المقام فيها ، وعللت ذلك بقولى « لأن بلاد الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء ويعافه لأنه دواء »

وبعد أن توفاه الله تعالى إليه فيها تعلق أملى بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده للوقوف على اختباره وآرائه فى الاصلاح الاسلامى ، وما زلت أتربص الفرص

لذلك حتى سنحت لى فى رجب سنة ١٣١٥ وكان ذلك عقب إتمام تحصيلى للعلم فى طرابلس ، وأخذ شهادة العالمية أو التدريس من شيوخى فيها . فهاجرت إلى مصر ، وأنشأت المنار للدعوة إلى الإصلاح .

اتصلت بالشيخ فى الضحوة الصغرى لليوم الذى وصلت فى ليله إلى القاهرة فكان اتصالى به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الأخص بملزومه ، وكان أول اقتراح لى عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التى وجدنا روحها ونورها فى مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة ، فقال : إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه ، فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها مالم يتقنها بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل . فاقترحت عليه أن يقرأ درساً فى التفسير ، وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح فى رمضان ، يعتذر بما أذكر أهمه هنا .

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لى عبارة من كتاب إفرنسى فى الطعن على الإسلام ، وطفق يرد عليها بعد أن قال : إن هؤلاء الإفرنج يأخذون مطاعنهم فى الإسلام من سوء حال المسلمين ، مع جهلهم هم بحقيقة الاسلام . قال إن القرآن نظيف والإسلام نظيف ، وإنما لوثه المسلمون بإعراضهم عن كل ما فى القرآن واشتغالهم بسفساف الأمور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة فى تفسير قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) وماذا كان ينبغى للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها .

ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا أنه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لأجل قهر الأمم لا لأجل تربيتها . وقال : فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟ ثم طفق الأستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معانى التربية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلبه للولد بمقتضى شهوته لا محبته له وغير ذلك من شؤون الوالد التى ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال فى ذلك

وههنا دار بينى و بينه ما أذكر ملخصه كما كتبته بعد مفارقة ذلك المجلس وهو :

(قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك

كل ماهو موجود فى كتب التفسير وتبين ما أهملوه . . .

قال : إن الكتب لاتفيد القلوب العمى . فان دكان السيد عمر الخشاب مملوءة بالكتب من جميع العلوم، وهى لا تعلم شيئا منها ، لاتفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة عالمة بوجه الحاجة إليها تسعى فى نشرها . إذا وصل لأيدى هؤلاء العلماء كتاب فيه غير مايعلمون لا يعقلون المراد منه ، و إذا عقلوا منه شيئا يردونه ولا يقبلونه ، و إذا قبلوه حرفوه إلى ما يوافق علمهم ومشربهم ، كما جروا عليه فى نصوص الكتاب والسنة التى نريد بيان معناها الصحيح وما تفيده .

« إن الكلام المسموع يؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحركاته و إشاراته ولهجته فى الكلام - كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه فاذا كان مكتوبا فمن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠ فى المائة من مراد المتكلم ، والقارىء لكلامه يفهم منه ٢٠ فى المائة على ما أراد الكاتب . ومع ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر و بعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التى تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم، مع أنها كان من حقها أن تكتب ، وماعلمت أحداً كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعانى فى بعض مايكتبان ، وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر فى سبعة أيام ، وكل درس لا يقل عن ساعتين أو ساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الإنسان فى خسر إلا من استثنى الله تعالى ، وما المراد بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، مما لو جمع لكان رسالة حسنة فى تفسير السورة . وماعلمت أحداً كتب من ذلك شيئا إلا أن يكون عبد العزيز[1]

(قلت) إنه يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر و الاسلام فى البلاد المتفرقة وكثير منهم ما نبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أتنبه التنبه الذى أنا عليه إلا بها

(قال) إن بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأى موضوع أمام أى انسان ، سواء كان يدرك الكلام و يقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة

(١) قرأه بعد ذلك فى الجزائر ثم كتبه باقتراحنا و نشرناه فى المنار ووحده

عند السيد جمال الدين يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها وأنا كنت أحسده على هذا لأنني تؤثر فيّ حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلا. وهكذا الكتابة ؛ فانني ربما أتصور أن أكتب بموضوع وعندما أوجه قواي لجمع مايحسن كتابته تتوارد على فكري معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتيني خاطر : لمن ألقي هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعاني التي اجتمعت عندي قدامتص بعضها بعضا حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئا .

« إن حالة المخاطب تؤثر بي جداً ، ولذلك لاأتكلم بشيء عن حالة الإسلام عندما أجتمع بهؤلاء العلماء ، لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لايعملون شيئا مع سعة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لأني لاأطالع عند ماأقرأ [1] لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الاعراب أو كلمة غريبة في اللغة . فاذا حضرني جماعة من البلداء الخاملي الفكر أحُلّ لهم المعنى بكلمات قليلة . وإذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقي له بالا يفتح عليّ بكلام كثير

(قلت) إن الزمان لايخلو ممن يقدر كلام الإصلاح قدره وإن كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوما فيوما ، فالكتابة تكون مرشداً لهم في سيرهم . وإن الكلام الحق وإن قل الآخذ به والعارف بشأنه ، لابد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباءة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أي سنة) الانتخاب الطبيعي، كما حفظت (العروة الوثقى) فإن أوراقها الأصلية الضعيفة قد بليت لكن مافيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت في الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير في الأزهر فاقتنع وبدأ بالدرس بعد ثلاثة أشهر ونصف أي في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطا) من الآية ١٢٥ من سورة النساء . فقرأه في خمسة أجزاء في ست سنين ، إذ توفي لثمان خلون من جمادى الأولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير ، وهو

(١) لعله قال : قبل أن أقرأ يعني أنه لا يستعد لها بالمطالعة

أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفى الروايات التى لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ فى ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرها أو ينتقد منها مايراه منتقداً ، ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة .

وكنت أكتب فى أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ماأراه أهم ما قاله وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه، وأمده بكل ماأتذكره فى وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح علىّ بعض الراغبين فى الاطلاع عليه من قراء المنار فى البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره فى المنار . فشرعت فى ذلك فى أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك فى المجلد الثالث من المنار، وكنت أولا أطلع الاستاذ الإمام على ماأعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه. فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات ، ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به . على أنه لم يكن كله نقلا عنه ومعزواً إليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جلّ ما استفاده منها، لذلك كنت أعزو إليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لى فى بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لى بعده قلت فى بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزما فى أول الامر بل يكثر فى الجزء الأول مالا أعزو فيه، ومنه ماهو مشترك بين مافهمته منه ومن كتب التفسير الأخرى أو من نص الآية على أننى عبرت عنه بأمالى مقتبسة

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه ، إما قبل طبعه وهو الغالب، وإما بعده وهو الاقل، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وان لم أكن كتبته عنه فى مذكرات الدرس ، لان إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الأمانة أن لا أعزوا اليه إلا ما كتبته عنه أو حفظته حفظا ، وصرت أكثر أن أقول : قال مامعناه ، أو ما مثاله ، أو ماملخصه ، مثلا، على أننى أعتقد أنه لو بقى حيا واطلع عليه لاقره كله .

وقد بدأت فى حياته بتجريد تفسير الجزء الثانى من المنار وطبعه على حدته وتوفى قبل طبع نصفه ، فهو قد قرأ ماطبع منه مرتين . وقد اشتد شعورى بعد ذلك بأن علىّ وحدى تبعة تأليف تفسير مستقل وتبعة إيداعه ما تلقيته عن هذا العالم الكبير المشرق البصيرة ، وذى النصيب الوافر من إرث نبى الله داود عليه السلام الذى قال الله تعالى فيه (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وتبعة الأمانة فى النقل بالمعنى أثقل من تبعة تحرى الفهم الصحيح وأدائه ببيان فصيح

وسبب البدء بطبع الجزء الثانى : أن الأول كان مختصراً وغير ملتزم فيه ماالتزمته فيما بعده من تفسير جميع عبارات الآيات وذكر نصوصها ممزوجة فيه . ولذلك اقترحت على الاستاذ أن يعيد النظر فيه ويزيد فيه مايسنح له من زيادة أو إيضاح ، ولا سيما إيضاح ماانتقد عليه إجماله من الكلام فى الملائكة والشياطين وتأويل قصة آدم . فقرأ النصف الأول منه بعد نسخه له وزاد فيه مايراه القارىء معزواً إلى خطه ومميزاً بوضعه بين علامتين بهذا الشكل [ ] وزدت أنا فى جميع الجزء زيادات غير قليلة صار بها موافقاً لسائر الأجزاء فى أسلوبه وكنت أميز زيادتى الأخيرة عن أقوالى التى أسندتها إلى نفسى أولا فى حالى حياة الأستاذ بقولى : وأزيد الآن ، أو وأقول الآن ، ثم تركت ذلك واكتفيت بكلمة (أقول)

هذا وإنى لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة ، سواء كان تفسيراً لها أوفى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفى الاكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة ، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها ، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر ، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة ، أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس ، وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير ، لتدبر القرآن والاهتداء به فى نفسه ، وفى النهوض بإصلاح أمته ، وتجديد شباب ملته : الذى هو المقصود بالذات منه ، وأسأله أن يخصنى والاستاذ بدعواته الصالحة ؟ محمد رشيد رضا

مقدمة التفسير

﴿ المقتبسة من درس الأستاذ الإمام بالمعنى ، مع البسط والإيضاح ﴾

التكلم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها ، وما كل صعب يترك . ولذلك لاينبغى أن يمتنع الناس عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة . أهمها : أن القرآن كلام سماوى تنزل من حضرة الربوبية التى لايكتنه كنهها : على قلب أكمل الأنبياء . وهو يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية ، لايشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكيه ، والعقول الصافية . وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال ، الفائضين من حضرة الكمال ، مايأخذ بتلبيبه ، ويكاد يحول دون مطلوبه ، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه ، لأنه إنما أنزل الكتاب نورا وهدى، مبينا للناس شرائعه وأحكامه . ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه .

والتفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإن هذا هو المقصد الاعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له وداء أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى (أحدها) النظر فى أساليب الكتاب ومعانيه ، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول . سلك هذا المسلك الزمخشرى . وقد ألمّ بشىء من المقاصد

الأخرى ونحـا نحوه آخرون (ثانيهـا) الاعراب . وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا فى بيان وجوهه وما تحتمله الالفاظ منهـا (ثالثهـا) تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن ما شـاءوا من كتب التاريخ والاسرائيليات . ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عنـد أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهـم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لمـا يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعهـا) غريب القرآن (خامسهـا) الأحكام الشرعيـة من عبادات ومعاملات والاستنباط منها . وقد جمع بعضهم آيات الأحكام وفسروها وحدها . ومن أشهرهم أبو بكر ابن العربي . وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين يعنون بتفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات أكثر من عنايتهـم بسائر الآيات (سـادسها) الكلام فى أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحـاجة المختلفين . وللامام الرازى العناية الكبرى بهـذا النوع (سابعها) المواعظ والرقائق . وقد مزجهـا الذين ولعوا بهـا بحكايات المتصوفة والعباد ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التى وضعهـا القرآن (ثامنها) ما يسمونه بالإشارة . وقد اشتبه على الناس فيـه كلام الباطنية بكلام الصوفية . ومن ذلك التفسـير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي . وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير . وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز .

وقد عرفت أن الاكثار فى مقصـد خاص من هذه المقاصـد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهى ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيق . لهذا كان الذى نعنى به من التفسير هو ماسبق ذكره .

أى من فهم الكتاب من حيث هو دين ، وهداية من الله للعالمين ، جامعة بين بيان مايصلح به أمر الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وما يكونون به سعداء فى الآخرة ، — و يتبعه بلا ريب : بيان وجوه البلاغة بقدر مايحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن و بلاغته — أى عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التى عدوها مشكلة ، ور بما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الإصطلاحية ، كما نفعل ذلك فى بعض نكت البلاغة ، أو قواعد الأصول ، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارىء عن المعانى ، صارفة له عن العبرة .

و يمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر : لاحاجة إلى التفسير والنظر فى القرآن ، لأن الأئمة السابقين نظروا فى الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منهما ، فما علينا إلا أن ننظر فى كتبهم ونستغنى بها . هكذا زعم بعضهم . ولو صح هذا الزعم لكان طالب التفسير عبثا ، يضيع به الوقت سدى وهو ـ على مافيه من تعظيم شأن الفقه ـ مخالف لإجماع الأمة من النبى صلى الله عليه وسلم إلى آخر واحد من المؤمنين ، ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم ؟

الأحكام العملية التى جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هى أقل ماجاء فى القرآن ، وأن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى مافيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة ، و إرشادها الى طريقة الحياة الإجتماعية : ما لايستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ وما هو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيقى ، ولا يوجد هذا الإرشاد إلا فى القرآن ، وفيما أخذ منه ، كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب ، ولكن سلطان القرآن

على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره فى قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يساهمه فيه كلام ، كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ، ولم يفصح عنها عالم ولا إمام ، ثم إن أئمة الدين : قالوا إن القرآن سيبقى حجة على كل فرد من أفراد البشر إلى يوم القيامة . ومن أدلة ذلك حديث « والقرآن حجة لك أو عليك » ولا يعقل إلا بفهمه ، والإصابة من حكمته وحكمه .

خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل ، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية فى أشخاصهم ، بل لأنهم من أفراد النوع الانسانى ، الذى أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم » فهل يعقل أنه يرضى منا بأن لا نفهم قوله هذا ونكتفى بالنظر فى قول ناظر نظر فيه ، لم يأتنا من الله وحى بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلا ؟ كلا إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لا فرق بين عالم وجاهل . يكفى العامى من فهم قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الخ : مايعطيه الظاهر من الآيات ، وأن الذين جمعت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ، ويكفى فى معرفة الأوصاف : أن يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو ، وما لا خير فيه والإقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية ، وبذل المال فى الزكاة والوفاء بالعهد ، وصدق الوعد ، والعفة عن إتيان الفاحشة ، وأن من فارق هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المعتدى حدود الله ، المتعرض لغضبه ، وفهم هذه المعانى مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان ، ومن أهل أى لغة كان . ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر . فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل

أنواع الضعف الذى نحن عليه . وهناك مرتبة تعلو على هذه وهى من فروض الكفاية .

للتفسير . مراتب أدناها : أن يبين بالإجمال مايشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير . وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدّكر ؟ »

وأما المرتبة العليا فهى لاتتم إلا بأمور :

(أحدها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك « لفظ » التأويل : اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى « هل ينظرون إلا تأويله ؟يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » فما هذا التأويل ؟ [1] يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ؛ ليفرق بينها وبين ماورد فى الكتاب . فكثيرا مايفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى [2] . فعلى المدقق

---

(١) لا أتذكر أن الاستاذ الامام ذكر معناه عند التمثيل، وهو العاقبة ، وما يعد به ـ أى القرآن ـ من المثوبة والعقوبة،أى مايؤول إليه الأمر فى وعده ووعيده ويراجع تحقيق ذلك فى تفسير التأويل والمتشابهات من أول سورة آل عمران

(٢) من ذلك : لفظ «الولى» معناه فى القرآن غالبا الناصر والموالى. وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى. قد اصطلحوا بعد ذلك على أن الاولياء=

أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله . والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ماتكرر فى مواضع منه وينظر فيه،فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ « الهداية » ــ سيأتى تفسيره فى الفاتحة ــ وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية . فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه ببعض ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ : موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

(ثانيها) الأساليب . فينبغى أن يكون عنده من علمها مايفهم به هذه الأساليب الرفيعة . وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم إننا لانتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام . ولكن يمكننا فهم مانهتدى به بقدر الطاقة . ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لايفيد المطلوب . ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ، أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا ، وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة . ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم ، عند ما اختلطوا بهم . ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة .

(ثالثها) علم أحوال البشر — فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله

= صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون فى الكون بما وراء الاسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعنى

آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه فى غيره . بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم ، والسنن الإلهية فى البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها . فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم ، وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف . وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير . علويه وسفليه ، ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه .

قال الأستاذ الإمام : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى « ٢ : ٢١٢ . كان الناس أمة واحدة . فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » الآية ـ وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ؟ وما معنى تلك الواحدة التى كانوا عليها ؟ وهل كانت نافعة أم ضارة ؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم (*)

أجمل القرآن . الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما ، وأمرنا بالنظر والتفكر ، والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره . لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة .

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن . فيجب على المفسر

(*) كتب الأستاذ الامام رحمه الله تعالى تفسيرا لهذه الآية ، جاء فيه بما لا يوجد فى كتاب . ونشر فى الجزء الثانى من مجلد المنار الثامن ، أى مجلد سنة ١٣٢٣ ويراجع فى الجزء الثانى من التفسير

القائم بهذا الفرض الكفائى : أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم . لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة ، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ هل يكتفى من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد . بأن يقولوا تقليداً لغيرهم : إن الناس كانوا على باطل ، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة ؟ **كلا** .

وأقول الآن : يروى عن عمر (رض) أنه قال « إنما تنقض عُرَى الاسلام عروة عروة : إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » والمراد أن من نشأ فى الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيرا لأحوال البشر ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور ، ومن جهل هذا يظن أن الاسلام أمر عادى . كما ترى بعض الذين يتربون فى النظافة والنعيم يعدون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو . لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟

(خامسها) العلم بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها .

فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان :

(أحدهما) جاف مبعد عن الله وعن كتابه ، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيراً ، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرها .

و (ثانيهما) وهو التفسير الذى قلنا : إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية . هو الذى يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها ، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام . على الوجه الذى يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ليتحقق فيه معنى قوله « هدى ورحمة » ونحوها من الأوصاف . فالمقصد الحقيقى وراء كل تلك الشروط والفنون : هو الاهتداء بالقرآن .

قال الأستاذ الامام : وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير .

وتكلم الاستاذ الامام أيضاً عن التفسير والتأويل فى اصطلاح العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثاله : مثل الناطقين بالعربية الآن ــ من العراق إلى نهاية بلاد مراكش ــ بالنسبة إلى العرب فى لغتهم كمثل قوم من الأعاجم المخالطين للعرب ، وجد فى كلامهم ــ بسبب المخالطة ــ مفردات من العربية . فهؤلاء الأقوام أشد حاجة إلى التفسير ، وفهم القرآن من المسلمين الأولين ، ولاسيما من كانوا فى القرن الثالث حيث بدىء بكتابة التفسير وأحسّ المسلمون بشدة حاجتهم إليه ، ولا شك أن من يأتى بعدنا يكون أحوج منا إلى ذلك إذا بقينا على تقهقرنا ، ولكن إذا يسر الله لنا نهضة لإحياء لغتنا وديننا فربما يكون من بعدنا أحسن حالا منا .

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون: هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن (٤ : ٨١ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر

عليه أفهامهم فى العلم بمعانى الكتاب . ثم يبثونه فى الناس ويحملونهم عليه . ولكنهم لم يطلبوا ذلك ، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ، ويمارون فيها من يباريهم فى طلبها ، ولا يخرجون لاظهار البراعة فى تحصيلها عن حد الإكثار من القول ، واختراع الوجوه من التأويل ، والإغراب فى الإبعاد عن مقاصد التنزيل ، إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا ، وعن سنة نبيه الذى بين لنا ما نزل إلينا (١٦ : ٤٤ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم) يسألنا هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بُلِّغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم ؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن ، واهتديتم بهدى النبى واتبعتم سنته ؟ عجبا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن فى هذا الإعراض عن القرآن وهديه ، فيا للغفلة والغرور .

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى : أول ما يلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالى ، هو اسم « الله » تبارك وتعالى ، يتعلمه بالأيمان الكاذبة كقوله : والله لقد فعلت كذا وكذا ، والله ما فعلت كذا ، وكذلك القرآن يسمع الصبى ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ، ولا يعقل معنى ذلك ، ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم . وذلك بأمرين .

(أحدهما) اعتقاد أن آية كذا إذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى ، وأن من حمل القرآن ، لا يقربه جن ولا شيطان ، ويبارك له فى كذا وكذا ، إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة ، أكثر مما هو معروف للخاصة ، ومع صرف النظر عن صحة هذا

وعدم صحته نقول : إن فيه مبالغة فى التعظيم عظيمة جداً ولكنها (ويا للأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذى يؤخذ من بعض الأضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها. أقول: ونحو هذا مايعلق على الأطفال من التعاويذ والتناجيس[١] كالخرق والعظام والتمائم المشتملة على الطلسمات والكلمات الأعجمية ، المنقولة عن بعض الأمم الوثنية ، هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه ـ إذا جرينا على سنة القرآن ـ عبادة للقرآن لا عبادة لله به

(ثانيهما) الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التى تصدر ممن يسمعون القرآن، إذا كان القارئ رخيم الصوت حسن الأداء عارفا بالتطريب على أصول النغم . والسبب فى هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم ، بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن . وأعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها ، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافًّا لم يصحبه ذلك الذوق، ومايتبعه من رقة الشعور ، ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر ، والفهم والتدبر .

لهذا كله يمكننا أن نقول: إن الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم، لأن من أولئك من قال الله تعالى فيهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ومعرفة الحق أمر عظيم شريف نعم ربما كان إثم صاحبها مع

---

(١) التعاويذ: جمع تعويذة ويقال عوذ جمع عوذة (كغرفة وغرف) وهو الرقية وما يعلق من كتابة وغيرها على الانسان للوقاية من العين والجن والفزع ، ومثلها التناجيس : جمع تنجيس وتسمى العرب المعوذ الذى يعلق هذه الاشياء المنجس (بكسر الجيم المشددة) والمعلقة عليه المنجس (بفتحها)

الجحود أشد ، ولكنه يكون دائماً ملوماً من نفسه على الإعراض عن الحق . وهذا اللوم يزلزل ما فى نفسه من الإصرار على الباطل .

كان البدوى راعى الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور ، فهل يقاس هذا بأى متعلم اليوم ؟ أرأيت أهل جزيرة العرب ، كيف انضووا إلى الإسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من دقة الفهم ، التى كانت سبب الانجذاب إلى الحق . وأشار الأستاذ الإمام هنا إلى البنت الاعرابية التى فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين و بشارتين . ومجمل الخبر : أن الأصمعى قال : سمعت بنتاً من الأعراب خماسية أو سداسية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله   قتلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم فى دَلِّه   وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى (٢٧ : ٧ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين و بشارتين.

لما رأى علماء المسلمين فى الصدر الأول تأثير القرآن فى جذب قلوب الناس إلى الإسلام ، وأن الإسلام لا يحفظ إلا به ، ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم ، وفهم من دخل فى الإسلام من الأعاجم ما فهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ اللغة العربيــة ، ودونوا لهـا الدواوين ووضعوا لها الفنون . نعم إن الاشتغال بلغة الأمــة وآدابها فضيلة فى نفسه ومادة من مواد حياتها ، ولا حياة لأمة ماتت لغتها . ولكن لم يكن هذا وحده هو

الحامل لسلف الأمة على حفظ اللغة بمفرداتها وأساليبها وآدابها ، وإنما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا .

ألف العلامة الاسفرائيني كتاباً في الفرق ختمه بذكر أهل السنة ومزاياهم وعد من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق: التبريز في اللغة وآدابها، وبين ذلك بأجلى بيان . فأين هذه المزايا اليوم ، وأين آثارها في فهم القرآن ؟ بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ ! وقد بينا وجه الحاجة في التفسير إلى تحصيل ملكة الذوق العربي ، وإلى غير ذلك من الأمور التي يتوقف عليها فهم القرآن اهـ

أقول الآن : إن القرآن هو حجة الله البالغة على دينه الحق ، فلا بقاء للاسلام إلا بفهم القرآن فهما صحيحا ، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللغة العربية ، فإن كان باقيا في بعض بلاد الأعاجم فإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم ، وببقاء ثقة العامة بهم وبما يقولونه تقليداً لهم فيه ، أو بعدم عروض الشبه لهم من دعاة الأديان الأخرى ، مع تأثير الوراثة والتقليد من قبيل مايسمى في العلم الطبيعي : بحركة الاستمرار ، ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها كما تقدم وكان العلم والدين في أوج القوة ، بحياة اللغة العربية .

كان جميع من دخل في الإسلام يشعر بأنه صار أخاً لجميع المسلمين وأن أمته هي الأمة الإسلامية ، لا العربية ولا الفارسية ولا القبطية ولا التركيه . . . كما قال تعالى (٢١ : ٩٢ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ومن البديهي أن وحدة الأمة لا تتم إلا بوحدة اللغة ، ولا لغة تجمع المسلمين وتربطهم إلا لغة الدين الذي جعلهم بنعمة الله إخواناً ، وهي العربية التي لم تعد خاصة بالجنس العربي إذا نظرنا إلى الأجناس (المعبر عنهم في

إصطلاح المنطق بالأصناف) من جهة أنسابهم وأوطانهم . ولهذا كان يجتهد مسلمو العجم فى خدمة هذه اللغة كما يجتهد مسلمو العرب بلا فرق، ويعدونها لغتهم لأنها لغة القرآن التى تقوم بها حجته ، وهم من أمة القرآن كالعرب بلا فرق . قال تعالى (٤٩ : ١٣ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم)وفى حديث جابر عند البيهقى وابن مردويه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع فى وسط أيام التشريق « يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى » إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ ـ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال ـ فليبلغ الشاهد الغائب »

ثم حدثت فى الإسلام عصبية الجنسية الجاهلية التى حرمها الاسلام وشدد فى منعها ، بعد أن ضعف العلم والدين فى المسلمين بضعف اللغة العربية فيهم ، حتى قام بعض الأعاجم فى هذه السنين الأخيرة يدعون قومهم إلى ترجمة القرآن بلغتهم والاستغناء عن القرآن العربى . زاعماً أن الاسلام دين ليس له لغة . وغلا بعض هؤلاء فى بغض العربية فدعا مسلمى قومه إلى الأذان والصلاة والخطبة بلغتهم وقد أجمع المسلمون بالعمل على إقامة هذه الشعائر الاسلامية بلغة الاسلام العربية إلى اليوم ، وكان من عاقبة هذا الضعف فى العلم والدين: أن بعض المسلمين فى بلاد الأعاجم (كجاوه) التى يقل فيها العلماء العارفون بالدين ولغته، القادرون على دفع الشبه عن القرآن: صاروا يرتدون عن الاسلام لإيضاع دعاة النصرانية خلالهم ، وسؤالهم الفتنة بالتشكيك فى القرآن والطعن فيه . وأين من يفهمه ويدافع عنه هناك ؟ ومنهم من صار

يفخر بسلفه من الوثنيين والمجوس حتى بفرعون الذى لعنه الله فى جميع كتبه

أمرنا الله تعالى أن نتدبر القرآن ونعتبر به ونتذكر ونهتدى ، وأن نعلم مانقوله فى صلاتنا من آياته وأذكاره ، وأكد هذه المسائل فى آيات كثيرة والامتثال لها والعمل بها لايكون إلا بفهم العربية الفصحى . ومالايتم الواجب إلا به واجب . وجعل الله تعالى القرآن معجزا للبشر ، ولا تقوم حجته فى هذا عليهم إلا بفهمه ، ولا يمكن فهمه إلا بفهم العربية الفصحى ، فمعرفة العربية من ضروريات دين الاسلام ، ندعو إليها جميع المسلمين بدعائهم إلى القرآن .

و إننا نعتقد أن المسلمين ماضعفوا وزال ماكان لهم من الملك الواسع إلا بإعراضهم عن هداية القرآن ، و إنه لايعود إليهم شىء مما فقدوا من العز والسيادة والكرامة إلا بالرجوع إلى هدايته ، والاعتصام بحبله ، كما يرون ذلك مبينا فى تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه ، ولا يتم لهم ذلك إلا بالاتفاق على إحياء لغته . فالدعاء له دعاء لها (٨ : ٢٤ ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم لما يحييكم . واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون ٢٥ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ٢٦ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) وبالشكر تدوم النعم ، وكفرها مجلبة النقم ، ولذلك أرشدنا الله فى فاتحة كتابه إلى الدعاء بأن يهدينا صراط المنعم عليهم من الشاكرين ، وها نحن أولاء نبدأ بالمقصود بعون الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

(١)

هذه السورة مكية وآياتها سبع . والفرق بين السور المكية والمدنية : هو أن المكية أكثر إيجازا لأن المخاطبين بها هم أبلغ العرب وأفصحهم، وعلى الإيجاز مدار البلاغة عندهم ، ثم إن معظمها تنبيهات وزواجر و بيان لأصول الدين بالإجمال وقد قلت فى مقدمة الطبعة الثانية لمجلد المنار الأول فى أسلوب السور المكية ما نصه:

إن أكثر السور المكية لا سيما المنزله فى أوائل البعثة قوارع تصخ الجنان ، وتصدع الوجدان ، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف ، وتدعّ العقول إلى إطالة الفكر، فى الخطبين الغائب والعتيد، والخطرين القريب والبعيد ،وهما عذاب الدنيا بالإبادة والاستئصال ، أو الفتح الذاهب بالاستقلال ، وعذاب الآخرة وهو أشد وأقوى ، وأنكى وأخزى ، بكل من هذا وذاك أنذرت السور المكية أولئك المخاطبين إذا أصروا على شركهم ، ولم يرجعوا بدعوة الإسلام عن ضلالهم و إفكهم ، و يأخذوا بتلك الأصول المجملة ، التى هى الحنيفية السمحة السهلة ، وليست بالشيء الذى ينكره العقل ، أو يستثقله الطبع ، و إنما ذلك تقليد الآباء والأجداد، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد ،

راجع تلك السور العزيزة،ولاسيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة ،والقارعة ما القارعة ، و إذا وقعت الواقعة ، و إذا الشمس كورت ، و إذا السماء انفطرت ، و إذا السماء انشقت ،و إذا زلزلت الأرض زلزالها ،والذاريات ذروا ، والمرسلات عرفا ، والنازعات غرقا

تلك السور التى كانت بنذرها ، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها ، تفزعهم من سماع القرآن ، حتى يفروا من الداعى (ص) من مكان إلى مكان (٧٤ : ٥٠ كأنهم حمر مستنفرة ٥١ فرت من قسورة) _ (١١ : ٥ ألا إنهم يثنون صدورهم

ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون) ثم إلى السور المكية الطوال ، فلا نجدها تخرج فى الأوامر والنواهى عن حد الاجمال ، كقوله عز وجل (١٧ : ٢٣ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ـ إلى ٣٧ منها ، وقوله بعد إباحة الزينة وانكار تحريم الطيبات من الرزق (٧ : ٣٢ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

وأما السور المدنية ففى أسلوبها شىء من الاسهاب، ولا سيما فى مخاطبة أهل الكتاب، لأنهم أقل بلاغة وفهما من العرب الأصلاء ، ولا سيما قريش ، وما فيها من الكلام فى أصول الدين أكثره محاجة لهم ـ لأهل الكتاب ـ ونعى عليهم ، و إثبات لتحريفهم ما نزل إليهم ، وابتداعهم فيه وإعراضهم عن هدايته، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ، ودعوة لهم إلى التوحيد الخالص توحيد الألوهية والربوبية ، و بيان لكون الإسلام الذى جاء به القرآن ،هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وفى هذه السور المدنية أيضا بيان لما لا بد منه من الأحكام العملية فى العبادات والمعاملات ، الشخصية والمدنية والسياسية والحربية ، ولأصول الحكومة الإسلامية والتشريع فيها، كما تراه فى طوال المفصل منها ، كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة.

وقد اختلف العلماء فى المكى والمدنى من السور. فقيل: المكى مانزل فى شأن أهل مكة، و إن كان نزوله فى أهل المدينة. والمدنى غيره، وقيل المكى : مانزل بمكة ولو بعد الهجرة ، كالذى نزل فى عام الفتح وفى حجة الوداع ، والصحيح الذى عليه الجمهور: أن المكى مانزل قبل الهجرة، والمدنى مانزل بعدها، سواء نزل بالمدينة نفسها أو ضواحيها أو فى مكة عام الفتح وعام حجة الوداع ، أو فى غزوة من الغزوات .
فالسور المكية : هى التى نزلت فى أول الاسلام لأجل الدعوة إليه ، ولبيان أساس الدين وكلياته، من الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، ومن ترك الشرور والمعاصى والمنكرات المعروفة للناس بعقولهم وفطرتهم ،وفعل الخيرات والمعروف بحسب الرأى والاجتهاد الموكول إلى القلوب والضمائر . والسور المدنية هى التى

نزلت بعد الهجرة وكثرة المسلمين وتكون جماعتهم ببيان الأحكام التفصيلية كما قلنا آنفا ، وسترى ذلك مفصلا فى القسمين تفصيلا

والسورة : طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر ، لها اسم معروف بالتوقيف والرواية الثابتة بالأحاديث والآثار ، قيل إن اسمها مشتق من السور الذى يحيط بالبلد . وقيل : من السؤر المهموز ، ومعناه البقية ، و بقية كل شىء جزء منه فالمراد بها جزء معين من القرآن . وقيل : من التسور ، وهو العلو والارتفاع

وقد رويت أسماء السور عن الصحابة مرفوعة وموقوفة، ولكنهم لم يكتبوها فى مصاحفهم لأنهم لم يكتبوا فيها إلا ألفاظ التنزيل، لئلا يتوهم أحد من الناس إذا هم زادوا شيئا ـ كأسماء السور أو لفظ « آمين » بعد الفاتحة ـ أنه من التنزيل

هذا ـ ولفظ « الفاتحة » صفة مؤنث الفاتح. قال الأستاذ الإمام: سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن فى هذا الترتيب (وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب . وقالوا إن حديث النهى عن تسميتها هذا الاسم موضوع . ثم قال : يتكلمون عند الكلام عن السور على المكى والمدنى ، وهو يفيد فى معرفة الناسخ والمنسوخ ، وهى مكية خلافا لمجاهد ، فالإجماع على أن الصلاة كانت بالفاتحة لأول فرضيتها . ولا ريب أن ذلك كان فى مكة . وقالوا هى المراد بالسبع المثانى فى قوله تعالى (١٥ : ٨٧ ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) وهو مكى بالنص . وقال بعضهم : إنها نزلت مرتين ، مرة بمكة عند فرضية الصلاة ، وأخرى بالمدينة حين حولت القبلة ،وكأن صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين . وليس بشىء . وقال كثيرون إنها أول سورة أنزلت بتمامها .

أقول الآن: ذكر الحافظ السيوطى فى الاتقان أربعة أقوال فى أول ما أنزل (أحدها) « ٩٦ اقرأ باسم ربك » رواه الشيخان وغيرهما من حديث عائشة (ثانيها) « ٧٤ يا أيها المدثر » رواه الشيخان عن سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله . وجمعوا بين القولين بأن الأول هو أول ما نزل على الاطلاق ، وهو صدر سورة اقرأ. والثانى أول سورة نزلت بتمامها أو الثانى أول ما نزل بعد فترة الوحى آمرا بتبليغ الرسالة . وقيل فى الجمع غير ذلك كما فى الاتقان (ثالثها) سورة الفاتحة قال

فى الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت (اقرأ) وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب (قال السيوطى) وقال ابن حجر والذى ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول. وأما الذى نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول . وحجته ما أخرجه البيهقى فى الدلائل والواحدى من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة « انى إذا خلوت وحدى سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا . فقالت معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث» — وفى الحديث أنه أخبر ورقة بذلك، وأن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء وأنه ﷺ لما خلا ناداه ـ أى الملك ـ « يا محمد قل: بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين — حتى بلغ — ولا الضالين » قال السيوطى فى الحديث : هذا مرسل رجاله ثقات ، ونقل عن البيهقى احتمال أن هذا بعد نزول صدر « اقرأ باسم ربك »

هذا — وأما الأستاذ الإمام فقد رجح أنها أول ما نزل على الاطلاق، ولم يستثن قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » ونزع فى الاستدلال على ذلك منزعا غريبا فى حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله .

ومن آية ذلك : أن السنة الإلهية فى هذا الكون ـ سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع ـ أن يظهر سبحانه الشيء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهى فى بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع أصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن، وكل ما فيه تفصيل للاصول التى وضعت فيها. ولست أعنى بهذا ما يعبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف، كقولهم إن أسرار القرآن فى الفاتحة ، وأسرار الفاتحة فى البسملة، وأسرار البسملة فى الباء وأسرار الباء فى نقطتها. فان هذا لم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم

الرضوان ولا هو معقول فى نفسه و إنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصته وهى البيان

(قال) و بيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور (أحدها) التوحيد لأن الناس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدعى التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ووعيد من لم يأخذ به وانذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للامة وما للافراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزى والشقاء فى الدنيا كما وعد بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة (ثالثها) العبادة التى تحيى التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله فى البشر

هذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب فأما التوحيد ففى قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربية والانماء وهو صريح بأن كل نعمة يراها الانسان فى نفسه وفى الآفاق منه عز وجل فليس فى الكون متصرف بالايجاد ولا بالاشقاء والاسعاد سواه

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الاشارة إليه بل استكمله بقوله (إياك نعبد و إياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم وهى اتخاذ أولياء من دن الله تعتقد لهم

السلطة الغيبية و يدعون لذلك من دون الله و يستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا و يتقرب بهم إلى الله زلفى وجميع مافى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الاجمال

وأما الوعد والوعيد : فالأول منهما مطوى فى « بسم الله الرحمن الرحيم » فذكر الرحمة فى أول الكتاب — وهى التى وسعت كل شىء — وعد بالاحسان وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معا لأن معنى الدين الخضوع أى أن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لانزاع فيها لاحقيقة ولا ادعاء وأن االعالم كله يكون فيه خاضعا لعظمته ظاهرا و باطنا يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن و إما عقاب للمسىء وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذى من سلكه فاز ومن تنكبه هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

وأما العبادة فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله (إياك نعبد و إياك نستعين) أوضح معناها بعض الإيضاح فى بيان الأمر الرابع الذى يشملها و يشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم) أى أنه قد وضع لنا صراطا سيبينه و يحدده وتكون السعادة فى الاستقامة عليه ، والشقاوة فى الانحراف عنه ، وهذه الاستقامة عليه هى روح العبادة و يشبه هذا قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالتواصى بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لها وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكفّ وحركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلا ما و إنما الحركات

والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة، ومخ العبادة الفكر والعبرة .

وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هناك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم .وصائح يصيح ألا فانظروا في الشئون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » حيث بين أن القصص إنما هي للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان فريق ضل عن صراط الله وفريق جاحده وعاند من يدعو إليه فكان محفوفا بالغضب الإلهي والخزى في هذه الحياة الدنيا . و باقي القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا الاجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عنادا ، والذين ضلوا فيه ضلالا ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله.

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت اجمالا على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلا فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى في الابداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول إن النواة أم النخلة فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولا و يأتي بعدها الأولاد

وأقول الآن : هذا ماقاله الأستاذ الإمام مبسوطا موضحا و يمكن أن يقال إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي بينها لأنه تمهيد للوحي المجمل والمفصل خاص بحال النبي ﷺ و إعلام له بأنه يكون وهو أمي قارئا بعناية الله تعالى ومخرجا للأميين من أميتهم إلى العلم بالقلم أي الكتابة وفي ذلك استجابة لدعوة إبراهيم (٢:١٢٨ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم) فسر الأستاذ الإمام الكتاب بالكتابة ثم كانت الفاتحة أول سورة نزلت كاملة وأمر النبي بجعلها أول القرآن وانعقد على ذلك الاجماع

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٤) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٥) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٦) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٧) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

لا أذكر ما قاله الأستاذ الإمام فى البسملة من حيث لفظها وإعرابها وهل هى آية أو جزء آية من الفاتحة أو ليست منها فإن الخلاف فى ذلك مشهور وقد اختصر الأستاذ القول فيه اختصاراً وقال : إنها على كل حال من القرآن فنتكلم عليها كسائر الآيات.

وأقول الآن : أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل . واختلفوا فى مكانها من سائر السور فذهب إلى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة فقهائهم وقرائهم ومنهم ابن كثير ، وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائى من القراء ، وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة والشافعى فى الجديد واتباعه والثورى وأحمد فى أحد قوليه والإمامية ومن المروى عنهم ذلك من علماء الصحابة علىّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهرى وابن المبارك ، وأقوى حججهم فى ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها فى المصحف أول كل سورة سوى سورة براءة (التوبة) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه ، ولذلك لم يكتبوا (آمين) فى آخر الفاتحة ، وأحاديث منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنزلت علىّ آنفا سورة فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم » وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة - وفى رواية انقضاء السورة - حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرجه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الدارقطنى من حديث أبى هريرة قال « قال رسول الله ﷺ إذا قرأتم الحمد لله (أى سورة الحمد لله) فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فانها أم القرآن والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » وذهب مالك وغيره من علماء المدينة والأوزاعى وغيره من علماء الشام وأبو عمرو ويعقوب من قراء البصرة إلى أنها آية مفردة أنزلت لبيان رءوس السور والفصل بينها وعليه الحنفية ، وقال حمزة من قراء الكوفة وروى عن أحمد أنها آية من الفاتحة دون غيرها ، وثمة أقوال أخرى شاذة

هذا - وقد قال الأستاذ الإمام : القرآن إمامنا وقدوتنا فافتتاحه بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها فما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فانها مطلوبة لذاتها

أقول الآن : الاسم هو اللفظ الذى يدل على ذات من الذوات كحجر وخشب وزيد أو معنى من المعانى كالعلم والفرح . وقال ابن سيده هو اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض . وقال الراغب الاسم مايعرف به ذات الشىء وأصله . وقال كثيرون أنه مشتق من السمو وأن أصله سمو لأن تصغيره سمى وجمعه أسماء . والسمو العلو كأن الاسم يعلو مسماه بكونه عنوانا له ودليلا عليه . وقال آخرون إنه من السمة وهى العلامة وأصله وسم . وقال بعض الباحثين فى الكلام والفلسفة إن الاسم يطلق على نفس الذات والحقيقة والوجود والعين وهى عندهم أسماء مترادفة . وهذا القول ليس من اللغة فى شىء ولا هو من الفلسفة النافعة بل من الفلسفة الضارة وإن قال الألوسى بعد نقله عن ابن فورك والسهيلى « وهما ممن يعض عليه بالنواجذ » بل لا ينبغى أن يذكر مثل هذا القول إلا لأجل النهى عن إضاعة الوقت فى قراءة ما بنى عليه من السفسطة فى إثبات قول القائلين إن

الاسم عين المسمى وقد كتبوا لغواً كثيرا فى هذه المسألة وقلما ترى أحداً رضى كلام غيره فيها ولكن قد يرضيه كلام نفسه الذى يؤيد به ما لم يفهمه من كلام غيره

والحق أن الاسم هو اللفظ الذى ينطق به لسانك و يكتبه قلمك كقولك : الشمس أو زيد أومكة . والمسمى هو الكوكب المعروف أوالشخص المعين أوالبلد المحدد ، وقد يكون بعيدا عنك عند إطلاق الإسم . ولفظ « اسم » إسم لهذا النوع من اللفظ الذى يدل على الجواهر والاعراض دون الاحداث التى تسمى فى النحو أفعالا . ومدلوله مثل مدلول لفظ إنسان يطلق على أفراد كثيرة كلفظ « الشمس » الذى تنطق به وتكتبه ، ولفظ « زيد» ولفظ مكة ، وغيرذلك من أسماء الموجودات . فالاسم غير المسمى فى اللغة وقد أخطأ من نسب إلى سيبويه غير هذا كما قال ابن القيم بل قال فى كتابه (بدائع الفوائد) ما قال نحوى قط ولا عربى أن الاسم عين المسمى ، وذكر بعض من قال باتحاد الاسم والمسمى بالتسمية و بين الخطأ فى ذلك . وأن معنى « سبح اسم ربك الأعلى » سبح ربك ذاكراً اسمه الأعلى ومعنى « سبح باسم ربك » سبحه ناطقا باسمه العظيم .

ومنشأ الاشتباه عند بعضهم أن الله تعالى أمرنا بذكره وتسبيحه فى آيات و بذكر اسمه وتسبيح اسمه فى آيات أخرى : فقال تعالى (٧٣ : ٨ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * ٧٦ : ٢٣ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ٢٢ : ٤٠ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ٦ : ١١٨ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ١١٩ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه * ٢٢ : ٣٦ فاذكروا اسم الله عليها صوافّ) أى البدن عند نحرها : وقال تعالى (٣٣ : ٤٠ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا ٤١ وسبحوه بكرة وأصيلا * ٢ : ١٢٧ فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم — فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا * ٣ : ١٩٠ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون فى خلق السموات والأرض * ٤ : ١٠٢ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم) وقال تعالى فى التسبيح (٧ : ٢٠٥ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته

ويسبحونه وله يسجدون) أى يسبحون ربك فعدى التسبيح بنفسه إلى ضمير الرب كما عدّاه بنفسه إلى اسم الرب فى قوله تعالى (٨٧ : ١ سبح اسم ربك الأعلى) وبالباء فى قوله (٥٦ : ٩٦ فسبح باسم ربك العظيم) وقال (٥٧ : ١ سبح لله ما فى السموات والأرض) ومثله كثير . وقال تعالى (فتبارك الله * ٢٥ : ١ تبارك الذى نزل الفرقان) كما قال (٥٥ : ٧٨ تبارك اسم ربك)

رأى بعضهم أن يجمع بين هذه الآيات بجعل الاسم عين المسمى ، وأن ذكر الله وذكر اسمه وتسبيحه وتسبيح اسمه واحد، لأن اسمه عين ذاته ، وأن هذا خير من القول بأن لفظ « اسم » مقحم زائد . والصواب أن الذكر فى اللغة ضد النسيان وهو ذكر القلب ولذلك قرنه بالتفكر فى سورة آل عمران (٣ : ١٩٠) وهما عبادتان قلبيتان ، وقال (١٨ : ٢٤ واذكر ربك إذا نسيت) ويطلق الذكر أيضا على النطق باللسان لأنه دليل على ذكر القلب وعنوان وسبب له ، وإنما يذكر اللسان اسم الله تعالى كما يذكر من كل الأشياء أسماءها ، دون ذوات مسميات ، فإذا قال نار لا يقع جسم النار على لسانه فيحرقه ، وإذا قال الظمآن « ماء » لا يحصل مسمى هذا اللفظ فى فيه فينقع غلته ، فذكر الله تعالى فى القلب هو تذكر عظمته وجلاله وجماله ونعمه ، وورد التصريح بالأمر بذكر نعمة الله وآلاء الله . وذكره باللسان هو ذكر أسمائه الحسنى وإسناد الحمد والشكر والثناء إليها ، وكذلك تسبيحه تعالى ، فالقلب يسبحه باعتقاد كماله وتذكر تنزيهه عما لا يليق به ، واللسان يسبحه بإضافة التسبيح إلى أسمائه من غير ذكر للفظ الاسم . روى أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم فى مستدركه وابن حبان فى صحيحه عن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فسبح اسم ربك العظيم » قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوها فى ركوعكم » فلما نزلت « سبح اسم ربك الأعلى » قال « اجعلوها فى سجودكم » والمراد أن يقولوا « سبحان ربى العظيم » « لا سبحان اسم ربى العظيم » فقد روى أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذى عن حذيفة قال صليت مع النبى ﷺ فكان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده «سبحان ربى الأعلى» . ولهذا ورد فى الكلام عن الذبائح ذكر اسم الله عليها « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه» وتقدم آنفا

ذكر عدة آيات فى هذا ـ فعلم من هذا التحقيق أن الاسم غير المسمى وأن ذكر الاسم مشروع ، وذكر المسمى مشروع ، والفرق بينهما ظاهر كالصبح ، وكذلك التسبيح والتبارك ، فكما يعظم الله يعظم اسمه الكريم ، فيذكر مقرونا بالحمد والشكر والثناء والتقديس . وقد صرحوا بأن تعمد إهانة أسماء الله تعالى فى اللفظ والكتابة كفر لأنه لا يمكن أن يأتى من مؤمن اهـ ما زدته الآن

وقال الأستاذ الامام مامعناه : عند ماتقول إنى أذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم لا تعنى أنك تذكر لفظ « اسم » فلو كان قولهم إن المراد من الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله : هو الصواب لكان ينبغى أن يكون قولك « بالله الرحمن الرحيم » مثل « بسم الله الرحمن الرحيم » وقوله تعالى « باسم الله مجراها ومرساها » وقد قال بعضهم إن الإضافة ههنا للبيان أى أفتتح كلامى باسم الله ولكن يقتضى أن يكون لفظ « الرحمن الرحيم » واردا على اللفظ وهو غير صحيح . و إرادة أن الأسماء الثلاثة هى المبينة للفظ الاسم محل ظاهر فما المقصود إذاً من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخا عنه ، يقول أعمله باسم فلان و يذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان لأن اسم الشيء دليل وعنوان عليه ، فإذا كنت أعمل عملا لا يكون له وجود ولا أثر ، لولا السلطان الذى به أمر ، أقول إن عملى هذا باسم السلطان ، أى إنه معنون باسمه ولولاه لما عملته . فمعنى ابتدئ عملى (بسم الله الرحمن الرحيم) أننى أعمله بأمره له لا لى ولا أعمله باسمى مستقلا به على أنني فلان . فكأنى أقول إن هذا العمل لله لا لحظ نفسى . وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التى أنشأت بها العمل هى من الله تعالى فلولا ما منحنى منها لم أعمل شيئا ، فلم يصدر عنى هذا العمل إلا باسم الله ولم يكن باسمى إذ لولا ما آتانى من القوة عليه لم أستطع أن آتيه . وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر . وحاصل المعنى أنى أعمل عملى متبرئاً من أن يكون باسمى بل هو باسمه تعالى لأننى أستمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه

عليه ، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله ، بل وما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ الإسم معناه مراد ، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضا ، وكذلك كل من لفظ الرحمن الرحيم . وهـذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات . وأقرب به اليكم اليوم ما ترونه فى المحاكم النظامية حيث يبتدءون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان

ومعنى البسملة فى الفاتحة أن جميع ما يقرره فى القرآن من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شيء اه

أقول هذا صفوة ما قرره فى متعلق «باسم الله» ومعناها وههنا نظر آخر فيه وهو أن القرآن كان وحيا يلقيه الروح الأمين فى قلب النبي ﷺ وكل سورة منه مبتدأة ببسملة ، فمتعلق البسملة من ملك الوحى تعلم من أول آية نزل بها وهى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » فمعنى البسملة الذى كان يفهمه النبي ﷺ من روح الوحى : إقرأ يا محمد هذه السورة باسم الله الرحمن الرحيم على عباده أى اقرأها على أنها منه تعالى لا منك فإنه برحمته بهم أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه الخير لهم فى الدنيا والآخرة . وعلى هذا كان يقصد النبي ﷺ من متعلق البسملة إنى أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمى وعلى أنها منه لا منى فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل (٢٨ : ٩١ وأمرت أن أكون أول المسلمين ٩٢ وأن أتلو القرآن) الخ

اختصر الأستاذ الإمام فى الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لأن الكلام فيهما مشهور . وقد تكلمنا على اللفظ الأول وهاك جملة صالحة فى اللفظ الآخر العظيم :

لفظ الجلالة (الله) علم على ذات واجب الوجود قال : ابن مالك وضع معرفا وقيل أصله «إله» فحذفت همزته وأدخلت عليه الألف واللام ، وقيل أصله الإله ، والإله فى اللغـة يطلق على كل معبود ولذلك جمعوه على آلهة وما كل معبود سموه إلها يطلقون عليه اسم (الله) فإن هذا الاسم الكريم كان خاصا فى لغتهم بخالق السموات والأرض وكل شيء . فالتعريف فيه خصصه بالواحد الفرد الكامل كما جعلوا لفظ «النجم» بالتعريف خاصا بالثريا ، فكان العربى فى الجاهلية إذا سئل من خلقك أو من خلق السموات والأرض ؟ يقول « الله » وإذا سئل عن بعض

آلهتهم : هل خلقت اللات أو العزى شيئا من هذه الموجودات ؟ يقول « لا » وقد احتج القرآن عليهم باعتقادهم هذا كما يأتى فى محله . وإنما كانوا يتوسلون بها إلى الله ويعتقدون شفاعتها عنده.

قال بعض العلماء إن لفظ « إله » من أله بمعنى عبد فهو بمعنى معبود ككتاب بمعنى مكتوب ، يقال أله يأله إلاهة وألوهة وألوهية كما يقال عبد يعبد عبادة وعبودة وعبودية فهو صفة بمعنى اسم المفعول ، وقيل هو من أله بمعنى تحير وقيل من وَلِهَ بمعنى تحير . وهو إذا استشكل من جهة اللفظ لأنه تعالى منزه عن الحيرة يصح أن يقال من جهة المعنى ، والمراد أنه سبب الحيرة . لأن الناظرين إذا ارتقوا فى سلم أسباب التكوين ينتهون عند درجة الحيرة فى معرفة الموجد الأول الذى هو موجود بنفسه لا بسبب ولا علة سابقة عليه ، وبه وجد كل ما عداه ، لا يستطيعون الوصول إلى حقيقة هذا الموجود العظيم الذى لا يعقل وجود هذه الكائنات الممكنة إلا بوجوده ، حتى إن الملاحدة الماديين لما بحثوا فى أصل الموجودات ، وارتقوا إلى معرفة البسائط التى تركبت منها الكائنات ، قالوا إنه لابد أن يكون لها منشأ وحدة مجهول الذات ، ذو قوة وحياة

والحاصل أن اسم الجلالة « الله » علم على ذات البارى سبحانه وتعالى تجرى عليه الصفات ولا يوصف به . ولفظ «الإله» صفة . والجمهور على أن معناه الشرعى المعبود بحق ، ولذلك أنكر القرآن عليهم تسمية أصنامهم آلهة ، والتحقيق أنه أنكر عليهم تأليهها وعبادتها ، لا مجرد تسميتها ، وقد سماها هو آلهة فى قوله (١١ : ١٠٢ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) ولا يظهر فى هذه الآية قصد الحكاية

ومما يترتب على قولنا أن لفظ الجلالة (الله) علم يوصف ولا يوصف به أن أسماء الله الحسنى صفات تجرى على هذا الاسم العظيم ، ولكونها صفات وصفت بالحسنى . قال تعالى (٧:٧٩ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) وتسند إليه تعالى أفعال هذه الصفات فيقال : رحم الله فلانا ، ويرحمه الله ، واللهم ارحم فلانا ، وتضاف إليه مصادرها فيقال رحمة الله وربوبيته ومغفرته

(إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهذه الأسماء المشتقة كل منها يدل على ذات الله تعالى وعلى الصفة التى اشتق منها معا بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها أو الصفة بالتضمن ، ولكل منها لوازم يدل عليها بالالتزام ، كدلالة الرحمن على الاحسان والانعام ، ودلالة الحكيم على الاتقان والنظام ، ودلالة الرب على البعث والجزاء ، لأن الرب الكامل لايترك مربوبيه سدى ، ومن عرف الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، عرف أن اسم الجلالة الأعظم (الله) يدل عليها كلها وعلى لوازمها الكمالية وعلى تنزهه عن أضدادها السلبية ، فدل هذا الاسم الأعلى على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال ، وتنزهه عن جميع النقائص ، فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، اهـ ما أحببت زيادته الآن .

قال الأستاذ الامام مامعناه : والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهى معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان إلى غيره ، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر ، لأنه فى البشر ألم فى النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات ، فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال فى تفسيره وتبعه الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد وأن الثانى تأكيد للأول ، ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم وماهى إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها .

(قال) : وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه ان فى القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتى لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها فى نفسها معنى تستقل به . نعم قد يكون فى معنى الكلمة مايزيد معنى الأخرى تقريرا أو إيضاحا ولكن الذى لا أجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لاغير بحيث تكون من قبيل مايسمى بالمترادف فى عرف أهل اللغة . فان ذلك لا يقع إلا فى كلام من يرمى فى لفظه إلى مجرد التنميق والتزويق . وفى العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها وأما مايسمونه بالحرف الزائد الذى يأتى للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التى يؤكدها . فالباء فى قوله تعالى « وكفى بالله شهيدا » تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب

الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذى وضعت له ، ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك فى الإعراب وكذلك معنى « من » فى قوله « وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » ونحو ذلك . أما التكرار للتأكيد أو التقريع أو التهويل فأمر سائغ فى أبلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة فبأى آلاء ربكما تكذبان » ونحوها عقب ذكر كل نعمة . وهى عند التأمل ليست مكررة ، فان معناها عند ذكر كل نعمة : أفبهذه النعمة تكذبان . وهكذا كل ماجاء فى القرآن على هذا النحو

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ، ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها ، و بعضهم يقول إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين . وكل هذا تحكم فى اللغة مبنى على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقا فصفة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه سواء كان جليلا أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التى يدل عليها اللفظ الأكثر حروفا أعظم من أفراد الاحسان التى يدل عليها اللفظ الأقل حروفا ، فهو غير معنى ولا مراد . وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ فى تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين. ولعل الذى حمل من قال ان الثانى مؤكد للأول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه .

قال الأستاذ الامام : والذى أقول إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة كفعال وهو فى استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فعيل فانها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجايا فى الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لايخرج عن الأسلوب العربى البليغ فى الحكاية عن صفات الله عزوجل التى تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين . فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والاحسان ، ولفظ الرحيم يدل على منشإ هذه الرحمة والاحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لايستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثانى مؤكداً للأول ، فاذا سمع العربى وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا لا يعتقد

منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما . لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة و إن كان كثيراً ، فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعالى و يرضيه سبحانه ، و يعلم أن لله صفة ثابتة هى الرحمة التى عنها يكون أثرها ، و إن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، و يكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه ا هـ

أقول قد سبق العلامة ابن القيم إلى مثل هذه التفرقة ولكنه عكس فى دلالة الاسمين الكريمين . قال : وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف ، والثانى الفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته أى صفة ذات له سبحانه والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، أى صفة فعل له سبحانه ، فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما * إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجىء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته ، (قال رحمه الله تعالى) هذه النكتة لاتكاد تجدها فى كتاب ، و إن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها .

وقال فى كتاب آخر عند ذكر الاسمين الكريمين : وكرر أذانا (أى إعلاما) بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته ، فالرحمن الذى الرحمة وصفه ، والرحيم الراحم لعباده ، ولهذا يقول تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما * انه بهم رءوف رحيم) ولم يجىء رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين ، مع مافى اسم الرحمن الذى هو على وزن (فعلان) من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به . ألا ترى أنهم يقولون غضبان للمتلىء غضبا وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك فبناء فعلان للسعة والشمول ا هـ المراد منه .

أقول إن هذه الأمثلة تؤيد ماقاله الاستاذ الامام من أن صيغة (فعلان) تدل على الصفة العارضة ولاتدل على الدائمة فاحتيج إلى صيغة أخرى تدل على الصفة الثابتة الدائمة وهى صيغة (فعيل) فهذا أقوى ماقيل فى نكتة الجمع بين الاسمين الكريمين بالصيغتين . و يليه دلالة أحدهما على الرحمة بالقوة والآخر دلالة

عليها بالفعل . وهذا معنى آخر ألمّ به هذان الامامان ، ولكن ابن القيم جعل لفظ الرحيم هو الدال على الرحمة بالفعل بدليل الآيتين اللتين أوردهما ، ولفظ الرحمن هو الدال عليها بالقوة لعدم تعلق مثل ذلك الظرف به ، وهو قوى . وعكس محمد عبده وجعل ذلك من مدلول الصيغة باللزوم .

﴿ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

قالوا : إن معنى الحمد الثناء باللسان ، وقيدوه بالجميل لأن كلمة «ثناء» تستعمل فى المدح والذم جميعا ، يقال : أثنى عليه شراً ، كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « أل » التى فى الحمد هى للجنس فى أىّ فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص ، لأنه لا يصار إلى كلّ منهما فى فهم الكلام إلا بدليل وهو غير موجود فى الآية ، ومعنى كون الحمد لله تعالى بأى نوع من أنواعه هو أن أى شىء يصح الحمد عليه فهو مصدره وإليه مرجعه فالحمد له على كل حال .

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد — فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متصف بكل مايحمد عليه الحامدون . فصفاته أجل الصفات ، وإحسانه عمّ جميع الكائنات ، ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه فهو منه جل ثناؤه ، إذ هو مصدر الكون كله ، فيكون له ذلك الحمد أولاً وبالذات . والخلاصة أن أىّ حمد يتوجه إلى محمود ما فهو لله تعالى سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه . وأما معنى الانشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء إلى الله تعالى فى الحال

هذا ملخص ماقاله الأستاذ الامام ، وأقول الآن : التعريف المشهور بين العلماء للحمد أنه الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، أى الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره أى سواء أسدى هذا الجميل إلى الحامد أم لا . اهـ وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلا له منزلة الفاعل فى نفسه ، ومنه : إنما يحمد السوق من ربح . وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ليدخل

فى الحمد الثناء على صفات الكمال ولذلك وصف بعضهم الجميل الاختيارى بقوله : سواء كان من الفضائل - أى الصفات الكمالية لصاحبها - أو الفواضل - وهى مايتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل. والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتبار مايترتب عليها من الأفعال الاختيارية. وماعدا هذا من الثناء تسميه العرب مدحا . يقال : مدح الرياض ومدح المال ومدح الجمال ولا يطلق الحمد على مثل هذه الأشياء ، وقيل هما مترادفان . والمقام المحمود للنبى صلى الله عليه وسلم هو مايحمد فيه لما يناله الناس كلهم من خير دعائه وشفاعته على المشهور . وسيأتى تفسيره فى موضعه إن شاء الله تعالى . وقد يقال : إن ماذكر هو الحمد الذى يكون من بعض الناس لبعض ، وأما الله عز وجل فإنه يحمد لذاته باعتبار أنها مصدر جميع الوجود الممكن وما فيه من الخيرات والنعم ، أو مطلقا خصوصية له ، إذ ليست ذات أحد من الخلق كذاته . و يحمد لصفاته باعتبار تعلقها وآثارها كما سترى بيانه فى تفسير الرب والرحمن والرحيم

﴿ رب العالمين ﴾ يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد المربى الذى يسوس مسوده و يربيه و يدبره ولفظ «العالمين» جمع عالم بفتح اللام جمع جمع المذكر العاقل تغليباً وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أى إنه رب كل مايدخل فى مفهوم لفظ العالم . وماجمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع إلا لنكتة تلاحظها فيه وهى أن هذا اللفظ لايطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب و إنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذى جمعت جمعه ، إن لم تكن منه ، فيقال عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات . ونحن نرى أن هذه الأشياء هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يعطيه لفظ « رب » لأن فيها مبدأها وهو الحياة والتغذى والتولد ، وهذا ظاهر فى الحيوان ، ولقد كان السيد (أى جمال الدين الأفغانى) رحمه الله تعالى يقول : الحيوان شجرة قطعت رجلها من الأرض فهى تمشى ، والشجرة حيوان ساخت رجلاه فى الأرض فهو قائم فى مكانه يأكل و يشرب ، و إن كان لاينام ولا يغفل .

هذا ملخص ماقاله الأستاذ الإمام . وأزيد الآن أن بعض العلماء قال إن

المراد بالعالمين هنا أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن ، ويؤثر عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه الرضوان . أن المراد به الناس فقط كما يدل على هذا وذلك استعمال القرآن فى مثل « أتأتون الذكران من العالمين » أى الناس ومثل «ليكون للعالمين نذيرا» ويرى بعضهم أنه على هذا مشتق من العلم . ومن قال يعم جميع أجناس المخلوقات يرى أنه مشتق من العلامة ، وربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم ، وهذه التربية قسمان : تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية ـ وتربية شرعية تعليمية وهى مايوحيه الى أفرادمنهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به . فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه بغير إذن منه تعالى .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدم معناهما وبقى الكلام فى اعادتهما والنكتة فيها ظاهرة وهى أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أودفع مضرة وإنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثمّ نكتة أخرى وهى أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لامنتهى لهما، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لايزايله أبدا . فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة هى التى ربما يرجع إليها معنى الصفات ، وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته ، منشرحة صدورهم ، مطمئنة قلوبهم ، ولا ينافى عموم الرحمة وسبقها ماشرعه الله من العقوبات فى الدنيا ، وما أعده من العذاب فى الآخرة ، للذين يتعدون الحدود ، وينتهكون الحرمات ، فإنه وإن سُمى قهراً بالنسبة لصورته ومظهره ، فهو فى حقيقته وغايته من الرحمة ، لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية ، وفى الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم ، وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم ، والوالد الرؤوف يربى ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به ، وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال ، ولله المثلُ الأعلى لا إله إلا هو وإليه يرجعون .

أقول الآن : إننى لا أرى وجها للبحث فى عد ذكر « الرحمن الرحيم » فى سورة الفاتحة تكراراً أو إعادة مطلقاً . أما على القول بأن البسملة ليست آية منها فظاهر ، وأما على القول بأنها آية منها فيحتاج إلى بيان ، وهو أن جعلها آية منها ومن كل سورة يراد به ماتقدم شرحه آنفا من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يلقنها و يبلغها للناس على أنها (أى السورة) منزلة من عند الله تعالى أنزلها برحمته لهداية خلقه وأنه صلى الله عليه وسلم لا كسب له فيها ولا صنع ، و إنما هو مبلغ لها بأمر الله تعالى. فهى مقدمة للسور كلها إلا سورة براءة المنزلة بالسيف وكشف الستار عن نفاق المنافقين ، فهى بلاء على من أنزل أكثرها فى شأنهم لا رحمة بهم . و إذا كان المراد ببدء الفاتحة بالبسملة أنها منزلة من الله رحمة بعباده فلا ينافى ذلك أن يكون من موضوع هذه السورة بيان رحمة الله تعالى مع بيان ربوبيته للعالمين ، وكونه الملك الذى يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم ، وأنه بهذه الأسماء والصفات كان مستحقا للحمد من عباده ، كما أنه مستحق له فى ذاته ، ولهذا نسب الحمد إلى اسم الذات ، الموصوف بهذه الصفات .

والحاصل أن معنى الرحمة فى بسملة كل سورة هو أن السورة منزلة برحمة الله وفضله فلا يعد ماعساه يكون فى أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكررا مع ما فى البسملة ، وإن كان مقرونا بذكر التنزيل كأول سورة فصلت (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) لأن الرحمة فى البسملة للمعنى العام فى الوحى والتنزيل ، وفى السور للمعنى الخاص الذى تبينه السورة . وقد لاحظ هذا المعنى من قال إن البسملة آية مستقلة فاصلة بين السور . وأما من قال إنها آية من كل سورة فمراده أنها تقرأ عند الشروع فى قراءتها ، وأن من حلف ليقرأن سورة كذا لا يبرأ إلا إذا قرأ البسملة معها ، وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءتها أيضا .

هذا - وأما حظ العبد من وصف الله بالربوبية فهو أن يحمده تعالى عليه و يشكره له باستعمال نعمه التى تتربى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله فليحسن تربية نفسه وتربية من يوكل إليه تربيته من أهل وولد ومريد وتلميذ ، و باستعمال نعمته بهداية الدين فى تربية نفسه الروحية والاجتماعية وكذا تربية من

يوكل إليه تربيتهم . وأن لايبغى كما بغى فرعون فيدعى أنه رب الناس ، وكما بغى فراعنة كثيرون ولا يزالون يبغون بجعل أنفسهم شارعين يتحكمون فى دين الناس بوضع العبادات التى لم ينزلها الله تعالى ، و بقولهم هذا حلال ، وهذا حرام من عند أنفسهم أو من عند أمثالهم ، فيجعلون أنفسهم شركاء لله فى ربوبيته . قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وفسر النبى صلى الله عليه وسلم اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا بمثل هذا .

وأما حظ العبد من وصف الله بالرحمة فهو أن يطالب نفسه بأن يكون رحيما بكل من يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى حتى الحيوان الأعجم ، وأن يتذكر دائما أنه يستحق بذلك رحمة الله تعالى . قال صلى الله عليه وسلم « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبرانى عن جرير بسند صحيح . وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم . من حديث ابن عمر . ورويناه مسلسلا بالأولية من طريق الشيخ أبى المحاسن محمد القاوقجى الطرابلسى الشامى . وقال ﷺ « من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة » رواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى عن أبى أمامة وأشار السيوطى فى الجامع الصغير إلى صحته . ومما يدل على الترغيب فى رحمة الحيوان والرفق به بغير لفظ الرحمة . حديث « فى كل ذات كبد حرّى أجر » رواه أحمد وابن ماجه عن سراقة بن مالك ؛ وأحمد أيضا عن عبد الله ابن عمرو . وهو حديث صحيح .

ومن مباحث اللغة أن لفظ الرحمن خاص بالله تعالى كلفظ الجلالة . قالوا لم يسمع عن أحد من العرب أنه أطلقه على غير الله تعالى ، وكذلك لفظ « رحمن » غير معرّف ، قالوا لم يرد اطلاقه على غير الله تعالى إلا فى شعر لبعض الذين فتنوا بمسيلمة الكذاب قال فيه * وأنت غيث الورى لازلت رحمانا * وقيل إن هذا تعنت وغلو لا من الاستعمال المعروف عند العرب . وأما العرب فكانت تطلق لفظ رب على الناس يقولون : رب الدار ورب هذه الأنعام مثلا لا رب الأنعام مطلقا . قال عبد المطلب فى يوم الفيل : أما الإبل فأنا ربها وأما البيت فإن له ربا يحميه . وقال

تعالى فى حكاية قول يوسف عليه السلام فى مولاه عزيز مصر « إنه ربى أحسن مثواى » و يرى بعض العلماء أن هذا الاستعمال ممنوع فى الاسلام واستدل بالنهى فى الحديث عن قول المملوك لسيده « ربى » والصواب أن يمنع ماورد النص به كهذا الاستعمال وما من شأنه ألا يقال إلا فى البارىء تعالى كلفظ الرب بالتعريف مطلقا ولفظ رب الناس رب المخلوقات رب العالمين وما أشبه ذلك .

﴿ مَالِكِ يوم الدين ﴾

قرأ عاصم والكسائى و يعقوب «مالك» والباقون « مَلِكِ » وعليها أهل الحجاز والفرق بينهما أن المالك ذو الملك بكسر الميم والملك ذو الملك بضمها ، والقرآن يشهد للأولى بمثل قوله «يوم لا تملك نفس لنفس شيئا» وللثانية بقوله «لمن المُلك اليوم» قال بعضهم إن قراءة مَلك أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير . وقال آخرون إن القراءة الأخرى أبلغ لأن الملك هو الذى يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشىء من شؤونهم الخاصة والمالك سلطته أعم . قال الأستاذ الإمام : و إنما تظهر هذه التفرقة فى عبد مملوك فى مملكة لها سلطان ، فلا ريب أن مالكه هو الذى يتولى جميع شئونه دون سلطانه .

وأقول الآن الظاهر أن قراءة « ملك » أبلغ لأن معناها المتصرف فى أمور العقلاء المختارين بالأمر والنهى والجزاء ولهذا يقال «ملك الناس» ولا يقال ملك الأشياء . قاله الراغب . وقال فى « ملك يوم الدين » تقديره الملك فى يوم الدين لقوله «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » اه و إنما كان هذا أبلغ لأن السياق يدلنا على أن المراد بالآية تذكير المكلفين بما ينتظرهم من الجزاء على أعمالهم رجاء أن تستقيم أحوالهم . ومعنى «مالك يوم الدين» قد يستفاد من قوله « رب العالمين » على أن مجموع القراءتين يدل على المعنيين فكلاهما ثابت ولكن القراءة فى الصلاة بملك يوم الدين تثير من الخشوع ما لا تثيره القراءة الأخرى التى يفضلها بعضهم لأنها تزيد حرفا فى النطق ، وورد فى الحديث أن للقارىء بكل حرف كذا حسنة ولكن فاتهم أن حسنة واحدة تكون أكبر تأثيراً فى القلب خير من مائة حسنة يكن دونها فى التأثير

و (الدين) يطلق فى اللغة على الحساب وعلى المكافأة وورد « كما تدين تدان » وقال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دنّاهم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة ، وعلى الطاعة ، وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال : دِنته ، ودَينته فلانا (بالتشديد) أى وليته سياسته وهو قريب من معنى الإخضاع ، وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه المعانى الجزاء والخضوع . وإنما قال « يوم الدين » ولم يقل « الدين » لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الأيام ، وهو اليوم الذى يلقى فيه كل عامل عمله ويوفّى جزاءه .

ولسائل أن يسأل : أليست كل الأيام أيام جزاء . وكل مايلاقيه الناس فى هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم فى أداء الحقوق والقيام بالواجبات التى عليهم ؟ والجواب بلى إن أيامنا التى نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ولكن ربما لايظهر لأربابه إلاعلى بعضها دون جميعها . والجزاء على التفريط فى العمل الواجب إنما يظهر فى الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة إلى مجموع الأمة لا إلى كل فرد من الأفراد ، فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه فى خليقته إلا وأحل بها العدل الإلهى ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . وأما الأفراد فاننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين فى الشهوات واللذات ، نعم إن ضمائرهم توبخهم أحياناً وإنهم لا يسلمون من المنغصات ، وقد يصيبهم النقص فى أموالهم ، وعافية أبدانهم، وقوة عقولهم . ولكن هذا كله لايقابل بعض أعمالهم القبيحة ، لاسيما الملوك والأمراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب . كذلك نرى من المحسنين فى أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم حقوقه ، ولا ينال الجزاء الذى يستحقه على عمله ، فان كان قد ينال رضاء نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته : فما ذلك كل ما يستحق ، وفى ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملا لا يظلم شيئا منه ، كماقال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

علمنا الله أنه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا اليه ، ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا إليه الانجذاب المطلوب ؟ أليس فينا من يسلك كل سبيل . لايبالى بمستقيم ومعوج ؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين ، فعرفنا أنه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم ، فكان من رحمته بعباده أن رباهم بنوعى التربية كليهما :الترغيب والترهيب ، كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم »

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ماهى العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع ، وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتجليه للأفهام واضحاً لايقبل التأويل ، فكثيراً مايفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظى ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة ، التى شرحوا بها معنى العبادة ، فان فيها إجمالا وتساهلا . وإننا إذا تتبعنا آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها ويقاربها فى المعنى ـ كخضع وخنع وأطاع وذل ـ نجد أنه لاشيء من هذه الألفاظ يضاهى « عبد » ويحل محلها ويقع موقعها ، ولذلك قالوا : إن لفظ « العباد » مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته إلى الله تعالى ، ولفظ « العبيد » تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى . ومن هنا قال بعض العلماء إن العبادة لاتكون فى اللغة إلا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه

يغلوا العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لايسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء . فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين ، دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة ، فما هى العبادة إذاً ؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الصراح على أن العبادة ضرب

من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى مايعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق ادراكه ، فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال انه عبده ، وإن قبل موطىء أقدامه ، ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود،أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً،وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد ، إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية .

للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه،والأثر انما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع ، فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً

خذ إليك عبادة الصلاة مثلا وانظر كيف أمر الله بإقامتها ، دون مجرد الإتيان بها . واقامة الشىء هى الإتيان به مقوماً كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها هى ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التى هى توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته،والمشعر للقلوب

بعظم سلطانه ، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ الامام أن الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ، ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به ، وهو ما عليه أكثر الناس ، فان صلاة أحدهم فى طور الرشد والعقل هى عين ما كان يحاكى به أباه فى طور الطفولية عندمايراه يصلى - يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل ، وليس لله شىء فى هذه الصلاة . وقد ورد فى بعض الأحاديث أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً وأنها تلف كما يلف الثوب البالى ويضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذى تقدم فى الآية الأخرى أن من شأن الإنسان أن يكون منوعا له إلا المصلين .

والاستعانة طلب المعونة وهى إزالة العجز والمساعدة على اتمام العمل الذى يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه

ثم تكلم الاستاذ الإمام على حصر العبادة والاستعانة فى الله تعالى الذى دل عليه تقديم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد) و (نستعين) فقال ما مثاله

أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة ، وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضا وهذا يحتاج إلى البيان لأنه أمرنا أيضا فى آيات أخرى بالتعاون (٥:٢ وتعاونوا على البر والتقوى) فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك؟

الجواب أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التى اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية اليه ، وانتفاء الموانع التى من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما فى استطاعتنا من ذلك ، ونبذل فى إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك ، ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شىء ، ونلجأ اليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل

والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ، ورب الأرباب ، فقوله تعالى « وإياك نستعين » متمم لمعنى قوله « إياك نعبد » لأن الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله وتعلق من النفس به ، وذلك مخ العبادة ، فإذا توجه العبد بها إلى غير الله تعالى كان ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التى كانت ذائعة فى زمن التنزيل وقبله ، وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله ، واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس : هى كالاستعانة بسائر الناس فى الأسباب العامة ، فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان أن الاستعانة بالناس فيما هو فى استطاعة الناس إنما هو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وما منزلتها إلا كمنزلة الآلات فيما هى آلات له ، بخلاف الاستعانة بهم ، فى شؤون تفوق القدر والقوى الموهوبة لهم ، والأسباب المشتركة بينهم ، كالاستعانة فى شفاء المرض بما وراء الدواء ، وعلى غلبة العدو بما وراء العدة والعُدة ، فإن ذلك مما لا يجوز الفزع والتوجه فيه إلى غير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم ، على ما لا يصل إليه سلطان أحد من العالم .

ضرب الأستاذ الإمام مثلا لذلك الزارع يبذل جهده فى الحرث والعذق وتسميد الأرض وريها ، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية ، ومثل بالتاجر يحذق فى اختيار الأصناف ويمهر فى صناعة الترويج ، ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك . ثم قال : ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم ، وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم ، وغير ذلك من المصالح ، هم عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة « وإياك نستعين » إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة . (أحدهما) أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم

يوفه حقه ، أو يخشى أن لا ينجح فيه ، فيطلب المعونة على اتمامه وكماله ، فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده ، يطلب المعونة من غيره على رفعه ، ولكن بعد استفراغ القوة في الاستقلال به ، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية ، وركن من أركان السعادة الأخروية . (وثانيهما) ما افاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص ، الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ، و يفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين ، والشيوخ الدجالين ، و يطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين ، من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حرا خالصاً وسيداً كريماً ، ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .

وأقول أيضا : إن عبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته ، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته ، أما الأول فظاهر لأنه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه ، وأما الثاني : فلأنه هو المربي للعباد الذي وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية . ومن هنا تعلم أن إيراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم ، واسم الرب الاكرم ، انما هو لترتبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف . والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله ، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة . ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله تعالى (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه)

فهذه الاستعانة هي ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة ، فان من معني العبادة : الشعور بأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العامة ، الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة ، هي لله وحده ، كما تنطق به الآية التي استشهدنا بها آنفا على قرن العبادة بالتوكل ، فمن كان موحدا خالصا لا يستعين بغير الله تعالى قط ، فما كان من أنواع المعونة داخلا في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى ، ولكنه يحتاج في تحقق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبي ، وما كان غير

داخل فيها يتوجه فى طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب، وبهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد والتوكل وبين الأخذ بالاسباب وإقامة سنن الله تعالى فيها، بل الكمال والأدب فى الجميع بينهما ، فالسيد المالك إذا نصب لعبيده وخدمه مائدة يأكلون منها غدوا وعشيا، وجعل لهم خدما يقومون بأمرها، لا يكون طلب الطعام منه إلا بالاختلاف إلى المائدة ، وإنما ينبغى أن لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذى أنشأها بماله وسخر أولئك الخدم الآكلين عليها ، ولا عن حمده وشكره ، فهذا مثال مائدة الكون بأسبابه ومسبباته . والعبد إذا احتاج شيئا من الأشياء التى لم يجعلها سيده مبذولة لجميع عبيده فى كل وقت ، طلبه منه دون سواه ، فان أظهر الحاجة إلى غيره كان ذلك من قلة ثقته بمولاه ، وجعل ذلك الغير فى مرتبته أو أجدر منه بالفضل. هذا فى العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد ، فكيف إذا كان العبد الذى يتوجه إلى غير مولاه ، لا يجد من يتوجه اليه سواه ، إلا أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولى مثله ، لأنه هو السيد الصمد ، الذى ليس له كفؤا أحد ؟.

ثم إن لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الاعانة على شىء له فيه كسب ليعينه على القيام به ، وفى هذا تكريم للانسان بجعل عمله أصلا فى كل مايحتاج اليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها ، وإرشاد له إلى أن ترك العمل والكسب، ليس من سنة الفطرة ولا من هدى الشريعة ، فمن تركه كان كسولا مذموما لا متوكلا محمودا . وبتذكيره من جهة أخرى بضعفه لكيلا يغتر فيتوهم أنه مستغن بكسبه عن عناية ربه ، فيكون من الهالكين فى عاقبة أمره

إذا تدبرت هذا فهمت منه نكتة من نكت تقديم العبادة على الاستعانة وهى أن الثانية ثمرة للأولى. ولا ينافى هذا أن العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للاتيان بها على الوجه المرضىّ له عز وجل. لامنافاة بين الأمرين لأن الثمرة التى تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التى تخرج منها شجرة أخرى . فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه ، والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر ، كذلك الأعمال تكون الأخلاق التى هى منائىء الأعمال ، فكل منهما سبب ومسبب وعلة ومعلول ، والجهة مختلفة فلا دور فى المسألة

وأقول : إيضا إن نكتة تقديم « إياك » على الفعلين « نعبد، ونستعين » هى إفادة الاختصاص والحصر على المشهور الذى جرى عليه الأستاذ الإمام كغيره فالمعنى إذاً : نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعينك ولا نستعين بسواك . وقد استخرج له بعض الغواصين على المعانى نكتا أخرى (منها) أن « إياك » ضمير راجع إلى الله تعالى وقيل إن « إيا » اسم ظاهر مضاف إلى الضمير الذى هو الكاف ، فتقديمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به الذى هو العلة الاصلية العامة للتقديم فى هذه اللغة (ومنها) أنه من الأدب أيضا (ومنها) أن إفادة الحصر بهذا الاسم « أو الضمير » المقدم على الفعل أبلغ من إفادة الحصر بالضمير المتصل الذى يقرن به مايدل على ذلك من الكلم ، كقولك : إنما نعبدك وإنما نستعينك ، أو نستعين بك وحدك . وإعادة إياك مع الفعل الثانى يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات . فلا يستلزم كل منهما الآخر . ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة فى كل شىء ومن الناس من لا يستعين بالله على شىء من أعماله الاختيارية ، زعما منهم أنهم يستقلون بذلك بدون إعانة خاصة منه تعالى كالقدرية . وأفضل الاستعانة : ما كان على الطاعة والخير . وقد أخذ النبى (ص) بيد معاذ يوما وقال « والله إنى لأحبك . أوصيك يامعاذ لا تدعنّ فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » . وقد روينا هذا المعنى فى الأحاديث المسلسلة . قال لى شيخنا أبو المحاسن محمد القاوقجى فى طرابلس الشام « إنى أحبك ، فقل اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » قال لى شيخنا محمد عابد السندى فى الحرم النبوى الشريف « إنى أحبك » الخ . وذكر سنده إلى النبى (ص)

﴿ (٥) إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الأستاذ الإمام أولا ما قالوه فى معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على مايوصل إلى المطلوب، ثم بين أنواعها ومراتبها فقال مامثاله : منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته (أولاها) هداية الوجدان الطبيعى والالهام الفطرىّ ، وتكون للاطفال منذ ولادتهم ، فإن الطفل بعد ما يولد

يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالبا له بفطرته، وعندما يصل الثدى إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم ، بل هو فيهما أكمل من الانسان ، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل ، بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير ، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات ادراك الأصوات والمرئيات ، ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات ، فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه إليه ليتناوله وإن كان قمر السماء ، ولا يزال يغلط حسه حتى فى طور الكمال

(الهداية الثالثة: العقل) خلق الله الانسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الالهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل فان الله قد منحهما من الالهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدى كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها، ويؤدى الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام ، فحباه الله هداية هى أعلى من هداية الحس والالهام، وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه ، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا ، ويرى العود المستقيم فى الماء معوجا ، والصفراوى يذوق الحلو مرا . والعقل هو الذى يحكم بفساد مثل هذا الادراك .

(الهداية الرابعة : الدين) يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال ، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردة موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر فى مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل ، فكيف يتسنى للانسان مع ذلك أن يعيش سعيدا ؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده ، وما هو بعائش وحده ، وكثيرا ما تتطاول به إلى ما فى يد غيره ، فهى لهذا تقتضى أن يعدو بعض أفراده على بعض ، فيتنازعون ويتدافعون، ويتجادلون ويتجالدون ، ويتواثبون ويتناهبون

حتى يفنى بعضهم بعضا ، ولا تغنى عنهم تلك الهدايات شيئا ؟ فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم ، إذا هى غلبت على عقولهم ، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ، ويكفوا أيديهم عما وراءها . ثم إن مما أودع فى غرائز الانسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل مالا يعرف له سببا . لأنها هى الواهبة كل موجود مابه قوام وجوده ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد مايجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسواه ، ووهبه هذه الهدايات وغيرها ، ومافيه سعادته فى تلك الحياة الثانية ؟ كلا إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة ـ الدين ـ وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للانسان فى آيات كثيرة منها قوله تعالى « وهديناه النجدين » أى طريقى السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ الإمام : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » أى دللناهم على طريقى الخير والشر ، فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناها ، ثم قال :

بقى معنا هداية أخرى وهى المعبر عنها بقوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره ، فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة ، وهى بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين المهلك والمنجى ، مع بيان مايؤدى إليه كل منهما ، وهى مماتفضل الله به على جميع أفراد البشر . وأما هذه الهداية فهى أخص من تلك والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة ، وهى لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين[1]

---

(١) هذا الفرق بين معنى الهداية معروف فى اللغة وبه يجاب عن التناقض الظاهرى فى قوله تعالى (٢٨ : ٥٦ وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وقوله تعالى (٤٢ : ٥٣ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله تعالى (٢ : ٢٧٢ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) فالهداية التى أثبتها للنبى صلى الله عليه وسلم هى الدلالة على الخير والحق ، والتى نفاها عنه هى الثانية التى بمعنى الاعانة والتوفيق

ولما كان الانسان عرضة للخطإ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل على ماقدمنا كان محتاجا إلى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه في قوله « إهدنا الصراط المستقيم » فمعنى « إهدنا الصراط المستقيم » دلنادلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطإ . وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه ، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه ،

ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة الصراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو مافي كتب اللغة والتفسير ، ومعنى المستقيم وهوضد المعوج وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التعجج والتعاريج بل المراد كل مافيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي سالكه إليها . والمستقيم في عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين ، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هوظاهر بالبداهة . وإنما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل مافيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خط ذي تعاريج ، لأن هذا الأخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل . ولكن الأول لا يصل إليها أبدا . بل يزداد عنها بعدا كلما أوغل في السير وانهمك فيه

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لم سمي الموصل إلى السعادة من ذلك صراطا وطريقا ؟ خذ الحق مثلا وهو العلم الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس تر معنى الصراط فيه واضحا ، لأن السبيل أوالصراط ماأسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها كذلك الحق الذي يبين لي الواقع الثابت في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس ، يشبه الحق للعقل والنفس ، سير حسي ، وسير معنوي ، كذلك إذا اعتبرت هذا المعنى في الحدود والأحكام تجده واضحا — قسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا ، فبيان الأحكام بالهداية الكبرى

وهى الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها إلى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرديهم . وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه . وضرب الاستاذ الإمام لذلك مثلا أحد الشيوخ المتفقهين سرق كتابا من وقف أحد الأروقة فى الأزهر مستحلا له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وأنه قد يفوت النفع ببقائه فى الرواق حيث وضعه الواقف إذ لا يوجد فيه من يفهمه مثله بزعمه !! واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل ولذلك كان الإنسان محتاجا أشد الاحتياج إلى العناية الالهية الخاصة لاجل الاستقامة والسير فى تلك الهدايات الأربع سيرا مستقيما يوصل إلى السعادة . لهذا نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا ، وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه ، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد فى معرفة ما أنزل إلينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك . وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيرى الدنيا والآخرة . فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة فى قوله « وإياك نستعين »

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(قال الاستاذ) الصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الحق ولكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه فى نحو سورة العصر[1] وانما بينه باضافته إلى من سلك هذا الصراط كما قال فى سورة الانعام « فبهداهم اقتده » وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على اجمال ما فصل فى القرآن حتى من الاخبار ، التى هى مثل الذكرى والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوى فى اجمال هذه الآية

(قال) فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى . ونحن نقول ان الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الامام على رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره ، لأنه تربى فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم وأول من

---

(١) قد فسر الاستاذ الامام سورة العصر تفسيرا يظهر به صدق قول الامام الشافعى لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس — تفسير الا تجد مثله فى كتاب . وقد طبعناه على حدته

آمن به ، وإن لم تكن أول سورة على الاطلاق فلا خلاف فى أنها من أوائل السور (كما مر فى المقدمة) ولم يكن المسلمون فى أول نزول الوحى بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وما هداهم إلا من الوحى ، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم ، فأولئك غيرهم ، وإنما المراد بهذا ماجاء فى قوله تعالى « فبهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله فى الفاتحة وفصله فى سائر القرآن بقدر الحاجة . فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص ، وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم ، فى كفرهم وإيمانهم ، وشقاوتهم وسعادتهم ، ولاشىء يهدى الانسان كالمثلات والوقائع . فاذا امتثلنا الأمر والإرشاد ، ونظرنا فى أحوال الأمم السالفة ، وأسباب علمهم وجهلهم ، وقوتهم وضعفهم ، وعزهم وذلهم ، وغير ذلك مما يعرض للأمم - كان لهذا النظر أثر فى نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن فى الأرض ، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار . ومن هنا ينجلى للعاقل شأن علم التاريخ ومافيه من الفوائد والثمرات ، وتأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيرا من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ، ويرغبون عنه ، ويقولون إنه لا حاجة اليه ولا فائدة له . وكيف لايدهش ويحار والقرآن ينادى بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو اليه هذا الدين ؟ « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنه وقد خلت من قبلهم المثلات »

وههنا سؤال وهو : كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم ، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم ، وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله فى جميع الأمم واحد ، وإنما تختلف الأحكام بالفروع التى تختلف باختلاف الزمان ، وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » الآية وقال تعالى « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » الآية . فالايمان بالله وبرسله وباليوم الآخر ، وترك الشر وعمل البر،

والتخلق بالأخلاق الفاضلة، مستو فى الجميع . وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا اليه ، لنقتدى بهم فى القيام على أصول الخير . وهو أمر يتضمن الدليل على أن فى ذلك الخير والسعادة . على حسب طريقة القرآن فى قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول ، والجمع بين السبب والمسبب . وتفصيل الأحكام التى هذه كلياتها بالاجمال نعرفه من شرعنا وهدى نبينا عليه الصلاة والسلام اه بتفصيل و إيضاح

وأزيد هنا أن فى الاسلام من ضروب الهداية ما قد يعد من الأصول الخاصة بالاسلام ، ويرى أنه مما يستدرك على ماقرره الأستاذ الامام ، كبناء العقائد فى القرآن على البراهين العقلية والكونية ، و بناء الأحكام الأدبية والعلمية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار والمفاسد ، وكبيان أن للكون سنناً مطردة تجرى عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكالحث على النظر فى الأكوان ، للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار ، التى يرتقى بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للانسان ، وكل ذلك مما امتاز به القرآن . والجواب عن هذا أنه تكميل لأصول الدين الثلاث التى بعث بها كل نبى مرسل لجعل بنائه رصينا مناسبا لارتقاء الانسان . وأما تلك الأصول وهى الايمان الصحيح وعبادة الله تعالى وحده وحسن المعاملة مع الناس فهى التى لا خلاف فيها

وأما وصفه تعالى الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالمختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه ، انصرافا عن الدليل ، ورضاء بما ورثوه من القيل ، ووقوفا عند التقليد ، وعكوفا على هوى غير رشيد ، وغضب الله يفسرونه بلازمه وهو العقاب ، ووافقهم الأستاذ الامام ، والذى ينطبق على مذهب السلف أن يقال أنه شأن من شؤونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه ــ وأن الضالين هم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذى يقرن به العمل كما سيأتى تفصيله . وقرن المعطوف فى قوله «ولا الضالين» بلا لما فى « غير » من معنى النفى أى وغير الضالين ففيه تأكيد للنفى . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم والضالون . ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضا لأنهم

بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون منها إلى مطلوب ، ولا يهتدون فيها إلى مرغوب ، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم ، و بين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدى إلى الجادة الموصلة منها ، وهم من لم تبلغهم الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق ، فهؤلاء هم أحق باسم الضالين ، فان الضال حقيقة هو التائه الواقع فى عماية لا يهتدى معها إلى المطلوب ، والعماية فى الدين هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ

الأستاذ الامام : الضالون على أقسام (الأول) من لم تبلغهم الدعوة إلى الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر . فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل ، وحرموا رشد الدين ، فان لم يضلوا فى شؤونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها فى الحياة الأخرى . على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة معاً ، فمن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والاضطراب فى أعماله المعاشية ، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة ، سنة الله فى هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلا . أما أمرهم فى الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين فى منازلهم ، وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد

وأزيد فى إيضاح كلام الأستاذ أن الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا فى الآخرة على ترك شىء مما لا يعرف إلا بهذه الهداية . وهذا هو معنى كونهم غير مكلفين ، وعليه جمهور المتكلمين ، لقوله تعالى فى سورة الاسراء « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ومن قال إنهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله إلا إذا أراد أن حالهم فى الآخرة تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة إذ لا شك أن من لم يبعث فيهم رسول يتفاوتون فى إدراكهم وأعمالهم بتفاوت استعدادهم الفطرى وما يصادفون من حسن التربية وقبحها . وبهذا يجمع بين القولين فى تكليفهم وعدمه أو يفصل بينهما . وما يعطيهم الله تعالى إياه فى الآخرة على حسب حالهم فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة — يكون جزاء عادلا

على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء . وسأفصل هذا المعنى فى تفسير الآيات المنزلة فيه إن شاء الله تعالى . وأعود الآن إلى اتمام سياق الأستاذ، قال :

(القسم الثانى) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر ، فساق همته إليه، واستفرغ جهده فيه ، ولكن لم يوفق إلى الايمان بما دعى إليه ، وانقضى عمره وهو فى الطلب ، وهذا القسم لا يكون إلا أفراد متفرقة فى الأمم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب ، فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة ، وما يكون لها من سعادة وشقاء فى حياتها الدنيا . أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الاشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى ، وينقل صاحب هذا الرأى مثله عن أبى الحسن الاشعرى. وأما على رأى الجمهور فلا ريب فى أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذى أنكر التنزيل ، واستعصى على الدليل ، وكفر بنعمة العقل ، ورضى بحظه من الجهل،

(القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها، بدون نظر فى أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم فى فهم ما جاءت به من أصول العقائد ، وهؤلاء هم المبتدعة فى كل دين ، ومنهم المبتدعون فى دين الاسلام ، وهم المنحرفون فى اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول، ففرقوا الأمة إلى مشارب ، يغص بمائها الوارد ، ولا يرتوى منها الشارب ، (قال) وانى أشير إلى طرف من آثارهم فى الناس : يأتى الرجل إلى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلى العظيم ، أو بالمصحف الكريم ، وهو كلام الله القديم ، أنه ما فعل كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه، فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد لهم الولاية ، فيتغير لونه، وتضطرب أركانه ، ثم يرجع فى أليته، ويقول الحق ، ويقر بأنه فعل ما حلف أولا أنه لم يفعله ، تكريماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة ، إذا حلف باسمه كاذبا . فهذا ضلال فى أصول العقيدة يرجع إلى الضلال فى الإيمان بالله تعالى وما يجب له من الواحدانية فى الافعال ، ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال فى العقائد الاصلية بسبب البدع التى عرضت على دين الاسلام لطال المقال، واحتيج إلى وضع مجلدات فى وجوه الضلال ، ومن أشنعها أثرا ، وأشدها ضرراً،

خوض رؤساء الفرق منهم فى مسائل القضاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد .

إذا وزنا مافى أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها أولا فيه يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما إذا أدخلنا مافى أدمغتنا فى القرن وحشرناها فيه أولا فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان . فلا يدرى ماهو الموزون من الموزون به ـ أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين ، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذى يحمل عليها ، و يرجع بالتأويل أو التحريف إليها ، كما جرى عليه المخذولون ، وتاه فيه الضالون .

(القسم الرابع) ضلال فى الأعمال ، وتحريف للاحكام عما وضعت له ، كالخطإ فى فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات ، والخطإ فى فهم الأحكام التى جاءت فى المعاملات ، ولنضرب لذلك مثلاً : الاحتيال فى الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضى قليل من الحول الثانى ، حتى لا تجب الزكاة فيه ، فيظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ، ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية ، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه ، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به و يمحو أثره ، وهو محال عليه جل شأنه ـ

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها فى الأمم فتختل قوى الادراك فيها ، وتفسد الأخلاق ، وتضطرب الأعمال ، و يحل بها الشقاء ، عقوبة من الله لابد من نزولها بهم ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تحويلا . و يعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته فى عقائدها وأعمالها مما يخالف سننه ، ولا يتبع فيه سَنَنه . لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده ، وتقويم العقول والأعمال بفهم ماهدانا إليه ، وأن يجنبنا طرق أولئك

الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً ، أو غواية وجهلا

إذا ضلت الأمة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها ففسدت أخلاقها واعتلت أعمالها ، وقعت فى الشقاء لا محالة ، وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر بشؤونها ، ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب ، وإن كانت ستلاقى نصيبها منه أيضاً ، فإذا تمادى بها الغى وصل بها إلى الهلاك ، ومحى أثرها من الوجود ، لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر فى أحوال من سبقنا ، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم لنعتبر ونميز بين مابه تسعد الأقوام ومابه تشقى . أما فى الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال فى هذه الحياة الدنيا ، فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم ، ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه ، وإنما يلقى جزاءه «يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » اه

فوائد فى تفسير الفاتحة

كان غرضنا الأول من كتابة تفسير الفاتحة ونشره فى المنار هو بيان ما نستفيده من دروس شيخنا الأستاذ الإمام ، مع شىء مما يفتح الله به علينا بالاختصار فلذلك اختصرنا فيما كتبناه أولا ، ثم لما طبعنا تفسير الفاتحة على حدته مرة ثانية زدنا فيه بعض زيادات . وكان بدا لنا أن نجعل هذا التفسير مطولا مستوفى . ولهذا زدنا فى تفسير الفاتحة هنا زيادات كثيرة كما نبهنا على ذلك فى المقدمة . وبعد الفراغ من طبعه رأينا أن نعززه بالفوائد الآتية :

(حكمة إيثار ذكر الربوبية والرحمة فى أول الفاتحة على سائر الصفات)

قد علمت أن اسم الجلالة (الله) هو اسم الذات الجامع لمعانى الصفات العلياء وسائر الأسماء الحسنى ، والأصول من هذه الأسماء والصفات التى يرجع إليها غيرها وتعود إليها معانيها ولو بطريق اللزوم أربعة . اثنان منها ذاتيان وهما (الحى القيوم)

والاثنان الآخران فعليان وهما الرب والرحمن والرحيم ، و بتعبير أظهر أو أصح اثنان منهما لا يتعلقان بتدبير الخلق واثنان يتعلقان به ، فالحى ذو الحياة وهى بأعم معانيها الصفة الوجودية التى هى الأصل فى معقولنا لجميع صفات الكمال فى الوجود من صفات ذات وصفات أفعال كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وهى الصفات التى يسميها علماء الكلام صفات المعانى و يجعلون علمها مدار معرفة الله تعالى مع الصفات السلبية التى يراد بها تنزيهه سبحانه وتعالى عما لا يليق من النقص ومشابهة الخلق وكالرحمة والحلم والغضب والعدل والعزة والخالقية والرازقية الخ وكمال الحياة يستلزم الاتصاف بهذه الصفات و بغيرها من صفات الكمال .

والحياة فى الخلق قسمان : حسية ومعنوية ، فالأولى الحياة النباتية ، والحياة الحيوانية ، ولكل منهما صفات لازمة لها أعلاها فى الحياة الثانية حياة الإنسان التى من خواصها العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك مما يفقده بالموت . والثانية الحياة العقلية والعلمية والروحية الدينية . ومن الشواهد القرآنية على هذه الحياة قوله تعالى (لينذر من كان حياً) وقوله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وكمال هذه الحياة للبشر لا يكون إلا فى الآخرة و إنما يكون الاستعداد له فى الدنيا بتزكية النفس بالعلم والعمل .

وحياة الخالق تعالى أعلى وأكمل من حياة جميع خلقه من الجن والإنس والملائكة وهى لا تشبهها (ليس كمثله شىء) و إنما نفهم من إطلاقها اللغوى مع التنزيه أنها الصفة الذاتية الواجبة الأزلية الأبدية التى يلزمها اتصافه بما وصف به نفسه من صفات الكمال بدونها فهى لا يتوقف تعقلها على غيرها من الصفات و يتوقف تعقل جميع الصفات عليها وعبر عنها بعضهم بأنها تصحح له الاتصاف بصفات المعانى .

وأما القيوم فأحسن ما قيل فى تفسيره ما فى معجم (لسان العرب) وهو القائم (أى الثابت المتحقق) بنفسه مطلقا لا بغيره وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شىء ولا دوام وجوده إلا به اهـ . وسبقه إلى مثله غيره . وقولهم «القائم بنفسه» بمعنى قول المتكلمين « واجب الوجود » أى الذى وجوده ثابت بذاته غير مستمد من وجود آخر فهو يستلزم القدم الذى لا أول له والبقاء

الذى لا آخر له (هو الأول والآخر) وقولهم الذى يقوم به كل موجود معناه أنه لاوجود لشىء غيره ابتداء ولا بقاء إلا به ، فكل وجود سواه مستمد منه وباق بابقائه إياه (٣٥ : ٤١ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) ومن كان هذا وصفه كان بالضرورة قادراً مريداً عليما حكيما ، فإذا كانت الحياة تصحح لصاحبها الاتصاف بهذه الصفات وغيرها وتدل عليها بقيد الكمال دلالة التزام ، فالقيومية تدل عليها دلالة تضمن بغير قيد .

ولجمع هذين الاسمين الكريمين هذه المعانى وغيرها من معانى الكمال الأعلى كان القول بأنهما مع اسم الجلالة — مايعبر عنه بالاسم الأعظم هو القول الراجح المختار عندنا . وإنما فسرنا الاسمين الكريمين هنا وذكرها استطرادى لا يدخل فى تفسير الفاتحة لأن أكثر القراء لا يفهم معانيهما التى يدل عليها لفظهما بطرق الدلالة الثلاث . المطابقة والتضمن والالتزام .

واما صفتا الربوبية والرحمة فهما الصفتان الدالتان على أن الله تعالى هو المالك المدبر لأمور العالم كلها ، وعلى أن رحمته تعالى تغلب غضبه وإحسانه الذى هو أثر رحمته يغلب انتقامه ، ومعنى الانتقام لغة الجزاء على السيئات ، فإن كان جزاء على السيئة بمثلها كان انتقام حق وعدل ، وإن كان بأكثر من ذلك كان انتقام باطل وجور ، والله تعالى منزه عن الباطل والجور (ولا يظلم ربك أحداً) بل يتجاوز عن بعض السيئات ، ويضاعف جزاء الحسنات (٤٢: ٢٥ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون * ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتم أيديكم ويعفو عن كثير * ٤ : ٤٠ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) والآيات فى الجزاء على السيئة بمثلها وعلى الحسنة بعشر أمثالها معروفة ، وكذا آية المضاعفة سبعمائة ضعف وما شاء الله تعالى.

فمن شأن الرب المالك للعباد المدبر لأمورهم المربى لهم أن يجازى كل عامل بعمله ، وينتقم للمظلوم من ظالمه . والجزاء بالعدل مخيف لأكثر الناس بل الجميع الناس ، فإنه مامن أحد إلا ويقصر فيما يجب عليه لربه ولنفسه ولأهله وولده وسائر من دونهم حقاً عليه ومكانة عنده ، ومن حقهم أن يغلب الخوف على الرجاء فى

قلوبهم ، ولذلك قرن سبحانه صفة الربوبية بصفة الرحمة وعبر عنها باسمين لا باسم واحد : اسم الرحمن الدال على منتهى الكمال فى اتصافه بهـا ، واسم الرحيم الدال على أنهـا من الصفات النفسيه المعنوية مع تعلقها بالخلق تعلقاً تنجيزيا كقوله تعالى (٤ : ٢٨ ان الله كان بكم رحيما * ٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيما) و بهذا التفسير ضممنا فى التفرقة بين الاسمين ما قاله المحقق ابن القيم إلى ما قاله شيخنا رحمهما الله .

وأما دلالة صفتى الربوبية والرحمة على جميع معانى صفات الأفعال الالهية فظاهر فان رب العباد هو الذى يسدى إليهم كل مايتعلق بخلقهم ورزقهم وتدبير شؤونهم من فعل دلت عليه أسماؤه الحسنى كالخالق البارى المصور القهار الوهاب الرزاق الفتاح القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم الرقيب المقيت الباعث الشهيد المحصى المبدىء المعيد المحيي المميت المقدم المؤخر المغنى المانع الضار النافع وأمثالها . والرحمن فى ذاته الرحيم بعباده لا بد أن يكون توابا غفوراً عفواً رؤوفا شكورا حليما وهابا

إذا علمنا هذا تجلت لنا حكمة وصف الله تعالى فى أول فاتحة الكتاب العزيز بالربوبية والرحمة الدالتين على جميع صفات الأفعال دون الحياة والقيومية الدالتين على صفات الذات وغيرها ـ وهى والله أعلم عراده أن الفاتحة ينظر فيها من وجهين (أحدهما) مادل عليه اسمها هذا أعنى كونها فاتحة ومبدأ للقرآن (وثانيهما) أنها قد شرعت للقراءة فى الصلوات كل يوم، وكل منهما يناسبه البدء بذكر ربوبية الله ورحمته

ذلك بأن القرآن كما قال الله فى أول سورة البقرة (هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) الخ الآيات . فهم الذين يتلونه حق تلاوته ، وهم الذين يتدبرونه و يتعظون به ، وهم (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) فالمناسب فى حقهم أن تكون السورة الأولى وهى المثانى التى يثنونها دائماً فى صلاتهم وفى بدء أورادهم القرآنية المسماة بالختمات مبدوءة بذكر الصفتين الجامعتين لمعانى الصفات التى تتعلق بتدبير الله سبحانه لشؤونهم ، و بعدله فى الحكم بينهم فيما يختصمون فيه، و بمجازاتهم على أعمالهم ، و برحمته لهم و إحسانه إليهم ،

الدالتين على مايجب عليهم من شكره وتخصيصه بالعبادة والاستعانة ، والتوجه إليه فى طلب كمال الهداية ، وهاتان الصفتان هما الربوبية والرحمة . فبدء فاتحة القرآن بذكرهما فى البسملة ثم فى أثناء السورة مرشد لما ذكر ، مذكر للمصلى وللتالى به . وكذا بدء كل سورة منه بالبسملة التى لم يوصف اسم الذات (الله) فيها بغير الرحمة الكاملة الشاملة . هو إعلام منه سبحانه بأنه أنزله رحمة للعالمين ، كما قال مخاطبا لمن أنزله عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ولذلك لم تنزل البسملة فى أول سورة التوبة التى فضحت آياتها المنافقين ، و بدئت بنبذ عهود المشركين ، وشرع فيها القتال بصفة أعم مما أنزل فيما قبلها من أحكامه

وهذا الذى شرحناه يفند زعم بعض المتعصبين الغلاة فى ذم الاسلام بالهوى الباطل أن رب المسلمين رب غضوب منتقم قهار ، ودينهم دين رعب وخوف ، بخلاف دين النصرانية الذى يسمى الرب أباً للاعلام بأنه يعامل عباده كمعاملة الأب لأولاده . وقد أشار شيخنا إلى هذا الزعم وفنده فى تفسير اسم الرب . وسنذكر فى فائدة أخرى المقابلة بين صلاة المسلمين بقراءة الفاتحة وصلاة النصارى بالصيغة المعروفة عندهم بالصلاة الربانية ، وثبت فى الحديث الصحيح إن الرب أرحم بعباده من الأم بولدها الرضيع ، وإن جميع ما أودعه فى قلوب خلقه من الرحمة جزء من مائة جزء من رحمته تبارك وتعالى و يجد القارىء تفصيل القول فى سعة الرحمة الالهية فى تفسير قوله عز وجل (٧ : ١٥٦ ورحمتى وسعت كل شىء) من سورة الأعراف

﴿ تفسير صفة الرحمة على مذهب السلف ﴾

ما نقلناه عن شيخنا فى معنى الرحمة (ص ٤٦) تبع فيه متكلمى الاشاعرة والمعتزله ومفسريهم كالزمخشرى والبيضاوى ذهولا . ومحصله أن الرحمة ليست من صفات الذات أو صفات المعانى القائمة بذاته تعالى لاستحالة معناها اللغوى عليه فيجب تأويلها بلازمها وهو الاحسان فتكون من صفات الأفعال كالخالق الرازق. وقال بعضهم يمكن تأويلها بارادة الاحسان فترجع إلى صفة الارادة فلاتكون صفة مستقلة . وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدى السلف الصالح .

والتحقيق أن صفة الرحمة كصفة العلم والارادة والقدرة وسائر ما يسميه الاشاعرة صفات المعاني ويقولون إنها صفات قائمة بذاته تعالى خلافا للمعتزلة . فان معاني هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوي واستعمالها في البشر محال على الله تعالى إذ العلم بحسب مدلوله اللغوي هو صورة المعلومات في الذهن ، التي استفادها من إدراك الحواس أو من الفكر ، وهي بهذا المعنى محال على الله تعالى ، فان علمه تعالى قديم بقدمه غير عرض منتزع من صور المعلومات . وكذلك يقال في سمعه تعالى و بصره وقد عدوهما من صفات المعاني القائمة بنفسه ، والرحمة مثلها في هذا

فقاعدة السلف في جميع الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له ونمرها كما جاءت مع التنزيه عن صفات الخلق الثابت عقلا ونقلا بقوله عز وجل (ليس كمثله شيء) فنقول إن لله علماً حقيقياً هو وصف له ولكنه لا يشبه علمنا ، وان له سمعاً حقيقياً هو وصف له لا يشبه سمعنا ، و إن له رحمة حقيقية هي صفة له لا تشبه رحمتنا التي هي انفعال في النفس وهكذا نقول في سائر صفاته تعالى فنجمع بذلك بين النقل والعقل . وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وجعل إطلاقها من المجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية كما قالوا في الرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها فهو تحكم في صفات الله و إلحاد فيها ، فاما أن تجعل كلها من باب الحقيقة مع الاعتراف بالعجز عن إدراك كنه هذه الحقيقة والاكتفاء بالايمان بمعنى الصفة العام مع التنزيه عن التشبيه و إما أن تجعل كلها من باب المجاز اللغوي باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الالفاظ لصفات المخلوقين فاستعملها الشرع في الصفات الالهية المناسبة لها مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز .

وقد عبر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى عن هذا المعنى أفصح تعبير فقال في كتاب الشكر من الاحياء : ان الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة يصدر عنها الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى

مبادى إشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لا لغموض فى نور الشمس ولكن لضعف أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة ، فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا إن لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع اه

وقد رجع الامام أبو الحسن الاشعرى شيخ المتكلمين والنظار إلى مذهب السلف فى نهاية أمره وصرح فى آخر كتبه وهو (الابانة) بذلك وأنه متبع للامام احمد بن حنبل شيخ السنة والمدافع عنها ، رحمهم الله أجمعين .

﴿ معارضة نصرانية سخيفة ، للفاتحة الشريفة ﴾

عرف كل من ذاق طعم البلاغة العربية من مؤمن وكافر أن القرآن أبلغ الكلام وأفصحه ، لم يكابر فى ذلك مكابر ، ولم يجادل فيه مجادل ، وان الفاتحة من أعلاه فصاحة و بلاغة وجمعاً للمعانى الكثيرة فى الالفاظ القليلة، واشتمالا على مهمات الدين من صفات الله التى تجذب قلب من تدبرها إلى حبه، وتنطق لسانه بحمده ، وتعلى همته بتوحيده ، وتهذب نفسه بمعانى أسمائه وصفاته ، واحاطة ربوبيته وملكه ، وتذكره يوم الدين الذى يجزى فيه على عمله ، وتوجه وجهه إلى السير على الصراط المستقيم فى خاصة نفسه ، وفى معاملة الله ومعاملة خلقه ، وتذكره بالقدرة الصالحة فى ذلك بإضافة الصراط الذى يتحرى الاستقامة عليه ، و يسأل الله توفيقه دائما له ، إلى من أسبغ الله عليهم نعمه ، ومنحهم رضوانه ، وجعلهم هداة خلقه بأقوالهم ، وأسوتهم الحسنة فى أفعالهم ، ومثل الكمال فى آدابهم وأخلاقهم ، من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين ، وتحذره من شرار الخلق الذين يؤثرون الباطل على الحق، و يفضلون الشر على الخير ، على علم منهم بذلك، وهم المغضوب عليهم ، — أو على جهل به كالذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهم الضالون . وهذا التحذير يتضمن حث

المسلم المتعبد بالفاتحة المكرر لها فى صلاته على العناية بتكميل نفسه بتحرى التزام الحق وعمل الخير ، بأحكام العلم وتربية النفس والتمرن على العمل الصالح .

هذه السورة الجليلة التى ذكرناك أيها القارىء بمجمل مما فصلناه فى تفسيرها يزعم أحد دعاة النصرانية فى هذا العصر أنها بمعزل من البلاغة بأن كل ما بعد الصراط المستقيم فيها « حشو وتحصيل حاصل » وما قبله يمكن اختصاره بما لايضيع شيئا من معناه ، كما فعله بعضهم ـ قال هذا القول داعية من المبشرين المأجورين من قبل جمعيات التبشير الإنكليزية والاميركانية فى كتاب لفقه فى إبطال إعجاز القرآن بزعمه : بل أنكر بلاغته من أصلها قال :

« وما أحسن قول بعضهم أنه لو قال : الحمد للرحمن ، رب الأكوان ، الملك الديان ، لك العبادة وبك المستعان ، اهدنا صراط الإيمان . لأوجز وجمع كل المعنى وتخلص من ضعف التأليف والحشو والخروج عن الردىء كما بين الرحيم ونستعين » اهـ

أقول لقد كان خيراً لهذا المتعصب المأجور لإضلال عوام المسلمين على شرط أن لايذكر اسمه فى كتيبه ، ولا يفضح نفسه بين قومه ، أن يختصر لمستأجريه آلهتهم وكتبهم التى صدت جميع مستقلى الفكر من أقوامهم وشعوبهم عن دينهم بل صدت بعضهم عن كل دين ، فان اختصار الدرارى السبع فى السماء ، أهون من اختصار آيات الفاتحة السبع فى الأرض . وحسب العالم من فضيحته إيراد سخافته هذه وتشهيره بها لو كان حياً يمشى بين الناس .

وأما العامىّ الجاهل ، الذى قد يغتر بقول كل قائل ، ولا سيما إذا كان فى الطعن بغير دينه ، فربما يحتاج إلى التنبيه لبعض فضائح هذا الاختصار ، وإن كانت لاتخفى على أولى الأبصار ، ونكتفى منه بما يلى :

(١) إن أول شىء اختصره هذا الجاهل المتعصب وجعل ذكره مطعنا فى فاتحة القرآن اسم الجلالة الأعظم (الله) الذى لايغني عنه سرد جميع أسماء الله الحسنى ! فانه هو اسم الذات ، الملاحظ معه اتصاف تلك الذات بجميع صفات الكمال إجمالا

(٢) إنه اختصر اسم الرحيم وقد بينا فائدته وأن اسم الرحمن لايغنى عنه ،

وأنى لمثله أن يعلمه ؟ ويراجع الفرق بينهما فيما تقدم .

(٣) أنه استبدل الأكوان بالعالمين وليس فى هـذا اختصار ، وإنما فيه استبدال الذى هو أدنى ، بالذى هو خير وأولى ، فان الأكوان جمع كون وهو فى الأصل مصـدر لايجمع ، وله معان لايصح إضافة اسم الرب اليها منها الحدث والصيرورة والـكفالة ، ويطلقه عرب الجزيرة على الحرب لعلمهم لايستعملونه فى غيرها ، وأما العالمون فجمع عالم وفى إشتقاقه التذكير بكونه علامة ودليلا على وجود خالقه ، وفى جمعه جمع العقلاء تذكير للقارىء بما فى كلمة الرب من معنى تربيته جل جلاله وعم نواله للأحياء ولاسيما الناس ، وكونهم يشكرونه عليها بقدر استعمال عقولهم ، ولذلك قال بعض الأعلام إن لفظ العالمين عام مستعمل هنا فى الخاص وهو عالم البشر ، وراجع سائر تفسيره المتقدم .

(٤) أنه استبدل « كلمة » الديان بكلمة (يوم الدين) وهى لاتقوم مقامها ، ولا تفيد مافيها من المعانى المطلوبة لذاتها ، فان للديان فى اللغة معانى منها القاضى والحاسب أو المحاسب والقـاهر . وغاية ما يفيده وصف الرب بأنه حاكم يدين عباده ويجزيهم . وأما يوم الدين فانه اسم ليوم معين موصوف فى كتاب الله بأوصاف عظيمة هائلة ، يحاسب الله فيه الخلائق ويحكم بينهم ويجزيهم ، والايمان بهذا اليوم ركن من أركان الدين ، وإضافة ملك ومالك إليه تفيد أن الأمر كله فى ذلك اليوم له وحده فلايملك أحد لأحد فيه شيئا من نفع ولا من كشف ضر كما تقدم تفصيله فى تفسير الآية — فاستحضار هذه المعانى فى النفس له من التأثير المقوى لعقيدة التوحيد المرغب فى العمل الصالح المرهب الزاجر عن الشر ، ماليس لاسم الديان وحده ، ويكفى الانسان فى الجزم بهـذا مشاورة فكره ، ومراجعة وجدانه ، وإن لم يكن يعلم من فنون البلاغة شيئا ، وهل لهذا المبشر المتعصب فكر ووجدان ، يهديه إلى مايجهل من بلاغة القرآن ؟

(٥و٦) انه اختصر قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) بقوله هو : لك العبادة وبك المستعان . وهو أغرب ماجاء به وسماه إيجازاً ، فانه استبدل أربعاً بأربع ، ولكنها أطول منها بزيادة حرف ، وتنقص عنها فى المعنى ، فأين الإيجاز؟ إنه مفقود لفظا ومعنى

إذا أراد بقوله : لك العبادة ـ أنها كلها له تعالى فى الواقع ونفس الأمر، فالجملة غير صحيحه . لأن الذين لا يعبدونه وحده من البشر هم الأكثرون، ومنهم النصارى قوم الطاعن فى دين التوحيد وكتاب التوحيد الأعظم (القرآن) المبدلين لآية التوحيد البليغة. و إن أراد أن العبادة مستحقة لله تعالى وحده فالمعنى صحيح ، ولكنه لا يدل على أن القارىء ، ولا واضع الجملة من القائمين بهذا الحق له تعالى . وأما « إياك نعبد » فإنها تفيد عرض عبادة القارىء مع عبادة جميع المؤمنين الموحدين عليه جل جلاله ، وتقربهم إليه بأنهم يعبدونه ولا يعبدون غيره

وأحيلك فى الفرق بين تأثير هذا وذاك على الوجدان الذى ذكرتك به فى النقد الذى قبله . دع ما فى عرض المؤمن عبادته واستعانته على ربه فى ضمن عبادة جميع المؤمنين واستعانتهم ، من ملاحظة أخوة الايمان وتكافل أهله ، ومن هضم الفرد لنفسه ، ورجاء القبول فى ضمن الجماعة ، وغير ذلك مما يعلم من تفسير الآية .

ومثل هذا يقال فى مسألة الاستعانة ، ويمكن الزيادة عليه من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ، ومنه اختياره المصدر الميمى الذى هو صيغة إسم المفعول (المستعان) على المصدر الأصلى وهو الاستعانة المناسب للفظ العبادة ، ومن جهة ارتباطه بما بعده ، فان طلبنا للهداية من الاستعانة التى أسندناها إلى أنفسنا .

(٧) استبداله «صراط الايمان» بالصراط المستقيم ؛ وهذا أعم منه وأشمل ؛ لأنه يشمل الايمان والإسلام والإحسان : من العقائد والعبادات والآداب ، مع وصفه بالمستقيم الذى لا عوج فيه ، فان بعض الطرق الموصلة إلى المقاصد التى يسمى سالكها مهتديا إلى مقصده فى الجملة ، قد يكون فيها عوج يعوق هذا السالك ، والمستقيم هو أقرب موصل بين طرفين ، فسالكه يصل إلى مقصده فى أسرع وقت، كذلك الطرق المعنوية ، منها الموصل إلى الغاية وغير الموصل ، ومن الموصل ما يوصل بسرعة لعدم العائق ، وما يعترى سالكه الموانع واقتحام العقبات واتقاء العثرات

(٨) أن وصف الصراط المستقيم بكونه الصراط الذى سلكه خيار عباد الله المفلحين ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، مذكر لقارئه بأولئك

الائمة الوارثين ، الذين يجب التأسى بهم ، والسعى للانتظام فى سلكهم ، والتصريح بكونه غير صراط المغضوب عليهم من المعاندين للحق ، وغير الضالين الزائغين عن القصد ، مذكر للقارىء بوجوب اجتناب سبلهم ، لئلا يتردى فى هاويتهم .

***

أين من هذه المقاصد السامية ، الهادية إلى تزكية النفس و إعدادها لسعادة الدنيا والآخرة ، صيغة الصلاة فى ملة هذا المختصر المستأجر ، وهى كما فى انجيل متى (٦ : ٩ — ١٣) « أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ، ولا تدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشرير آمين » اه زاد فى نسخة الأميركان « لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد » وجعلوا هذه الزيادة بين علامتى الكلام الدخيل هكذا (   ) . فمن ذا الذى زادها على كلام المسيح ؟

وقد يقول لهم من لا يؤمن بأن هذه الصيغة منقولة نقلا صحيحاً عن المسيح عليه السلام ، أو من لا يؤمن به نفسه : إنها صلاة ليس فيها من الثناء على الله تعالى مافى فاتحة المسلمين ولا بعضه ، وطلب تقديس اسم الأب و إتيان ملكوته تحصيل حاصل ، فهو لغو لا يليق بالعاقل ، وذكره بصيغة الأمر باللام غير لائق ، — إن لم نقل فى انتقاده ما هو أشد من ذلك وأبعد من ذلك عن اللياقة والأدب مع الرب تبارك وتعالى : طلب كون مشيئته على الأرض كمشيئته فى السماء ، وكونها بصيغة الأمر باللام أيضاً ، فمشيئته تعالى نافذة فى جميع خلقه من سمائه وأرضه بالضرورة ، فلا معنى لطلبها ، وطلب المساواة بين السماء والأرض فيها إن أريد به من كل وجه ، فهو تحكم لا يخفى ما يترتب عليه .

وأما طلب الخبز الكفاف فى كل يوم بصيغة الحصر فهو يفيد أن كل همهم وكل مطلبهم من ربهم ولو لدنياهم هو الخبز الذى يكفيهم ، فأين هذا من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة على أكمل وجه ، لكونه نفس صراط خيار الناس دون شرارهم .

وأما طلب المغفرة — فهو على كونه يليق أن يطلب منه تعالى — ينتقد منه تشبيهها بمغفرة الطالب للمذنب المسىء إليه من وجهين (أحدهما) أن مغفرة الله لعبده أجل وأعظم وأعم من مغفرة العبد لمثله (ثانيهما) أن الذى يغفر لجميع المسيئين إليه نادر ؛ ومن المشاهد أن أكثر الناس يجزون على السيئة إما بمثلها ، وإما بأكثر منها ، فكيف يكلف هؤلاء بمخاطبة ربهم بالكذب عليه ، الذى حاصله أنهم يطلبون أن لا يغفر لهم ؛ لأنهم لا يغفرون للمسيئين إليهم .

قد يقولون : نعم نحن نلتزم هذا ، لأن ديننا يوجب علينا أن نغفر لجميع من أذنب وأساء إلينا ، ونعتقد أن ربنا لا يغفر لنا إذا لم نغفر لهم ؛ لأن من علمنا هذه الصلاة قال بعدها (متى ٦ : ١٤ فانه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى ١٥ وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم)

فنقول : هذا التعبير يدل على وجوب مغفرة جميع الذنوب لجميع الناس عامة كانت أو خاصة ، فأين منكم يامعشر النصارى من يفعل ذلك ؟ وهل يوجد فى الألف أو الألوف منكم واحد كذلك ؟ ألسنا نرى أكثركم ومن تعدونهم أرقاكم وتفتخرون بهم كالافرنج لا يغفرون لأحد أدنى زلة ، بل لا يكتفون بعقاب من يسىء إلى أحد منهم إذا كان من غيرهم بمثل ذنبه ، وانما يضاعفون له العقاب أضعافا بل ينتقمون من أمته كلها إذا كانت ضعيفة لا يمكنها أن تصدهم بالقوة ، فهم لا يمنعهم من الجزاء على السيئة بأضعافها من السيئات ولا من ابتداء الظلم والعدوان إلا العجز

(وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ، والبسملة منها)

فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة أحاديث قولية صحيحة صريحة ، وجرى عليها العمل من أول الإسلام إلى اليوم ، وإن تنازع بعض أهل الخلاف والجدل فى تسمية هذا الواجب فرضاً وعده شرطاً ، وأصح ماورد وأصرحه فيه مارواه الجماعة كلهم من حديث عبادة بن الصامت (رض) أن النبى ﷺ قال « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وفى لفظ رواه الدارقطنى باسناد صحيح « لا تجزىء صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وهو تفسير للفظ الجماعة : فان نفى الصلاة فيه نفى صحتها

ووجهه : أن الحقيقة المؤلفة من عدة أركان ذاتية تنتفى بانتفاء ركن منها ، كقولك: لاوضوء لمن لم يغسل يديه إلى المرفقين ، وقد أجمع المسلمون على العمل بهذا ، فلم يصل النبي ﷺ ولا خلفاؤه وأصحابه ولا التابعون ولا غيرهم من الخلفاء وأئمة العلم صلاة بدون قراءة الفاتحة فيها ، و إنما بحث الحنفية فى تسمية قراءتها فرضا وعدها ركناً بناء على اصطلاحات لهم ردها الجمهور بأدلة صحيحة لامحل لتلخيصها هنا ، وأجابوا عن شبهاتهم النقلية بأجوبة سديدة وأقواها قوله ﷺ للمسىء صلاته « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » قالوا فى الجواب عنه : إنه ثبت فى رواية أخرى أنه قال له « ثم اقرأ بأم القرآن » فهذا مفسر لما تيسر من القرآن ، وأن الفاتحة هى التى كانت متيسرة لجميع المسلمين ، لأنهم كانوا يلقنونها كل من يدخل فى الإسلام ، وقال بعضهم: المراد بما يتيسر منه هنا ما زاد عن الفاتحة ، وفى البخارى عن أبى قتادة «أن النبى ﷺ كان يقرأ الفاتحة فى كل ركعة» والأحاديث المصرحة بأنه كان يقرأ فى الركعة الأولى أم القرآن وسورة كذا - وفى الثانية بعد أم القرآن كذا فى صلاة كذا : كثيرة.

وأما كون البسملة آية من الفاتحة ، فأقوى الحجج المثبتة له : كتابتها فى المصحف الامام الرسمى الذى وزع نسخه الخليفة الثالث على الامصار برأى الصحابة وأجمعت عليه الأمة ، وكذا جميع المصاحف المتواترة إلى اليوم ، والخط حجة علمية كما قال العلامة العضد ، وعليه جميع شعوب العلم والمدنية فى هذا العصر لاحجة عندهم أقوى من حجة الكتابة الرسمية ، ثم إجماع القراء على قراءتها فى أول الفاتحة وإن زعم بعضهم أنها آية مستقلة ، فان هذا رأى ، والعبرة بالعمل ، وهو إذا كان عاما مطرداً من أقوى الحجج . على أن تواترها عن واحد منهم تقوم ما به الحجة على باقيهم وعلى سائر الناس ، فانه إثبات بالتواتر لايعارضه نفى ما . وقد كنا ذكرنا هذه المسألة وآراء أهل الخلاف فيها ونزيدها إيضاحاً فنقول :

قد وردت أحاديث آحادية فى إثبات ذلك ونفيه ترتب عليها اختلاف الفقهاء الذين جعلوا المسألة مسألة مذاهب ، ينصر كل حزب منهم أهل المذهب الذى ينسبون إليه (كل حزب بما لديهم فرحون) ولولا ذلك لاتفقوا ، لأن اثبات

البسملة فى أول الفاتحة فى جميع المصاحف المجمع عليها المتواترة حجة قطعية لاتعارض بأحاديث الآحاد و إن صح سندها .

وأصرح الأحاديث التى استدلوا بها على كون البسملة ليست آية من الفاتحة : مارواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج» يقولها ثلاثا - أى كلمة «فهى خداج» أى ناقصة غير تامة كالناقة تلد لغير التمام - فقيل لأبى هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل ، فاذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله : حمدنى عبدى فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله: أثنى علىّ عبدى . فإذا قال (مالك يوم الدين) قال : مجدنى عبدى . وقال مرة : فوض إلىّ عبدى . و إذا قال (إياك نعبد و إياك نستعين) قال : هذا بينى و بين عبدى ، ولعبدى ماسأل . فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدى ولعبدى ماسأل »

قال النافون : إن الحديث يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة لأنها لو كانت منها لذكرت فى الحديث ، وهو استدلال سلبى لايعارض القطعى المتواتر وهو إثباتها فى المصحف و إجماع القراء على قراءتها معها عند البدء بالختمات ، وثبوت التواتر بذلك ، على أن عدم ذكرها فى الحديث قد يكون لسبب اقتضى ذلك . ومما يخطر فى البال بداهة: أنه كما اكتفى من قسمة الصلاة بالفاتحة دون سائر التلاوة والأذكار والافعال اكتفى من الفاتحة بما لا يشاركها فيه غيرها من السور ، إذ البسملة آية من كل سورة غير (براءة) على التحقيق الذى يدل عليه خط المصحف ، وثم سبب آخر لعدم ذكر البسملة فى القسمة : وهو أنه ليس فيها إلا الثناء على الله تعالى بوصفه بالرحمة ، وهو معنى مكرر فى الفاتحة وذكر فى القسمة . والعمدة فى عدم المعارضة أن دلالة الحديث ظنية سلبية و إثبات البسملة إيجابى وقطعى كما تقدم و إذا كان من علل الحديث المانعة من وصفه بالصحة : مخالفة راويه لغيره من

الثقات فمخالفة القطعى من القرآن المتواتر أولى بسلب وصف الصحة عنه. على أن هذا الحديث هو المعارض بالأحاديث المثبتة لكون البسملة من الفاتحة .

واستدلوا أيضاً بحديث أبى هريرة المرفوع عند أحمد وأصحاب السنن . قال « إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهى « تبارك الذى بيده الملك » قالوا: وإنما هى ثلاثون بدون البسملة. وأجيب بمثل ماقلناه آنفا من أن عدد آيات السور باعتبار ماهو خاص بالسورة وهو مادون البسملة . ويؤيده ماروى عن أبى هريرة من أن سورة الكوثر ثلاث آيات . وقد روى أحمد ومسلم والنسائى من حديث أنس قال « بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يارسول الله ؟ فقال: نزلت علىّ آنفا سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم* إنا أعطيناك الكوثر* فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر) وهذا الحديث ناطق بأن البسملة من سورة الكوثر مع عدم عدها من آياتها لما ذكرنا ، فكونها آية من الفاتحة أولى وهو أصح من حديث أبى هريرة فى سورة الملك ، لأن البخارى أعله بأن عباسا الجشمى راويه لايعرف سماعه من أبى هريرة .

واستدلوا بالأحاديث الواردة فى عدم قراءة النبى ﷺ وخلفائه لها فى الصلاة . وأصرحها : قول عبد الله بن مغفل « صليت مع رسول الله ﷺ ومع أبى بكر ، ومع عمر ، ومع عثمان. فلم أسمع أحداً منهم يقولها » يعنى البسملة. رواه أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه عن ابن عبد الله بن مغفل وهو مجهول، فقد كان له سبعة أولاد وهذه علة تمنع صحة الحديث. قالوا :وقد تفرد به الجريرى وقيل. إنه قد اختلط بأخرة . وقد يفسر بما ترى فيما قالوه فى الحديث الذى بعده .

وفى معناه حديث أنس فى إحدى الروايات قال « صليت مع النبى ﷺ وأبى بكر ، وعمر ، وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه أحمد ومسلم . قال فى المنتقى : وفى لفظ « صليت خلف النبى ﷺ وخلف أبى بكر وعمر وعثمان فكانوا لايجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم » رواه أحمد والنسائى بإسناد على شرط الصحيح . ولأحمد ومسلم « صليت خلف النبى ﷺ

وأبى بكر وعمر وعثمان ، وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا آخرها » ولعبد الله بن أحمد فى مسند أبيه عن شعبة عن قتادة عن أنس قال« صليت خلف رسول الله وخلف أبى بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يستفتحون القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم » قال شعبة قلت لقتادة: أنت سمعته من أنس؟ قال: نعم نحن سألناه عنه. وللنسائى عن منصور ابن زاذان عن أنس قال « صلى بنا رسول الله ﷺ فلم يسمعنـا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم،وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمعها منهما » اه

قال الشوكانى فى شرح الحديث : ورواية « فكانوا لايجهرون » أخرجهـا أيضاً ابن حبان والدارقطنى ، والطحاوى والطبرانى. وفى لفظ لابن خزيمة «كانوا يسرون » ـ وقوله « كانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين » هذا متفق عليه . و إنما انفرد مسلم بزيادة «لايذكرون بسم الله الرحمن الرحيم» وقد أعل هذا اللفظ بالاضطراب ، وفسر بأن جماعة من أصحاب شعبة رووه عنه به، وجماعة رووه عنه بلفظ : فلم أسمع أحداً منهم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ثم نقل عن الحافظ أن بعضهم رواه باللفظين ومن خرج كل رواية.

أقول وقد جمعوا بين الروايات بأن المراد بالاستفتاح بالحمد لله الاستفتاح بهذه السورة فقد صح التعبير عنها فى حديث آخر بجملة الحمد لله . . و بأن عدم سماعها سببه عدم الجهر بها، وقد يكون له سبب آخر وهو البعد عن أول الصف ومن العادة أن يكون صوت القارىء خافتا فى أول القراءة . وسبب ثالث وهو اشتغال المأموم عن السماع بالتحرم ودعاء الافتتاح .

وقد عورض وأعلّ حديث أنس على اضطراب متنه بما يأتى عنه من مخالفته له فى صفة قراءة النبي ﷺ و بما رواه الدارقطنى وصححه عن أبى سلمة. قال: سألت أنس بن مالك « أكان رسول الله ﷺ يستفتح بالحمدلله رب العالمين،أو ببسم الله رب الرحمن الرحيم ؟ فقال إنك سألتنى عن شىء ماأحفظه وما سألنى عنه أحد قبلك.فقلت : أكان رسول الله ﷺ يصلى فى النعلين؟ قال نعم» قالوا : وعروض النسيان فى مثل هذا غير مستنكر فقد حكى الحازمى عن نفسه أنه حضر جامعاً

وحضره جماعة من أهل التمييز المواظبين فى ذلك الجامع ، فسألهم عن حال إمامهم فى الجهر والإخفات — قال : وكان صيتاً يملأ صوته الجامع — فاختلفوا فى ذلك فقال بعضهم : يجهر ، وقال بعضهم : يخفت اه

أقول : ولم يختلف هؤلاء المصلون فى صلاة واحدة ، بل فى جميع الصلوات ، وسبب ذلك الغفلة والناس عرضة لها ، ولاسيما الغفلة عن أول صلاة الإمام ، إذ يكون المأمومون مشغولين بمثل مايشغله من الدخول فيها وقراءة دعاء الافتتاح كما تقدم آنفاً .

وأما أحاديث إثبات كون البسملة من الفاتحة، فمنها : مارواه البخارى عن قتادة قال : سئل أنس « كيف كانت قراءة النبى ﷺ ؟ فقال : كانت مداً ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ويمدّ بالرحمن ويمد بالرحيم وروى عنه الدارقطنى من طريقين « أن النبى ﷺ كان يجهر بالبسملة » .

ومنها : حديث أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت « كان يقطع قراءته آية آية : بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » رواه أحمد وأبو داود بهذا اللفظ وغيرهما .

ومنها مارواه النسائى وغيره عن نعيم المجمر . قال « صليت وراء أبى هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ثم قرأ بأم القرآن — وفيه يقول إذا سلم : والذى نفسى بيده إنى لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والحاكم ، وقال: على شرط البخارى ومسلم وأقره الحافظ الذهبى . وقال البيهقى : صحيح الإسناد وله شواهد . وقال أبو بكر الخطيب فيه : ثابت صحيح لايتوجه عليه تعليل ، وروى عن أبى هريرة حديثان آخران بمعناه ، وثق بعضهم جميع رجالها وتكلم بعضهم فى بعضهم .

ومنها : حديث على (رض) سئل عن السبع المثانى فقال (الحمد لله رب العالمين) قيل إنما هى ست فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه الدارقطنى وإسناده كلهم ثقات لم يطعنوا فى أحد منهم . وله حديثان آخران عنه وعن عمار ابن ياسر فى إثبات جهر النبى ﷺ بالبسملة فى صلاته قد تكلموا فى سندها .

ومنها : حديث أنس « سمعت رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم » رواه الحاكم وقال : ورواته عن آخرهم ثقات ، وأقره الحافظ الذهبي .

وقد أورد الشوكانى فى نيل الأوطار هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها من الروايات الضعيفة الأسانيد الصحيحة المتون ، وذكر حمل الروايات الصحيحة من أحاديث النفى المعارضة لها على عدم الجهر بالبسملة من باب حمل المطلق على المقيد وهو ترك الجهر ، ثم قال :

« وإذا كان محصل أحاديث نفى البسملة هو نفى الجهر بها ، فمتى وجدت رواية فيها إثبات الجهر قدمت على نفيه . قال الحافظ ـ ابن حجر ـ لا بمجرد تقديم رواية المثبت على النافى ـ أى كما هى القاعدة ـ لأن أنساً يبعد جداً أن يصحب النبى ﷺ مدة عشر سنين ويصحب أبا بكر وعمر وعثمان خمساً وعشرين سنة فلا يسمع منهم الجهر بها فى صلاة واحدة ، بل لكون أنس اعترف بأنه لا يحفظ هذا الحكم ، كأنه لبعد عهده به لم يذكر منه إلا الجزم بالافتتاح بالحمد لله جهراً ، يستحضر الجهر بالبسملة ، فيتعين الأخذ بحديث من أثبت الجهر اهـ .

أقول : وقد تقدم نص الرواية عنه بنسيان هذا الحكم آنفا فعد حديثه مضطربا لا يحتج به . قال الحافظ ابن عبد البر بعد سرده روايات حديثه : فى الاستذكار : هذا الاضطراب لا تقوم معه حجة . . وقد سئل عن ذلك أنس فقال : كبرت سنى ونسيت . اهـ

وقد روى الطبرانى فى الكبير والأوسط فى سبب ترك النبى ﷺ للجهر بالبسملة فى الصلاة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس « أنه ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، وكان المشركون يهزؤن بمكاء وتصدية ، ويقولون : محمد يذكر إله اليمامة — وكان مسيلمة الكذاب يسمى رحمن — فأنزل الله (ولا تجهر بصلاتك) فتسمع المشركين فيهزؤا بك (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم . وقد قال فى مجمع الزوائد : إن رجاله موثقون . وقال الحكيم الترمذى . فبقى ذلك إلى يومنا هذا على ذكر الرسم وإن زالت العلة . وجمع به القرطبى بين الروايات .

وقال ابن القيم فى زاد المعاد «إن النبي ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة و يخفيها أ كثر مما جهر بها الخ. وهذا القول معقول ، و إذا صح أن سببه ما رواه الطبرانى واعتمده القرطبى والنيسابورى والحكيم الترمذى يكون ترك الجهر فى أول الإسلام بمكة وأوائل الهجرة والجهر فيما بعده ، وقد علمت ما فى حديثى أنس وأبي قتادة المخالفين لهذا .

ولا يغرّن أحداً قول العلماء أن منكر كون البسملة من الفاتحة أو من كل سورة لا يكفر ومثبتها لا يكفر فيظن أن سبب هذا عدم ثبوتها بالدليل القطعى ، كلا إنها ثابتة ولكن منكرها لا يكفر لتأويله الدليل القطعى بشبهة المعارضة التى تقدمت و بينا ضعفها ، وسنزيده بيانا والشبهة تدرأ حد الردة .

وجملة القول أن اختلاف الروايات الآحادية فى الإسرار بالبسملة والجهر بها قوى ، وأما الاختلاف فى كونها من الفاتحة أو ليست منها فضعيف جداً جداً و إن قال به بعض كبار العلماء ذهولا عن رسم المصحف الإمام القطعى المتواتر والقراءات المتواترة التى لا يصح أن تعارض بروايات آحادية ، أو بنظريات جدلية وأصحاب الجدل يجمعون بين الغث والسمين و بين الضدين والنقيضين ، وصاحب الحق منهم يشتبه بغيره ، و ربما يظهر عليه المبطل بخلابته ، إذا كان ألحن بحجته .

وقد ذكر الرازى فى تفسيره سبع عشرة حجة على إثبات كون البسملة من الفاتحة منها القوية والضعيفة وتصدى له الألوسى محاولا دحضها تعصباً لمذهبه الذى تنحله فى الكبر إذ كان شافعياً فتحول حنفياً تقربا إلى الدولة وصرح بهذا التعصب إذ قال هنا «على المرء نصرة مذهبه والذب عنه» الخ وهذه كبرى زلاته ، المثبتة لعدم استقلاله بعدم طلبه الحق لذاته . حتى إنه مارى فى حجة إثبات البسملة فى أولها بخط المصحف المتواتر فجعلها دليلا على كونها من القرآن دون كونها من الفاتحة ، وهو من تمحل الجدل فلا معنى لكونها آية مستقلة فى القرآن ألحقت بسوره كلها إلا واحدة وليست فى شىء منها ولا فى فاتحته التى اقتدوا بها فى بدء كتبهم كلها ، إنه لقول واه تبطله عباداتهم وسيرتهم ، و ينبذه ذوقهم ، لولا فتنة الروايات والتقليد فتعارض الروايات اغتر به أفراد مستقلون ، و بالتقليد فتن كثيرون ، ولله فى خلقه شئون .

على أن الألوسى حكم وجدانه واستفتى قلبه فى بعض فروع المسألة ، فأفتاه بوجوب قراءة الفاتحة والبسملة فى الصلاة ، وخانه فى كونها آية منها ، وأورد فى حاشية تفسيره على ذلك إشكالا استكبره جد الاستكبار وما هو بكبير ، فنحن نذكر عبارتيه ، ونقفى عليهما بالرد عليه ، قال فى تفسيره روح المعانى :

« وبالجملة يكاد أن يكون اعتقاد كون البسملة جزءاً من سورة [1] من الفطريات (!!) كما لايخفى على من سلم له وجدانه (!!) فهى آية من القرآن مستقلة ولا ينبغى لمن وقف على الأحاديث أن يتوقف فى قرآنيتها ، أو ينكر وجوب قراءتها و يقول بسنيتها ، فوالله لو ملئت لى الأرض ذهبا لا أذهب إلى هذا القول و إن أمكننى بفضل الله توجيهه (!!) كيف وكتب الأحاديث ملأى بما يدل على خلافه . وهو الذى صح عندى عن الإمام ـ يعنى إمامه الجديد أبا حنيفة رحمه الله تعالى ـ والقول بأنه لم ينص بشىء ليس بشىء ، وكيف لاينص إلى آخر عمره فى مثل هذا الأمر الخطير الدائر عليه أمر الصلاة من صحتها أو استكمالها ، ويمكن أن يناط به بعض الأحكام الشرعية ، وأمور الديانات كالطلاق والحلف والعتق. وهو الإمام الأعظم ، والمجتهد الأقدم ، رضى الله عنه » ؟

وكتب فى حاشيته عند قوله : فهى آية من القرآن مستقلة ما نصه :

استشكل بعضهم الإثبات والنفى ؛ فان القرآن لايثبت بالظن ولا ينفى به . وهو إشكال كالجبل العظيم (؟) وأجيب عنه أن حكم البسملة فى ذلك حكم الحروف المختلف فيها بين القراء السبعة قطعية الاثبات والنفى معاً (!!) ولهذا قرأ بعضهم بإثباتها و بعضهم بإسقاطها ، و إن اجتمعت المصاحف على الاثبات ، فإن من القراءات ما جاء على خلاف خطها كالصراط ومصيطر فانهما قرئا بالسين ولم يكتبا إلا بالصاد (وما هو على الغيب بضنين) تقرأ بالظاء ولم تكتب إلا بالضاد ففى

---

(١) كذا فى الأصل المطبوع فى المطبعة الأميرية عن نسخته الخطية . وهو تعبير ركيك كما ترى ، والجزء يصدق ببعض الآية كالذى فى سورة النمل وهو لاخلاف فيه ولا معنى لجعله من قبيل الفطريات . وإنما الذى يقرب منها كونها آية من كل سورة إلا براءة . وأقوى منه كونها آية من الفاتحة .

البسملة التخيير . وتتحتم قراءتها فى الفاتحة عند الشافعى احتياطا (!!) وخروجا من عهدة الصلاة الواجبة بيقين لتوقف صحتها على ما سماه الشرع فاتحة الكتاب . فافهم والله أعلم بالصواب » اه

أقول : نعم إن الله أعلم بالصواب ، وقد وفق لعلمه أولى الألباب ، وهم (الذين يستمعون القول : فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب) دون الذين يستمعون القول فيتبعون منـه ماوافق رواية فلان ، ورأى فلان ، و يوجبون على أنفسهم نصره ولو بتأويل مامضت به السنة العملية وثبت بنص القرآن ، ولولا عصبية المذاهب عند المقلدين ، والغرور بظواهر بعض الروايات عند الاثريين ، لما اختلف أحد من الفريقين فى هذه المسألة ونحمد الله تعالى أن اختلافهم فيها قولى جدلى لاعملى .

سبحان الله ! ماأعجب صنع الله فى عقول البشر ! أيقول السيد محمود الألوسى العالم الذكى النزاع إلى استقلال الفكر فى كثير من مسـائل التفسير ، بالرغم من رضائه بمهانة جهالة التقليد : إن استشكال الجمع بين الإثبات والنفى القطعيين فى مسألة البسملة « إشكال كالجبل العظيم » ؟ ثم يرضى بالجواب عنه بما يقرر به الجمع بين الإثبات والنفى القطعيين .

سبحان الله ! إن الجمع بين النفى والاثبات هو التناقض الحقيقى الذى يعز إيراد مثال للمحال العقلى مثله ، فكيف يصدر القول به عن عالم أو عن عاقل ؟

إن الاشـكال الذى نظر إليه المفسر بعينى التقليد العمياوين فرآه كالجبل العظيم : هو فى نفسه صغير حقير ضئيل قمىء خفى كالذرة من الهباء ، أو كالجزء لايتجزأ من حيث كونه لايرى ولا يثبت إلا بطريقة الفرض ، أو كالعدم المحض والجواب الحق : أنه لم ينف أحد من القراء كون البسملة من الفاتحة نفياً حقيقياً برواية متواترة عن المعصوم ﷺ تصرح بأنها ليست من الفاتحة ــ كما يقول بعض الناس بشبهة عدم رواية بعض القراء لها ، وشبهة تعارض الروايات الآحادية التى ذكرنا أقواها والمخرج منهـا ــ أو ليست إلا جزء آية من سورة النمل ، كما زعم من لاشبهة لهم على النفى تستحق أن يجاب عنها

وإنما أثبت بعض القراء بالروايات المتواترة أن البسملة آية من الفاتحة و بعضهم لم يرو ذلك بأسانيده المتواترة ، وعدم نقل الإثبات للشيء ليس نفياً لذلك الشيء، لارواية ولا دراية . وأعم من هذا : ماقاله العلماء من أن بين عدم إثبات الشيء وبين إثبات عدمه بونا بعيداً كما هو معلوم بالضرورة . ولو فرضنا أن بعضهم روى التصريح بالنفي لجزمنا بأن روايته باطلة سببها أن بعض رجال سندها اشتبه عليه عدم الاثبات باثبات النفي ، إذ يستحيل عقلا أن يكون الامران المتناقضان قطعيين معاً ، ورواية الاثبات لا يمكن الطعن فيها ، وناهيك وقد عززت بخط المصحف الذى هو بتواتره خطاً وتلقينا أقوى من جميع الروايات القولية وأعصى على التأويل والاحتمال ، وأما القول بأنها آية مستقلة بين كل سورتين للفصل بينهما ما عدا الفصل بين سورتى الأنفال و براءة ، فما هو إلا رأى للجمع بين الروايات الآحادية الظنية المتعارضة ، و يمكن الجمع بغيره مما لا إشكال فيه ، إذ لو كانت البسملة للفصل بين السور لم توضع فى أول الفاتحة ولم تحذف من أول براءة للعلة التى ذكرناها عنهم فى هذا البحث فهى لا تتحقق إلا إذا كانت البسملة من السورة ، وزد على ذلك ما أوردناه من المعانى والحكم فى بدء القرآن بها، وماصح مرفوعا من كونها هى السبع المثانى

وأما الجواب الذى نقله الألوسى وارتضاه فلا يستغرب صدوره ولا إقراره ممن يثبت الجمع بين النقيضين المنطقيين و يفتخر بأنه يمكنه توجيه ما يعتقد بطلانه. على أنه جواب عن إشكال غير وارد ، و بعبارة أخرى ليس جوابا عن إشكال إذ لا إشكال . والخلاف بين القراء فى مثل السراط والصراط ومسيطر ومصيطر ، وضنين ، وظنين ، ليس خلافا بين النفى والاثبات كمسألة البسملة بل هى قراءات ثابتة بالتواتر ، فأما ضنين وظنين فهما قراءتان متواترتان ــ كمالك وملك فى الفاتحة ــ كتبت قراءة الضاد فى مصحف أبىّ وهو الذى وزع فى الأمصار وقرأ بها الجمهور، وقراءة الظاء فى مصحف عبدالله بن مسعود وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى. ولكل منهما معنى وليستا من قبيل تسهيل القراءة لقرب المخرج كما سيأتى فى بيان الفرق بين مخرجى الحرفين قريبا ، وأما السراط والصراط ومسيطر ومصيطر فلا فرق بينهما الا تفخيم السين وترقيقه و بكل منهما نطق بعض العرب وثبت به النص فهو من قبيل ما

صح من تحقيق الهمزة وتسهيلها ، ومن الامالة وعدمها ، فلا تنافى بين هذه القراءات فيعد إثبات إحداها نفياً لمقابلتها كما هو بديهى. على أن خط المصحف أقوى الحجج فلو فرضنا تعارض هذه القراءات لكان هو المرجح ، ولكن لا تعارض ولله الحمد

نكتفى بهذا رداً لما فى كلام الآلوسى وأمثاله من الخطأ فان غيره لا يعنينا فى موضوعنا ولا سيما مارجحه عن إمامه وخالف فيه غيره ، وعلله باطلاقهم عليه لقب الامام الأعظم ، وزيادته هو عليهم لقب المجتهد الاقدم ، مع علمه بأن علماء الصحابة والتابعين أقدم منه اجتهاداً ، وأن هذه الألقاب وإن صح معناها لاتقتضى عدم الخطأ ولا عدم النسيان ولا إهمال بعض المسائل المهمة. ونحن يسرنا أن يصح ما ذكره ، وأن يخطىء من أنكره ، فان من المصائب أن يوجد فى المسلمين عالم ينكر ماثبت فى خط المصحف المتواتر كتابة ورواية. وقد نقل الرازى أن أبا حنيفة ليس له نص فى المسألة « وإنما قال : يقرأ البسملة ويسر بها ، ولم يقل إنها آية من أول السورة أم لا . (قال الرازى) وسئل محمد بن الحسن عن بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال : ما بين الدفتين كلام الله . قال (أى السائل له) فلم تسره ؟ قال فلم يجبنى . وقال الكرخى : لا أعرف هذه المسألة بعينها لمتقدمى أصحابنا ، إلا أن أمرهم بإخفائها يدل على أنها ليست من السورة . وقال بعض فقهاء الحنفية : تورع أبو حنيفة وأصحابه عن الوقوع فى هذه المسألة لأن الخوض فى أن البسملة من القرآن أو ليست منه أمر عظيم ، فالأولى السكوت عنه اه

أقول : من الخطأ البين الاستدلال بأمر بعض الفقهاء بإخفاء البسملة على كونها ليست من القرآن ، مع الاجماع على أن ما بين دفتى المصحف قرآن منزل من الله . على أن الروايات الصحيحة فى الأحاديث فيها الجهر بالبسملة والاسرار وروايات الجهر أقوى وأبعد عن التعليل والتأويل

وصفوة القول : أن دلالة المصحف أقوى الدلالات، ترجح على كل ما عارضها من الروايات، ودلالتها قطعية، تؤيدها الروايات المتواترة فى إثباتها، والاجماع العملى على قراءتها، ولا ينافيها عدم رواية بعضهم لها. فالمسألة قطعية فى نفسها، وإنما جعلوها اجتهادية باختلاف الروايات الآحادية فى قراءتها ، وقد علمت ما فيها والله الموفق للصواب

﴿ فضل الفاتحة وكونها هى السبع المثانى ﴾

قال الله تعالى فى سورة الحجر مخاطباً لخاتم النبيين والمرسلين(١٥ : ٧٥ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) وقد ثبت فى الحديث الصحيح والآثار الصحيحة عن الصحابة والتابعين ان السبع المثانى هى سورة الفاتحة ، ومعنى كونها مثانى أنها تثنى وتعاد فى كل ركعة من الصلاة افرضيتها فيها كما تقدم ، وقيل معناه أنها يثني فيها على الله تعالى بما أمر وقيل غير ذلك

فأما الحديث المرفوع فى تفضيلها وكونها هى المرادة بالسبع المثاني فهو مارواه البخارى فى مواضع من صحيحه وأصحاب السنن عن أبي سعيد بن المعلى وروى نحوه مالك والترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة . ذكر أبو سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له وهما فى المسجد « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ـ وفى رواية قبل أن أخرج ـ (قال) ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل « لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ » فقال « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » وفى حديث أبى هريرة أنه ﷺ قال لأبى بن كعب « أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الفرقان مثلها ؟ قال أبى ثم أخذ بيدى يحدثنى وأنا أتبطأ مخافة أن يبلغ الباب قبل أن ينقضى الحديث ولما سأله عن السورة قال « كيف تقرأ فى الصلاة ؟ » فقرأت عليه أم الكتاب فقال « انها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » وفيه إزالة إشكال فى حديث أبى سعيد بن المعلى وهو أن ظاهره يوهم أنه لم يكن يعرف الفاتحة مع أنه كان يصلى فى ذلك اليوم وقبله فهو من الأنصار ـ وقد علم من حديث أبى هريرة ان المراد بتعليمه هذه السورة تعليمه ما فيها من الفضيلة على غيرها وكونها هى المرادة بآية سورة الحجر . وأما عطف القرآن على سبعاً من المثانى فهو من عطف الكل على الجزء أو العام على الخاص ، وقيل فى توجيهه غير ذلك.

وقد تعلق برواية « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى » من قالوا إن البسملة ليست من الفاتحة وعكس الآخرون قائلين إن المراد بالجملة الأولى لفظها على أنه اسم

السورة و إلا لما صح قوله هى السبع المثانى لأنها آية واحدة و إنما السبع المثاني هى آيات الفاتحة السبع وهى ليست سبعاً إلا بعد البسملة آية منها ، فكونها منها ثابت بالقرآن أى بآية سورة الحجر كما فسرها أعلم الناس به وهو الرسول الذى أنزله الله عليه ، وكبار أصحابه والتابعين والحديث يدل على تسميتها بالحمد لله رب العالمين ، إذ لا يصح معناه إلا بذلك

وأما الآثار فقد فصلها السيوطى فى الدر المنثور وأجملها الحافظ فى الفتح مع بيان درجة أسانيدها بقوله : وقد روى الطبرى بإسنادين جيدين عن عمر ثم عن على قال : السبع المثانى فاتحة الكتاب ـ زاد عن عمر «تثنى فى كل ركعة» و بإسناد منقطع عن ابن مسعود مثله ، و بإسناد حسن عن ابن عباس أنه قرأ الفاتحة ثم قال (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) قال هى فاتحة الكتاب، و بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة ـ ومن طريق جماعة من التابعين : السبع المثانى فاتحة الكتاب . ومن طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال السبع المثانى فاتحة الكتاب قلت للربيع إنهم يقولون : إنها السبع الطول (جمع طولى مؤنث أطول) قال لقد أنزلت هذه الآية وما نزل من الطول شيء . اه

يقول محمد رشيد : يعنى أن سورة الحجر التى فيها هذه الآية قد نزلت بمكة قبل السور السبع الطول وهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ـ المدنيات ـ والأنعام والأعراف ويونس المكيات ، كذا قال بعضهم فى السابعة إنها سورة يونس ، وقال آخرون هى الأنفال و براءة — وعدهما سورة واحدة — وقال بعضهم إن الراوى نسى السابعة عن ابن عباس

والقول بأنها السبع الطول ، رواه النسائى والطبرى والحاكم عن ابن عباس بإسناد قوى كما قال الحافظ . ولا حاجة إلى التفصيل فيه فإنه مردود لمخالفته للحديث الصحيح المرفوع ، ولا قول لأحد مع قول الرسول ﷺ ومنه يعلم أن قوة الاسناد لاقيمة لها تجاه الدليل القوى على بطلان متن الرواية

﴿ استدراك على تفسير المغضوب عليهم والضالين ﴾

ورد فى الحديث المرفوع تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى ، رواه أحمد والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه وغيرهم ، ونقلنا عن شيخنا الاستاذ الامام (ص ٦٦) عزوه إلى بعضهم ، أى بعض المفسرين ، وهو يريد أن بعض المفسرين اختار أن هذا هو المعنى المراد ، وهو لم يكن يجهل أن هذا روى مرفوعا ولكنه كان يعلم مع هذا أن أكثر المفسرين فسروا اللفظين بما يدلان عليه لغة حتى بعض أهل الحديث منهم، وكأنهم لم يروا أن الحديث صحيح ، فقد قال البغوى الملقب بمحيي السنة فى تفسيره (معالم التنزيل) بعد تفسيرهما بمدلولها اللغوى : وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى ، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال (من لعنه الله وغضب عليه) وحكم على النصارى بالضلال فقال (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) وقال سهل بن عبد الله : غير المغضوب عليهم بالبدعة ، ولا الضالين عن السنة . اهـ فعبر عن هذا القول بقيل الدال على ضعفه عنده ولم يستدل عليه بالحديث .

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بـ « لا » ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى اهـ .

و بعد كلام طويل فى إعراب « غير » و « لا » قال : إنما جيء بلا لتأكيد النفى لئلا يتوهم أنه معطوف على (الذين أنعمت عليهم) وللفرق بين الطريقتين لتجتنب كل واحدة منهما ، فان طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم [1] ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى — واستشهد بالآيتين اللتين استشهد بهما البغوى ، ثم ذكر

(١) يعنى علم الدين وأساسه التوحيد

الحديث ورواياته وهو عند أحمد والترمذى ، وكذا ابن حبان من طريق سماك ابن حرب عن عدى بن حاتم قال الترمذى: حسن غريب لانعرفه إلا من حديثه . وسماك ضعفه جماعة ووثقه آخرون ، واتفقوا على أنه تغير فى آخر عمره بل خرف ، فما رواه فى هذه الحال فلا جدال فى رده بالاتفاق ، وأخرجه ابن مردويه عن أبى ذر أيضا بسند قال الحافظ فى الفتح: إنه حسن. وقال ابن أبى حاتم: إنه لا يعرف فى تفسيرهما بما ذكر خلافا يعنى فى المأثور . ومع هذا نقول إن ما ذكره المحققون من الوجوه الأخرى لا يعد مخالفة للمأثور الذى هو من قبيل تفسير العام ببعض أفراده من قبيل التمثيل لا التخصيص ، ولا الحصر بالأولى

﴿ التأمين بعد الفاتحة ﴾

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال ابن شهاب : كان رسول الله ﷺ يقول « آمين » رواه الجماعة إلا أن الترمذى لم يذكر قول ابن شهاب . وفى رواية « إذا قال الامام (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا: آمين ، فان الملائكة تقول آمين ، وإن الامام يقول آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه احمد والنسائى . وعن أبى هريرة قال « كان رسول الله ﷺ إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: آمين . حتى يسمع من يليه من الصف الأول » رواه أبو داود وابن ماجه وقال « حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد » وعن وائل بن حجر قال « سمعت رسول الله ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال : آمين. يمد بها صوته » رواه احمد وأبو داود والترمذى اهـ منتقى الأخبار

وهذه الأحاديث كلها صحيحة وأخرجها غير من ذكر ، وزاد أبو داود فى الأخير منها « ورفع بها صوته » قال الحافظ ابن حجر: وسنده صحيح . وخطأ ابن القطان فى إعلانه إياه بجهالة حجر بن عنبس وقال إنه ثقة معروف قيل: إن له صحبة وهنالك أحاديث أخرى فى المسألة تبلغ مع هذه سبعة عشر حديثا . وهذه أصحها

قال الشوكانى فى نيل الأوطار عند شرح حديث أبى هريرة الأول: والحديث يدل على مشروعية التأمين. قال الحافظ : وهذا الأمر عند الجمهور للندب ، وحكى ابن بزيزة عن بعض أهل العلم وجوبه عملا بظاهر الأمر ، وأوجبته الظاهرية على كل من يصلى ، والظاهر من الحديث: وجوبه على المأموم فقط ، لكن لامطلقا بل مقيداً بأن يؤمن الإمام ، وأما الإمام والمنفرد فمندوب فقط

(قال) وحكى المهدى فى البحر عن العترة جميعاً أن التأمين بدعة ـ وقد عرفت ثبوته عن على رضى الله عنه من فعله وروايته عن النبى ﷺ فى كتب أهل البيت وغيرهم ـ على أنه قد حكى السيد العلامة الامام محمد بن ابراهيم الوزير عن الامام المهدى محمد بن المطهر وهو أحد أئمتهم المشاهير أنه قال فى كتابه (الرياض الندية) إن رواة التأمين جم غفير — قال ـ وهو مذهب زيد بن على وأحمد ابن عيسى اه وقد استدل صاحب البحر على أن التأمين بدعة بحديث معاوية ابن الحكم السلمى « إن هذه صلاتنا لايصلح فيها شىء من كلام الناس » ولا شك أن أحاديث التأمين خاصة وهذا عام ، وإن كانت أحاديثه الواردة عن جمع من الصحابة لايقوى بعضها على تخصيص حديث واحد من الصحابة — مع أنها مندرجة تحت تلك العمومات القاضية بمشروعية مطلق الدعاء فى الصلاة لأن التأمين دعاء ، فليس فى الصلاة تشهد ، وقد أثبتته العترة ، فما هو جوابهم فى إثباته فهو الجواب فى إثبات ذلك . على أن المراد بكلام الناس فى الحديث هو تكليمهم لأنه اسم مصدر كلم لاتكلم و يدل على ذلك السبب المذكور فى الحديث اه

والمراد بقوله السبب المذكور فى الحديث هو أن معاوية بن الحكم السلمى شمت عاطسا فى الصلاة مع النبى ﷺ فرماه القوم بأبصارهم فقال : واثكل أماه مالكم تنظرون إلى ؟ الخ . وجملة القول : أن التأمين فى الصلاة مشروع بنص الأحاديث الصحيحة الصريحة. فلاوجه لمنعه بعموم أحاديث أخرى لاتنافيها ، ولو عارضتها لوجب ترجيحها عليها

واختلف فى موضعه بالنسبة إلى المأموم هل هو بعد قول الامام (ولاالضالين) أم عند قوله « آمين » وهو مبنى على أن بين الحديثين فى ذلك تعارضاً وهو غفلة

عن كون الامام إنما يؤمن بعد قوله (ولا الضالين) كما صرح به فى رواية أحمد والنسائى لحديث أبى هريرة فمعنى الحديثين متفق ، وقوله ﷺ « إذا أمن الامام فأمنوا » مبنى على أن من شأن الامام أن يؤمن عقب إتمام الفاتحة اتباعاً للسنة فلا مفهوم للشرط فيه .

﴿ فائدة فى مخرجى الضاد والظاء وحكم تحريف الأول ﴾

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره . والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما . وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك ، والله أعلم . وأما حديث : أنا أفصح من نطق بالضاد ـ فلا أصل له اه

وأقول : إن أكثر أهل الامصار العربية قد أرادوا الفرار من جعل الضاد ظاء كما يفعل الترك وغيرهم من الأعاجم فجعلوها أقرب إلى الطاء منها إلى الضاد حتى القراء المجودون منهم . إلا أهل العراق وأهل تونس فهم على ما نعلم أفصح أهل الامصار نطقا بالضاد ، وإننا نجد أعراب الشام وما حولها ينطقون بالضاد فيحسبها السامع ظاء لشدة قربها منها وشبهها بها . وهذا هو المحفوظ عن فصحاء العرب الأولين حتى اشتبه نقلة العربية عنهم فى مفردات كثيرة قالوا إنها سمعت بالحرفين وجمعها بعضهم فى مصنف مستقل . والأشبه أنه قد اشتبه عليهم أداؤها منهم فلم يفرقوا ، والفرق ظاهر ولكنه غير بعيد

وقد قرىء قوله تعالى فى سورة التكوير (وما هو على الغيب بضنين) بكل من الضاد والظاء ، والضنين البخيل . والظنين المتهم ، وفائدتهما نفى كل من البخل والتهمة . والمعنى ماهو ببخيل فى تبليغه فيكتم ، ولا بمتهم فيكذب . قال فى الكشاف : وهو فى مصحف عبدالله بالظاء ، وفى مصحف أبى بالضاد ، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما . واتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ، ومعرفة مخرجيهما مما لا بد

منه للقارىء ، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين ، و إن فرقوا ففرقا غير صواب و بينهما بون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الاضراس من يمين اللسان و يساره ، وكان عمر بن الخطاب (رض) أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه ، وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين . وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا . وهى أحد الأحرف الذولقية ، أخت الذال والثاء . ولو استوى الحرفان ، لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءتان اثنتان ، واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب اهـ

وأقول : صدق أبو قاسم الزمخشرى فى تحقيقه هذا كله إلا قوله : إن البون بين الحرفين بعيد ، فالفرق ثابت ولكنه قريب ، وهو يحصل باخراج طرف اللسان بالظاء من بين الثنايا كأختيه الثاء والذال ، ولا شركة بينه و بينهما إلا فى هذا

﴿ التوسع فى الاستنباط من معنى الفاتحة ﴾

إن ما أوردناه أولا فى تفسير الفاتحة من تلخيص لما فهمناه من دروس شيخنا ومما قرأناه فى الكتب ، ثم مازدناه عليه فى أصله وفى هذه الفوائد الزوائد فالغرض منه التفقه فى معانى القرآن والاهتداء به . وقد اقتصدنا فيه فاقتصرنا على مالا يشغل القارىء عن المقصد . وقد أطال الفخر الرازى فى استطرادات عديدة ، ومسائل مستنبطة من لوازم المعانى قريبة أو بعيدة ، ولكنها تشغل مريد الاهتداء بالقرآن ، وأطال ابن القيم فى أول كتابه (مدارج السالكين) القول فى استنباط المسائل منها من طريق الدلالات الثلاث : المطابقة والتضمن والالتزام . وأخذ الثالثة باللزوم البين بالمعنى الأعم وبالمعنى الأخص و باللزوم غير البين أيضاً ، بل سمى كتابه : مدارج السالكين ، بين منازل (إياك نعبد و إياك نستعين) وأجمل ذلك بقوله فى خطبة الكتاب : إنه ينبه «على بعض ماتضمنته هذه السورة من هذه المطالب ، وماتضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع و الضلال ، وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها . وغاياتها ، ومواهبها

وكسبيانها ، و بيان أنه لايقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدّها ، ولذلك لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى القرآن مثلها » ا ه

ومما ذكره فى تفصيل ذلك : فصول فى الرد على أهل الوحدة والمجوس والقدرية والجهمية والجبرية ومنكرى النبوات والقائلين بقدم العالم

والفرق بين هـذه المستنبطات ومستنبطات الرازى أن أكثر تلك فى المصطلحات العربية والعقلية والـكلامية والفقهية ، وأكثر هذه فى المقاصد الروحية التعبدية لتلك المصطلحات والعلوم ، فهى تزيد قارئها ديناً و إيمانا وتقوى ، ولـكن لا يصح أن يسمى شىء منهما تفسيراً للفاتحة ، ولو كنا نعده تفسيراً لاقتبسناه أولخصناه فى هذه الفوائد

وللصوفية منازع فيها أبعد عن اللغة والنقل والعقل من كل ذلك ، جرّأت مثل الدجال ميرزا غلام أحمد القاديانى الذى ادعى النبوة والوحى فى هذا العصر وزعم أنه المسيح الذى ينتظره أهل الملل فى آخر الزمان ، جرأته على ادعاء دلالة البسملة على دعواه الباطلة !! (وقد فندنا شبهة أمثال هؤلاء فى تفسير قوله تعالى (٦: ٣٨ مافرطنا فى الـكتاب من شىء)

وقد ذهب بعض المعاصرين مذهباً أبعد من هذا وذاك فى تفسير الفاتحة وغيرها من القرآن ، فهو يرى أن تفسير لفظ العالمين (مثلا) يقتضى بيان كل ماوصل اليه علم البشر من مدلول هذا اللفظ ، وأن تفسير لفظى (الرحمن والرحيم) يقتضى بيان كل مايعرف من نعم الله و إحسانه بخلقه و إلى خلقه من كل وجه ، فاتبـاع هذا المذهب فى تفسير الفاتحة أو آية أو كلمة منها لايكمل إلا بكتابة ألوف من المجلدات يدوّن فيها كل ما وصل إليه علم جميـع علماء الأرض فى أعيان العالم وصفاتها وأحوالها من أدنى الحشرات إلى أرقى البشر من حـكماء الصديقين ، والانبياء المرسلين ، و إن عندنا مثل هذا من التفسير إضلال عن القرآن ، و إنما يحسن فى التفسير تذكير المؤمن بأن لايغفل عن ذكر الله والتفكر فى آياته ورحمتـه ونعمه فى كل نوع من مخلوقاته ، عند النظر فيها ، والتفكر فى آيات الله الدالة عليها

ونزع بعض الدجالين والمخرفين منزعا آخر سبقهم إليه اليهـود وهو استنباط المعاني من أعداد حروف الهجاء بحساب الجمّل ، قال بعضهم : إن القرآن يدل على

أن قيام الساعة سيكون في سنه ١٤٠٧ للهجرة وهو عدد حروف « بغتة » من قوله تعالى « لا تأتيكم إلا بغتة » ولهؤلاء في الحروف المقطعة في أوائل السور وفي أعدادها ضلالات لا نضيع الوقت بكتابتها ، فلدلالة الألفاظ على المعاني طرق في اللغة لا تخرج عنها ، وليس هذا منها .

﴿ ما ينبغي تدبره واستحضاره من معاني الفاتحة وغيرها في الصلاة ﴾

إذا قمت أيها المسلم إلى الصلاة فوجه كل قلبك فيها إلى استحضار كل ما يتحرك به لسانك من ذكر وتلاوة .

فاذا قلت « الله أكبر » فحسبك أن تذكر في قلبك أن الله تعالى أعظم من كل عظيم ، وأكبر من كل شيء . فلا يصح أن يشغلك عن الصلاة له أو فيها شيء دونه ، وكل شيء دونه .

و إذا قرأت ماورد في ذكر الافتتاح فلا تشغل نفسك بغير معناه وهو ظاهر و إذا استعذت بالله تعالى قبل القراءة عملا بعموم قوله تعالى (١٦: ٩٨ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فتصور من معنى صيغة الاستعاذة أنك تلجأ إلى الله تعالى وتعتصم به من وسوسة الشيطان الشاغلة عن الصلاة وما يجب فيها من التدبر لكتابه والخشوع والإخلاص له تعالى .

و إذا قرأت البسملة فاستحضر من معناها : إنني أصلي (باسم الله) ولله الذي شرع الصلاة وأقدرني عليها (الرحمن الرحيم) ذي الرحمة العامة التي وسعت كل شيء والخاصة بمن شاء من عباده المخلصين .

و إذا قلت (الحمد لله رب العالمين) فاستحضر من معناها أن كل ثناء جميل بالحق فهو لله تعالى استحقاقا وفعلا، من حيث إنه الرب خالق العالمين ومدبر جميع أمورهم . . . (الرحمن) في نفسه (الرحيم) بخلقه (مالك يوم الدين) ذي الملك والتصرف دون غيره يوم محاسبة الخلق ومجازاتهم بأعمالهم فلا يرجى غيره . و إذا قلت (إياك نعبد) الخ فتذكر أنك تخاطب هذا الرب العظيم كفاحا بما يجب أن

تكون صادقا فيه ، ومعناه : نعبدك وحدك دون سواك بدعائك والتوجه إليك (وإياك نستعين) نطلب معونتك وحدك على عبادتك وعلى جميع شؤوننا ، بالعمل بما أعطيتنا من الأسباب ، وبالتوكل عليك وحدك عند العجز عنها (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا وأوصلنا بتوفيقك ومعونتك إلى طريق الحق فى العلم والعمل ، الذى لا عوج فيه ولا زلل (صراط الذين أنعمت عليهم) بالإيمان الصحيح والعمل الصالح وثمرتهما وهى سعادة الدارين ، وتذكر إجمالا أولئك المنعم عليهم « من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين » وأن حظك من هذه الهداية لصراطهم إنما يكون بالتأسى والاقتداء بهم فى الدنيا ، ومرافقتهم فى الآخرة « وحسن أولئك رفيقا » صراط الذين أنعمت عليهم فضلا وإحسانا منك (غير المغضوب عليهم) بإيثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير (ولا الضالين) عن طريق الحق والخير بجهلهم « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وأنصح لك أيها التالى للقرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة أن تقرأه على مكث وتمهل ، بخشوع وتدبر ، وأن تقف على رءوس الآيات ، وتعطى القراءة حقها من التجويد والنغمات ، مع اجتناب التكلف والتطريب ، واتقاء الاشتغال بالألفاظ عن المعانى ، فان قراءة آية واحدة مع التدبر والخشوع ، خير لك من قراءة ختمة مع الغفلة . ومن المجربات : أن تغميض العينين فى الصلاة يثير الخواطر ، ولذلك كان مكروها ــ وأن رفع الصوت المعتدل فى الصلاة الجهرية ولاسيما صلاة الليل يطرد الغفلة ، ويوقظ راقد الخشية ، وإعطاء كل أسلوب حقه من الأداء والصوت يعين على الفهم ، ويستفيض ماغاض بطول الغفلة من شآبيب الدمع

(وراجع بحث تأثير التلاوة فى أول تفسير
سورة الأعراف فى الكلام
على الحروف المفردة)

سورة البقرة ٢

(جميعها مدنية بالإجماع ، ومنها آية نزلت على ماقيل فى حجة الوداع ، وروى أنها آخر آى القرآن نزولا وهى (٢٨١ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الخ ومعظمها نزل فى أول الهجرة . وهى أطول جميع سور القرآن ، فآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات أو ست وعليه عد المصاحف المشهورة الآن. ولا حاجة إلى بيان التناسب بينها و بين الفاتحة ، و إن كان التناسب ظاهراً ، فإنها لم توضع بعدها لأجله، و إنما وضعت فى أول القرآن بعد فاتحته (التى كانت فاتحته بما لها من الخصائص التى بيناها فى تفسيرها) لأنها أطول سورة وتليها بقية السبع الطوال بتقديم المدني منها على المكى، لا الطولى فالطولى ، فإن الأنعام أطول من المائدة وهى بعدها ، والاعراف أطول من الأنعام وقد أخرت عنها ، وقدمت الأنفال على التوبة وهى أقصر منها ، وكلتاهما مدنيتان ، و إنما روعى الطول فى ترتيب سور القرآن فى الجملة لا فى كل الأفراد. وروعى التناسب فى ترتيب ذلك ، و يراه القارىء فى محله من كل منها . ثم مزج المدنى بالمكى فى سائر السور ، لأن اختلاف أسلوبيهما ومسائلهما أدنى إلى تنشيط القارىء ، وأنأى به عن الملل من التلاوة . وهذا من خصائص القرآن .

وقد رأينا أن نستدرك قبل الشروع فى تفسيرها مافاتنا فى آخره من تلخيص ما اشتملت عليه من الدعوة إلى الإسلام ، وما فيها من العقائد والأحكام ، وقواعد الدين وأصول التشريع ، فنقول :

﴿خلاصة سورة البقرة وما فيها من دعوة الاسلام وأحكامه وقواعده﴾

دعوة الإسلام العامة :

بدأ الله عز وجل سورة البقرة بدعوة القرآن ، وكونه حقاً لامجال فيه لشك ولا ارتياب ، وجعل الناس تجاه هدايته ثلاثة أقسام :

(١) المؤمنون وهم قسمان: الذين يؤمنون بالغيب بمجرد سلامة الفطرة و يقيمون ركنى الدين: البدنى الروحى، والمالى الاجتماعى، والذين يؤمنون به بتأثير إيمانهم بما أنزل من

قبله من كتب الرسل، إذ يرونه أكمل منها هداية وأصح رواية ، وأقوى دلالة . ثم فصل هذه الأصول للايمان فى آية (١٧٦ ليس البر الخ) وآيتى (٢٨٤ و ٢٨٥ لله مافى السموات وما فى الأرض) الخ

(٢) الكافرون الراسخون فى الكفر وطاعة الهوى ، الذين فقدوا الاستعداد للايمان والهدى .

(٣) المنافقون الذين يظهرون غير مايخفون ، و يقولون ما لا يفعلون (فهذه آياتها الأولى إلى ٢٠ آية)

وقفى على هذا بدعوة الناس جميعا إلى عبادة ربهم وحده ، وعدم اتخاذ الأنداد له ، الذين يحبون من جنس حبه ، ويذكرون معه فى مقامات ذكره ، ويشركون معه فى مخ العبادة ـ الدعاء ـ أو يدعون من دونه (أنظر الآيتين ٢١ و ٢٢ وآيات الإسلام فى قصة ابراهيم واسماعيل ووصية ابراهيم و يعقوب لأبنائهم من ١٢٤ — ١٣٨ كما يأتى ، والآيات التى سنشير إليها فى خطاب أمة الإجابة من ١٦٣ — ١٧١

ثم ثنى دعوة التوحيد بدعوة الوحى والرسالة واحتج على حقية هذه الدعوة بهذا الكتاب المنزل على عبده محمد ﷺ بتحدى الناس كافة بالاتيان بسورة من مثله ، مع التصريح القطعى بعجزهم أجمعين ؛ ورتب على هذا إنذار الكافرين بالنار ، وتبشير المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وقفى على هذا ببيان بعض الأدلة العقلية على الايمان ، وبخلاصة النشأة الآدمية وعداوة الشيطان للانسان . وتم ذلك بالآية ٣٩

ثم خص بني اسرائيل بالدعوة ، تاليا عليهم مالم يكن يعلمه محمد لولا وحيه تعالى له ، فذكرهم بنعمه ، وأمرهم أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم رسله ، ونهاهم أن يكون المعاصرون له منهم أول كافر به ، وحاجهم فى الدين بتذكيرهم بأيام الله ، و بأهم الوقائع التى كانت لسلفهم مع كليمه ، من كفر و إيمان ، وطاعة وعصيان ، ثم بالتذكير لهم وللعرب بهدى جدهم ابراهيم الخليل ، و بنائه لبيت الله الحرام مع ولده إسماعيل ، ودعائهما إياه تعالى أن يبعث فى الأميين رسولا منهم ،

وبأن علماءهم يعرفون أن محمداً هوالرسول الذى دعا به ابراهيم و بشر بهموسى كما يعرفون أبناءهم ، وبأن فريقا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، أى والفريق الآخر يؤمنون به ، و يعترفون بوعد الله لابراهيم ثم لموسى بقيام نبى من أبناء إخوتهم مثله

بدىء هذا السياق بالآية ٤٠ من السورة (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الخ وانتهى بالآية ١٤٢ منها ، وتخلله بعض الآيات الموجهة المؤمنين للاعتبار بما فيه من شؤون أهل الكتاب السابقين والحاضرين من اليهود بالتفصيل ومن النصارى بالاجمال ، إذ لم يكن أحد منهم مجاوراً ولا مخالطا للمسلمين فى تلك الحال ، فإن نزول البقرة كان فى أول عهد الهجرة . وما تقدم يناهز نصف السورة ، وهو شطرها الخاص بأمة الدعوة ، والشطر الثانى قد وجه لأمة الإجابة

خطاب أمة الاجابة بموضوع الدعوة العام :

كان الانتقال من خطاب أهل الكتاب من أمة الدعوة إلى خطاب أهل القرآن من أمة الإجابة بذكر ماهو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد من نسب ابراهيم والاتفاق على فضله وهدايته ، وكان العرب فى الجاهلية يعترفون بذلك إجمالا كالمسلمين ، ثم بذكر أول مسألة عملية اختلف فيها القومان وهى مسألة القبلة ، فقد كان النبى ﷺ يصلى بمكة إلى الكعبة المشرفة من جهة الشمال حيث تكون بينه وبين بيت المقدس فى بلاد الشام ، وهو قبلة بنى إسرائيل ؛ فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بين استقبال الكعبة التى هى فى جنوبها ، و بيت المقدس الذى هو فى شمالها ، فأعطى الله خاتم رسله سؤله بأمره بالتوجه إلى الكعبة وحدها ومسألة القبلة من شعائر الملة وخصائصها الدينية الاجتماعية ، حتى إن النصارى وهم فى الأصل مع رسولهم (عيسى المسيح عليه السلام) من أتباع شريعة التوراة قد ميزوا أنفسهم دون اليهود بابتداع قبلة خاصة بهم غير قبلة عيسى رسولهم الذى اتخذوه إلهاً لهم وهى صخرة بيت المقدس .

بعد تأكيد أمر القبلة ، وأنه من إتمام النعمة على هذه الأمة بين وظائف الرسول ﷺ وهى كما فى دعاء ابراهيم تبليغ القرآن وتربية الأمة ، وتعليمها الكتابة

والحكمة ، ومالم تكن تعلم من القضاء والسياسة وأمور الدولة . فقال تعالى (١٥١ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) ثم أمرهم بذكره وشكره تعالى ، وبالإستعانة بالصبر والصلاة على النهوض بمهمات الأمور ، وذكر التطواف والسعى بين الصفا والمروة لمناسبة اقتضاها المقام ، ولعن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى بعد تبيينه للناس فى الكتاب ، واستثنى من تاب وأصلح وبين وأناب ، وسجل اللعنة على من مات على كفره ، وكونهم خالدين فى النار لا يخفف عنهم العذاب .

ثم ذكر الأساس الأعظم للدين ، وهو توحيد الآلهية ، بتخصيص الخالق سبحانه بالعبودية ، وهو قوله تعالى (١٦٣ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وقرن ذلك بالتذكير بآياته الكثيرة الدالة عليه فى السموات والأرض وما بينهما ثم ذكر ما يقابل هذا التوحيد مقابلة التضاد ، وهو الشرك باتخاذ الأنداد ، والاعتماد فيه على تقليد الآباء والأجداد ، وشنع على المقلدين والذين يدعون غير الله تعالى من المشركين ، فجردهم من حلية العقل ، وشبههم بالصم البكم العمى . وانتهى هذا بالآية ١٧١ :

ثم أوجب على المؤمنين الأكل من أجناس جميع الطيبات وأمرهم بالشكر له عليها ، وحصر محرمات الطعام عليهم فى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، واستثنى من اضطر إليها ، وانما ذكر هذا فى سياق كليات الدين المجملة لابطال ما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من التحليل والتحريم فيها الذى هو حق الله تعالى بتحكيم الأهواء ، وقفى على هذا كله بوعيد الذين يكتمون ما أنزل الله ، ايذانا بوجوب الدعوة وبيان الحق على كل من آمن بالله ، وتحذيراً مما وقع بين أهل الكتاب من الاختلاف والشقاق والتحريف والنسيان لحظ عظيم مما أنزله الله

وختم هذا السياق العام ببيان أصول البر ومجامعه فى الآية المعجزة الجامعة لكليات العقائد والآداب والأعمال : (١٧٦ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب — الخ)

وقفى عليه بسياق طويل فى الأحكام الشرعية الفرعية بدىء بأحكام القصاص فى القتلى من آية (١٧٧) وانتهى بأحكام القتال وما تقضيه من أمور الاجتماع

وقواعده فى آخر الجزء الثانى من تجزئة القرآن الثلاثينية وسنذكر أنواعها

ثم عاد الكلام على بدئه فى العقائد العامة من الرسالة والتوحيد وحججه والبعث، وفى الأحكام والآداب العامة التى هى سياج الدين ونظام الدنيا ، ورأسها الانفاق فى سبيل الله ، وهى طريق الحق والخير وسعادة الدارين ، والاخلاص فيه وفى سائر الأعمال . ثم عاد إلى الاحكام الفرعية العملية إلى ما قبل ختم السورة كلها بالدعاء المعروف . وهاك بيان مافى السورة من أنواع أحكام الفروع العملية :

خطاب أمة الاجابة بالفروع العملية

كانت الاحكام الشرعية العملية منها تنزل على النبى (ص) عند استعداد الأمة لها بالنسبة إلى العبادات ، وعند الحاجة اليها فى العمل بالنسبة الى المعاملات ، والمذكور منها فى سورة البقرة أنواع ، نلخصها فيما يلى :

(١) إقامة الصلاة وايتاء الزكاة بمدح أهلهما فى الآية ٣ والأمر بهما فى الآية ١١٠

(٢) تحريم السحر ، وكونه فتنة وكفراً أو مستلزما للكفر .

(٣) أحكام القصاص فى القتلى وهو المساواة فيها وحكمته (آيتا ١٧٨ و ١٧٩)

(٤) الوصية للوالدين والأقربين (آيتا ١٨١ و ١٨٢)

(٥) أحكام الصيام مفصلة وقد نزلت فى السنة الثانية للهجرة (آيات ١٨٣–١٨٧)

(٦) تحريم أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها الى الحكام للاستعانة بهم على أكل فريق منها بالاثم كما هو الفاشى فى هذه الازمنة (آية ١٨٨)

(٧) جعل الأشهر الهلالية هى المعتمد عليها فى المواقيت الدينية للناس ، ومنها الصيام والحج وعدة النساء ومدة الايلاء (آية ١٨٩)

(٨) أحكام القتال وكونه ضرورة مقيدة بقتال من يقاتلنا ويهدد حرية ديننا دون غيرهم و بتحريم الاعتداء فيه ، وغايته منع الفتنة فى الدين وهو الاكراه فيه والتعذيب والايذاء للصد عنه ، والمراد مايسمى فى عرف هذا العصر بحرية الاعتقاد والوجدان ، ومنه أحكام القتال فى الشهر الحرام (آيات ١٩٠ — ١٩٥ ؛ ٢١٦ — ٢١٨ . ثم ٢٢٤ — ٢٥٢)

(٩) الأمر بانفاق المال فى سبيل الله لأنه وسيلة للوقاية من التهلكة ، وهذا يتناول الانفاق للاستعداد للقتال الذى يرجى أن يكون سبباً للسلم ومنع القتال ، والسلامة من الهلاك ، و يتناول غير ذلك كمنع العدوان العام والخاص ، والنظم الضارة بالاجتماع (آية ١٩٥) ثم الامر بالانفاق لأجل السلامة من هلاك الآخرة (فى الآية ٢٥٤) ثم الترغيب فى الانفاق والوعد بمضاعفة الأجر عليه بسبعمائة ضعف وأ كثر و بيان شرط قبوله وآدابه وضرب الامثال للاخلاص وللرياء فيه فى سياق طويل (من آية ١٩٦ ـ ٢٠٣)

(١٠) أحكام الحج والعمرة (من آية ١٩٦ ـ ٢٠٣)

(١١) النفقات والمستحقون لها من الناس (٢١٥ و ٢١٩ و ٢٧٣)

(١٢) تحريم الخمر والميسر تحريماً ظنياً اجتهادياً راجحاً غير قطعى تمهيداً للتحريم الصريح بالنص القطعى (٢١٩)

(١٣) معاملة اليتامى ومخالطتهم فى المعيشة (٢٢٠)

(١٤) تحريم نكاح المؤمنين المشركات ، وانكاح المشركين المؤمنات (٢٢١)

(١٥) تحريم إتيان النساء فى المحيض وفى غير مكان الحرث ووجوب إتيانهن من حيث أمر الله بأى صفة كانت (٢٢٢ و ٢٢٣)

(١٦) بعض أحكام الأيمان بالله ، كجعلها مانعة من البر والتقوى والاصلاح ، وعدم المؤاخذة بيمين اللغو (٢٢٤ و ٢٢٥)

(١٧) حكم الايلاء من النساء (٢٢٦ و ٢٢٧)

(١٨) أحكام الزوجية من الطلاق والرضاعة والعدة وخطبة المعتدة ونفقتها ومتعة المطلقة (٢٢٨ ـ ٢٣٧ و ٢٤١)

(١٩) حظر الربا والامر بترك مابقى منه والاكتفاء برءوس الاموال منه وايجاب إنظار المعسر ، أى امهاله إلى ميسرة (٢٧٥ ـ ٢٨٠)

(٢٠) أحكام الدين من كتابة و إشهاد وشهادة وحكم النساء والرجل فيها والرهان ووجوب أداء الأمانة وتحريم كتمان الشهادة (٢٨٢ و ٢٨٣)

(٢١) خاتمة الأحكام العملية : الدعاء العظيم فى خاتمة السورة

﴿ الأصول والقواعد الشرعية العامة فى سورة البقرة ﴾

(القاعدة الأولى) إن اتباع هدى الله المنزل على رسله وهو الدين موجب للسعادة بأن أصحابه لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهـذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لاطلاقه ، ولـكنه فى الدنيا إضافى مطرد فى الأمم و إضافى مقيد غير مطرد فى الافراد ، وفى الآخرة حقيقى مطرد للجميع ، وموجب لشقاء من أعرض عنه بعد بلوغ دعوته على وجهها . على نسبةمقابله فى الدارين والشاهدعليه قوله تعالى لآدم ومن معه (قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدى ـ الآية ٣٨ والتى بعدها ٣٩ ـ وراجع معناها فى سورة طه (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) الآية (٢٠ : ١٢٣ ومابعدها إلى ١٢٨ فهى موضحة لما أردنا هنا

(القاعدة الثانية) قوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم)الآية ٤٠ وهى مقيدة لسعادة الدين بأنها إنما تحصل باقامته . فالله يقول (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فى باب الاطلاق ، ويقول فى باب التقييد (إن تنصروا الله ينصركم) وهذا شاهد على التقييد الذى ذكرناه فى القاعدة الأولى ، ومثله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا) راجع الآيات ٨٤ ـ ٨٦

(القاعدة الثالثة) قوله تعالى (٤٤ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟أفلا تعقلون) وهى صريحة فى أن هذا مخالف للمنقول الشرعى وهو الكتاب ، وللمعقول الفطرى ، إذ لايخفى على عاقل قبح عمل من يأمر غيره بالخير وهو يتركه ، أو ينهاه عن فعل مايضره من الشر وهو يفعله ، وأنه يقيم بذلك الحجة على نفسه ، ولايكون أهلا لأن يمتثل أمره ونهيه .

(القاعدة الرابعة) قوله تعالى فى مقام الإنكار على بنى إسرائيل (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟) صريح فى وجوب ترجيح الأعلى على الأدنى وإيثار الخير على الشر ، والارشاد إلى طلب ماهو خير وأفضل مما يقابله وفى طلب المعالى والكمال فى أمور الدنيا والآخرة . وفى معناه قوله تعالى (١٣٠ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه)

(القاعدة الخامسة) قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا ـ الآية ٦٢ صريح فى أن أصول دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة : الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر ومافيه من الجزاء ، والعمل الصالح — ومنه ماذكر فى آية ٨٣ من ميثاق بنى إسرائيل ، فثمرة الإيمان منوطة بالثلاثة .

(القاعدة السادسة) أن الجزاء على الإيمان والعمل معا ، لأن الدين إيمان وعمل . ومن الغرور أن يظن المنتمى إلى دين نبى من الأنبياء ، أنه ينجو من الخلود فى النار بمجرد الانتماء ، والشاهد عليه ماحكاه الله لناعن بنى إسرائيل من غرورهم بدينهم ومارد به عليهم حتى لانتبع سننهم فيه، وهو (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ـ آية ٨٠ ـ ٨٢ وماحكاه عن اليهود والنصارى جميعاً من قولهم (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم) الخ الآيتين ١١١ و ١١٢ ولكننا قد اتبعنا سننهم شبراً بشبر وذراعا بذراع مصداقا لما ورد فى الحديث الصحيح . وإنما نمتاز عليهم بأن المتبعين لهم بعض الأمة لاكلها ، وبحفظ نص كتابنا كله وضبط سنة نبينا فى بيانه ، وبأن حجة أهل العلم والهدى منا قائمة إلى يوم القيامة .

(القاعدة السابعة) أن شرط الايمان : الاذعان النفسى لكل ماجاء به الرسول الذى يلزمه العمل عند انتفاء المانع ، ومأخذه قوله تعالى (٨٣ وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) إلى آخر آية ٨٦ وقوله (١٠٠ أوكلما عاهدوا عهدا) الآية ، فمن ترك بعض العمل بجهالة فهو فاسق إلى أن يتوب . ومن تركه لعدم الإذعان له كان كافراً به ، والكفر بالبعض كالكفر بالكل والشاهدعليه قوله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) الآية . وليس هذا من الكفر العملى الذى لايخرج به صاحبه من الملةالذى استشهدوا له بحديث «لايزنى الزانى حين يزني وهومؤمن» الخ كما قال بعض العلماء لأن هذا النوع هومن عمل الافرادالذى تغلبهم عليه داعية طبيعية كالشهوةوالغضب ـ ومانحن فيه عبارة عن عدم العمل بالشرع الآلهى لعدم الاذعان له ، كاستباحةقتل فريق من الأمةونفى فريق آخر من وطنه بمحض اتباع الهوى والطمع فى عرض الدنيا، لابجهالةعارضة يغلب فيهاالفردعلى أمره ثم يثوب اليه رشده فيتوب إلى ربه

(القاعدة الثامنة) النسخ أو الانساء للآيات الإلهية التي يؤيد الله بها رسله كما يقتضيه سياق قوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها) اقرأها وما بعدها (١٠٦ و ١٠٧)أو للآيات التشريعية كما فهم الجمهور كلاهما من رحمة الله بجعل البدل خيراً من الأصل ، أو مثله على الأقل ، وتكون الخيرية في المثل التنويع وكثرة الآيات

(القاعدة التاسعة) قوله تعالى (١٢٠ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) آية للنبي كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره ، ولاتزال مطردة في أمته من بعده ، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية فحاولوا إرضاء بعض الدول بمادون اتباع ملتهم من الكفر فلم يرضوا عنهم ، ولو اتبعو ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها ، حتى لايبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم .

(القاعدة العاشرة) أن الولاية العامة الشرعية حق أهل الإيمان والعدل ، وأن الله تعالى لن يعهد بإمامة الناس وتولى أمورهم للظالمين ، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى — راجع قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام بعد ابتلائه مما ظهر به استحقاقه للامامة (١٢٣ قال إني جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتي . قال لاينال عهدي الظالمين)

(القاعدة الحادية عشرة) إن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل كما أنزله يقتضي الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء به يورث الاختلاف والشقاق ، وشواهده من السورة قوله تعالى (١٣٧ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقداهتدوا وإن تولوا فانما هم في شقاق) وقوله (١٧٦ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق و إن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) وقوله (٢١٣ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين الخ .

(القاعدة الثانية عشرة) الاستعانة على النهوض بمهمات الأمور بالصبر والصلاة قال تعالى ٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين)

وقوله عز وجل (١٥٣ ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وهذه قاعدة جليلة راجع تفصيلها في تفسيرنا للآيتين وأمثالهما

(القاعدة الثالثة عشرة) بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصبية جاهلية ، والشواهد عليه فى هذه السورة وغيرها عديدة أظهرها هنا ماحكاه تعالى لنا عن تبرؤ المتبوعين من الاتباع يوم القيامة فى آيتى (١٦٦ و ١٦٧) وقوله عز وجل (١٧٠ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لوكان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وإن فى تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأن الله تعالى لا يقبله ولا يعذر صاحبه به فى الآخرة لتأكيداً شديداً لإيجاب العلم الاستقلالى الاستدلالى فى الدين ؛ وهو لا يقتضى الاجتهاد المطلق فى جميع مسائل التشريع ، أعنى ـ الاستنباط العام بوضع الأحكام لكل مايحتاج إليه الأفراد والحكام ـ وإن فى إطلاق مقلدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القول بإيجاب تقليد المجتهدين فى أمور الدين ، وتحريم الأخذ بالدليل فيه ـ لاشتراطهم فيه استعداد كل مستدل مستقل للتشريع لافتياتا على دين الله ، ونسخا لكتاب الله ، وشرعا لم يأذن به الله ، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهل ، وهـذا منتهى الافساد للفطرة والعقل ؛ وهو أقطع المدى لأوصال الاسلام ، وأفعل المعاول فى هدم قواعد الإيمان ، وعلة العلل لانتشار البدع التى ذهبت بهداية الدين ، واستبدلت بها الخرافات ودجل الدجالين -

(القاعدة الرابعة عشر) إباحة جميع طيبات المطعم الطبيعية بحسب أنواعها وإيجاب الأكل منها بحسب جنسها ، وامتناع التحريم الدينى العام لما لم يحرم الله تعالى منها ، وذلك قوله تعالى (١٦٨ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) وقوله (١٧٢ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) الآية . وقوله بعدها (١٧٣ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) فحصر المحرمات فى هذه الأربعة . ومثله فى سورة الانعام والنحل من السور المكية ، وفى سورة المائدة المدنية تفصيل فى الميتة بجعل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع منها ، إذا ماتت بذلك ولم تدرك تذكيتها . وقيدت آية الانعام الدم بالمسفوح

(القاعدة الخامسة عشرة) إباحة المحرمات للمضطر اليها بشرط أن يكون غير باغ لها ولا عاد فيها بتجاوز قدر الضرورة أو الحاجة منها وذلك قوله تعالى فى تتمة الآية الأخيرة

من شواهد القاعدة التى قبل هذه (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) وليست القاعدة مقصورة على محرمات المطاعم بل عامة لكل مايتحقق الاضطرار إليه لأجل الحياة واتقاء الهلاك ولم يعارضه مثله أو ماهو أقوى منه . فالزنا ليس مما يضطر الناس إليه لذلك كما قال العلماء ، ومن اضطر إلى رغيف مضطر مثله فليس له أن يرجح نفسه على صاحب اليد وهو مالك الرغيف

(القاعدة السادسة عشرة) بناء الدين عباداته وغيرها على أساس اليسر ، ورفع الحرج والعسر ـ كما علل سبحانه به رخصة الفطر فى رمضان بقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ومثله تعليل رخصة التيمم برفع الحرج كما فى سورة المائدة. وهذه القاعدة أوسع مما قبلها ، لأن هذه فى ترك الواجب ، إلى بدل عاجل أو آجل ، وتلك فى استباحة المحرم ولو مؤقتا ، فإن ترك الواجبات أهون من فعل المنهيات ، لقوله ﷺ «فاذا أمرتم بشىء فأتوا منه مااستطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » رواه الشيخان وهذا اللفظ لمسلم وهو من أثناء حديث . وسبب هذا أن الترك أهون على غير المضطر من الفعل لأن الأصل عدمه :

(القاعدة السابعة عشرة) عدم تكليف ما لا يطاق وهذه أصل للتين قبلها والنص فيها قوله تعالى فى آخر الآية من السورة (٢٨٦ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ووسع الانسان ما لا حرج فيه عليه ولا عسر ، لأنه ضد الضيق ، ولذلك كانت هذه أوسع مما قبلها وأصلا لها ، فالله لم يكلفنا فى دينه وشرعه ما لا طاقة لنا به ، ولا يدخل فى وسعنا امتثاله بغير عسر ولا حرج ، فإذا عرض العسر عروضا بأسبابه العادية كالاضطرار لأكل الميتة والدم المسفوح وكالمرض والسفر اللذين يشق فيهما الصوم واستعمال الماء فى الغسل والوضوء أو يضر ترك الأول بنية القضاء ، والثانى إلى التيمم المبيح للصلاة ، ولا تترك الصلاة نفسها لعسر أحد شروطها وعدم عسرها فى نفسها ، وهى لا تعسر من حيث هى توجه إلى الله تعالى ومناجاة له بكتابه وذكره ودعائه ، فإن شق على المصلى بعض أفعالها كالقيام استبدل به القعود فإن شق عليه القعود صلى مضطجعا أو مستلقيا.

(القاعدة الثامنة عشرة) حظر التعرض للهلكة ، فى قوله تعالى (١٩٥ ولا تلقوا

بأيديكم إلى التهلكة) فلا يجوز للمؤمنين ولا سيما جماعتهم أن يتعمدوا إلقاء أنفسهم إلى الهلاك بسعيهم واختيارهم - و يلزمه وجوب اجتناب أسباب التهلكة من فعلية وتركية - و بتعبير المناطقة من سلبية و إيجابية - و يدل عليه ذكر هذا النهي عقب الأمر بالإنفاق فى سبيل الله لما يحتاج إليه الدفاع من النفقات الكثيرة ، ولا سيما فى هذا العصر الذى تعددت فيه آلات القتال ووسائله وعظمت نفقاتها فصارت الأمم العزيزة تنفق الملايين من الجنيهات على وسائل الحرب البرية والبحرية والجوية . وفروع هذه القاعدة كثيرة .

(القاعدة التاسعة عشرة) إتيان البيوت من أبوابها لا من ظهورها ، أى طلب الأشياء بأسبابها دون غيرها ، فلا تجعل العادة عبادة ، ولا العبادة عادة ، ولا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين «أنتم أعلم بأمر دنياكم» كما قال خاتم النبيين ، وأصل هذه القاعدة ما يدل عليه قوله تعالى (١٨٩ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) فللزراعة والتجارة والصناعة وفنون الحرب وآلاته وأسلحته أبواب لا يصل إليها إلا من يدخل منها، ولعقائد الدين وعباداته وآدابه وحلاله وحرامه أبواب معروفة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولأصول تشريعه السياسى أبواب من النصوص والاجتهاد معروفة أيضاً ، فما اعتيد فى هذه القرون الأخيرة من قراءة صحيح البخارى فى المساجد لأجل النصر على الأعداء مخالف لهذه القاعدة ، وليس من المخالف لها الدعاء وتوجه المقاتلة إلى الله لنصرهم بعد إعداد ما استطاعوا من القوة لعدوهم، فإن الدعاء من أسباب القوة المعنوية

(القاعدة العشرون) حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الدينى ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ومنع الإكراه على الدين. وذلك قوله تعالى (١٩٣ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)

الفتنة اضطهاد الإنسان لأجل دينه بالتعذيب والقتل والنفى كما فعل المشركون بالمسلمين فى صدر الاسلام ولذلك قال فى آيات القتال التى نزلت قبل هذه فى سورة الحج (٢٢: ٣٩ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، و إن الله على نصرهم لقدير ٤٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) الخ

ولذلك مهد لهذه الغاية هنا بقوله قبلها (١٩١ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) ثم قفى عليها بقوله (٢١٧ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) الآية .

وأما النهى عن الإكراه فى الدين حتى الإسلام فقوله تعالى (٢٥٦ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وقد ذكرنا فى تفسيرها ماروواه المحدثون ومصنفوا التفسير المأثور من سبب نزولها .

وملخصه : أنه كان لدى بني النضير من يهود المدينة أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم فلما أمر النبي ﷺ باجلائهم لتواتر إيذائهم أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم منهم ويكرهوهم على الإسلام فنزلت الآية . فقال النبى ﷺ «قد خير الله أصحابكم ، فإن اختاروهم فهم منهم ، وإن اختاروكم فهم منكم »

ومع هذه النصوص لايزال يوجد حتى فى المسلمين من يصدق افتراء أعداء الإسلام بأنه قام بالسيف والإكراه على الدين ، وأن النبى ﷺ هو الذى كان يبدأ المشركين بالقتال ؟

﴿ القاعدة الحادية والعشرون ﴾ أن القتال شرع فى الإسلام لمصلحتين أو ثلاث «الأولى» الدفاع عن المسلمين وأوطانهم ، فإن المشركين أخرجوا النبى ومن كان آمن معه من أهل مكة ثم بدأهم بالقتال وساعدهم عليهم أهل الكتاب ومازالوا يبدأونهم ويقاتلونهم حتى عجزوا ، وذلك قوله تعالى (١٩٠ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) «الثانية» تأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه وهو قوله (١٩٣ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) هذا ما نزل فى هذه السورة «الثالثة» مافى سورة التوبة من تأمين سلطان الإسلام وسيادته بدفع المخالفين له للجزية .

﴿القاعدة الثانية والعشرون﴾ أن من شأن المسلمين طلب ماهو أثر لازم للاسلام من سعادة الدنيا والآخرة معاً ، كما تقدم فى القاعدة الأولى ، وإنما تتحقق

الغايات ولوازم الأمور بطلبها والسعى لها .

فليس من هديه أن يترك المسلمون الدنيا ومعايشها وسياستها و يكونوا فقراء أذلاء ، تابعين للمخالفين لهم من الأقوياء ـ ولا أن يكونوا كالأنعام لاهمّ لهم إلا فى شهواتهم البدنية ، وكالوحوش التى يفترس قويها ضعيفها . وهذا الجمع بين الأمرين مقتضى الفطرة ، والاسلام دين الفطرة ، وذلك هو ما أرشدنا الله إليه بقوله(٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ٢٠١ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) الخ

﴿القاعدة الثالثة والعشرون﴾ أن الأحكام الاجتهادية التى لم تثبت بالنص القطعى الصريح رواية ودلالة لاتجعل تشريعاً عاماً إلزامياً بل تفوض إلى اجتهاد الأفراد فى العبادات الشخصية والتحريم الديني الخاص بهم ـ و إلى اجتهاد أولى الأمر من الحكام وأهل الحل والعقد فى الأمور السياسية والقضائية والادارية ومأخذه آية (٢١٩ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس و إثمهما أكبر من نفعهما)ووجهه: أن هذه الآية تدل على تحريم الخمر والميسر بضرب من الاجتهاد فى الاستدلال ، وهو أن ما كان إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرم يجب اجتنابه ، وذلك مافهمه بعض الصحابة فامتنعوا من الخمر والميسر . ولكن النبى ﷺ لم يلزم الأمة هذا ، بل أقر من تركهما ومن لم يتركهما على اجتهادهما إلى أن نزل النص القطعى الصريح فى تحريمهما والأمر باجتنابهما فى سورة المائدة فحينئذ بطل الاجتهاد فيهما ، وأهرق كل واحد من الصحابة ماكان عنده من الخمر وصار النبى ﷺ يعاقب من شربها .

و بناء على هذه القاعدة كان يعذر كل أحد من سلف الأمة من خالفه أو خالف بعض الأخبار والآثار الاجتهادية غير القطعية رواية ودلالة ، ولم يوجبوا على أحد أن يتبع أحداً فى اجتهاده كما يفعل الخلف المقلدون .

و بناء على هذه القاعدة لم يقبل الإمام مالك رحمه الله تعالى من المنصور أولا ولا من هارون الرشيد ثانياً أن يحمل المسلمين على العمل بكتبه ولا بالموطأ الذى هو أصح مارواه من الأخبار المرفوعة وآثار الصحابة وواطأه عليه جمهور من علماء عصره

﴿القاعدة الرابعة والعشرون — إلى السابعة والعشرين﴾ بناء أمور الزوجية والبيوت وتربية الأولاد على أربع دعائم :

(١) قيام النساء بالأمور التى تقتضيها وظيفتهن كالرضاعة وغيرها من أمور تربية الأطفال ، ويقوم الزوج بالنفقة كلها

(٢) أن لايكلف كل منهما ماليس فى وسعه مما يدخل فى حدود وظيفته والواجب عليه

(٣) لايضار أحد منهما بالولد، ولا بغيره بالأولى ، والمضارة دون تكليف ما ليس فى الوسع

(٤) ابرام الأمور غير القطعية بالتراضى والتشاور

وهذه القواعد ظاهرة صريحة فى آية (٢٣٣ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لاتكلف نفس إلا وسعها،لاتضارّ والدة بولدها ولا مولودله بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك،فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاورفلاجناح عليهما)ولو عمل المسلمون بهذه القواعد وأمثالها من أحكام الكتاب والسنة لكانوا أسعد الأمم فى بيوتهم ، ولما وجد من أعدائهم ولا من زنادقتهم من يهذى باسناد ظلم النساء إلى الاسلام ، أو حاجة المسلمين إلى تقليد غيرهم فى شىء من اصلاح البيوت (العائلات)

﴿القاعدة الثامنة والعشرون﴾ جعل سد ذرائع الفساد والشر وتقرير المصالح و إقامة الحق والعدل فى تنازع الناس بعضهم مع بعض — مناطا للتشريع وأصلا من أصول الأحكام الاجتهادية ، وذلك أن الله تعالى علل به شرعه للقتال،ومنته على نبيه داود وجنده بالنصر على عدوهم، وماترتب عليه من إيتائه الحكم والنبوة إذ قال (٢٥١ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين) وفى معناه تعليل الاذن للمسلمين فى القتال أول مرة بآيات سورة الحج التى استشهدنا بها فى القاعدة العشرين (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)

وما هنا أعم ؛ لأنه يشمل درء هذه المفسدة فى الدين وغيرها من الفساد الدينى والدنيوى ، وهو المتأخر فى النزول

(القاعدة التاسعة والعشرون) أن الايمان بلقاء الله تعالى فى الآخرة والاعتصام بالصبر الذى هو من أركان البر وكماله من ثمرات الايمان سببان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير وذلك قوله عز وجل (٢٥٠ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)

﴿ القاعدة الثلاثون ﴾ تحريم أكل أموال الناس بالباطل فى «آية ١٨٨» وهى أصل لكل المحرمات ومن أدلتها تعليل تحريم الربا بعد الأمر بترك ما كان باقياً لأصحابه منه لدى المدينين بقوله تعالى (٢٨١ فان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فان الذى كان يقرض المحتاج بالربا إلى أجل اذا حل قال له : إما أن تقضى وإما أن تربي . فان لم يجد مايقضى به أنسأ له فى الدين إلى أجل آخر بمثل الربا الأول فاذا حل الأجل الثانى قال له . إما أن تقضى وإما أن تربى — وهلم جرا — فكل ما يأخذه من هذه الزيادات باطل لا مقابل له وهو ظلم . وأما العقود والمعاملات التى لا ظلم فيها بأكل مال أحد المتعاقدين بالباطل فليست من الربا

﴿القاعدة الحادية والثلاثون﴾ أن عمل كل إنسان له أو عليه لا يجزى إلا به ولا يجزى به سواه ، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره ، وذلك قوله تعالى فى خاتمة هذه السورة « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » و يعززها قوله تعالى فى الآية التى وردأنها آخر آية نزلت من القرآن ، وأمر النبى ﷺ وضعها بعد آيات الربا من هذه السورة وهى (٢٨١ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وان لم ترد بصيغة الحصر ، وفيه آيات كثيرة . فقد سبق بيان هذه القاعدة من قواعد العقائد فى بعض السور المكية التى نزلت قبلها ، كقوله تعالى فى سورة النجم (٥٣ : ٣٨ ألا تزر وازرة وزر أخرى ٣٩ وأن ليس للانسان إلا ماسعى) الخ وكقوله فى سورة الانعام (٦ : ١٦٥ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) ويجد القارىء فى تفسير هذه الآية من الجزء الثامن مايؤيد هذه القاعدة من الشواهد وما جعلوه معارضاً لها مخصصاً لعمومها

من انتفاع الميت والحى بعمل غيره وما يصح منه وما لا يصح ، وكون الصحيح منه لا ينافى عموم القاعدة

(القاعدة الثانية والثلاثون) بيان بطلان الشفاعة الوثنية التى كانت أساس شرك العرب ومن قبلهم وهى التقرب إلى غير الله تعالى بالدعاء وغيره ليشفعوا لهم عند الله تعالى فيكشف مابهم من ضر ، ويؤتيهم ما طلبوا من نفع ، وزاد عليهم مشركو أهل الكتاب والمؤمنين بالبعث الاعتماد على الشفعاء بالنجاة من عذاب الآخرة قال تعالى (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) الآية وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة بقوله من هذه السورة خطابا لهذه الأمة (٢٥٣ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقوله فى خطاب بنى إسرائيل (٤٧ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) وفى معناها آية ١٢٢ . وأما الشفاعة الثابتة فى الأحاديث فهى غير هذه ولا تنافى التوحيد وكون الشفاعة لله جميعا وسيأتى بيانها

(القاعدة الثالثة والثلاثون) بناء أصول الدين فى العقائد وحكمة التشريع على إدراك العقل لها واستبانته لما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد ، وسد ذرائع الفساد ، والشاهد عليه من هذه السورة قوله تعالى فى الاستدلال على توحيده بآياته فى السموات والأرض وما بينهما (١٦٤ إن فى خلق السموات والأرض - إلى قوله - لآيات لقوم يعقلون) ثم قوله فى إبطال التقليد (١٧٠ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟) وكذلك قال تعالى بعد ذكر طائفة من الأحكام العملية (٢٤٢ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون)

﴿ يقول محمد رشيد ﴾ هذا مافتح الله به علىّ بتصفح صحائف السورة دون تلاوتها ، ويمكن الزيادة عليه بالتأمل فيها وتدبرها ، وإنما وعدنا بتلخيصها بالاجمال دون التفصيل ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الٓمٓ (٢) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

(الم) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع الاسم الواحد كـ(ألم) لعدة سور، لأنه من المشترك الذى يعين معناه اتصاله بمسماه . وحكمة التسمية والاختلاف فى (الم) و (المص) نفوض الأمر فيها إلى المسمى سبحانه وتعالى . [و يسعنا فى ذلك ماوسع صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم ، وليس من الدين فى شىء أن يتنطع متنطع فيخترع مايشاء من العلل ، التى قلما يسلم مخترعها من الزلل .]

هذا ملخص ماقاله شيخنا الأستاذ الامام . وأقول الآن ـ أولا ـ إن هذه الحروف تقرأ مقطعة بذكر أسمائها لامسمياتها، فنقول : أَلِفْ ، لامْ ، مِيم ؛ ساكنة الأواخر لأنها غير داخلة فى تركيب الكلام فتعرب بالحركات ـ ثانيا ـ إن عدم إعرابها يرجح أن حكمة افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتى بعدها مباشرة من وصف القرآن والإشارة إلى إعجازه، لأن المكى منها كان يتلى على المشركين للدعوة إلى الاسلام ، ومثل هذه السورة ومابعدها لدعوة أهل الكتاب إليه وإقامة الحجج عليهم به ، وسيأتى توضيح ذلك بالتفصيل فى تفسير أول سورة (المص ـ الأعراف) ـ ثالثاً ـ اقتصر على جعل حكمتها الإشارة إلى إعجاز القرآن بعض المحققين من علماء اللغة وفنونها كالفراء وقطرب والمبرد والزمخشرى و بعض علماء الحديث ، كشيخ الإسلام أحمد تقى الدين ابن تيمية والحافظ المزى ، وأطال الزمخشرى فى بيانه وتوجيهه بما يراجع فى كشافه ، وفى تفسير البيضاوى وغيره ـ رابعاً ـ إن أضعف ماقيل فى هذه الحروف وأسخفه أن المراد بها الإشارة بأعدادها فى حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك . وروى ابن إسحق

حديثاً فى ذلك عن بعض اليهود عن النبي ﷺ وهو ضعيف من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله ـ خامساً ـ يقرب من هذا ماعنى به بعض الشيعة من حذف المكرر من هذه الحروف وصياغة جمل مما بقى منها فى مدح على المرتضى رضى الله عنه أو تفضيله وترجيح خلافته وقوبلوا بجمل أخرى مثلها تنقض ذلك كما وضحناه فى مقالاتنا (المصلح والمقلد) ـ سادساً ـ انه لا يزال يوجد فى الناس حتى علماء التاريخ واللغات منهم من يرى أن فى هذه الحروف رموزاً إلى بعض الحقائق الدينية والتاريخية ستظهره الأيام .

﴿ ذلك الكتاب ﴾ الكتاب بمعنى المكتوب وهو اسم جنس لما يكتب . والمراد بالكتاب هذه الرقوم والنقوش ذات المعانى . والاشارة تفيد التعيين الشخصى أو النوعى . وليس المراد هنا نوعاً من أنواع الكتب بل المراد كتاب معروف معهود للنبي ﷺ بوصفه . وذلك العهد مبنى على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب (* [تام كامل كافل لطلاب الحق بالهداية والارشاد ، فى جميع شؤون المعاش والمعاد] فأشار بذلك اليه . ولا يضر أنه لم يكن موجوداً] كله وقت نزول أمثال هذه الاشارة ، فقد يكفى فى صحتها وجود البعض . وقد كان نزل من القرآن جملة عظيمة قبل نزول أول هذه السورة وأمر النبي ﷺ بكتابتها فكتبت وحفظت ، فالاشارة إليها إشارة إليه] بل يكفى فى صحة الاشارة أن يشار إلى سورة البقرة نفسها لأنه يصح فيها وصف «هدى للمتقين» والأول أشبه ، والاشارة إلى الكتاب كله عند نزول بعضه إشارة إلى أن الله تعالى منجز وعده للنبي ﷺ باكمال الكتاب كله

ومن حكمة الاشارة إليه بهذا الكتاب (أى المكتوب المرقوم) ان النبي ﷺ أمر بكتابته دون غيره فهو الكتاب وحده ، ولا يضر أنه عند النزول لم يكن مكتوبا بالفعل لأنك تقول: أنا أملى كتابا ، أوهلم أمل عليك كتابا . والاشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته فى الكمال ، وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوال ، والبعد والقرب فى الخطاب الالهى إنما هو بالنسبة إلى

*) كل ما وضع بين هاتين العلامتين [   ] فهو زيادة كتبها شيخنا بخطه فى حواشى المصحف الأول من هذا الجزء كما تقدم فى فاتحتنا

المخلوقين ، ولا يقال: إن شيئاً بعيداً عنه تعالى أو قريبا منه فى المكان الحسى لأن كل الأشياء بالنسبة إليه تعالى سواء . وإنما القرب منه والبعد عنه تعالى معنوى وهو أقرب إلينا من أنفسنا بعلمه .

﴿ لاريب فيه ﴾ الريب والريبة الشك والظنة (التهمة) والمعنى: أن ذلك الكتاب مبرأ من وصمات العيب فلا شك فيه ، ولا ريبة تعتريه ، لا من جهة كونه من عند الله تعالى ، ولا فى كونه هادياً مرشدا ، ويصح أن يقال: إنه فى قوة آياته ، ونصوع بيناته ، بحيث لا يرتاب عاقل منصف ، غير متعنت ولامتعسف، فى كونه هداية مفاضة من سماء الحق ، مهداة إلى الخلق ، على لسان أمى لم يسبق له قبله الاشتغال بشىء من علومه ، ولا الاتيان بكلام يقرب منه فى بلاغته ، ولا فى أسلوبه حتى بعد نبوته ، ـ ولهذا قال فيما يأتى قريباً (٢٣ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وحاصله : أنه كذلك فى كل من نظمه وأسلوبه و بلاغته ، ومن معانيه وعلومه وتأثيره فى الهداية ـ لا يمكن أن توجه إليه الشبهة ، أو تحوم حوله الريبة ، سواء أشك فى ذلك أحد بجهالته وعمى بصيرته ـ أو بتكلفه ذلك عناداً أو تقليداً ـ أم لا

﴿ هدى للمتقين ﴾ خبر بعد خبر[1] والهدى مصدر فى الأصل كالتقى والسرى . والمراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة الخاصة والأخذ باليد على ماتقدم فى تفسير المراد من (اهدنا الصراط) لأن كونه هادياً للمتقين بالفعل غير كونه هادياً ـ دالا ـ لسائر الناس من غير مراعاة أخذهم بدلالته ، واستقامتهم على طريقته ، وكلمة « المتقين » من الاتقاء والاسم التقوى وأصل المادة : وقى يقى : والوقاية معروفة المعنى ، وهو البعد أو التباعد عن المضر أو مدافعته ، ولكن نجد هذا الحرف مستعملا بالنسبة إلى الله تعالى كقوله(فإياى فاتقون ـ واتقوا الله ـ واتقون يا أولى الألباب لعلكم تفلحون) فمعنى اتقاء الله

« ١ » بعض القراء يقف على لفظ « ريب » ويجعل « فيه هدى للمتقين » جملة مستقلة ، وهو ضعيف خلاف المتبادر من النظم . ويرجح قراءة الجمهور وتفسيرهم أول سورة السجدة (الم . تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين)

تعالى اتقاء عذابه وعقابه ، و إنما تضاف التقوى إلى الله تعالى تعظيما لأمر عذابه وعقابه ، و إلا فلا يمكن لأحد أن يتقى ذات الله تعالى ولا تأثير قدرته ، ولا الخضوع الفطرى لمشيئته .

ومدافعة عذاب الله تعالى تكون باجتناب مانهى ، واتباع ما أمر ، وذلك يحصل بالخوف من العذاب ومن المعذب ، فالخوف يكون ابتداء من العذاب وفى الحقيقة من مصدره ، فالمتقى هو من يحمى نفسه من العقاب ـ ولا بد فى ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيتقيها .

وأقول الآن : إن العقاب الالهى الذى يجب على الناس اتقاؤه قسمان : دنيوى وأخروى : وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه ، وهى نوعان : مخالفة دين الله وشرعه . ومخالفة سننه فى نظام خلقه . فأما عقاب الآخرة فيتقى بالإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والعمل الصالح ، واجتناب ما ينافى ذلك من الشرك والكفر والمعاصى والرذائل ، وذلك مبين فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأفضل ما يستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء الأمصار ، وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى فى هذا العالم ، ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان، وأمثلتها ظاهرة ، وسنن الاجتماع البشرى ، فاتقاء الفشل والخذلان فى القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها ، و إتقان آلاتها وأسلحتها ، التى ارتقت فى هذا العصر ارتقاء عجيبا . وهو المشار إليه بقوله تعالى (٨: ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده (٨ : ٤٥ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ٤٦ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ونحن نبين معنى التقوى فى القرآن فى كل موضوع بما يناسبه كالتقوى فى الأكل من الطيبات فى سورة المائدة (٥: ٩١)ومثله فى سياق تحريم الخمر منها (آية ٩٠) وغير ذلك فيراجع كل شىء فى موضعه . وقال شيخنا فى بيان المراد بهؤلاء المتقين ما معناه :

كان من الجاهليين من مقت عبادة الأصنام ، وأدرك أن فاطر السموات والأرض لايرضيه الخضوع لها ، وأن الاله الحق يحب الخير ، ويبغض الشر . فكان منهم من اعتزل الناس لذلك . وكانوا لايعرفون من عبادة الله إلا الالتجاء والابتهال وتعظيم جانب الربوبية، وذلك ما كان يسمى صلاة في لسانهم — وبعض الخيرات التى يهتدى إليها العقل فى معاملات الخلق .

وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالى بمثل قوله (٣ : ١١٣ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ١١٤ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) وبقوله (٥ : ٨٢ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى : ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) فأمثال هؤلاء من الفريقين هم المراد بالمتقين . ولا حاجة إلى تخصيص ما جاء فى وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الإسلام أو بالمسلمين ، بل أولئك هم الذين كان فى قلوبهم اشمئزاز مما عليه أقوامهم ، وفى نفوسهم شيء من التشوف إلى هداية يهتدون بها ، ويشعرون باستعدادهم لها ، إذا جاءهم شيء من عند الله تعالى . فالمتقون فى هذه الآية إذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم ضرباً من الرشاد ووجد فى أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملهم على توقى سخط الله تعالى والسعى فى مرضاته ، بحسب ماوصل إليه علمهم ، وأداهم إليه نظرهم واجتهادهم .

---

(٤) ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ

الايمان هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها . وآيته العمل بما يقتضيه الإيمان عند عدم الصارف الذى يختلف باختلاف درجات المؤمنين فى اليقين . والغيب ماغاب علمه عنهم ، كذات الله تعالى وملائكته والدار

الآخرة . و إقامة الصلاة : الاتيان بهذه العبادة الروحية البدنية على أكمل وجه ممكن . وللصلاة صورة وروح ، فصورتها عبادة الأعضاء ، وروحها عبادة القلب ، كما يعلم مما يأتي ، وجمهور المفسرين على أن هذه الآية في المسلمين من العرب أو مطلقاً ، وما بعدها فيمن أسلم من أهل الكتاب خاصة . وفسرهما شيخنا تفسيراً هو أقرب إلى مدلول النظم ، وإن كان أبعد عن الروايات فقال ما مثاله :

الناس قسمان مادي لا يؤمن إلا بالحسيات ، وغير مادي يؤمن بما لا يدركه الحس، أي بما غاب عن المشاعر متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم . ولا شك أن الايمان بالله، وملائكته ـ وهي جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها سبحانه وتعالى ـ وباليوم الآخر : إيمان بالغيب . ومن لا يؤمن بالله لا يمكن أن يهتدي بالقرآن، ومن يتصدى لهدايته لا بد له أن يقيم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلهاً متصفاً بصفات الكمال التي لا تتحقق الألوهية إلا بها ثم يقنعه بأن هذا القرآن هداية من لدنه تعالى

لذلك وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقرآن بقوله: ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والايمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس . وقد كتب الأستاذ الامام في صاحبه ما نصه — :

[وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد وقائم على أول النهج ، لا يحتاج إلا الى من يدله على المسلك ، و يأخذ بيده إلى الغاية . فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، و إن كانت لا يأتي عليها الحس ، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المتعالي عن المادة ولواحقها، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر في جلي المقدمات وخفيها ، و إذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر الله بعلمها ، كعالم الملائكة مثلا لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة ـ لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم .

[وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس و يظن أن لا شيء وراء المحسوسات وما اشتملت عليه ، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده ،

وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك ، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان فى إيراد المقدمات البعيدة ، والأخذ به فى الطرق المختلفة ، إلى تقريبه مما تطلب ، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر ، أو يخضعه القهر ، حتى يتم لك منه الأمر ، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ، ولم يجعل من نفسه وقعه فكيف يجد فيه هداية ، أو منقذاً من غواية ؟

[ولما كان الايمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر فى الأفعال، لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذى يسمونه إيمانا لا يفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن - لما كان هذا شأنهم منّ الله علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أراده تعالى من معنى الايمان] فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجمل الآتية، قال ،

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ الخ . الصلاة اظهار الحاجة والافتقار إلى المعبود بالقول أو العمل أو كليهما ، وهو المراد بقولهم « الصلاة معناها الدعاء » لأن إظهار الحاجة إلى العظيم الكريم ولو بالفعل فقط التماس للحاجة واستدرار للنعمة ، أو طلب لدفع النقمة ، أرأيتم أولئك الذين يقفون بين أيدى الملوك تاكسى رءوسهم حانى ظهورهم ، وتارة يقعون على أقدامهم يقبلونها ، أليس الباعث على هذا العمل إما خوف من عقوبة يطلبون به دفعها ، و إما حذر على نعمة يتوقون سلبها ورفعها ، فيلتمسون بقاءها ، و يرجون زيادتها ونماءها ؟

هذه الصلاة كانت توجد عند بعض الجاهليين وهم الذين كانوا يعرفون بالحنيفيين والحنفاء ،وعند بعض أهل الكتاب.وكتب الأستاذ فى وصفها ما نصه:

[والصلاة بالمعنى الذى ذكرناه قد ظهر فى الاسلام فى أفضل أشكاله ، وهو تلك الصلاة التى فرضها الله على المسلمين ، فإن هذه الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم على النحو الذى جاءت به السنة المتواترة من أفضل ما يعبر به عن الاحساس بالحاجة إلى المعبود ، وشعور الانفس بعظمته لو أقامها المصلون وأتوا بها على وجهها] ولذلك قال (و يقيمون الصلاة) ولم يقل يصلون

وفرق بينهما ، فان الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية: إنه صلى، وإن كان عمله هذا خلواً من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة ، فاحتيج إلى لفظ يدل على هذا المعنى الذى به قوام الصلاة ، وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الإقامة . وقد قالوا إن اقامة الصلاة عبارة عن الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة ، واستيفاء الأركان والسنن . وهو لا يعدو وصف الصورة الظاهرة ، وإنما قوام الصلاة الذى يحصل بالإقامة : هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقى له ، والإحساس بالحاجة إليه تعالى .

وكتب شيخنا عند تفسير الصلاة هنا بما تقدم أخذاً عنه ما نصه :

[فاذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلى أنه أقام الصلاة فانه قد هدمها باخلائها من عمادها ، وقتلها بسلبها روحها ، ومن غريب مزاعم من يسمون أنفسهم بالمسلمين: أن حضور القلب فى جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ما تتجشمه النفس ، بل يكاد يكون مستحيلا، لغلبة الخواطر على ذهن المصلى . هذا وأخشى أن يكون هذا جحوداً لمعنى الصلاة ، وانما عرض لهم هذا الوهم الباطل من شدة الغفلة ، واستحكام العلة ، وإنى أدلهم على طريقة لو أخذوا بها لشغلوا بمعنى الصلاة حتى عن الصلاة نفسها ، تلك الطريقة: هى أن لا ينطق المصلى بلفظ إلا وهو يستورد معناه على ذهنه، فإذا قال (الحمد لله رب العالمين) يستحضر معنى الحمد و إضافته إلى ذات الله تعالى ، مع وصفه بالربوبية لجميع الأكوان العلوية والسفلية ، و إذا قال مثل (مالك يوم الدين) تصور معنى الملك وتعلقه بذلك اليوم يوم الجزاء ، وهكذا — فاذا أخذ المصلى على نفسه أن يتصور المعانى من ألفاظها التى ينطق بها فقد أقام الصلاة ، أما وهو ينطق ولا يفقه ولا يلحظ بذهنه معنى لفظ ما يقول ، فكيف يزعم أنه يصلى، فضلا عن أنه يقيم الصلاة ؟]

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أقول: الرزق فى اللغة النصيب والعطاء و يطلق على الحسى والمعنوى، كالمال والولد والعلم والتقوى . و يخص بأمور المعاش بقرينة حالية أو لفظية ، وقال علماء أهل السنة : الرزق ما انتفع به، حلالا كان أو حراماً، وخصه

المعتزلة بالحلال . ونفاق الشيء كنفاده . وأنفقه جعله ينفق بصرفه وإخراجه من يده . وقال الجمهور: إن الانفاق هنا يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد وذى القربى وصدقه التطوع ، إذ الآية نزلت قبل فرض الزكاة المعينة . وقوله تعالى (ومما رزقناهم) يدل على أن النفقة المشروعة تكون بعض مايملك الإنسان لا كل ما يملك — فهو ركن من أركان الاقتصـاد . والانفاق فى سبيل الله أظهر آيات الايمان الصحيح . وقال شيخنا شارحا ذلك على طريقته بما مثاله :

هذا الوصف من أقوى أمارات الايمان بالغيب ، لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم، ومتى عرض لهم مايقتضى بذل شيء من المال لله تعالى يمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل ،وليس المراد بالانفاق هنا ما يكون على الأهل والولد ، ولا مايسمونه بالجود والكرم ، كقرى الضيوف ابتغاء عوض كالشهرة والجاه ، أو الأنس بالأصحاب ، لأن هذا ليس من آثار الإيمان بالغيب ، وإنما هو الإنفاق الناشيء عن شعور بأن الله تعالى هو الذى رزقه وأنعم عليه به ، وأن الفقير المحروم عبد لله مثله ، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أوحرمان من الاسباب التى توصل إلى الرزق [أوعن إحساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة لاتقوم أو لاتصل إليهم الابيذل المال ، وقد أوجب الله على من أوتي المال أن ينفق منه فى ذلك السبيل وهوأفضل سبل الله] فمن يجد من نفسه داعية لبذل أحب الأشياء إليه — وهوماله — ابتغاء مرضاة الله تعالى وقياما بشكره ، ورحمة لأهل العوز والبائسين من خلقه ، فهو لاشك مستعد لقبول هداية القرآن أتم الاستعداد ، حتى إذا ما دعى إليـه لبى وأجاب ، وأسلم إلى الله تعالى وأناب .

فهذا بيان حال الفرقة الأولى ممن يهتدى بالقرآن فعلاً و يشملها لفظ المتقين بالمعنى السابق ، وكان منهم بعض العرب الحنفاء ، و بعض أهل الـكتاب الصلحاء كما سبق بيانه . والمراد من كون القرآن هدى لهذه الفرقة أنهـا مستعدة لقبوله ، ومهيأة للاسترشاد به ، لأن الايمان الاجمالى بالله و بحياة أخرى بعد هذه الحياة يوفىّ الناس فيها أجورهم بحسب أعمالهم البدنية والنفسية ، واتقاء ما يحول دون

السعادة فى هذه الحياة بحسب الاجتهاد الناقص والتعليم الذى لم يقتنع به العقل. ولم تسكن إليه النفس ، قد هيأهم لقبول القرآن وأن يقتبسوا من نوره ما يذهب بظلمات الجهل والحيرة ، و يمنح الأرواح ما تتشوف إليه بمقتضى الفطرة .

و بعد أن بين حال هذه الفرقة التى يكون الكتاب هدى لها [يخرجها من ظلمات الشك إلى نور اليقين ، و ينكب بها عن مهاب رياح الفكر إلى مستقر السكينة . ومستكن الطمأنينة ، بما تتعرفه النفس من جانب القدس ـ] عطف عليها بيان حال الفرقة التى اهتدت به فعلا ، وصار إماما لها تتبعه فى جميع أعمالها ، دون أن تغمض عينها عنه . بعد أن أضاء لها ما أضاء منه ، فقال عز من قائل .

---

(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

أقول: روى عن ابن عباس (رض) أن المراد بالمؤمنين هنا من يؤمن بالنبى والقرآن من أهل الكتاب ، و بالمؤمنين فيما قبلها من يؤمن من مشركى العرب . واختاره ابن جرير وآخرون . وعن مجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وقتادة أن المؤمنين فى الآيتين قسم واحد، وهو كل مؤمن و إنما تعدد مايؤمنون به. فالعطف فيهما عطف الصفات لاعطف الموصوفين . وثم قول ثالث شاذ، وهو أن الآيتين فى مؤمنى أهل الكتاب . وقد بينا قول شيخنا وسيأتى شرحه . والمراد على كل رأى من قوله تعالى ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل اليك ﴾ الإيمان التفصيلى بكل ما أنزله الله تعالى فى القرآن. وأما قوله ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ فيكفى فيه الإيمان الإجمالى . وقال شيخنا ما مثاله :

هذه هى الطبقة الثانية من المتقين وأعيد لفظ (الذين) لتحقيق التمايز بين الطبقتين . وهذه الطبقة أرقى من الطبقة الأولى، لأن أوصافها تقتضى الأوصاف التى أجريت على تلك وزيادة ، فالقرآن يكون هدى لها بالأولى ، ومعنى كونه هدى لها : أنه يكون إمامها فى أعمالها وأحوالها ، لا تحيد عن النهج الذى نهجه لها ، كما ذكرنا .

ما كل من أظهر الايمان بما ذكر مهتد بالقرآن . فالمؤمنون بالقرآن على ضروب شتى ، ونرى بيننا كثيرين ممن إذا سئل عن القرآن قال : هو كلام الله ولا شك ولكن إذا عرضت أعماله وأحواله على القرآن تراها مباينة له كل المباينة . القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب ، وهو يغتاب ويسعى بالنميمة ولا يتأثم من الكذب . القرآن يأمر بالفكر والتدبر،وهو كما وصف القرآن المكذبين بقوله تعالى فيهم : (٥١ : ١١ الذين هم فى غمرة ساهون) لا يفكر فى أمر آخرته ، ولا فى مستقبله ولا مستقبل أمته ، ولا يتدبر الآيات والنذر ، ولا الحوادث والعبر .

إن المؤمن الموقن المذكور فى الآية الكريمة هو الذى يزين أعماله وأخلاقه باستكمال ماهدى إليه من القرآن دائماً ، ويجعله معياراً يعرض عليه تلك الأعمال والأخلاق،ليتبين:هل هو مهتد به أم لا ؟ مثال ذلك: الصلاة. يصفها القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقال فى المصلين (٧٠ : ١٩- ٢٢ إن الإنسان خلق هلوعا * إذامسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين)

فبين أن الصلاة تقتلع الصفات الذميمة الراسخة التى تكاد تكون فطرية . فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، ولم تقتلع من نفسه جذور الجبن والهلع . وتصطلم جراثيم البخل والطمع ، فليعلم أنه ليس مصلياً فى عرف القرآن ، ولا مستحقا لما وعد عباده الرحمن .

أما لفظ «الإنزال» فالمراد به ماورد من جانب الربوبية الرفيع الأعلى ، وأوحى إلى العباد من الإرشاد الالهى الأسمى ، وسمى إنزالا لما فى جانب الألوهية من ذلك العلو . علو الرب على المربوب ، والخالق على المخلوقين ، الذين لايخرجون بالتكريم والاصطفاء عن كونهم عبيدا خاضعين . وقد سمى القرآن غير الوحى من إسداء النعم الالهية إنزالا فقال (٥٧:٢٥ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) فنكتفى بهذا من معنى الإنزال ، وهو ما يفهمه كل عربي ، من حاضر وبدوى .

وأقول الآن: إنى كنت اكتفيت بهذا القدر فى تفسير الإنزال ، تحاميا لما فى المسألة من خلاف وجدال ، ولكننى عدت فى التفسير إلى فصل المقال فى مسائل النزاع، فأزيد عليه أن إنزال الحديد فيه أقوال أخرى للسلف والخلف، كقوله تعالى

(٣٩ : ٦ وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) أوضحها أن المراد إنزال الاحكام المتعلقة بها . وقيل : إن الحديد نزل من الجنة مع آدم . ومن المعلوم أن الانزال فى أصل اللغة وهو نقل الشىء من مكان عالى إلى مادونه ، و يطلق العلو مجازاً فى الأمور المعنوية ، فهو علو مكان وعلو مكانة . ومن الثانى (١٠ . ٨٣ و إن فرعون لعال فى الارض)

والتحقيق أن علو المكان الحسى أمر نسبى يختلف باختلاف موقع الناس من الأشياء ، والجهات كلها أمور نسبية لاحقيقية ، وأن الله سبحانه وتعالى فوق جميع خلقه بائن منهم ، بلا تشبيه ولا تمثيل ، لامتصل بشىء ولا حال فيه ، مستو على عرشه بالمعنى الذى أراده ، وهذا وجه تسمية ما يأتى من لدنه إنزالا ، فملك الوحى كان يتلقى الوحى منه عز وجل و ينزل به من السماء إلى الأرض فيتلقاه منه النبى ﷺ ولا نعلم صفة تلقى الملك عن الله تعالى لأنه من الغيب الذى نؤمن به مجملا كما بلغناه ، ولا صفة تلقى النبى ﷺ من جبريل لأنه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء ، وهو من الصلة بين عالم الغيب والشهادة . ولكن الله وصف لنا تكليمه للبشر بقوله (٤٢ : ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء) الآية - وقوله (٢٦ : ١٩٣ نزل به الروح الأمين ١٩٤ على قلبك لتكون من المنذرين ١٩٥ بلسان عربى مبين) ووصفه لنا رسوله (ص) فى جوابه لمن سأله عنه ، وهو الحارث بن هاشم المخزومى فقال « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ماقال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول » رواه الشيخان من حديث عائشة (رض) ثم قال تعالى :

﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ أما لفظ (الآخرة) فقد ورد فى القرآن كثيراً والمراد به الحياة الآخرة أو الدار الآخرة حيث الجزاء على الأعمال ، و يتضمن كل ماوردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء على الأعمال ، و يتضمن كل ماوردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء بالجنة و بالنار

وأما اليقين فهو الاعتقاد المطابق للواقع الذى لايقبل الشك ولا الزوال ، فهو اعتقادان - اعتقاد أن الشىء كذا ، واعتقاد أنه لايمكن أن يكون إلا كذا .

وأقول الآن : هذا ماقاله شيخنا فى الدرس ، وهو عرف علماء المعقول من المنطقيين والمتكلمين وقد جاريناه عليه فى مواضع ، وأما اليقين فى اللغة فهو

الاعتقاد الجازم فى غير الحسيات والضروريات كما صرحوا به ، فالجزم بخبر الصادق والاعتقاد المبني على الادلة والامارات يسمى يقينا إذا كان ثابتاً لاشك فيه . وفى لسان العرب: أن اليقين العلم و إزاحة الشك وتحقيق الأمر ، وهو نقيض الشك ، والعلم نقيض الجهل اهـ فالايمان الشرعى يشترط فيه اليقين اللغوى فقط وهو التصديق الجازم الذى لاشك فيه ولاتردد ، ولا ملاحظة طرف راجح على طرف مرجوح فان هذا هو الظن . واليقين المنطقى أكمل . وهو مابنى عليه شيخنا ماياتى مبسوطا لاملخصا ، قال ماممناه :

[وصفهم بأنهم موقنون بالآخرة لأنهم مؤمنون بالقرآن ، ولم يصف بهذا الوصف الطائفة الأولى لأنها وإن كانت تؤمن بالغيب وتتوجه إلى الله تعالى بالصلاة المخصوصة بها وتنفق مما رزقها الله ، فذلك لاينافى أنها فى حيرة من أمر البعث والجزاء ، وكذلك كانت قبل الايمان بالقرآن . وكان من هداية القرآن لها :أن خرج بها من غمرات تلك الحيرة

لايعتدّ بما دون اليقين فى الايمان. وقد قال الله تعالى فى اعتقاد قوم (٥٣ :٢٨ وما لهم به من علم، إن يتبعون إلا الظن و إن الظن لايغنى من الحق شيئا) و إذا لم يكن الظان موقناً وعلى نور من ربه فى اعتقاده، فما حال من هو دونه من الشاكين والمرتابين ؟ و يعرف اليقين فى الايمان بالله واليوم الآخر بآثاره فى الاعمال .

إننا نرى الرجل يأتى إلى المحكمة بدعوى زور يريد أن يأكل بها حق أخيه بالباطل أو يجامل آخر بشهادة زور ، أو ينتقم بها من ثالث ، وهو يعلم أنه مزور ومبطل، فيقال له : اتق الله أن أمامك يوما(يعض الظالم فيه على يديه) فيقول أعوذ بالله أنا أعلم أن أمامى يوما، وأن أمامى شبراً من الأرض -يعنى القبر- والدنيا لا تغنى عن الآخرة . و يحلف اليمين الغموس باسم الله تعالى أنه محق فى دعواه أو فى شهادته، ثم يظهر التحقيق أنه مزور، و يضطره إلى الاعتراف والاقرار بذلك، فكأن الايمان بالله واليوم الآخر عنده خيال يلوح فى ذهنه عند مايريد الخلابة والخداع لأجل أكل الحقوق أو إرضاء الهوى ، ولايظهر له أثر فى أعماله وأحواله كأثر الاعتقاد ببعض المشايخ الميتين ، كما بينا ذلك من قبل]

[فمثل هذا الإيمان - وإن تعارف الناس على تسميته تلك - ليس من الإيمان الذى يقوم على ذلك المعنى من الايقان ، ويظهر أثره فى الجوارح والأركان]

ثم قال بعد كلام فى آثار اليقين : اليقين إيمانك بالشيء ، والاحساس به من طريق وجدانك كأنك تراه [بأن يكون قد بلغ بك العلم به أن صار مالكا لنفسك مصرفا لها فى أعمالها ، ولا يكون العلم محققاً للايمان على هذا الوجه حتى تكون قد أصبته من إحدى طريقتين (الأولى) النظر الصحيح فيما يحتاج فيه إلى النظر كالايقان بوجود الله ورسالة الرسل ، وذلك بتخليص المقدمات ، والوصول بها إلى حد الضروريات ، فأنت بعد الوصول إلى ماوصلت إليه كأنك راء ما استقر رأيك عليه

(والطريق الأخرى) خبر الصادق المعصوم بعد أن قامت الدلائل على صدقه وعصمته عندك ، ولا يكون الخبر طريقا لليقين حتى تكون سمعت الخبر من نفس المعصوم ﷺ أو جاءك عنه من طريق لاتحتمل الريب ، وهى طريق التواتر دون سواها ، فلا ينبوع لليقين بعد طول الزمن بيننا و بين النبوة إلا سبيل المتواترات التى لم يختلف أحد فى وقوعها ، فالإيقان بالمغيبات كالآخرة وأحوالها والملأ الأعلى وأوصافه ، وصفات الله التى لايهتدى إليها النظر[1] لايمكن تحصيله إلا من الكتاب العزيز ، وهو الحق الذى جاءنا من الله لا ريب فيه ، فعلينا أن نقف عند ما أنبأ به من غير خلط ولا زيادة ولا قياس .

وأكد الإيقان بالآخرة بقوله (هم) اهتماما بشأنه وليبين أن الإيقان بالآخرة خاصة من خواص الذين آمنوا بالقرآن و بما أنزل قبله من الكتب لايشركهم فيه سواهم. وقد علمت أنه لابد أن يكون الموقَن به من أحوال الآخرة قطعياً . فهذه الاضافات التى أضافوها على أخبار الغيب وخلقوا لها الأحاديث بل أضافوا إليها أيضا أقوال أهل الكتاب وأشياء أخرى نسبوها إلى السلف، و بعض

---

(١) يعنى ان صفات الربوبية منها ما يعرف بالنظر والاستدلال كعلمه تعالى وقدرته ومشيئته وحكمته ووحدته . ومنها ما لا يعرف به بل يتوقف على الوحي وخبر المعصوم عنده، ومنها ماجعله المتكلمون من المتشابهات كالرضى والغضب والوجه واليد. وسيأتى بيانه فى محله. وراجع تفسير المتشابهات فى تفسير أوائل سورة آل عمران

غرائب جاءت على لسان المنتسبين للتصوف لاتدخل فيما يتعلق به اليقين ، بل الجهل بالكثير منها خير من العلم به ، فإنما الوصف الذى يمتاز به أهل القرآن هو اليقين ، ولا يكون اليقين إلا حيث يكون القطع . وأما الظن فهو وصف من عابهم القرآن وأزرى بهم ، فلا علاقة له بأحوالهم (١)

(٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ههنا إشارتان والمشار إليه عند الجمهور واحد وهو مافى الآيتين السابقتين من المؤمنين من غير أهل الكتاب والمؤمنين منهم ، وكرر الإشارة للاعلام بأنه لابد من تحقق الوصفين لتحقق الحكم بأنهم على هدى وأنهم هم المفلحون . كذا قال بعضهم وهو تكلف ظاهر ، وكذا قولهم : إن تنكير هدى هنا للتعظيم . وشيخنا قد جعل الإشارتين لنوعى المؤمنين المذكورين فى الآية السابقة بأسلوب اللف والنشر المرتب

قال إن الإشارة الأولى (أولئك على هدى من ربهم) فى هذه الآية للفرقة الأولى وهم الذين ينتظرون الحق لأنهم على شىء منه — كما يدل عليه تنكير «هدى» الدال على النوع — وينتظرون بياناً من الله تعالى ليأخذوا به ، ولذلك تقبلوه عند ماجاءهم . فقد أشعر الله قلوبهم الهداية ، بما آمنوا به من الغيب ، وأقاموا الصلاة بالمعنى الذى سبق ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، وأما الفرقة الثانية وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشرك فيه تلك الفرقة الأولى ، لكن على وجه أكمل ، لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله «على هدى» تعبير يفيد التمكن من الشىء كتمكن المستقر عليه ، كقولهم «ركب هواه» ولقد كان أفراد تلك الفرقة (أى الأولى) على بصيرة وتمكن من نوع الهدى الذى كانوا عليه ، فإن كان هذا غير كاف لإسعادهم وفلاحهم ، فهو كاف لإعدادهم وتأهيلهم لها بالايمان التفصيلى المنزل ، ولذلك قبلوه عند مابلغتهم دعوته .

وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ كما هو ظاهر ، وهم المفلحون بالفعل لاتصافهم بالإيمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من

(١) بين القطع والظن المنطقيين يقين هو اليقين اللغوى كما تقدم .

الكتب السماوية واليقين بالآخرة — لا مطلق الايمان بالغيب إجمالا ، ويرشد إلى التغاير بين مرجع الاشارتين ترك ضمير الفصل « هم » فى الأولى وذكره فى الثانية . ولو كان المشار إليه واحداً لذكر الفصل فى الأولى ، لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام ، فهو خاص بهم دون سواهم ، لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم . ومادة الفلح تفيد فى الأصل معنى الشق والقطع ، ومثلها مادة الفلج بالجيم والفلخ بالخاء والفلذ والفلع والفلغ والفلق ، والفل والفلم . ويطلق الفلاح والفلج على الفوز بالمطلوب ، ولكن لا يقال أفلح الرجل إذا فاز بمرغوبه عفواً من غير تعب ولا معاناة ، بل لا بدَّ فى تحقيق المعنى اللغوى لهذه المادة من السعى إلى الرغيبة والاجتهاد لادراكها ، فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا بالإيمان بما أنزل إلى النبى ﷺ وما أنزل من قبله . وباتباع هذا الإيمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهى التى نيط بها الوعد والوعيد فيما أنزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك فى الآخرة ، ويدخل فى هذا كله ترك الكذب والزور وتزكية النفس من سائر الرذائل كالشره والطمع والجبن والهلع والبخل والجور والقسوة وما ينشأ عن هذه الصفات من الأفعال الذميمة ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، والانغماس فى ضروب اللذات . كما يدخل فيه الفضائل التى هى أضداد هذه الرذائل المتروكة وجميع ما سماه القرآن عملا صالحا من العبادات وحسن المعاملة مع الناس [والسعى فى توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ماحده الشرع القويم ، والاستقامة على صراطه المستقيم]

وجملة القول: أن الايمان بما أنزل إلى النبى ﷺ هو الايمان بالدين الإسلامى جملة وتفصيلا ، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به ، فلا يسع أحداً جهله ، فالايمان به إيمان ، والاسلام لله به إسلام ، وإنكاره خروج من الاسلام . وهو الذى يجب أن يكون معقد الارتباط الإسلامى وواسطة الوحدة الإسلامية ، وما كان دون ذلك فى الثبوت ودرجة العلم فموكول إلى اجتهاد المجتهدين ، ولا يصح أن يكون شىء من ذلك مثار اختلاف فى الدين.

زاد الأستاذ هنا بخطه عند قولنا : اجتهاد المجتهدين ما نصه :

[أو ذوق العارفين أو ثقة الناقلين بمن نقلوا عنه ليكون معتمدهم فيما يعتقدون بعد التحرى والتمحيص . وليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم ، فإن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه فى الحال مثل ما للناقل معه ، فلا بد أن يكون عارفا بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه ، ونحو ذلك ما يطول شرحه ، ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل]

وأقول : معنى هذا أن بعض أحاديث الآحاد تكون حجة على من ثبتت عنده واطمأن قلبه بها ، ولا تكون حجة على غيره يلزم العمل بها ، ولذلك لم يكن الصحابة رضى الله عنهم يكتبون جميع ما سمعوا من الأحاديث ، و يدعون إليها مع دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به و بالسنة العملية المتبعة المبينة له إلا قليلا من بيان السنة ، كصحيفة على رضى الله عنه المشتملة على بعض الأحكام كالدية وفكاك الأسير وتحريم المدينة كمكة . ولم يرض الامام مالك من الخليفتين المنصور والرشيد أن يحملا الناس على العمل بكتبه حتى الموطأ . وإنما يجب العمل بأحاديث الآحاد على من وثق بها رواية ودلالة . وعلى من وثق برواية أحد وفهمه لشىء منها أن يأخذه عنه ، ولكن لا يجعل ذلك تشريعا عاما . وأما ذوق العارفين ، فلا يدخل شىء منه فى الدين ، ولا يعد حجة شرعية بالإجماع ، إلا ما كان من استفتاء القلب فى الشبهات ، والاحتياط فى تعارض البينات .

---

(٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قال الأستاذ : كان الذى تقدم بيانا من الله تعالى لصنفين من الناس لهم فى القرآن هداية ولنفوسهم إلى الاهتداء به انبعاث (الأول من الصنفين) أولئك الذين بلغهم لأول مرة ، وهم ممن يخشى الله و يهاب سلطانه ، وفى أصول اعتقادهم الإيمان بما وراء الحس على ما تقدم (والثانى) أولئك الذين آمنوا بما أنزل إلى النبى ﷺ وما أنزل من قبله

[وهذا الصنف قد يجتمع مع الذى قبله فيمن كانوا متقين مؤمنين بالغيب ، ثم آمنوا بالنبى وبما جاء به ، وقد يفترق الصنفان فيمن بقى إلى اليوم لم تبلغه الدعوة ، وهو على تلك الأوصاف ، ومن ولد من آباء مؤمنين ثم صدق إيمانه بعد أن أبلغ رشده وملك عقله]

أما هاتان الآيتان فقد بينتا حال طائفة ثالثة من الناس، وهم الكافرون ، ثم يبين قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ حال طائفة أخرى أخص منها وهم المنافقون ، الذين يظهر من أقوالهم وفى بعض أفعالهم أنهم مؤمنون ، ولكنهم فى حقيقة أمرهم كافرون ، بل شر من الكافرين [فهذه أقسام أربعة ينقسم اليها الناس إذا بلغهم القرآن ونظروا فيه ، ودعوا إلى الإيمان والاخذ بهديه]

بين الله تعالى لنبيه أنه إذا كان يوجد فى الناس من لايؤمن بالقرآن فليس هذا عيباً وتقصيراً فى هداية الكتاب ، وإنما العيب فيهم لافى الكتاب ، لأنه هداية كسائر الهدايات الطبيعية التى أعرض الناس وعموا عنها [كهداية العقل والسمع والبصر ونحوها مما أكرم الله به هذا النوع البشرى ، وقد يحكم الرجل بأن فى العمل مضرة تلحق به ، ومع ذلك يعدل عن حكمه انتهازاً للذة زينها له حسه أو وهمه ، ويأتى ذلك العمل على مايعلم من سوء مغبته ، فاحتقار الرجل لعقل نفسه لايعد عيباً فى تلك الموهبة الالهية ، ولايحط من شأن النعمة فيها . أنظر إلى رجل يغمض عينيه ويمشى فى طريق لايعرفها فيسقط فى حفرة وتتحطم عظامه ، هل ينقص ذلك من قدر بصره ، ويبخس من حق الله فى الاحسان به ، على هذا الذى لم يرد أن يستعمله فيما خلق له] فى الكلام تسلية لأهل الحق؛ وسيدهم هو النبى ﷺ ، فهو تسلية له أولا وبالأولى

قوله تعالى﴿ إن الذين كفروا ﴾ أقول : هذا بيان لحال القسم الثانى من أقسام الناس تجاه هداية القرآن، وقد قطعه وفصله مما قبله ، فلم يعطفه عليه للاشارة إلى ما بينهما من طول شقة الانفصال وعدم المشاركة فى شىء ما ، بخلاف القسم الثالث الآتى، فان لهم حظاً منه فى الدنيا ولمن يتوب منهم حظ فى الآخرة أيضا .

والكفر فى اللغة: ستر الشىء وتغطيته وإخفاؤه، ولذلك وصف به الليل والبحر

والزراع فى قوله تعالى (٥٧ : ٢٠ كمثل غيث أعجب الكفار نباته) لأنهم يغطون الحب بالتراب ـ وفعله من باب نصر . وقال الفارابي وتبعه الجوهري من باب ضرب وهو خطأ كما فى المصباح ـ ومن المجاز : كفر النعمة بعد شكرها وذكرها تنويهاً بها ، وكذا الكفر بالله أو بوحدانيته وصفاته ، أو كتبه ورسله وماجاءوا به عن الله تعالى ، أى إنكاره وعدم التصديق به والاذعان له ولا سيما الشرك فى عبادته ـ كل ذلك من ضروب الستر والتغطية السلبية فى الأمور المعنوية ، فهو مجاز لغة . وحقيقة شرعية فى معناه الشرعى المشار إليه آنفا . والمراد بالذين كفروا هنا من علم الله تعالى أن الكفر رسخ فى قلوبهم حتى فقدوا الاستعداد للايمان . وقال شيخنا : الكفر هنا عبارة عن جحود ماصرح الكتاب المنزل أنه من عند الله أو جحود الكتاب نفسه ، أو النبى الذى جاء به ، و بالجملة ما علم من الدين بالضرورة [بعد مابلغت الجاحد رسالة النبى (ص) بلاغاً صحيحاً ، وعرضت عليه الأدلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شيء من ذلك وجحده عناداً أو تساهلا واستهزاءاً ، نعنى بذلك أنه لم يستمر فى النظر حتى يؤمن] ولم نسمع أن أحداً من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كفر أحداً بما وراء هذا . فما عداه من الافاعيل والاقاويل المخالفة لبعض ماأسند إلى الدين ولم يصل العلم بأنه منه إلى حد الضرورة ـ أى لم يكن سنده قطعياً كسند الكتاب ـ فلا يعد منكره كافراً إلا إذا قصد بالانكار تكذيب النبى ﷺ فمتى كان للمنكر سند من الدين يستند اليه فلا يكفر [وإن ضعفت شبهه فى الاستناد اليه مادام صادق النية فيما يعتقد ، ولم يستهن بشيء مما ثبت بالقطع وروده عن المعصوم ﷺ]

وقد تجرأ بعض المتأخرين على تكفير من يتأول بعض الظنيات ، أو يخالف شيئاً مما سبق الاجتهاد فيه ، أو ينكر بعض المسائل الخلافية ، فجرأوا الناس على هذا الأمر العظيم ، حتى صاروا يكفرون من يخالفهم فى بعض العادات ، وإن كانت من البدع المحظورات [ثم هم على عقائد الكافرين ، وأخلاق المنافقين ، ويعملون أعمال المشركين ، ويصفون أنفسهم بالمؤمنين الصادقين]

الكافرون أقسام : (منهم) من يعرف الحق وينكره عناداً ، وهؤلاء هم الاقلون

ولا ثبات لهم ولا قوام ، وكان منهم فى زمن النبى ﷺ جماعةمن المشركين واليهود ولم يلبثوا أن انقرضوا

قال الاستاذ : كنت قلت فى هذا المعنى كلمة جديرة بأن تحفظ وهى « إن جحود الحق مع العلم به كاليقين فى العلم [1] كلاهما قليل فى الناس »

(ومنهم) من لايعرف الحق ولايريد ولايحب أن يعرفه وهم الذى قال الله تعالى فيهم (٨: ٢٢، ٢٣ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون *ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فهؤلاء كلما صاح بهم صائح الحق فزعوا ونفروا ، وأعرضوا واستكبروا ، ففى أنفسهم شعور بالحق ولكنهم يجدون فيها زلزلة ، كلما لاح لهم شعاعه يحجبونه عن أعينهم بأيديهم ، وسبب ذلك : أنهم لم يستعملوا أنظارهم فى فهم الحق ، ويخافون لو استعملوها أن ينقصهم شىء مما يظنونه خيراً ، و يتوهمونه معقوداً بعقائدهم التى وجدوا عليها آباءهم وساداتهم

[ومنهم : من مرضت نفسه واعتل وجدانه ، فلا يذوق للحق لذة ، ولا تجد نفسه فيه رغبة ، بل انصرف عنه إلى هموم أخر ملكت قلبه وأسرت فؤاده ، كالهموم التى غلبت أغلب الناس اليوم على دينهم وعقولهم ، وهى مااستغرقت كل ما توفر لديهم من عقل و إدراك ، واستنفدت كل ما يملكون من حول وقوة ، فى سبيل كسب مال أو توفير لذة جسمانية ، أو قضاء شهوة وهمية ، فعمى عليهم كل سبيل سوى سبل ما استهلكوا فيه ، فاذا عرض عليهم حق أو ناداهم إليه مناد ، رأيتهم لا يفهمون مايقول الداعى ، ولا يميزون بين مايدعو إليه ، و بين ماهم عليه ، فيكون حظ الحق منهم الاستهزاء والاستهانة بأمره ، فاذا وعدهم أو أوعدهم النذير ، قالوا لانصدق ولا نكذب ، حتى ننتهى إلى ذلك المصير ، وهذا القسم كالذى قبله كثير العدد فى الناس فى كل زمان ومكان ، خصوصاً فى الأمم التى يفشو فيها الجهل ، وتنطمس من أفرادها أعين الفطرة ، وتنضب من أنفسهم ينابيع الفضائل ، فيصبحون كالبهائم السائمة ، لاهم لهم إلا فيما يملأ بطونهم ، أو يداعب أوهامهم ،

---

(١) يعنى اليقين المنطقى الذى ينتهى العلم به إلى حد الضرورة ، كما تقدم . واشتراطه فى الايمان الشرعى يقتضى قلة المؤمنين فى كل زمان .

ويصح جمع هذين القسمين تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين ، والقسم الأول هو قسم المعاندين المتكابرين]

فكل من هذه الفرق ﴿سواء عليهم أأنذرتهم[1] أم لم تنذرهم﴾ الانذار الاخبار والاعلام بالشيء المقترن بالتخويف مما يترتب عليه من فعل يتضمن ذمه وطلب تركه أو ترك لأمر يتضمن مدحه وطلب فعله، نصاً أو اقتضاء ، والسواء اسم مصدر بمعنى الاستواء . والمعنى : أن الذين كفروا ولم يدخلوا فى قسم المستعدين للايمان فرسوخهم فى الكفر ، يستوى الانذار وعدمه بالنسبة إليهم فى الواقع ، فالذى يعرض عن النور مع العلم به ويغمض عينيه كيلا يراه بغضاً له لذاته أو تأذيا به ، أو عناداً وعدواة لمن دعاه إليه ـ ماذا يفيده النور ، وماذا يعيب النور من إعراضه ؟ والذى لا يعرف النور ولا يحب أن يعرفه لأن فساد طبيعته وخبث تربيته أناه عنه وأبعده ، وجعله يألف الظلمة كالخفاش ، [أو أفسد الجهل وجدانه فأصبح لا يميز بين نور وظلمة ، ولا بين نافع وضار ، ولا بين لذيذ ومؤلم ، ماذا عساه يفيده النور مهما سطع ، أو يؤثر فيه الضوء مهما ارتفع ؟]

﴿ لا يؤمنون ﴾ أقول: هذه جملة مفسرة لتساوى الانذار وعدمه فى حقهم لا فى حقه ﷺ وحق دعاة دينه ، فهم يدعون كل كافر إلى دين الله الحق ، لأنهم لا يميزون بين المستعد للايمان وغير المستعد له ، إذا هو أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ثم وصف سبحانه فقدهم لهذا الاستعداد ، ورسوخهم فى الكفر الذى لم يبق

---

(١) فى اجتماع مثل هاتين الهمزتين قرآت تتعلق بالأداء دون المعنى: قرأها الكوفيون وابن ذكوان بتحقيق الهمزتين ، وهى لغة بنى تميم ، وأهل الحجاز يخففون فقرأ الحرميان من القراء وأبو عمرو وهشام بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية وأبو عمرو وقالون واسماعيل عن نافع وهشام يدخلون بينهما ألفا فى هذه الحالة ، وابن كثير لا يدخل . وروى عن هشام تحقيقهما مع إدخال ألف بينهما . وعن ورش كابن كثير وكقالون إبدال الثانية ألفا فيلتقى بها ساكنان على غير حده، وفاقا للكوفيين وخلافا للبصريين . والبصريون إنما يمنعون جمله قياساً ولكنهم لا يستطيعون رد ما ثبت بالتواتر سماعا ولا سيا القرآن.

معه محل لغيره بهذا التعبير البليغ ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ قال الراغب : الختم والطبع يقال على وجهين : مصدر ختمت وطبعت ، وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع (والثانى) الأثر الحاصل عن النقش ، و يتجوز بذلك تارة فى الاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب نحو (ختم الله على قلوبهم * وختم على قلبه وسمعه) ـ إلى أن قال ـ فقوله (ختم الله على قلوبهم) ... إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الانسان إذا تناهى فى اعتقاد باطل وارتكاب محظور ـ ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق ـ يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصى ، وكأنما يختم بذلك على قلبه . وعلى ذلك (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) اه المراد منه .

وأقول : إن مراده أن هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر فى قلوبهم حتى فقدوا الدواعى والأسباب التى تعطفهم إلى النظر والفكر فى أدلة الايمان ومحاسنه . ختم الله على قلوبهم فلا يدخلها غير ما رسخ فيها ، وعلى أسماعهم فلا يسمعون آيات الله المنزلة سماع تأمل وتفقه ، وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) جملة معطوفة على جملة (ختم) والغشاوة ما يغطى به الشيء ، ومعنى هذه المادة : غ ش ى ـ التغطية. والمراد أن أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة الدالة على الايمان ، فكل من الفريقين لا يرجى إيمانه وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى لأنه بيان لسنته تعالى فى أمثالهم ، وعبر عنه بالماضى للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه ، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر ، ولا على منع الله تعالى إياهم منه بالقهر ، و إنما هو تمثيل لسنته تعالى فى تأثير تمرنهم على الكفر وأعماله فى قلوبهم بأنه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره ، كما تقدم مثله عن الراغب . و يوضح ما قلناه : قوله تعالى فى سورة المنافقين (٦٣ : ٣ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) وقوله فى اليهود من سورة النساء (٤ : ١٥٤ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا

يؤمنون إلا قليلا) فذكر أن الطبع على قلوبهم إنما هو بسبب كفرهم وتلك المعاصى التى أسندها إليهم وقوله تعالى فى سورة الجاثية (٤٥ . ٢٢ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ـ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) فقد ذكر من فعله المسند إليه أنه اتخذ الهه هواه ومن صار هواه معبوده لا يفيد معه شيء . وقد صرح هنا بأن الغشاوة على بصره من جعل الله تعالى ، ولم يصرح بذلك فى آية البقرة التى نفسرها ، والمعنى واحد. ولشيخنا الأستاذ الإمام دقائق فى هذه التعبيرات ادخرها الله تعالى له وهى مع هذا تغنيك عن تمارى الأشعرية والمعتزلة فى الآيات تعصبا لمذاهبهم . قال :

يقولون : إن الختم والطبع والرين . ألفاظ تجرى على شيء واحد ، وهو : تغطية الشيء والحيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه ، والقلوب مراد بها العقول ، والمراد بالسمع الأسماع ، وإفراده لأن أصله مصدر ومن شأن المصادر أن لا تجمع ، وقد لوحظ هنا الأصل ، والأبصار العيون التى تدرك المبصرات من الأشكال والألوان .

(قال) وأنا أرى فى مسألة هذا الجمع والافراد رأياً آخر ، إذ لو صح ما قيل فان البصر أيضا مصدر فلماذا جمعه ؟ والذى أراه أن العقل له وجوه كثيرة فى إدراك المعقولات ، فليس الناس فيه سواء ، فجمع لاختلاف الناس فيه ، وأنواع تصرفهم فى وجوهه ، بخلاف السمع فان أسماع الناس تتساوى فى إدراك المسموعات فلا تتشعب تشعب العقول فى إدراك المعقولات . وأما الأبصار فهى مثل العقول فى التشعب ، وأعظم معين للعقول فى إدراكها ، لأن أنواع المبصرات كثيرة فتعطى للعقل مواد كثيرة ، والسمع لا يدرك إلا الصوت ، وليس فى الكلام عند النقل طريق من طرق العلم اليقينى إلا التواتر [بخلاف ما نقطع فيه بالضرورة من طريق العقل والبصر ، فهو كثير ، فالأوليات[1] كالحكم بأن الجزء أصغر من الكل

(١) الأوليات : هى القضايا الضرورية التى يحكم العقل بها بمجرد توجهه اليها بدون حاجة إلى شيء آخر ، وهى أخص من الضروريات مطلقا !

وأن النقيضين لايجتمعان ولا يرتفعان،والقضايا التى قياساتها معها[1] ـ من المعقولات المحضة . والتجريبات والحدسيات[2] يشترك فيها العقل والبصر . والقسم الأعظم من المشاهدات سبيل الإدراك فيه البصر . فالعقول والأبصار بمنزلة ينابيع كثيرة تنبجس من كل منها عيون للعلم مختلفة ، بخلاف السمع فانه ينبوع واحد لااختلاف فيما يصدر عنه] فالحاصل أن العقول والأبصار تتصرف فى مدركات كثيرة فكأنها صارت بذلك كثيرة فجمعت ، وأما السمع فلا يدرك إلا شيئاً واحداً فأفرد سأله سائل : كيف هذا ، وقد قالوا : إن السمع أفضل من البصر ؟ فقال : أنا لا أتكلم فى التفضيل ، ذلك إلى الله ورسوله ، وإنما أشرح موجوداً وأبين مناسبة اللفظ له ، [وإن المشاهدة قاضية بأن العقل لا منتهى لتصرفه ، وبأن أقل ما قيل فى البصر أنه يدرك الألوان ، والاشكال ، والمقادير،والسمع لايدرك إلا الأصوات فقط ، كما أن الذوق لايحس إلا بالمذوقات وحدها ، وان كان ما يصل من طريق السمع قد يتضمن حكاية عن معقول أو مبصر ، ولكن وروده على الحكاية لايغير من حقيقته ، فهو معقول أو مبصر ، فمن ذكر لك برهانا على حقيقة علمية فانما تسمع منه الأصوات والحروف . وأما فهمك المقدمات ووصولك منها إلى النتائج فهو من طريق عقلك لا من طريق سمعك ، فان كان حديث الأفضلية يستند إلى أن جميع المدركات قد يمكن أن يعبر عنها بالكلام ـ وهو مسموع ـ فقد بينا لك ما فيه ، ويعارضه أن جميع ضروب الكلام يصح أن تكتب وطريق فهمها من الرقم

(١) هى ما يحكم العقل فيه بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور طرفى القضية كقولنا : الاربعة زوج ، بسبب وسط حاضر فى الذهن وهو الانقسام بمتساويين

(٢) هى ما يحتاج العقل فى الجزم بالحكم فيها إلى تكرار التجربة حتى تثبت بالمشاهدة مرة بعد أخرى . والحدسيات هى ما يجزم العقل بالحكم فيها بسبب تكرر المشاهدة ، كقولنا : بخار الماء ذو قوة ضاغطة رافعة ، ونور القمر مستفاد من نور الشمس ،وكل هذا من اصطلاح علم المنطق،ونحن نحامى أمثال هذه الاصطلاحات فيما نقوله وفيما ننقله فى التفسير ليفهمه جماهير القراء ،ولكن هذا شىء كتبه شيخنا بخطه، فمن الامانة نقله بحروفه .

إنما هو البصر ، والحق أن المعول عليه فى تمدد الطريق ليس مايكون من قبيل الحكاية ، بل مايكون من طبيعة القوة.

وأما انطباق الكلام على تلك الأقسام السابقة و بيان حرمانهم وكونهم كما وصفوا ـ فهو بالنسبة إلى الطائفة التى عاندت الحق وهى تعرفه ـ ظاهر لأنهم لما عاندوا الحق لأنه لم يأت على أيديهم [فقدطبع على قلوبهم بطابع ذلك العناد نفسه ؛ فإنه قد حيل بين عقولهم و إدراك مايصيرون إليه بالإصرار على الباطل من ضعف أمر وفساد حال فى الدنيا ، وشقاء وخلود فى نكال الآخرة ، ثم هم قد حجبوا به عن إدراك مايتبع] ذلك الحق من المعارف والحقائق الأخرى ؛ فقد ختم على قلوبهم بالنسبة إلى ماحجبوا عنه .

وأما الختم على سمعهم فلأنهم صموا عن سماع الحق واستماع القول لفهمه ، فمن أعرض عن فهم الحق فهو لم يسمع إلا صوتاً لم ينفذ شىء من معناه إلى موضع الإدراك الحقيقى منه ، فقد ختم على سمعه فلا ينفذ إليه شىء ينتفع به

وأما الأبصار فإنما كانت عليها غشاوات عند هؤلاء الجاحدين ، لأن فائدة البصر ، هى التوقى من الخطر ، والعبرة بما يبصر ، فمن لم ينظر فى الآيات الكونية التى تقع تحت بصره كل يوم كأنه لم يبصر شيئا منها ، فقد ضرب على بصره بغشاوة. [وأما بالنسبة إلى القسمين الآخرين اللذين جمعا تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين كماسبق فالختم على القلوب والسمع والأبصار ظاهر لأنهم لم ينتفعوا بشىء من هذه القوى حتى فى فهم مايعرض عليهم ، ورؤية مايقع تحت حواسهم] والكلام كله ضرب من التمثيل يعرفه اللسان وتمهده اللغة . والمعنى هو مابينا والله أعلم . [ولما كان حديث الختم تمثيلا لفقد حقيقة الفهم والحرمان من فوائد تلك المواهب الإلهية : مواهب العقل والسمع والأبصار ـ كان إسناده إلى الله تأكيداً لمعنى الحرمان، وتقديراً لمصيبة الخسران، لأن ماختم بيد الله لاتفضه يد سواه]

وأما النكتة فى استعمال الختم مع القلب والسمع ، والغشاوة مع البصر ؛ فهى أن الختم من شأنه أن يكون على المكنون المستور . وهكذا موضع حس السمع ، وموضع الإدراك من العقل ، والاسماع فى ظاهر الخلقة ، وأما البصر فالحاسة منه

ظاهرة منكشفة (قال) ومثل هـذه الدقائق هى المرادة بقول صاحب التلخيص « ولكل كلمة مع صاحبتها مقام»

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أقول : العذاب اسم لما يؤلم و يذهب بعذو بة الحياة من ضرب ووجع وجوع وظمأ .قال الراغب:واختلف فى أصله، فقال بعضهم:هو من قولهم : عَذَبَ الرجل إذا ترك المأكل (زاد غيره من شدة العطش) والنوم فهو عاذب وعذوب ، فالتعذيب فى الأصل هو حمل الانسان أن يعذب ، أى يجوع و يسهر . وقيل: أصله من العذب، فعذبته:أزلت عذب حياته. على بناء: مرّضته وقذيته[1] وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أى طرفه اه . وقال البيضاوى العذاب كالنكال بناء ومعنى تقول أعذب عن الشىء ونكل عنه ـ إذا أمسك ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش و يردعه، ولذلك يسمى نقاخا وفراتا ثم اتسع فأطلق على كل ألم فادح و إن لم يكن عقابا يردع الجاني عن المعاودة الخ .والعظيم ضد الحقير فهو فوق الكبير الذى هو ضد الصغير . وتنكير العذاب هنا للاشارة إلى أنه نوع منه مبهم مجهول عند أهل الدنيا ، بناء على أن المراد به عذاب الآخرة التى هى من عالم الغيب . وقال شيخنا تبعاً للجمهور : التنكير فيه للتعظيم والتهويل ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حد العظمة كَمًّا وكيفاً، فهو شديد الإيلام ، وطويل الزمان . وهل هذا العذاب فى الدنيا أم فى الآخرة ؟ قال فى آية أخرى (٥:٤١ لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فيؤخذ من هذه الآية ومن آيات أخرى أن الاعراض عن هدى الإسلام ، وما أرشد إليه من إصلاح المعاش والمعاد ، جزاؤه الضنك والضيق وفقد العزة والسلطة فى الدنيا ، والعذاب العظيم فى العقبى .

وهنا سأله سائل : هل الآية نص فى التكليف بالمحال ؟ فقال : لا ، وأنا لا أحب أن أحشر المسائل الخلافية فى تفسير القرآن بل أحب أن أبين المعنى الذى كان يفهمه الصحـابة رضى الله تعالى عنهم ، وما كان يخطر على بال أحد منهم التكليف بالمحال . على أن الاتفاق واقع بين الأئمة بل بين الأمة على أن التكليف

(١) يقال قذيته أو قذيت عينه أى أخرجت القذى منها ، فالهمزة للازالة

بالمحال غير؟ واقع ، وأن الله (لايكلف نفساً إلا وسعها) كما صرح به الكتاب وتضافرت عليه الأحاديث النبوية ، فما بقى من مواضع الخلاف لايمس نصوص الكتاب العزيز الذى (٤١ : ٤٢ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

---

(٨) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٩) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٠) فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

قدمنا أن الكلام من أول السورة فى القرآن وأقسام الناس بإزائه ، وذكرنا منهم ثلاث فرق ـ فرقتان لهما فيه هدى (إحداهما) المتقون وبين حالهم بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) الخ ، ومنهم الذين كانوا يدعون الحنيفيين والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون إشراق نور الحق ليهتدوا به كما تقدم . (والثانية) هى المذكورة فى قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) الخ وهم كل من آمن بالنبى ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق .

وبينا أنه يوجد بإزاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان لاترجى هدايتهما بالقرآن . الأولى منهما هى المشروح حالها فى قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) الخ وهى كما قدمنا تنقسم إلى قسمين جاحدين لايسمعون ، ومعاندين يعرفون الحق ولا يذعنون .

وهذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها الآن هى المبينة لحال الفرقة الرابعة وهى فرقة من الناس توجد فى كل آن وفى كل عصر . وليست الآيات كما قيل فى أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا فى عصر التنزيل ، ولذلك قال تعالى فى بيان حالهم (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) ولم يقل عنهم إنهم يقولون مع ذلك « وآمنا بك يامحمد » وما كان القرآن ليعتنى بأولئك النفر الذين

لم يلبثوا أن انقرضوا كل هذه العناية ، ويطيل فى بيان حالهم أكثر مما أطال فى الأصناف الثلاثة الذين هم سائر الناس

نعم إن الآيات على عمومها تتناول من كان منهم فى عصر التنزيل تناولا أوليا وتصف حالهم وصفا مطابقا ، وهى مع ذلك عبرة عامة شاملة لمن مضى ولمن يجىء من هذا الصنف إلى يوم القيامة ، وقد كان و يكون من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس ومن كل طائفة تدعى إنها على دين . ولم يحك عنهم دعوى الإيمان بالأنبياء والأعمال الصالحة ـ مع أن منهم الذين يدعون ذلك ـ لأن الإيمان باليوم الآخر يتضمن ذلك ، فهو إنما يعرف من قبل الأنبياء ، وهذا من ضروب إيجاز القرآن التى بلغت حد الاعجاز

قد يقال : كان فى أولئك القوم من كانوا يؤمنون بالله و باليوم الآخر كمنافقى اليهود، فلم كذبهم ونفى عنهم الايمان نفياً مطلقاً مؤكداً بدخول الباء فى خبر «ما» فقال ﴿ وماهم بمؤمنين ﴾ أى بداخلين فى جماعة المؤمنين الصادقين ألبتة . وهو أبلغ من نفى فعل الإيمان المطابق للفظهم والمقيد بالإيمان بالله و باليوم الآخر ؟ والجواب: أن اعتقادهم التقليدى الضعيف لم يكن له أثر فى أخلاقهم ولا فى أعمالهم، فلو حُصِّل مافى صدورهم ، ومُحص مافى قلوبهم ، وعرفت مناشىء الأعمال من نفوسهم ، لوجد أن ما كان لهم من عمل صالح كصلاة وصدقة فانما مبعثه رئاء الناس ، وحب السمعة ، وهم من وراء ذلك منغمسون فى الشرور ، كالافساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التى حكاها عنهم الكتاب ونقلها رواة السنة ، وهذه الأعمال تدل على أنهم لايؤمنون بالله كما يحب و يرضى أن يؤمن به ، وهو أن يشعر المؤمن بعظيم سلطانه ، و يعلم أن الله سبحانه مطلع على سره وإعلانه، لأنه مهيمن على السرائر، وعالم بما فى الضمائر ، فيرضيه بظاهره و باطنه . بل كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات يظنون أنهم يرضون الله تعالى بذلك . ولذلك قال فيهم :

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ أقول : الخدع أن توهم غيرك خلاف ماتخفيه من المكروه له لتنزله عما هو بصدده من قولهم : خدع الضب إذا توارى فى جحره ، وضب خادع ـ إذا أوهم الصائد إقباله عليه ثم خرج من باب آخر ،

وأصله الإخفاء. هذا ماحرره البيضاوى، وقد جعله الراغب أعم، فلم يعتبر فيما يخفيه الخادع أن يكون مكروها ، وهذا المعنى لايمتنع إسناده إلى الله تعالى و إلى المؤمنين وهو ما تدل عليه صيغة المشاركة «يخادعون» وقالوا: إنه محال على الله وغير لائق بالمؤمنين بل يستقبح لأنه عمل المنافقين ، وقد جاء فى سورة النساء (٤:١٤٢ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالا فسروا مخادعتهم لله هنا وهناك بأنه خداع فى الصورة لا فى الحقيقة ، وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ولكنهم لايجزون جزاءهم فى الآخرة ، بل يكونون فى الدرك الأسفل من النار ـ فمعاملتهم الظاهرة غير جزائهم المغيب عنهم فى الآخرة ، كما أن عملهم الظاهر غير كفرهم الخفى فى أنفسهم ، فالجزاء من جنس العمل، ولكن عملهم خداع ـ ومقابله حق صورته صورة الخداع ، ولكنه لاغش فيه لأن النصوص صريحة فى كفر المنافقين ـ والتحقيق: أن فعل المشاركة هنا خاص بالفاعل المسند إليه فعله وهم المنافقون ، وصيغة « فاعل » لاتطرد فيها المشاركة بالفعل كعاقبت اللص ، وقد تكون مقدرة أو باعتبار الشأن أو القصد ، ومن التكلف قول بعضهم إنه عبر عن مخادعتهم للرسول ﷺ بمخادعة الله تعالى

وقال شيخنا : العمل الظاهر الذى لا يصدقه الباطن إذا قصد به إرضاء آخر يسمى فى اللغة مداجاة ومداراة ومخادعة ، فان كان يقصد به المخادعة فظاهر ، و إلا فيكفى لصحة الاطلاق أن العمل عمل المخادع ، لاعمل الطائع الخاضع ، وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب المؤمنين بالله ايمانا ناقصا ، لم يقدروا الله فيه حق قدره ، و يستحيل أن يقصد المؤمن بالله تعالى مخادعته ، ولكنهم لجهلهم بالله ظنوا به ما سوغ وصفهم بما ذكر عنهم .

قال تعالى ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أقول: وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (ومايخادعون إلا أنفسهم) وهو دليل على ما قلنا آنفا فى صيغة «فاعل» والمشاركة هنا للاشارة إلى أنهم هم الخادعون المخدوعون، وقراءة الجمهور (يخدعون) نص فى أن مخادعتهم لله والمؤمنين لاتأثير لها فيهما، فهى بالنسبة إليهما صورية وفى الحقيقة أن القوم يخدعون أنفسهم لأن ضرر عملهم خاص بهم ، وعاقبته و بال عليهم

وحدهم . وقال الاستاذ فى الدرس فيها مامثاله :

إذا رجع الانسان إلى نفسه،وأصغى لمناجاة سره،يجد عندما يهم بعمل شيء أن فى قلبه طريقين ، وفى نفسه خصمين مختصمين ، أحدهما يأمره بالعمل وسلوك الطريق الأعوج ، وآخر ينهاه عن العوج ، ويأمره بالاستقامة على النهج ، ولا يترجح عنده باعث الشر ، ولا يجيب داعى السوء ، إلا إذا خدع نفسه بعد المشاورة والمذاكرة المطوية فيها ، وصرفها عن الحق ، وزين لها الباطل ، وهذه الشؤون النفسية فى غاية الخفاء ، تكون المنازعة ثم المخادعة ثم الترجيح ويمر ذلك كله كلمح البصر ، وربما لايلتفت إليه الانسان بفكره ، ولذلك قال ﴿ ومايشعرون ﴾ فان الشعور هو إدراك ماخفى .

أقول: قال الراغب بعد ذكر الشعر - بفتح الشين وسكون العين وفتحها - من مفرداته وشعرت أصبت الشَّعَر ، ومنه استعير شعرت كذا أى علمت علماً هو فى الدقة كإصابة الشَّعَر ومنه يسمى الشاعر شاعراً لفطنته ودقة معرفته ، فالشعر فى الأصل اسم للعلم الدقيق فى قولهم: ليت شعرى . وصار فى التعارف اسما الموزون المقفى من الكلام اه

أقول : ويناسب هذا الشعار - بالكسر - للكساء الباطن الذى يمس شعر الانسان. والمعروف فى كتب اللغة أن شعر به - كنصر وكرم - يشعر شعرا - بالكسر والفتح - وشعوراً معناه علم به وفطن له وأدركه . والفطنة تتعلق بالأمور الدقيقة وأطلق بعض المفسرين : أن الشعور إدراك المشاعر أى الحواس الخمس، والتحقيق أنه إدراك مادق من حسي وعقلي ، فلا تقول : شعرت بحلاوة العسل وبصوت الصاعقة وبألم كية النار ، وإنما تقول : أشعر بحرارة مافى بدنى، وبملوحة أو مرارة فى هذا الماء ، إذا كانت قليلة - وبهينمة وراء الجدار ، وما ورد فى القرآن من هذا الحرف يدل على هذا المعنى أى إدراك مافيه دقة وخفاء .

فمعنى نفى الشعور عن المنافقين فى مخادعتهم لله تعالى أنهم يجرون فى كذبهم وتلبيسهم وريائهم على ماألفوا وتعودوا ، فلا يحاسبون أنفسهم عليه ، ولا يراقبون الله فيه ، وما كانوا يؤمنون بوجود الله وإحاطة علمه ، ومن يؤمن بوجوده لم يترب على خشيته ومراقبته ، ولا يفكر فيما يرضيه وفيما يغضبه ، فهو يعمل عمل المخادع له

ومايشعر بذلك . وأما مخادعتهم للمؤمنين فظاهرة لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم ، فأعمالهم التى يقصدون بها إرضاء المؤمنين كلها خداع ورياء وقد فصل شيخنا سر مخادعتهم وفلسفتها ببيان علمى جلى ، فقال ما معناه :

هؤلاء المغرورون إذا عرض زاجر الدين بينهم و بين شهواتهم قام لهم من أنفسهم ما يسهل لهم أمره من أمل فى الغفران ، أو تأويل إلى غير المراد ، أو تحريف إلى مايخالف القصد من الخطاب ، وذلك بما رسخ فى نفوسهم من ملكات السوء ، المغشاة بصور من العقائد الملونة بما قد يتجلى للأعين فيما يسمونه إيمانا . وما هم فى الحقيقة بمؤمنين ، و إنما هم خادعون مخدوعون ، ولكنهم لما عمى عليهم من أمر أنفسهم ، لا يشعرون ، لأن ذلك يمر فى أنفسهم وهم عنه غافلون .

وفرق ظاهر بين ما تستحضره النفس من المعلومات وتستعرضه عند ماتسأل عنه ، وماهو راسخ فيها من تلك المعلومات ، بصيرورته ملكة فى النفس متصرفة فى الإرادة ، باعثة لها على العمل . فمن العلوم ما هو ثابت فى النفس ممتزج بها . [على النحو الذى ذكرنا فيتبع امتزاجه هذا تمكن ملكات أخر تصدر عنها الأعمال ، وهى مايعبر عنه بالأخلاق والصفات كالكرم والشجاعة ونحوهما فانها إنما تنطبع فى النفس تبعا للعلم الذى يلائمها] وهو العلم الحقيقى الذى تصدر عنه الأعمال وربما يغفل الانسان عنه ولا يلاحظه عند ما يعمل . وفرق بين ملاحظة العلم واستحضاره و بين وجوده وتحققه فى نفسه .

ومن العلوم مايلاحظ الانسان أنه عنده فهو صورة عند النفس تستحضره عند المناسبة و يغيب عنها عند عدمها ، لأنه لم يُشربْه القلب ولم يمتزج بالنفس فيصير صفة من صفاتها الراسخة التى لا تزايلها [وهذا النوع من العلم يتعلق بما تعلق به النوع الأول ، كعلم الحلال والحرام الذى يحصله طلبة الفقه الاسلامى مثلا . وكعلم مزايا الفضيلة ، ورزايا الرذيلة الذى يخزنه طلاب علوم الآداب والأخلاق والنظار فى كتب الأواخر والأوائل . لتغزير مادة العلم وتوسيع مجال القول وتوفير القدرة على حسن المنطق ونحو ذلك ، فهذا العلم كالأداة المنفصلة عن العامل ، يبقى فى خزانة الخيال ، تستحضره النفس عند ماتدفعها الشهوة إلى تزيين

ظاهر المقال ، إلى تحسين باطن الحال ، ولن يكون لهذا الضرب من العلم أدنى أثر فى عمل من أعمال صاحبه . وتسميته علما لأنه يدخل فى تعريفه العام «صورة من الشيء حاضرة عندالنفس» وعند التدقيق لا ترتفع به منزلته إلى أن يندرج فى معنى العلم الحقيقى] فاستحضار هذا العلم كاستحضار الكتاب واللوح و إدراك مافيه ، ثم الذهول عنه ونسيانه عند الاشتغال بشيء آخر .

فهؤلاء ـ الذين يخدعون أنفسهم و يخادعون الله تعالى ـ عندهم علم حقيقى تنبعث عنه أعمالهم ، و إن كان باطلا فى نفسه ، وهو تصديقهم بما فى شهواتهم من المصلحة لذواتهم ، وهو الذى رجح عندهم اختيار مافيه قضاؤها والانصباب إلى ماتدعو إليه ، وهو ماأنساهم ما كانوا خزنوا فى أنفسهم من صور الاعتقادات الدينية ، فأبعدهم ذلك عن الاعتقاد الحقيقى الذى يعتدبه وجعله رسما مخزوناً فى الخيال ، لاأثر له فى الأفعال ، يدعونه بألسنتهم ، وتكذبهم فى دعواهم أعمالهم وأحوالهم ، ولذلك نسبهم إلى الدعوى القولية ولم يقل فيهم ماقال فى ذلك الفريق الأول (الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) فانه هنالك ذكر إيمانهم وقفى عليه بذكر العمل الذى يشهد له . ومن هنا يعلم ما الايمان الذى يعتد به القرآن وهو يظهر لمن يقرأ القرآن ليحاسب به نفسه ، و يزن إيمانه وأعماله بما حكم به على إيمان من قبله وأعمالهم ، لا لمن يقرؤه على أنه قصة تاريخية مات من يحكى عنهم ، واستثنى القارىء نفسه ممن حكم عليهم فيها

فان كان مات من كانوا سبب النزول فالقرآن حى لا يموت ، ينطق حكمه و يحكم سلطانه على الناس فى كل زمان [فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ومع ذلك يصدر فى عمله عن شهواته ، ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته ، فاعتقاده انما هو خيال ، لا يعلو عن لفظ فى مقال ، ودعوى عند جدال ، فاذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه ، مخادع لربه يظن أن علام الغيوب ، لا ينظر إلى مافى القلوب]

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ عهد عند العرب التعبير عن العقول بالقلوب والمرض هو ما يطرأ على العقول فيضعف تعقلها و إدراكها ، والشك والوهم من أعراض هذا المرض ، فهو ظلمة تعرض للعقل فتقف بشعاعه أن ينفذ إلى ماوراء التكاليف والأحكام من الأسرار والحكم . وهذا النفوذ هو الفقه فى الدين الذى يسوق النفس

إلى الأخذ به ظاهراً وباطناً . وقد عبر القرآن عن فقد أمثال هؤلاء لهذا بقوله (٧: ١٧٩ لهم قلوب لا يفقهون بها) وربما كان التعبير عن العقول بالقلوب فى مثل هذا المقام ، لأن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذى هو السائق إلى الأعمال [يظهر لك ذلك بما تجده من اضطراب قلبك عند اشتداد الخوف أو اشتداد الفرح ، فانك تحس بزيادة ضرباته وشدة نبضاته] فصورة الاعتقاد إذا تناولها العقل من طريق التقليد والتسليم ، فجعلها فى زاوية من زوايا الدماغ ، لم يكن لها سلطان على القلب ولا تأثير فى الوجدان ، واعتقاد لا يصحبه هذا السلطان ولا يصدر عنه هذا التأثير ، لا يعتد الله تعالى به ولا يستفيد الإنسان منه كما تقدم آنفاً ، فمن لم يطرق الايمان قلبه بقوة البرهان ولم يحل مذاقه منه فى الوجدان ، بحيث يكون هو المصرف له فى أعماله لا ينفعه إيمانه ، إلا اذا تمرن على الأعمال الصالحة عن فهم وإخلاص ، حتى يحدث لقلبه الوجدان الصالح ، فأهل اليقين يبعثهم يقينهم على العمل الصالح ، وأهل التقليد تلحقهم أعمالهم الصالحة بأهل اليقين فى الانتفاع بإيمانهم ، وهذا الفريق الذى تحكى عنه الآيات ، وتصفه بالكذب والخداع ، قد فقد الأمرين معاً ، ولا صحة للقلب إلا بهما ، فمن فقدهما مرض ولا يلبث مرضه أن يقتله .

قال الأستاذ الامام ما معناه : ولضعف العقل أسباب . منها : ماهو فطرى كما هو حال أهل البله والعته ، وهو الذى لا يكلف صاحبه ولا يلام ، ومنها : ما يكون من فساد التربية العقلية كما هو حال المقلدين الذين لا يستعملون عقولهم ، وإنما يكتفون بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات ، ويرين على قلوبهم ما يكسبونه من السيئات ، وما يكونون عليه من التقاليد والعادات ، ولا يعتنون بما أمر الله به من تمزيق هذه الحجب ، وإزالة هذه السحب ، للوقوف على ماوراءها من مخدرات العرفان ، ونجوم الفرقان وشموس الايمان ، بل يكتفون بما حكى الله عنهم فى قوله (٤٣: ٢٣ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) حتى يجىء اليوم الذى يقولون فيه (٣٣: ٦٧ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل) .

وأقول : إن المرض فى أصل اللغة : خروج البدن عن اعتدال مزاجه وصحة أعضائه فيختل به بعض وظائفها وأعمالها ، وتعرض الآلام لها . ويطلق مجازاً

على اختلال مزاج النفس ، وما يخل بكمالها من نفاق وجهل ، وارتياب وشك ، وغير ذلك من فساد الاعتقاد الحق، واضطراب حكم العقل وفساد الخلق، والمرض هنا من النوع الثانى كما تقدم آنفا ، وخصه شيخنا بمنافقى اليهود ، فقال ما معناه . كان فى قلوبهم مرض قبل مجىء النذير ، و بيان الرشد من الغى ، عندما كانوا فى فترة حظهم من الكتب قراءة ألفاظها ، ومن الأعمال إقامة صورها ؛

﴿ فزادهم الله مرضا ﴾ بعد ماجاءهم البرهان المنير ببعثة البشير النذير ، ووجدوا منه زعزعة فى أنفسهم؛ ولكن أخذتهم العزة بالإثم فأبوا الايمان ؛ ونبوا عن القرآن ؛ [وزاد تمسكهم بما كانوا عليه واشتد حرصهم عليه] فكان شعاع النور الذى جاء به الرسول عمى فى أعينهم ؛ ومرضاً على مرضهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى عذاب مؤلم فوق هذه الأمراض ؛ و«أليم» صيغة فعيل من ألم يألم فهو أليم وصف به العذاب نفسه ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ [فى دعواهم الايمان بالله واليوم الآخر ؛ فانهم لم يصدقوا بأعمالهم؛ ما يزعمونه من حالهم]

أقول : وأما مرض منافقى المدينة من العرب فهو الشك فى نبوته ﷺ كما روى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما وعن الأول : أنه النفاق . وعن بعض تلاميذه : الرياء . وحسبك فى زيادة مرضهم قوله تعالى (٩ : ١٢٥ و إذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ — إلى قوله — وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)

أقول : قرأ عاصم وحمزة والكسائى (يكذبون) بالتخفيف أى بسبب كذبهم، وقرأ الباقون (يكذبون) بالتشديد أى ولهم عذاب أليم بسبب تكذيبهم النبي ﷺ. والحكمة فى القراءتين : اثبات جمعهم للرذيلتين ، أى الكذب فى دعوى الايمان ، وتكذيب النبى ﷺ والسلام ، والثانية سبب الأولى ؛ وهم إنما كانوا يكذبونه فى أنفسهم ، وفيما بينهم إذا خلوا إلى شياطينهم والعذاب عقوبة عليهما معا ، أى على التكذيب وهو الكفر وعلى الكذب فى دعوى الايمان وهو النفاق . وهؤلاء فى باطنهم شر من الذين كفروا عناداً من رؤساء قريش ، فانهم لم يكونوا يكذبونه ﷺ و إنما كانوا يجحدون جحود استكبار . قال تعالى (٦ : ٣٣ فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

قال شيخنا : والقراءة الأولى هى المشهورة والعذاب فيها مقرون بالكذب لا بالتكذيب .وقد يقال : لم جعل العذاب جزاء الكذب دون الكفر؟والجواب : أن الكفر داخل فى هذا الكذب ،و إنما اختير لفظ الكذب فى التعبير للتحذير عنه ، و بيان فظاعته وعظم جرمه ، ولبيان أن الكفر من مشتملاته، وينتهى إليه فى غاياته ، ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير ، وتوعد عليه أسوأ الوعيد ، وما فشا الكذب فى قوم إلا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة ، لأنه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياء والمروءة ، ومن كان كذلك لا يترك قبيحاً إلا بالعجز عنه، نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه . ا هـ بالمعنى وقد علمت أن السؤال لا يرد إلا على قراءة التشديد

(١١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١٢) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ

تنطق هذه الآيات بأن ما عليه هذا الصنف من الغرور بما عنده من التقاليد قد سول له الباطل وزين له سوء عمله فرآه حسنا ، وشوه فى نظره كل حق لم يأته على لسان رؤسائه ومقلديه بنصه التفصيلى ، فهو يراه قبيحاً ، وقد صورت الآيات هذا الغرور بما حكته عن بعض أفراده وهو : ﴿و إذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض﴾ بما تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاء ، وتنفرون الناس عن اتباع محمد ﷺ والأخذ بما جاء به من الاصلاح ، الذى يجتث أصول الفساد، ويصطلم جراثيم الأدواء ، ويحيى ما أماتته البدع من إرشاد الدين ،ويقيم ما قوضته التقاليد من سنن المرسلين ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ بالتمسك بما استنبطه الرؤساء، وما كان عليه الأحبار والعرفاء، من تعاليم الانبياء ، فانهم أعرف بسنتهم، وأدرى بطريقتهم، فكيف ندع ما تلقيناه منهم ، ونذر ما يؤثره آباؤنا وشيوخنا عنهم ، ونأخذ بشىء جديد ، وطارف ليس له تليد ؟

هكذا شأن كل مفسد: يدعى أنه مصلح فى نفس إفساده ، فان كان على بينة من إفساده عارفاً أنه مضل ـ وإنما يكون كذلك إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له ـ فانما يدعى ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الافساد بالتمويه والمواربة . وإن كان مسوقا الى الافساد بسوء التقليد الاعمى الذى لاميزان فيه لمعرفة الاصلاح من الافساد الا الثقة بالرؤساء المقلدين ، فهو يدعيه عن اعتقاد ولا يريد أن يفهم غير ماتلقاه عنهم . وإن كان أثر تقليدهم ، والسير على طريقتهم ، مفسداً للأمة فى الواقع ونفس الامر ، لأن الوجود والحقيقة الواقعة لاقيمة لها ولا اعتبار فى نظر المقلد ، بل هم لايعرفون مناشىء الفساد ومصادر الخلل ، ولا مزالق الزلل ، لأنهم عطلوا نظرهم الذى يميز ذلك ، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك ، بصدهم عن سبيل الاسلام ، الداعى الى الوحدة والالتئام . فكان ذلك منهم دعاء الى الفرقة والانفصام ، والثبات على عبادة الملائكة أو البشر أو الاصنام. وأى إفساد فى الارض أعظم من التنفير عن اتباع الحق ، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين ، والارض إنما تفسد وتصلح بأهلها؟ ولذلك قال تعالى ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ فابتدأ الكلام المؤكد لاثبات إفسادهم بكلمة « ألا » التى يراد بها التنبيه والايقاظ وتوجيه النظر ، وتدل على اهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها ﴿ ولكن لايشعرون ﴾ بأن هذا إفساد غرز فى طباعهم ، بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم ، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا معاندين ولا مرائين ، وأنهم على اعتقاد ضعيف لايشهد له العمل كما تقدم فى تفسير آية (يخادعون الله)

وإذا كانت الآيات فى وصف طائفة من النـاس توجد فى كل أمة كما قدمنا فليحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن إمامه ، وأن فيه هدى له فانها حجة على كثير ممن يدعون الاسلام بالقول ويعملون بخلاف ماجاء به ، ويتبعون غير سبيله.

وأقول الآن : هذه جملة ماقرره شيخنا فى الدرس واضعا نصب عينيه منافقى اليهود ، ولا سيما فقهائهم الذين كانوا مجاورين للنبى ﷺ فى المدينة ، وشدة الشبه بينهم وبين فقهاء السوء ، ولا سيما فقهاء عصرنا هذا ـ ولذلك نبه لعموم الآيات وشمولها لهم لها عوداً على بدء ، وإنما مراده بنفى الرياء عنهم أنهم يعتقدون ماقالوا هنا ،

وهو لا ينفي رياءهم في غيره من أقوالهم وأفعالهم. وقد كان لأولئك الأحبار والرؤساء من الإفساد غير ما ذكر، ومنه إغراء المشركين بقتال النبي ﷺ والمؤمنين ووعدهم بمساعدتهم عليه، وهذا إفساد كبير في الأرض، وكانوا يستبيحونه بأنه توسل إلى حفظ سلطتهم ورياستهم المهددة باتباع محمد ﷺ

ولم يذكر فيما كتبت عنه رأيه فيمن سألهم وقال لهم ماذكر وأجابوه بهذا الجواب، هل هو الله تعالى أو الرسول ﷺ أو المؤمنون ؟ وهي الاحتمالات التي ذكرها المفسرون ـ وزاد بعضهم رابعا وهو أن يكون بعضهم سأل بعضا لما كانوا عليه من اختلاف الحال وتباين الآراء، كما قال تعالى فيهم (٥٩: ١٤ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) فأي مانع لنهي بعضهم لبعض عن نكث ماعاهدهم عليه النبي ﷺ من إقرارهم على دينهم وحفظ أموالهم وأنفسهم بأن لا يؤلبوا عليه المشركين ولا يساعدوهم عليه ـ وأن يقولوا للناكثين المفسدين: إن الحرب فساد عظيم لا يؤمن أن يتعدى إلينا شرها فيطير من شررها مايحترق به، فدعوا تأليب قوم محمد عليه ؟ ـ ثم أي مانع يمنع أن يجيبهم أولئك المفسدون ككعب بن الاشرف : إنما نحن مصلحون بمساعدة قومه عليه، لأننا نخشى منه مالا نخشى منهم، فقد عشنا معهم أجيالا لم ينازعنا منهم أحد في صحة ديننا، لأنهم لا يدعون إلى شركهم ولا يحتقرون مانحن عليه من الدين، بل يروننا فوقهم في العلم، ومنهم من يعطينا أولاده لنربيهم ولا يكرهون أن نلقنهم ديننا، وأما محمد فيقول إننا ضللنا عن ديننا نفسه و يعيبنا بتحريف سلفنا وخلفنا لكتابنا، وبما كان من مخازي تاريخنا، كقتل الانبياء، ونكث العهود، وأكل السحت . فاذا كان له الغلب على مشركي قومه لانأمن أن يبقى لنا ديننا ومكانتنا السامية في بلاد العرب، وإن هو حفظ عهده لنا، ولم يغدر فيقاتلنا، فكيف إذا هو غدر بنا وقاتلنا بعد الفراغ من قومه ؟

هذا أقرب إلى المعقول مما قاله المفسرون في السؤال والسائل، وفيه وجه آخر لعله أقوى، وهو أن السؤال والجواب مفروضان فرضا، والمراد بيان حالهم في هذا الامر وما تنطوي عليه جوانحهم بصيغة السؤال والجواب التي هي أقوى أساليب الكلام تنبيهاً للاذهان، وتوجيهاً لها الى الاحاطة بمعاني الكلام، ولذلك يستعملها العلماء

فى بيان مهمات المسائل وحل عويص المشاكل ، يقولون : إذا قيل كذا قلنا كذا ، وإن سئلنا عن هذا أجبنا بكذا . وأما الفرق بين الشرطين فى مثل هذا الأسلوب فالبلاغة تقتضى أن يكون السؤال بإذا عما كان سببه قويا من شأنه ألا يسكت عنه ، ويصدر بإن إذا كان سببه ضعيفاً ولكنه محتمل ، فيجاب عنه إحتياطاً

ثم أقول : إن ما تقدم مبنى على أن السؤال والجواب فى بيان حال منافقى اليهود ، وهو المختار عند شيخنا . وقد ورد فى التفسير المأثور جعله فى بيان حال منافقى المدينة من العرب كعبد الله بن أبى ابن سلول وحزبه . فإنهم كانوا يفسدون فى الأرض بالتشكيك فى الدين ، وبتفريق كلمة المؤمنين ، كما فعلوا فى غزوة أحد ثم فى غزوة تبوك ، فكان هذا شأنهم وإن كانت الغزوتان بعد نزول هذه السورة . وروى تفسير إفسادهم بالكفر والمعاصى ، وما قلناه منه ولكنه أخص وهو المتبادر . ودعواهم أن هذا إصلاح كدعواهم الإيمان ، وكل مفسد وضال يسمى إفساده وضلاله بأسماء حسنة . كما يسمون الشرك بالله فى زمننا بدعاء غيره : توسلا . وعن ابن عباس أنهم كانوا يقولون : إنما نريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب

ثم صورت الآيات ذلك الجهل والغرور فى الفريقين بصورة أخرى أشد تشويها مما قبلها ، لأن تلك صورتهم فى عملهم ، وهذه صورتهم فى جوهر إيمانهم ، وهى

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ الذين تعتقدون كمالهم وترون تعظيمهم وإجلالهم ، كإبراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم ، الذين كان الايمان راسخاً فى جنانهم ، ومؤثراً فى وجدانهم ، ومصرفاً لأبدانهم ، أو كعبد الله بن سلام وأمثاله من علمائكم ،

﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أقول : المراد بالسفه الطيش وخفة العقل وضعف الرأى . ومن لوازمه سوء التصرف . ومنه قيل : زمام سفيه : كثير الاضطراب لمرح الناقة ومنازعتها إياه ــ وثوب سفيه : ردىء النسج ، واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل ، وفى الأمور الدنيوية والأخروية . فقيل سفه نفسه ، ويعنون بالسفهاء أتباع النبى صلى الله عليه وسلم الواقفين عند ما كان عليه ، المعرضين عن غير ما أنزل إليه ، لما تضمنه الأمر من الشهادة لهم بأنهم فى إيمانهم كأتباع أولئك

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم سلف اليهود الذين كان الكلام معهم ، وكانوا يفتخرون بما يتناقلونه من سيرتهم . فرد الله تعالى عليهم بقوله :

﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ أى وحدهم دون من عرّضوا بهم ، لأن لهم سلفاً صالحاً تركوا الاقتداء بهم ، زعماً أن المتأخر ، لا يمكن أن يكون على هدى المتقدم لأنه يصعب أو يتعذر عليه اللحاق به ، واحتذاء عمله ، لعلوه فى الدرجة ، و بعده فى المنزلة ، وأن حظهم من سلفهم انتظار شفاعتهم ، و إن لم يسيروا على سنتهم ، فأى الفريقين أجدر بلقب السفيه ، أهم أولئك اليهود الذين لهم أسوة صالحة ولكنهم لا يهتدون بها وهذه حالهم من سوء العقيدة وقبح العمل ؟ أم لاسلف له إلا عبدة الأوثان ، وقلبه مع ذلك مطمئن بالايمان ، وأعماله تشهد له بالاحسان ، كالصحابة الذين هداهم الله بنور الاسلام ، فكانوا كأتباع أولئك الأنبياء الكرام ، بل ربما سبقوهم بالفضائل ، وزادوا عليهم فى الفواضل ؟ لاشك أن أولئك المفسدين بعد ما تقدم لهم من سلف صالح ، ودين قيم ، هم السفهاء ، دون هؤلاء العقلاء

﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ أن السفه محصور فيهم ، ومقصور عليهم ، و إنما عندهم شعور ما بأنهم ركبوا هواهم ، ولم يتبعوا هدى سلفهم ولا هداهم ، ينتحلون له العلل الضعيفة ، و يتمحلون له الاعذار السخيفة ، فهو لم يصل إلى حد العلم الذى تتكيف به النفس . و يكفى فى إثبات سفههم أنهم يعرفون حسن حال سلفهم ، و يعترفون به ، ولكن لايقتدون بهم ، ولا يقتفون أثرهم ، و إنما يعتمدون فى نجاتهم وسعادتهم على تلك الأمانى والتعلات ، كقولهم (٣ : ٢٤ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات) وقولهم (٥ : ١٨ نحن أبناء الله وأحباؤه) وشعبه وأصفياؤه ، ولا يصح نفى الشعور عنهم فى هذا المقام مع ذلك الاعتراف ، و إنما هو نفى العلم الكامل الذى يزيل الشبه و يذهب بالعلل ، و يبعث على الاقتداء بالعمل

وهذا أيضاً حجة على كثير من اللابسين لباس الاسلام ، وهم من هذا الصنف يعتقدون كمال سلفهم ، ولا يقتدون بهم ، وإنما يطمعون فى سعادة الدنيا والآخرة بانتسابهم إلى أولئك السلف العظام ، ولكونهم من أمة النبى عليه الصلاة والسلام وهى خير الامم بشهادة الله فى القدم ، ولكنهم لايعلمون أنها فضلت سواها

بكونها أمة وسطا تقوم على جادة الاعتدال ، فى العقائد والأخلاق والأعمال ، وتسعى فى إصلاح البشر ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كما سيأتى فى تفسير (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وتفسير (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وليس عند هؤلاء السفهاء شيء من هذه الصفات ، إلا الأمانىّ والتعلات .

وأزيد فى هذا السياق الذى شرحت به قول شيخنا فى الدرس : تذكير هؤلاء المرضى القلوب من المسلمين ، الذين اتبعوا سنن من قبلهم فى هذا كما اتبعوهم فى غيره « شبراً بشبر وذراعا بذراع » كما ورد فى حديث الصحيحين - أزيد فيه تذكيرهم بقوله تعالى فى أهل الكتاب الآتى فى هذه السورة - (لا يعلمون الكتاب الا أمانى وإن هم الا يظنون) وقوله فيهم وفى أفضل سلف هذه الامة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم : (٤ : ١٢٢ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً) الآيات

ثم أقول : إن جريان هذا السؤال والجواب فى منافقى العرب أظهر مما قبله - فعبد الله بن أبىّ ابن سلول وأصحابه من منافقى المدينة كانوا أبعد عن الإيمان وأدنى إلى مخادعة الله ورسوله والمؤمنين من منافقى اليهود فى أنفسهم وقومهم ومع المؤمنين. ولاشك أنهم كانوا يعدون المؤمنين الصادقين سفهاء الأحلام ، فى اتباعهم للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، أما المهاجرون منهم فلأنهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا وطنهم وتركوا ديارهم ليكونوا تابعين له . وأما الأنصار فلأنهم شاركوا المهاجرين فى ديارهم وأموالهم . وكون هذا من السفه عند غير المؤمن بهذا الرسول ﷺ وما جاء به ظاهر جلىّ ، ولذلك نفى عنهم الشعور بأنهم هم السفهاء دون المؤمنين ، ويؤيد ما قلته : ماحكاه الله تعالى عنهم فى سورتهم بقوله (٦٣ : ٧ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون)

هذا - وإننا أشرنا إلى نكتة اختلاف التعبير فى نفى الشعور عن المنافقين فى موضعين ونفى العلم فى موضع واحد من هذه الآيات. وأزيد عليه فى نكتة نفى العلم الآن ما ينبه الأذهان ، إلى دقة التعبير فى القرآن . وهو أن أمر الإيمان لا يتحقق

إلا بالعلم اليقيني ، فموضوعه علمي ، ثم إن ثمرته السعادة في الدنيا والآخرة ، ولا يدرك ذلك إلا من علم حقيقته . فنفى عنهم العلم بأنهم هم السفهاء فبارزوا به المؤمنين بالسفاه ، بشبهة أنهم أخطأوا مصلحتهم ومصلحة قومهم الأنصار ومصلحة أمتهم العربية في اتباع النبي ﷺ لأن عدم العلم بذلك سببه عدم العلم بكنه الإيمان وعاقبته . ومن جهل الملزوم كان بلوازمه أجهل ، فكأنه قال : ولكن لا يعلمون ما الايمان ، حتى يعلموا أن المؤمنين سفهاء غاوون ، أو عقلاء راشدون ، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، وهم جاهلون به ويجهلون أنهم جاهلون

ومن مباحث الأداء في الآيات : ما في اجتماع الهمزتين من آخر السفهاء وأول « ألا » من قراءة تحقيقهما بالنطق بهما معا وقراءة تحقيق الأولى وتليين الثانية وعكسه ، وقراءة بعضهم بهمزة واحدة وكذلك أمثالها من كل همزتين في كلمتين

---

(١٤) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٥) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

الآيات التي تقدمت في وصف هذا الصنف من الناس الذي قلنا إنه يوجد في كل أمة وملة وفي كل عصر ، كانت عامة تصور حال أفراده في كل زمان ومكان وكان أسلوبها ظاهراً في العموم كقوله (يخادعون) الخ ، وقوله : وإذا قيل لهم كذا — قالوا كيت وكيت . وأما قوله تعالى :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ الآية ، فهو وصف قد يختص ببعض أفراد هذا الصنف ممن كان في عصر التنزيل ، جاء بعد الأوصاف العامة ، وحكي بصيغة الماضي ، ليكون كالتصريح بتوبيخ تلك الفئة من هذا الصنف ، التي بلغت من التهتك في النفاق ، والفساد في الأخلاق ، أن تظهر بوجهين ، وتتكلم بلسانين ، وما بلغ كل أفراد الصنف هذا المبلغ من الفساد والضعف

ولهذه الخصوصية فى الآية قال بعض الواهمين : إن جميع تلك الآيات فى منافقى ذلك العصر . وقد مر تفنيده فلا نعيده . على أن هذه الفئة أيضا توجد فى كل عصر وزمان ، يكون فيه لأهل الحق قوة وسلطان ، والحكاية عنها بصيغة الماضى الواقع لا تنافى ذلك . لأن « إذا » تدل على المستقبل ، فمعنى الفعل مستقبل ، وإنما اختيرت صيغة الماضى لتوبيخ أولئك الأفراد وإيذانهم بأن بضاعة النفاق والمداجاة ، لا تروج فى سوق المؤمنين لأنها مزجاة ، وأن استهزاءهم مردود إليهم ، وو باله عائد عليهم .

كان أولئك النفر يدهنون فى دينهم ، فاذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أنتم به مؤمنون ، ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ من دعاة الفتنة وعمال الإفساد وأنصار الباطل ، الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوساوس والأوهام ، وما يلقون فيه من أشواك المعايب وتضاريس المذام ، وقال مفسرنا (الجلال) إنهم الرؤساء ، والصواب ما قلنا ، وكم من رئيس مغمول ، لما فى نفسه من الضعف والخمول ، لا ينصر اعتقاده ، وإن كان معترفا بأن فيه رشاده ، وفى عزته عزه وإسعاده . وكم من مرءوس شديد العزيمة ، قوى الشكيمة ، يكون له فى نصر ملته ، والمدافعة عن أمته ، ما يعجز عنه الرؤساء ، ولا يأتى على أيدى الأمراء .

وللذبابة فى الجرح الممدّ يدٌ   تنال ما قصرت عنه يد الأسد

(قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون) أى إنا معكم على عقيدتكم وعملكم ، وإنما نستهزىء بالمسلمين ودينهم ، فكشف القرآن عن هذا التلون وهذه الذبذبة ، وقابلهم عليها بما هدم بنيانهم ، وفضح بهتانهم ، فقال (الله يستهزىء بهم) أصل الاستهزاء الاستخفاف وعدم العناية بالشىء فى النفس ، وإن أظهر المستخف الاستحسان والرضا تهكما . وهذا المعنى محال على الله تعالى ، والمحال بذاته يصح إطلاق لازمه ، والمستهزىء بانسان فى نحو مدح لعلمه واستحسان لعمله مع اعتقاد قبحه ، غير مبال به ولا معتن بعلمه ولا بعمله ، حيث لم يرجعه عنه ولم يكرهه عليه ، ويلزمه استرسال المستهزأ به فى عمله القبيح . فمعنى :

الله يستهزىء بهم [أنه يمهلهم فتطول عليهم نعمته، وتبطىء عنهم نقمته] ثم يسقط من أقدارهم ويستدرجهم بما كانوا يعملون ﴿ و يمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ والعمه عمى القلب وظلمة البصيرة ، وأثره الحيرة والاضطراب ، وعدم الاهتداء للصواب .

أقول : هذا ملخص سياق الدرس . وقال الراغب : العمه التردد فى الامر من التحير . يقال : عمه فهو عمه وعامه وجمعه عمه (بالتشديد) اهـ والاستهزاء فعل الهزء ـ بسكون الزاى وضمها ـ وقصده بالعمل . وهو اسم من اهزأت به ومنه ، وفى لغة هزأت ـ فهو من بابى تعب ونفع ـ واستهزأت به أى استخففت به وسخرت منه .

وقال البيضاوى : والاستهزاء السخرية والاستخفاف ، يقال : هزأت به واستهزأت بمعنى ـ كأجبت واستجبت ـ وأصله الخفة ، من الهزؤ وهو القتل السريع ، يقال : هزأ فلان إذا مات ، وناقته تهزأ به ، أى تسرع وتخف . وقال الراغب : الهزء مزح فى خفية ، وقد يقال لما هو كالمزح . ثم قال : والاستهزاء ارتياد الهزؤ و إن كان قد يعبر به عن تعاطى الهزؤ كالاستجابة فى كونها ارتيادا للاجابة ، و إن كان يجرى مجرى الاجابة . ثم قال بعد ذكر آيات من الشواهد : والاستهزاء من الله فى الحقيقة لا يصح كما لا يصح من الله اللهو واللعب تعالى الله عنه . وقوله (الله يستهزىء بهم و يمدهم فى طغيانهم يعمهون) أى يجازيهم جزاء الهزؤ ، ومعناه : أنه أمهلهم مدة ثم أخذهم مفافصة (أى مفاجأة على غرة) فسمى إمهاله إياهم استهزاء من حيث إنهم أغتروا به اغترارهم بالهزؤ فيكون ذلك كالاستدراج من حيث لا يعلمون . اهـ . وأشهر الاقوال: أن معناه يجازيهم بالعقاب على استهزائهم أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم (٥٧:١٣ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : أنظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) الآية وقال تعالى (٨٣: ٢٩ـ٣٥ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * واذا مروا بهم يتغامزون — الى قوله — فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون) وقيل: إن استهزاءه تعالى بهم إجراؤه أحكام المسلمين عليهم فى الدنيا كما مر فى خداعه لهم

والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان . مأخوذ من طغيان الماء وهو تجاوز

فيضانه الحد المألوف . والمدّ الزيادة فى الشىء متصلة به ، يقال : مد البحر زاد وارتفع ماؤه وانبسط . ومده الله قال تعالى (٣١ : ٢٨ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) ومد البحر يقابله الجزر ، وهو انحسار مائه عن الساحل ونقصان امتداده . ويسمى السيل مداً من قبيل التسمية بالمصدر ، ومنه المدة من الزمان ، والمدد - بالتحريك - للجيش. يقال مده وأمده . قال تعالى (١٩ : ٧٥ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً * حتى إذا رأوا مايوعدون - إما العذاب وإما الساعة - فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جندا) وسيأتى مزيد بيان لهذا المعنى فى تفسير قوله تعالى من سورة الانعام (٦ : ١٠٩ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) والمعنى : أن سنة الله تعالى فى الذين وصلوا إلى هذه الغاية من فساد الفطرة هو ما بينه بقوله فيهم : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ المشار إليه بأولئك هم الذين بينت حالهم الآيات السابقة بأنهم يقولون: آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين الخ وهو صريح فى أن طغيانهم وعمههم من كسبهم، ولم يجبروا عليه بخلق ربهم. قال الأستاذ: وقد فسروا «اشتروا» باستبدلوا وهو غير سديد لان بين اللفظين فصلا فى المعنى، وكلنا نعتقد - والحق ما نعتقد - أن القرآن فى أعلى درج البلاغة لايختار لفظاً على لفظ من شأنه أن يقوم مقامه ، ولا يرجح أسلوباً على أسلوب يمكن تأدية المراد به ، إلا لحكمة فى ذلك وخصوصية لا توجد فى غير ما اختاره ورجحه . ووجه إختياره « اشتروا » على استبدلوا أن الأول أخص من وجهين :

أحدهما: أن الاستبدال لايكون شراء إلا اذا كان فيه فائدة يقصدها المستبدل منه ، سواء كانت الفائدة حقيقية أو وهمية

ثانيهما : أن الشراء يكون بين متبايعين بخلاف الاستبدال ، فاذا أخذت ثوبا من ثيابك بدل آخر، يقال إنك استبدلت ثوبا بثوب ، فالمعنى الذى تؤديه الآية: أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم بازائها يعتقدون الحصول عليها من الناس ، فهو معاوضة بين طرفين يقصد بها الربح ، وهذا هو معنى الاشتراء والشراء ، ومثلهما البيع والابتياع ، ولا يؤديه مطلق الاستبدال ذلك بأنه كان عندهم كتب سماوية فيها مواعظ وأحكام ، وفيها بشارة بأن الله

يرسل اليهم نبياً يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصر التقاليد ، وأغلال التقييد بإرادة العبيد ، ويرعى جميع الامم بقضيب من حديد ، فيرجع للعقول نعمة الاستقلال ، ويجعل إرادة الأفراد هى المصرفة للأعمال فكان عندهم بذلك حظ من هداية العقل والمشاعر وهداية الدين والكتاب ، ولكن نجمت فيهم الاحداث والبدع ، وتحكمت فيهم العادات والتقاليد ، وعلا سلطان ذلك كله على سلطان الدين ، فضل الرؤساء فى فهمه ، بتحكيم تقاليدهم فى أحكامه وعقائده ، بضروب من التحريف والتأويل . وأهمل المرءوسون العقل والنظر فى الكتاب بحظر الرؤساء وأثرتهم ، فكان الجميع على ضلالة فى استعمال العقل وفى فهم الكتاب ، بعد أن كانا هدايتين ممنوحتين لهم لاسعادهم ، وكانت المعاوضة عند الفريقين فى ذلك بالمنافع الدنيوية : للرؤساء المال والجاه والتعظيم والتكريم باسم الدين ، وللمرؤسين الاستعانة بجاه رؤساء الدين على مصالحهم ومنافعهم ، ورفع أثقال التكاليف ، بفتاوى التأويل والتحريف . هكذا استحبوا العمى على الهدى — وهو العقل والدين — رغبة فى الحطام ، وطمعاً فى الجاه الكاذب ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ فى الدنيا ، إذ لم تثمر لهم ثمرة حقيقية ، بل خسروا وخابوا باهمالهم النظر الصحيح الذى لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به . وإسناد الربح إلى التجارة عربى فى غاية الفصاحة لأن الربح هو النماء فى التجر ، وهذه المعاوضة هى التى من شأنها أن تثمر الربح ، فاسناده إليها نفياً أو إثباتاً إسناد صحيح لا يحتاج إلى التأويل [كأنه قيل فلم يكن نماء فى تجارتهم . على أن ذلك التأويل المعروف من أن إسناد الربح إلى التجارة لأنها سببه والوسيلة إليه وأن العبارة من المجاز العقلى ـ تأويل يتفق مع البلاغة ولا ينافيها ، ولا زال المجاز العقلى من أفضل مايزين البلغاء به كلامهم ، ويبلغون به مايشاءون من تفخيم معانيهم]

﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ فى دينهم لأنهم لم يأخذوه على وجهه ولم يفهموه حق فهمه أو ماكانوا مهتدين فى هذه التجارة لأنهم باعوا فيها ماوهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الاهواء والبدع التى زجوا أنفسهم فيها — أوما كانوا مهتدين فى طور من الاطوار ولا مس الرشد قلوبهم فى وقت من الأوقات لأنهم نشئوا على التقليد الاعمى من أول وهلة ولم يستعملوا عقولهم قط فى فهم

أسراره، واقتباس أنواره . ولا يذهبن الوهم إلى أن اشتراء الضلالة بالهدى يفيد أنهم كانوا مهتدين ثم تركوا الهدى للضلالة ، فيتناقض أول الآية مع آخرها ، إذ ليس لكل من منح الهدى يأخذ به فيكون مهتديا ، وهؤلاء حُمّلوه ، فباعوه ولم يحملوه، وينظر إلى هذا الاشتراء، ويشبهه الاستحباب فى قوله تعالى (٤١: ١٧ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) والله أعلم

ومن مباحث الأداء قراءة حمزة والكسائى (الهدى) بالامالة أى جعل مدها بين الألف والياء ، وهى لغة بنى تميم ، وعدم الإمالة لغة قريش وهى الفصحى ، ولما كان يعسر على لسان من اعتادها تركها أذن الله تعالى بها فيما أقرأ جبريل النبى ﷺ

---

(١٧) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ (١٨) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

أقول : المثل بفتحتين والمثل بالكسر والمثيل كالشبه والشبه والشبيه وزناً ومعنى فى الجملة ، وهو من مثل الشيء مثولا إذا انتصب بارزاً فهو ماثل . ومثل الشيء ـ بالتحريك ـ صفته التى توضحه وتكشف عن حقيقته أو ما يراد بيانه من نعوته وأحواله . ويكون حقيقة ومجازاً ، وأبلغه : تمثيل المعانى المعقولة بالصور الحسية وعكسه ومنه الأمثال المضروبة وتسمى الأمثال السائرة ، وسيأتى تحقيق معناها فى تفسير (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما) ومنه ما يسميه البيانيون الاستعارة التمثيلية وهو خاص بالمجاز . والتمثيل أمثل أساليب البلاغة وأشدها تأثيراً فى النفس وإقناعاً للعقل، قال تعالى (٢٩: ٤٣ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وما رأيت أحداً من علماء البلاغة وفاه حقه من البيان المقنع إلا إمامهم الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى كتابه (أسرار البلاغة) وهاك ما كنت كتبت فى تفسير هذا المثل ثم مابعده إجمالا ثم تفصيلا ، مقتبساً معانيه من دروس أستاذنا الامام:

هذا مثل من مثلين ضربهما الله فى هذه الآيات للصنف الثالث من الناس الذين قرع القرآن أبواب قلوبهم . وكان من عناية الله تعالى فى بيان حاله أن

قفَّى على ذلك التفصيل فى شر فرقه وأطوارهم بضرب المثل الذى يقصد به تجلى المعنى فى أتم مجاليه ، وتأثر النفوس بما أودع فيه ، ناهيك بما فى التنقل فى الأساليب من توجيه الذهن إلى سابق القول ودعوة الفكر إلى مراجعة ما مضى منه . ولولا أن بلاء هذا الصنف عظيم ، وداءه دفين ، وعلاجه متعسر — لأنه متولد من الدواء الذى كان يجب أن تكون فيه الصحة وتتمة العافية — لما كان من البلاغة ولا من الحكمة ، أن يعنى بشأنه كل هذه العناية ، كما قلنا فى تزييف رأى من ذهب إلى أن الكلام فى تلك الشرذمة من المنافقين فى عصر التنزيل

ضرب الله تعالى لهذا الصنف فى مجموعه مثلين ، ينبئان بانقسامه إلى فريقين ، خلافاً لما فى أكثر التفاسير فى أن المثلين لفريق واحد ، وأن معناهما وموضوعهما واحد

(الأول) من آتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها ، وصلح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحى ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم فى الأخذ بها ظاهراً وباطناً ، ولم ينظروا فى حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة إنما كان أمراً خصوا به ، أو خيراً سيق إليهم ، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم ، ولم تصلح به ضمائرهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع فى نفوسهم مجالا لغيرها ، ولذلك لم يتفكروا قط فى كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ، لأن حفظ الموجود ، أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذى اقتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ، ونجوم الفرقان ، لزعمهم أن فهمه لا يرتقى إليه إلا أفراد من رؤساء الدين ، يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا ، وبكتبهم إذا فقدوا

فمثل هذا الفريق من الصنف المخذول فى فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية ، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرة ، وانطماس الآثار دونها عنده — مثل من استوقد ناراً الخ . والوجه فى التمثيل : أن من يدعى الايمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدى بها فى الشبهات ، ويستضىء

بها فى ظلمات الريب والمشكلات، و يبصر على ضوئها ماقد يهجم عليهمن مفترسة الأهواء والشهوات، فلما أضاءت ماحوله بما أودعتهمن الهدى والرشاد ،وكادبالنظر فيها يمشى على هداية وسداد — هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث ، وعصب عينيه شيطان الغرور ، فذهب عنه ذلك النور ، وأطبق عليه جو الضلالة بل طفىء فيه نور الفطرة ، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه ، فهم بمنزلة الأعمى الأصم الذى لايبصر ولا يسمع .

وأما الفريق الثانى فقد ضرب الله له المثل فى قوله (أو كصيب من السماء)الخ، وهو الذى بقى له بصيص من النور ، فله نظرات ترمى إلى مابين يديه من الهداية أحياناً ، ولمعانى التنزيل لمعان يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة ، و يأتلق فى نظره الحين بعد الحين، عند ماتحركه الفطرة ، أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ، ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لاتخلو من المهالك ، وهو فى تخبطه يسمع قوارع الانذار الإلهى و يبرق فى عينيه نور الهداية ، فاذا أضاء له ذلك البرق السماوى سار ، و إذا انصرف عنه بشبه الضلالات الغرارة قام وتحير لايدرى أين يذهب . ثم إنه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق ، كمن يضع إصبعيه فى أذنيه حتى لايسمع إرشاد المرشد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه

هذا هو شأن فريقى هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالا . وفى تفسير الآيات تفصيل ما أشرنا إليه

قال تعالى ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً﴾ العرب تستعمل لفظ «الذى» فى الجمع كلفظى «ما» و«من» ومنه قوله تعالى (٩ : ٦٩ وخضتم كالذى خاضوا) و إن شاع فى «الذى» الافراد لأن له جمعاً وقد روعى فى قوله «استوقد» لفظه ، وفى قوله «ذهب الله بنورهم» معناه، والفصيح فيه مراعاة اللفظ أولا ،ومراعاة المعنى آخراً .والتفنن فى إرجاع الضمائر متفرعة ضرب من استعمال البلغاء ، يقرر المعنى فى الذهن و يهبه فضل تمكن وتأكيد، بما يحدث فيه من الروية والتوجه إلى الإحاطة بمعانى المختلفات.

أقول : استوقد النار طلب وقودها بفعله أو فعل غيره ، وقالوا : إنه بمعنى أوقدها ويرجع إلى الأول بأنه طلب باضرامها وإيرائها أن تقد . يقال : وقدت النار تقد وتوقدت واتقدت واستوقدت — لازم — ومعنى الجملة فى منافقى اليهود قد تقدم آنفاً بالإجمال ، وسيجىء تفصيله . وأما منافقو العرب — الذين قال تعالى فيهم من سورتهم (٦٣:٣ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) الآية — فيقال فيهم : مثلهم وصفتهم فى إسلامهم أولا وكفرهم آخراً كمثل فريق من الناس أوقد ناراً لينتفع بها فى ليلة حالكة الظلام ، ويبصر ماحوله مما عساه يضره ليتقيه ، أو لينفعه ليجتنيه

﴿فلما أضاءت ماحوله﴾ يقال ضاءت النار والشمس وأضاءت — لازم — ويقال ضاء المكان وأضاءته النار أى أظهرته بضوئها . قال العباس (رض) فى النبى ﷺ

وأنت لما ظهرت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق

والمعنى المتبادر : فلما أضاءت النار ماحوله من الأمكنة والأشياء وتمكن من الانتفاع بها والاستضاءة بنورها ﴿ذهب الله بنورهم﴾ باطفاء نارهم بنحو مطر شديد نزل عليها ، أو عاصف من الريح جرفها و بددها ، وهذا بالنسبة إلى المثل ، وأما بالنسبة إلى المضروب فيهم المثل من العرب ، فالنور نور الاسلام الذى أضاء قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين (٣٩ : ٢٢ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) وذهابه فى الدنيا ماعرض لهم من الشك أو الجزم بالكفر حتى لم يعودوا يدركون منافعه وفضائله ، وأما ذهابه بعدها فأوله الموت . فإن المنافق يرى بالموت أو قبيل خروج روحه منزلته بعدها ، و بعده ظلمة القبر أى حياة البرزخ ، و بعدها موقف الحساب والجزاء (٥٧ : ١٣ — ١٥ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم — قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ، وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) الخ الآية التالية ، وفى هاتين الآيتين أصدق بيان المراد من ذهاب الله بنورهم ، وكونه ليس إجباراً لهم على الكفر ، ولا عبارة عن سلبهم التمكن من الإيمان ، وإنما هو تعبير عن سنة الله تعالى فى عاقبة فتنتهم لأنفسهم الخ

وقال شيخنا فى تطبيق المثل على اليهود وأمثالهم من هذه الأمة ما معناه : استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الالهية بتصديقهم ، فلما أضاءت لهم بروقها ، ووضح لهم طريقها، فاجأتهم التقاليد الموروثة ، و باغتتهم العادات المألوفة ، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد ، وما يتوقعونه فى الاعراض عنها من المضارع والمفاسد ، عن الاستعانة بذلك الضوء على سلوك ذلك الصراط المستقيم ، والتفرقة بين نهاره المشرق وظلمات ليلها البهيم ، بل استبدلوا هذا الديجور، بذلك الضياء والنور ، وهذا هو معنى ذهاب نورهم . وانما قال (ذهب الله بنورهم) ولم يقل ذهب نورهم، أو أذهب الله نورهم . للاشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت ، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التى فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التى دعا الناس إليها ، و بأنه تخلى عنهم عند ما نكبوا عن تلك السبيل ، وعاقوا ذلك المورد السلسبيل .

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية فى التوجه إليه وقصد اتباع هداه ، والاستضاءة بنوره الذى وهبه إياه ، فاذا أعرض عنه وكله الله إلى نفسه ، وذهب بنوره . و إذا ذهب النور لايبقى إلا الظلمة ، وما كان هؤلاء فى ظلمة واحدة ، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض ، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التى فتنوا بها ، و بتعدد أنواع الهداية التى أعرضوا عنها ، ولذلك قال :

﴿ وتركهم فى ظلمات لايبصرون ﴾ شيئا . حذف مفعول يبصرون إيذاناً بالعموم، أى لايبصرون مسلكا من مسالك الهداية ولا يرون طريقاً من طرقها ،لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سنته ، وإهمالهم هدايته . ووكلهم إلى أنفسهم . و ياويل من وكله الله إلى نفسه ، وحرمه توفيقه ، نسأل الله العافية

هذا المثل مضروب لفريق لاترجى هدايته ، لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه إذا خالفت تقاليده ــ وعدم الابصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان، لجواز أن يلوح بارق، أو يذر شارق، أو يصيح طارق ، فتكون الهداية ، وتنكشف الغواية ، ولذلك عقبه بقوله تعالى

﴿ صم بكم عمى ﴾ أى إنهم فقدوا منفعة السمع الذى يؤدى إلى النفس ما يلقيه

المرشدون إليها من الحجج القاطعة ، والدلائل الناصعة ، فلا يصيخون إلى وعظ واعظ ، ولا يصغون لتنبيه منبه ، « فما أضيع البرهان عند المقلد» بل لا يسمعون وإن أصاخوا ، ولا يفقهون إن سمعوا ، فكأنهم صم لم يسمعوا ـ وفقدوا منفعة الاسترشاد بالقول وطلب الحكمة من معاهدها ، فلا يسألون بيانا ، ولا يطلبون برهانا ، وفقدوا خير منافع الأبصار ، وهو نظر الاستفادة والاعتبار ، فلا يرون مايحل بهم من الفتن فينزجروا ، ولا يبصرون ما تتقلب به أحوال الأمم فيعتبروا ، ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ عن ضلالاتهم ، ولا يخرجون من ظلماتهم ، لأن من وقع فى أرض فلاة فى ليلة مظلمة وفقد فيها جميع حواسه لا يمكنه أن يسمع صوتاً يهتدى به ، ولا أن يصيح هو لينقذه من يسمعه ، ولا أن يرى بارقا يؤمه و يقصده ، فهو لا يرجع من تيهه ، بل يظل يعمه فى الظلمات ، حتى يفترسه سبع ضار ، أو يصل إلى شفا جرف هار ، فينهار به فى شر قراره (وما للظالمين من أنصار)

---

(١٩) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (٢٠) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ . وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذا هو مثل الفريق الثانى من هذا الصنف من الناس ، الذى كان أفراده ولا يزالون فتنة للبشر ، ومرضاً فى الامم ، وحجة على الدين ، لأنهم بغرورهم بتقاليدهم التى اكتفوا بها من دينهم الموروث ، يعبثون بعقولهم ، و يلهون بخيالاتهم ، و يجنون على مشاعرهم ومداركهم فيضعفونها ، و يصارعون الفطرة الالهية فيصرعونها ؛ حتى يكون بعضهم كالجمادات (صم بكم عمى) كما تقدم فى المثل الأول ؛ و يألف البعض الآخر الظلمة بطول التقليد ، و يكون أفراده فى نور البرهان كالخفافيش فى نور الشمس ؛ ولكنهم أمثل من الفريق الذى ضرب له المثل الأول

لأن فيهم بقية من الرجاء ورمقاً من الحياة ؛ يوجههم إلى الاقتباس من نور الهداية كلما أضاءت لهم بروقها ، والمشى فى الجادة كلما استبانوا طريقها ، ولكن تحول دون ذلك ظلمات التقاليد العارضة ، وتقف فى السبيل عقبات البدع المعارضة ، وقد يمدهم لاستماع قوارع الآيات التى تنذرهم بما حرفوا ، وصوادع الحجج التى تبين لهم كيف انحرفوا ؛ ولا يصدهم عنها إلا أنها تزعجهم إلى ترك ما صنفوا وألفوا ، وهجر ما أحبوا وألفوا ، وعدم المبالاة بسنة الآباء ، وقلة الاحتفال بعظمة الرؤساء ، فهم يتراوحون بين الخوف والرجاء ، مذبذبين بين أهل الجحود وأهل اليقين (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) ، ولا ينقطع منهم الأمل ، حتى ينقطع بهم الأجل .

ألا تراهم عندما يقرع أسماعهم من كتاب ربهم ما يبين فساد سيرتهم ، والتواء طريقتهم ، كقوله تعالى فى النعى على أمثالهم : وحكاية مالم يرضه من أقوالهم ، (٤٣ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون) الخ : وقوله فى بيان ندمهم على التقليد ، عند مايحل بهم الوعيد ، (٣٣ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) يأخذهم الزلزال ، و يتولاهم الاضطراب والقلق ، وتنشق لهم الظلمة عن فلق ، و يلمع فى نفوسهم نور الهداية الفطرية فيمشون فيه خطوات ، ثم تحيط بهم الظلمات ، و ينقطع بهم الطريق كما ألمعنا آنفا . وأسباب غلبة الظلمات على النوور هى موافقة ما عليه الجمهور ، والاخلاد إلى الهوى ، وتفضيل عرض هذا الأدنى ، وانتظار المغفرة ولو بما تأولوه فى معنى الشفاعة ، وتمنى الربح من غير بضاعة (٧ : ١٦٩ يأخذون عرض هذا الأدنى و يقولون : سيغفر لنا ـ و إن يأتهم عرض مثله يأخذوه ـ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ؟) بلى هو عندهم مدروس بجدليات النحو والكلام ، ولكنه دارس الصوى والاعلام ، المنصوبة لهداية القلوب والاحلام ومقروء بالتجويد والانغام ، ولكنه متروك الحكم والأحكام ؛ يقرؤنه لكسب الحطام ، لا لمعرفة الحلال والحرام ، ولا يتلونه لاصلاح القلب واللسان ، بتزكية النفس وتغذية الايمان ، و يكتبونه لشفاء الأبدان من الأسقام ، لا لشفاء ما فى الصدور من الأوهام والآثام ، ولو كان له أنصار يدعون إليه ، وهداة يعتصمون به و يعولون عليه ، لتبددت الظلمات أمام الانوار ، ومحت آية الليل آية النهار .

تلك الارشادات الالهية بمنزلة المطر الذى ينزل من السماء ، والزلزال والاضطراب الذى أشرنا إليه بمنزلة الرعد ، واستبانة الصراط المستقيم الذى يلمع فى أنفسهم من ذلك كالبرق ، والعادات والتقاليد والشهوات والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالفهم كالظلمات التى تصد عن سلوك الطريق بل تعميه على طالبه وتحجبه عنه ، ولذلك قال تعالى فى تمثيل حال هذا الفريق ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ أى قوم نزل بهم صيب ، ووصفه بأنه من السماء مع العلم بأن الصيب لا يكون إلا من السماء للاشعار بأنه أمر لا يملكون دفعه وليس ملاكه فى أيديهم ، ومن المعهود عند بلغاء العرب التعبير عما يلم بالناس مما لا دافع له بأنه نزل من السماء ، ولا جرم أن تلك السوانح التى تسنح فى الأفكار ، والالهامات الالهية ، لأصحاب الفطرة الزكية ، التى يكون من أثرها ما أشار إليه المثل ، وتقدم التنبيه عليه ، هى أمر وهبى واقع ، ماله من دافع .

قال تعالى فى وصف الصيب ﴿ فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ الظلمات هى ظلمة الليل وظلمة السحب وظلمة الصيب نفسه ، والرعد هو الصوت المعروف الذى يسمع فى السحاب عند اجتماعه أحياناً ، والبرق هو الضوء الذى يلمع فى السحاب فى الغالب وقد يلمع من الأفق حيث لا سحاب ، وقال مفسرنا الجلال السيوطى : إن الرعد ملك أو صوته ، والبرق سوطه يسوق به السحاب ، كأن الملك جسم مادى لأن الصوت المسموع بالآذان من خصائص الأجسام ، وكأن السحاب حمار بليد لا يسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع . وما ذكرناه هو الذى كان يفهمه العرب من اللفظين ، وهو الذى يفهمه الناس اليوم ، ولا يجوز صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح ، ولا سيما إذا صرفت عن معانى من عالم الشهادة الذى يعرفه الواضعون والمتكلمون ، إلى معانى من عالم الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ومن أعلمهم الله تعالى إياها بالوحى ، ولكن أكثر المفسرين ولعوا بحشو تفاسيرهم بالموضوعات التى نص المحدثون على كذبها ، كما ولعوا بحشوها بالقصص والاسرائيليات التى تلقفوها من أفواه اليهود وألصقوها بالقرآن لتكون بياناً له وتفسيراً ، وجعلوا ذلك ملحقاً بالوحى ، والحق الذى لا مرية فيه : أنه لا يجوز إلحاق شىء بالوحى غير ما تدل

عليه ألفاظه وأساليبه، إلا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذى جاء به ثبوتاً لا يخالطه الريب

أقول : هذا ما قاله الأستاذ فى الرعد والبرق رداً على الجلال فيما تبع فيه ماروى فى التفسير المأثور عن بعض الصحابة والتابعين ، ولا يصح منه شيء ، وأمثله ما رواه الترمذى بسند ضعيف من سؤال اليهود للنبي ﷺ وقد رأينا السيوطى لم يذكر من هذه الروايات شيئاً فى تفسير الآية من كتابه (الدر المنثور) المخصص لنقل المأثور ، وكذلك ابن كثير ، وكأن هذا عده من الاسرائيليات مع عدم صحة الرواية فيه . وفسرهما البغوى بمفهومهما اللغوى . فقال فى الرعد «هو الصوت الذى يسمع من السحاب » وفى البرق « هو النار التى تخرج منه » ثم قال : قال على وابن عباس وأكثر المفسرين : الرعد اسم ملك يسوق السحاب . والبرق لمعان سوط من نور يزجر به الملك السحاب . وقيل الصوت زجر السحاب وقيل تسبيح الملك ، وقيل الرعد نطق الملك والبرق ضحكه . وقال مجاهد : الرعد اسم الملك ويقال لصوته أيضاً رعد ، والبرق اسم ملك يسوق السحاب . وقال شهر بن حوشب : الرعد ملك يزجى السحاب فاذا تبددت ضمها، فاذا اشتد غضبه طارت من فيه النار فهى الصواعق ، وقيل : الرعد انخراق الريح بين السحاب ، والأول أصح اه . ولم يذكر الحديث المرفوع لأنه أضعف عنده مما ذكره فيما يظهر .

أقول : ولا شك عندى فى أن هذه الأقوال كلها مما كان يذيعه مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه بين المسلمين ، من الصحابة والتابعين ، ولو صح فى حديث مرفوع بسماع صحيح لا يحتمل أن يكون من الاسرائيليات لما وقع فيه مثل هذا الخلاف ، ولأمكن حمله على أن المراد به الإشارة إلى أن هذه المظاهر الكونية تقع بفعل ملك موكل بالسحاب ، ولكن لا حاجة إلى ذلك مع عدم صحة شىء فى المسألة والملائكة من عالم الغيب ، وهم لا يراهم الناس إلا إذا تمثلوا لنبي أو ولى على سبيل المعجزة أو الارهاص كتمثل الروح للسيدة مريم عليها السلام ورؤية الصحابة لجبريل فى حضرة النبى ﷺ بصورة رجل يسأل عن الإيمان والاسلام والاحسان والبرق من عالم الشهادة لا من عالم الغيب .

وقول البغوى : وقيل الرعد : انخراق الريح بين السحاب — يريد به قول

فلاسفة اليونان الذى اغتر به بعض المسلمين ، قال البيضاوى : والرعد صوت يسمع من السحاب. والمشهور أن سببه اضطراب اجرام السحاب واصطكاكها إذا حدتها الريح من الارتعاد اه . وهو قول باطل والسحاب بخار لا يحدث اضطرابه صوتا .

وقال تعالى فى أصحاب الصيب ﴿ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ الصاعقة هى ما كان يعرفه العرب و يعرفه كل واحد وهو ماينزل فى أثناء المطر والبرق والرعد فيصعق ما ينزل به ، بأن يهلك أو يلحقه ضرر ، وما تفسيرنا للبرق والرعد والصاعقة مع كونها معروفة لكل الناس إلا لأن المفسرين صرفوا أفهامهم عن المعروف إلى غيره ، كما حكى عن (ارسطو) حكيم قدماء اليونان أن تلاميذه سألوه عن تعريف الحركة ، فقام ومشى ، وما أنطقهم بالسؤال عنها على بداهتها إلا أنهم اعتادوا أن يسمعوا من الفلاسفة أقوالا فى الأمور الجلية . تجعلها غامضة خفية .

وأما حقيقة البرق والرعد والصاعقة وأسباب حدوثها فليس من مباحث القرآن لأنه من علم الطبيعة ــ أى الخليقة ــ وحوادث الجو التى فى استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم ولا تتوقف على الوحى . و إنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال ، وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين ، والعلم بالكون ينمى و يضعف فى الناس و يختلف باختلاف الزمان . فقد كان الناس يعتقدون فى بعض الأزمنة أن الصواعق تحدث من أجسام مادية لما كان يشمونه فى محل نزولها من رائحة الكبريت وغيره ، ورجعوا عن هذا الاعتقاد فى زمن آخر ملاحظين أن تلك الرائحة لا تكون دائما فى محل الصاعقة . وقد ظهر فى هذا الزمان أن فى الكون سيّالا يسمونه الكهرباء ، من آثاره ماترون من التلغراف والتليفون والترامواى . وهذه الأضواء الساطعة فى البيوت والأسواق ، من غير شموع ولا زيت ولا ذبال و إنما تكون باتصال سلكين دقيقين كالخيوط التى تخاط بها الثياب ، أحدهما يحمل أو يوصل السيال الكهربائى الذى يسمونه الموجب ، والآخر يوصل السيال المسمى بالسالب ، و باتصال السلكين ، يتولد النور من تلاقى السيالين . و بانقطاعهما أو للفصل بينهما ينفصل السيالان فينقطع الضوء من المصابيح والحركة من الآلات

والكهربائية موجودة فى كل شىء ، والبرق فى السحاب يتولد من اتصال نوعيها الموجب والسالب بقدرة الله تعالى ، كما يتولد فى الأرض بعمل الانسان . وقد استنزل بعض علماء الكهربائية قبس الصاعقة من السحاب إلى الأرض ، والصاعقة من أثر الكهربائية ، وهى تفريغ السحاب طائفة منها فى مكان لجاذب فى الأرض يجذبه ، وكثيراً ما حصل الصعق لعمال التلغراف ، لما بين السحاب والاسلاك من الجاذبية . ومعرفة الناس بالسبب الحقيقى للصواعق هداهم إلى حفظ الابنية الشاهقة منها باتخاذ القضيب المعروف الذى يسمى قضيب الصاعقة ، فلا تنزل الصواعق على بناء رفع فوقه هذا القضيب ، ولا مجال فى تفسير القرآن للتطويل فى أمثال هذه المسائل الطبيعية لأنها تطلب من فنونها الخاصة بها ، فلنعد إلى بيان المثل

استحضر حال قوم مشاة فى فلاة من الأرض نزل عليهم بعدما أقبل ظلام الليل صيّب من السماء قصفت رعوده ، ولمعت بروقه ، وتصوَّر كيف يهوون بأصابعهم إلى آذانهم كلما حدث قاصف من الرعد ، ليدفعوا شدة وقعه بسد منافذ السمع برءوس الأنامل ، وعبر عن الانامل بالأصابع هذا التعبير المجازى اللطيف للاشعار بشدة عنايتهم بسد آذانهم ، ومبالغتهم فى إدخال أناملهم فى صماخها ، كأن كل واحد منهم يحاول بمادهمه من الخوف أن يغرس إصبعه كلها فى أذنه ، حتى لا يكون للصوت منفذ إلى سمعه ، لما يحذره على نفسه من الموت الزؤام ، ومعالجة الحمام ، وهذا هو الجبن الخالع ، ومنتهى حدود الحماقة ، لأن سد الآذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت ، والموت فقد الحياة بمفارقة الروح للبدن ، وخلق الله له عبارة عن تقديره أو عن قبضه للروح وتوفيه للنفس

وقوله تعالى ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ يرشدنا فى أثناء شرح المثل وتقريره إلى حال من ضرب فيهم المثل لئلا يذهلنا ما نتصوره من حال المشبه به عن حال المشبه المقصود بالذات . وهو أن التصامم والهروب من سماع آيات الحق والحذر من صواعق براهينه الساطعة أن تذهب بتقاليدهم التى يرون حياتهم الملية مرتبطة بها لا يفيدهم شيئاً ، لأن الله تعالى محيط بهم ، ومطلع على سرائرهم ، وعالم بما فى

ضمائرهم ، وقادر على أخذهم أينما كانوا ، وفى أى طريق سلكوا ، فلا يهربون من برهان إلا و يفاجئهم برهان آخر ، كالغريق يدفعه موج و يتلقاه موج حتى يقذف به إلى ساحل النجاة ، أو يدفعه إلى هاوية العدم ، ولهذا قال (محيط بالكافرين) ولم يقل محيط بهم. أقول : فوضع الاسم المظهر موضع المضمر للايذان بأنهم إنما كانوا كذلك بكفرهم ، وأن ذلك يرد فى أمثالهم . والمراد بالاحاطة هنا إحاطة القدرة ، فمن لم يمته بأخذ الصاعقة أماته بغيرها * تنوعت الاسباب والموت واحد * والمحيط بالشىء لايمكن أن يفوته و ينفلت من قبضته

﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ إذا لمع البرق بشدة مفاجئا من هو فى ظلمة فانه يؤثر فى بصره تأثيراً يكاد يخطفه، والخطف هو الأخذ بسرعة ، ولكنه يتبين به جزءاً من الطريق فيمشى فيه خطوات ثم يعتكر عليه الظلام ، وتستحوذ عليه المخاوف والاوهام ، فيقف فى مكانه ، أو يعود البرق إلى لمعانه ، ويحاكى هذا من حال الممثل بهم أنه عند ما يدعوهم الداعى إلى أصل الدين ، و يوضح لهم سبب ماهم فيه من البلاء المبين ، و يتلو عليهم الآيات البينة ، و يقيم لهم الحجج القيمة ، على أنهم تنكبوا الصراط السوى ، وأصيبوا بالداء الدوىّ ، يظهر لهم الحق فيعزمون على اتباعه ، وتسير أفكارهم فى نوره بعض خطوات ، ولكن لا يعتمون أن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشهوات ، وغبسة الأهواء والشبهات ، فتقيد الفكر و إن لم تقف سيره ، وإنما تعود به إلى الحيرة — كما تقدم فى أول الكلام — ثم يتكرر النظر فى تضاعيفها بطريق الالتفات والالمام . وفيه : أنهم على سوء الحال وخطر المآل ، لم تنقطع منهم الآمال ، كما انقطعت من أصحاب المثل الأول الذين وصفوا بالصم البكم

العمى ولذلك قال فيهم ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ حتى لا ينجع فيهم وعظ واعظ ولا تفيدهم هداية هاد ، ولم يقل: إنه ذهب بنورهم كما ذهب بنور أولئك وسلبهم كل أنواع الهدى والرشاد ، فوقع اليأس من رجوعهم إلى الحق . وقوله تعالى (ولو شاء الله) الخ رجوع إلى بيان حال من ضرب فيهم المثل . لا من تتمة المثل ، وقد

كنى عنهم بالضمير هنا لأن المثل قد تم ، بعد ما ذكرهم فى قوله (والله محيط بالكافرين) بالوصف الذى اقتضى التمثيل . هذا ما قاله شيخنا ، وهو أحد قولين المفسرين ، ومنهم من جعله تتمة المثل نفسه ، والمقصود من ضرب فيهم المثل ، على أن كلا من المثنين صحيح لا ينافى الآخر ، وكلام بعضهم يمنع الجمع فقد قال البغوى : ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم الظاهرة . كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة اه وهو خطأ بيانى فإن الباطنة هى المقصود من الظاهرة بأسلوب التشبيه البليغ وهو الاستعارة . ومع هذا فقد جعله شيخنا فى صنف منهم غير الموصوفين بقوله (صم بكم عمى) وكلامه أظهر

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ ليس عندى عن أستاذنا شىء فى هذه الجملة ومعناها واضح لا يحتاج إلى تفسير ، ولكن قال بعض المفسرين : إن قدير بمعنى قادر ومثله كل صيغة مبالغة فى أسمائه تعالى لأنه لاتفاوت فيها . وفيه أن المبالغة فى الكلام ، لأجل التأثير فى الأفهام ، فقوله (علام الغيوب) أبلغ من قوله (عالم الغيب) ولكل منهما موقع ، وههنا لما هدد المنافقين بأنه لو شاء أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، علله بأنه على كل شىء قدير ، للاعلام بأن تعلق مشيئته يتصل به تعلق قدرته ، فما شاء كان قطعاً لأنه لا يعجزه شىء ، وتأثير الأسباب فى مسبباتها منوط بمشيئته تعالى

﴿ تنبيه صادع . فى تطبيق القرآن على ما هو واقع ﴾

(وظهور معانى الأمثال المضروبة للمنافقين ، فى كثير من العلماء والعامة من المسلمين)

عقب الأستاذ تفسير هذه الآيات بتنبيه ، ارتاع له الخامل والنبيه ، ذلك أنه بين أن القرآن هاد ومرشد إلى يوم القيامة ، وأن معانيه عامة شاملة ، فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصاً مخصوصون ، وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التى توجد فى الأمم والشعوب . فلا يغترن أحد بقول بعض المفسرين : إن هذه الآيات نزلت فى المنافقين الذين كانوا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم فيتوهم أنها لاتتناوله وإن كانت منطبقة عليه . لأنه لم يتخذ القرآن إماماً وهاديا ، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له ، بل اكتفى

عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه ، فى كل ما هم فيه ، ذكر ذلك عند بيان وجه الاتصال بين الآيات السابقة وما بعدها ، فقال بعد تلاوة الآية التالية مامعناه:

(٢١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

فى الناس المنادون هنا وجهان : أحدهما . أنهم الذين يقولون : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ذلك الايمان الذى يملك القلب ويصرف النفس فى الأعمال ،وهوالمقبول عندالله تعالى ؛ وإنماهم آخذون بتقاليد ظاهرية ليس لهاذلك الأثر الصالح فى أخلاقهم وأعمالهم . فهم يخادعون الله تعالى بالتلبس ببعض صور العبادات والأقوال و « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] والكلام على هذا لا يزال فى الصنف الرابع من أصناف البشر المخاطبين بالقرآن كما تقدم، فلا حاجة إلى بيان وجه الاتصال بين الآيات

(الوجه الثانى) ـ وهو الراجح ـ أن الخطاب عام للناس كافة ، ووجه الاتصال بين الآيات على هذا أنه لما بين تعالى فى أصناف الناس هذا الصنف الذى احتقر أفراده نعم الله تعالى عليهم . واستعظموها وأكبروها على من قبلهم . فحرموا أنفسهم من أجلّ المزايا الانسانية . وأجلوا سلفهم حتى رفعوهم إلى مرتبة الربوبية . خاطب الناس عامة بأن يعبدوه ملاحظين معنى الربوبية والخالقية التى تشملهم ومن قبلهم من السلف فتنظمهم جميعاً فى سلك العبودية للخالق تعالى شأنه . ولا يكون كذلك الصنف الخاسر الكفور بنعم المشاعر والعقل وهداية الدين . إذ لم يستعملوا عقولهم فى فهم ما أنزل عليهم . بل اكتفوا بتقليد بعض

«١» حديث صحيح رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة مرفوعا وفى رواية أخرى لمسلم «إن الله لا ينظر الى أجسادكم ولا الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم»

رؤسائهم وعلمائهم ، زاعمين أنه لا يقوى على فهم كتاب الله تعالى غيرهم ، كأن الله تعالى أنزل كتبه وخاطب بها نفراً معدودين فى وقت محدود ، ولم يجعله هداية عامة للأمة ، وإنما ألزم سائر الناس فى سائر الأوقات الاكتفاء باتباع أولئك الرؤساء وأتباعهم وأتباع أتباعهم وهلم جرا [1] ثم تركوا أتباعهم اتكالا على شفاعتهم ، واكتفاء بالانتساب إليهم ، وزعما أن الله أعطاهم مالا يعطى مثله لأحد سواهم ، وإن عملوا مثل عملهم ؛ تعالى الله عن الظلم والمحاباة وهو ذوالرحمة التى لا تنتهى وذو الفضل العظيم

هذا النداء الإلهى المشعر بأن نسبة الناس الأولين إلى الله تعالى كنسبة الآخرين واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، وهو المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون ، - حجة علينا وعلى جميع من استن بسنة ذلك الصنف من قبلنا (قال شيخنا) وأخص طلاب علوم الدين بالذكر [2] فينبغى للطالب أن يوجه نفسه إلى فهم القرآن ، ويحملها على الاهتداء به ، فإذا هو فعل ذلك تظهر عليه آداب الإسلام التى أشار إليها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله «أدبنى ربى فأحسن تأديبى [3] » وإنما كان أدبه القرآن [4] ومن اشتغل بهذا حق الاشتغال وصل إلى معرفة أمراض

---

(١) مما يرد به عليهم : أن الذين يكتبون ويعلمون كثيرون. فاذا زعم المقلد أن الله تعالى أمر باتباعهم من غير نظر ولا استدلال وهم غير معينين فلاشك ان اتباع اى مذهب أو دين واجب ، ولا فرق بين سنى ومبتدع ولا بين مسلم وكافر

(٢) قد خص طلاب العلوم بالذكر لأنه يرى أن علماء الأزهر وأمثالهم من كبار الشيوخ هم الفريق الميئوس منهم ممن شرح حالهم ، بل قال لى : إن من تطول مدة طلبه للعلم فى الأزهر وأمثاله فانه يفقد الاستعداد للعلم

(٣) رواه العسكرى فى الأمثال من حديث على رضى الله عنه مرفوعا ، وسنده ضعيف ، ومعناه كما قالوا صحيح

(٤) يشير الأستاذ إلى حديث عائشة عند أحمد ومسلم وغيرهما وقد سألها سعد بن هشام عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت «ألست تقرأ القرآن؟ قال قلت : بلى ؛ قالت : فان خلق نبى الله كان القرآن »

المسلمين الحاضرة ، ومنابع البدع التي فشت فيهم ، ومثارات الفتن التي فرقتهم ، ويعرف علاج ذلك . وأن من ذاق حلاوة القرآن لا ينظر في كتاب ولا يتلقى علما [1] إلا ما يفتح له باب الفهم في القرآن أو ما يفتح له بابه القرآن فيجده مرآته ، وما عدا ذلك مبعد عنه ، والبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله تعالى وذلك هو الضلال البعيد

كل ما أمرنا به القرآن وأرشدنا إلى النظر فيه فالاشتغال به اشتغال بالقرآن ، فإذا قال : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) فذلك تنبيه وإرشاد إلى الاعتبار بما في خلقنا من الحكم والاسرار ، وينبغي لنا البحث عنها كما قال في آية أخرى : (٥١ : ٢٠، ٢١ وفي الأرض آيات الموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وإلى الاعتبار بتاريخ من قبلنا ، كما قال في آية أخرى :(٣٠: ٤٢ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) وأمثال ذلك كثير

لا يتعظ الإنسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعده وتخشع لوعيده إلا إذا عرف معانيه ، وذاق حلاوة أساليبه ، ولا يأتي هذا إلا بمزاولة الكلام العربي البليغ مع النظر في بعض النحو ، كنحو ابن هشام وبعض فنون البلاغة كبلاغة عبد القاهر [2] وبعد ذلك يكون له ذوق في فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن . قال الامام أبو بكر الباقلاني : من زعم أنه يمكنه أن يفهم شيئاً من بلاغة القرآن بدون أن يمارس البلاغة بنفسه فهو كاذب مبطل

---

(١) قد يقال : إن هذا انما يصح في العلوم الشرعية ووسائلها من الفنون العربية دون العلوم العقلية والكونية والاجتماعية . والصواب أن هذه العلوم تفتح من باب الفهم في القرآن ما لا يفتحه علم الفقه وعلم الكلام ، وستأتي الاشارة الى ذلك

(٢) يعني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لان كلا منهما مصداق جلي لاسمه ، فهو يعلم قارئه البلاغة بعبارته ومباحثه ويعينه على جعلها ملكة في نفسه وذوقا له بأسلوبه وبلاغته . ولذلك حثنا الاستاذ على طبعهما وقرأهما لطلاب البلاغة في الجامع الازهر . وأما مختصر السعد ومطوله فلا يتعلم قارئهما الا الاصطلاحات الجافة التي تفسد ملكة البيان وتبعد بقارئها عن ذوق البلاغة

فهل يصلح لمسلم بلغ ورشد وطلب العلم أن لا يجعل القرآن إمامه و يتخذه نوراً يمشى به فى الناس و يهتدى به فى ظلمات البدع ؟

أمامنا عقبتان كؤدان لا نرتقى عما نحن فيه إلا باقتحامهما ، وهما الكسل وتسجيل القصور على أنفسنا بجهل قيمة نعم الله تعالى علينا . وصاحب هاتين الخلتين يمقت كل من يرشده إلى الخير و يهديه للحق . لأنه يكافحه ضد طبعه . فلا يرى مهربا من الاعتراف بضلاله وغيه . إلا بالقدح بمرشده وناصحه

على كل منا أن ينظر فى نفسه و ينظر فى القرآن العظيم و يزن به ما هو عليه من العقائد والأخلاق والأعمال . فان رجح به ميزانه فهو مسلم حقيقى فليحمد الله تعالى . والا فليسع فيما يكون به الرجحان .

لا بد لنا من النظر الطويل والفكر القويم فيما نحن فيه . فمن لم يتفكر لم يهتد إلى الحق . ومن لم يهتد إليه فهو ضال . فماذا بعد الحق إلا الضلال)

هذا ماتذكرناه من التنبيه الذى قلنا إن الأستاذ قفى به على تفسير الآيات التى وردت فى صنفى المنافقين ومرضى القلوب بازاء القرآن ، ووصل به بينها و بين قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) الآيات . وهاك تفسيرها بالتفصيل

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ أقول : إن الله تعالى قد افتتح هذه السورة بذكر كتابه القرآن وكونه حقاً لا ريب فيه . وذكر بعد ذلك أصناف البشر تجاهه من المهتدين به بالقوة و بالفعل . ومن الكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهدى . ومن المنافقين المذبذبين بين المؤمنين والكافرين . وفيه ما يفهم منه أن هؤلاء متفاوتون ، منهم المستعد للاخلاص فى الايمان ومن فقد الاستعداد له . وحكمة بيان حال الميؤس من إيمانهم أنهم ليسوا حجة على هداية القرآن بل هو حجة عليهم

بعد هذا التمهيد جاءت هذه الآية والآيات الأربع بعدها مصرحات بدعوة جميع الناس إلى دين الله تعالى الحق ببيان أصوله وأسسه وهى (١) توحيد الالوهية بعبادة الله تعالى وحده . مع ملاحظة توحيد الربوبية (٢) القرآن . آيته الكبرى ودينه التفصيلى (٣) نبوة محمد ﷺ المرسل بهذا القرآن (٤) الجزاء فى الآخرة على الكفر وأعماله بالنار . وعلى الايمان وأعماله بالجنة

تقدم تحقيق معنى العبادة ومعنى الرب فى تفسير سورة الفاتحة . و بدء الدعوة بالأمر بعبادة الله تعالى وحده هو سنة جميع المرسلين قال تعالى (١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكان كل رسول يبدأ دعوته بقوله (يا قوم اعبدا الله مالكم من إله غيره) وذلك أن جميع تلك الأمم كانت تؤمن بأن الله خالق الخلق هو ربهم ومدبر أمورهم ، و إنما كان كفرهم الأعظم بعبادة غير الله تعالى بالدعاء الذى هو ركن العبادة الأعظم فى وجدان جميع البشر ، و بغير الدعاء والاستغاثة من العبادات العرفية ، كالتقرب إلى المعبود بالنذور وذبح القرابين أو الطواف والتمسح به ، إن كان جسما أو تمثالا لملك أو بشر أو حيوان أو قبراً لإنسان ، ومنهم من كان ينكر البعث أيضاً ، ولما كان المخاطبون بالدعوة هنا أولا و بالذات فى ضمن الدعوة العامة ، وهم اليهود والعرب فى المدينة وماحولها يؤمنون برب العالمين ووحدانيته و يعبدون غيره إما بدعائه مع الله أو من دون الله و إما بجعله شارعاً يتبعونه فيما يصدره من أحكام التعبد أو الحرام والحلال ــ لما كانوا كذلك احتج على دعوتهم إلى توحيد الله تعالى بالتعبير بلفظ « رب » مضافا إليهم فقال (اعبدوا ربكم) ووصفه بما يدل على انفراده بالربوبية من الصفات المسلمة عندهم ، وهى الخلق والتكوين والرزق فقال ﴿ الذى خلقكم والذين من قبلكم ﴾ إلى آخر الآية التالية ــ أى اذا كان ربكم هو الذى خلقكم وخلق من قبلكم ، وهو الذى سخر لكم السماء والأرض لرزقكم ومنافعكم فيجب أن تعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحدا من خلقه فتجعلونه مساويا له وتفضلونه على أنفسكم تفضيلا من نوع تفضيل الخالق على المخلوق والرب على المربوب .
وهاك تفصيل ذلك بما كتبته من سياق درس شيخنا مفصلا له تفصيلا :

يقول تعالى (يا أيها الناس) الذين يدعون الايمان بالله قولا بأفواههم ولم يمس الايمان الحق سواد قلوبهم ، ولا كان له سلطان على أرواحهم ، و يدعون الايمان باليوم الآخر ولم يستعدوا له بتهذيب أنفسهم واصلاح أعمالهم ، و إنما يأتون ببعض صور العبادات بحكم العادات الموروثة ، وقلوبهم مشغولة عن الله الذى لا تفيد العبادة عنده إلا بالتوجه إليه وابتغاء مرضاته ، والشعور بعظمته وجلاله ، فهم يخادعون الله بهذه الظواهر التى لا معنى لها ، والصور التى لا روح فيها ، وانما يخدعون فى

الحقيقة أنفسهم لأن أعمالهم هذه لا تفيدهم فى الدنيا عزة وسعادة ولا تنجيهم فى الآخرة

ويا أيها الناس الذين لم يرزؤوا بهذا الخذلان ، ولم يبتلوا بهذا الافتتان ، سواء كانوا من أهل الكفر أو من أهل الايمان ، (اعبدوا ربكم) جميعا عبادة خشوع واخلاص وأدب وحضور ، كأنكم تنظرون إليه وترونه ، فان لم تكونوا ترونه فانه يراكم ، وينظر دائما إلى محل الاخلاص منكم وهو قلوبكم ، واستعينوا على إشعار نفوسكم هذا الخشوع والحضور والاخلاص فى العبادة باستحضار معنى الربوبية فانه هو ربكم الذى أنشأكم فيما لا تعلمون (١٦ : ٧٨ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) وغذاكم بنعمه ، ونماكم بكرمه ، كما فعل مثل ذلك بسلفكم الصالح فشكروه وعبدوه وحده مقرين بهذه التربية ، ومعظمين لهذه المنة ، فليدع ذلك الصنف احتقار النعم التى هو فيها والاقتصار على تعظيم نعمة الله على السلف فقط فإن هذا الرب العظيم (الذى خلقكم و) خلق (الذين من قبلكم) قد رباكم كما ربى سلفكم ، ووهبكم من الهدايات مثلما وهبهم ، فمن شكر منهم ومنكم زاده نعماء ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقما . ليكون عبرة ومثلا للآخرين . وذلك من رحمته بالعالمين . وقد أقسم تعالى على ذلك فى كتابه المجيد . فقال (١٤ : ٧ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) وفى القصاص حياة لأولى الألباب . وما يتذكر إلا من أناب .

هكذا أمر الله تعالى عباده أجمعين . بأن يعبدوه وحده مخلصين له الدين . وأرشدهم باعلامه إياهم أنه ساوى بينهم و بين من قبلهم فى المواهب الخلقية الى الاستقلال بالعمل . وقدر نعمته عليهم قدرها . ليعلموا أن كل النعم التى تكتسب بالشكر — وهى ماعدا النبوة — مقدورة لهم . كما كانت مقدورة لمن قبلهم . وأنهم إذا زادوا على سلفهم شكراً يزادون نعما . وما الشكر الا استعمال المواهب والنعم فيما وهبت لأجله . فالذين يقولون إننا لا نقدر على فهم الدين بأنفسنا من الكتاب والسنة لأن عقولنا وأفهامنا ضعيفة. وانما علينا أن نأخذ بقول من قبلنا من آبائنا . لأن عقولهم كانت أقوى . وكانوا على فهم الدين أقدر . بل لا يكن

أن يفهمه غيرهم ، أولئك كافرون بنعمة العقل ، وغير مهتدين بهذه الآية الناطقة بالمساواة فى المواهب وسعة الرحمة والفضل . وكذلك الذين يتخذون وسطاء بينهم وبين الله تعالى لأجل التقريب إليه زلفى بغير ما شرعه لهم من الدين وما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ــ وهم الوسائل فى الهداية والارشاد ــ أو لأجل الشفاعة لهم عنده لينالوا جزاء ما شرعه من الدين . من غير طريق العمل به واتباع المرسلين ــ قد احتقروا نعم الله تعالى ولم يهتدوا بهذه الآية لأنهم قد جعلوا لله أنداداً يبغون أن ينالوا بأشخاصهم ما حكم الله بأن يطلبه الناس بإيمانهم وأعمالهم . فجعلوا هؤلاء الأنداد شركاء لله يغنونهم عن شريعته . شعروا بذلك أم لم يشعروا

يقول تعالى لجميع عباده : اعبدونى ملاحظين معنى الربوبية . والمساواة فى المواهب الخلقية . التى تؤهلكم للسعادة الحقيقية ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فإن العبادة على هذا الوجه هى التى تعدكم للتقوى . ويرجى بها بلوغ غاية الكمال القصوى .

قال الأستاذ : الشائع أن « لعل » للترجى فى ذاتها و إذا وقعت فى كلام الله تعالى يكون معناها التحقيق . وغرض القائلين بهذا تنزيه الله سبحانه عن الترجى بمعناه اللغوى الآتى . ولكنه رمى الكلام بدون بيان . وحقيقته أن « لعل » للترجى ولكنها تستعمل للاعداد والتهيئة للشىء وفى هذا معنى الترجى . فحيث وقعت « لعل » فى القرآن فالمراد بها هذا المعنى الأخير كما فسرناها به آنفا . وهو يستلزم التحقيق [لأن الإعداد بما تأتى « لعل » بعده أمر محقق لا ريبة فيه] فإن العبادة على الوجه الذى أرشدت إليه الآية من ملاحظة معنى الربوبية الخ ما تقدم شرحه تطبع فى النفس ملكة خشية الله وتعظيمه ومراقبته . وتعلى همة العابد وتقوى عزيمته و إرادته . فتزكو نفسه وتنفر من المعاصى والرذائل . وتألف الطاعات والفضائل . وهذه هى التقوى . و إذا قلنا : إن الرجاء متعلق بالناس فالاعداد فيه ظاهر ومتحقق ، إذ لو لم يخلقهم مستعدين للتقوى لما اتقاه منهم أحد

ومعنى الترجى فى أصل اللغة : توقع حصول الشىء القريب بحصول سببه والاستعداد له . سواء كان الاستعداد كسبياً أو طبيعياً فاستعملنا « لعل » المعبرة عن التوقع فى سببه وهو الاستعداد أو الاعداد الذى هو جعل المرء مستعداً .

والتعبير عن المسبب بلفظ السبب شائع فى استعمال اللغة ، وقد عدوا الترجى والتمنى من الأخبار وصيغهما صيغ انشاء فقط

وأقول : إن ماذكره من الاعداد صحيح ولكنه غير مطرد والتحقيق أن الترجى عبارة عن كون الشيء مأمولا بما يذكر من سببه غير مقطوع به لذاته بل يتبع قوة أسبابه مع انتفاء الموانع و يتعلق تارة بالمتكلم وتارة بالمخاطب وتارة بالمتكلم عنه وتارة بغيرهما ، فتأمل قوله تعالى(٦٥: ١لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وقوله حكاية عن قوم موسى(٢٦: ٤٠ لعلنا نتبع السحرة) وقوله(وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب) الخ وقوله لموسى وهارون (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وقد علم أن هذا مقطوع بعدم وقوعه عند الله ولكن الرجاء فيه متعلق بموسى وهارون أى(٢٠: ٤٤ فقولا له قولا لينا) راجيين به أن يتذكر أو يخشى لا قولا غليظا منفراً .وتأتى «لعل» للاشفاق و إفادة التحذير من أمر وقعت أسبابه فكان بمظنة الوقوع كقوله تعالى لرسوله ﷺ (١٨ : ٦ فلعلك باخع نفسك) الآية وقوله (١١. ١١ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) الآية .

لما ذكر الله عباده بنعمة الايجاد ونعمة المساواة فى المواهب التى تقتضى التقوى وعدم إطراء السلف برفعهم إلى مقام الربوبية كما وقع من الذين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) ذكرهم ثانيا بعض خصائص الربوبية التى تقتضى الاختصاص بالعبودية ، فقال ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا﴾ بامهادها وجعلها صالحة للافتراش والاقامة عليها والارتفاق بها ، أى فهو القادر على جلائل الفعال ، العظيم الذى يستحق العبادة والاجلال ، المنعم بجميع النعم ، الجدير بأعلى مراتب الشكر ، جعل الأرض بقدرته فراشا لأجل منفعتكم ﴿ والسماء بناء ﴾ متماسكا لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم . السماء مجموع مافوقنا من العالم والبناء وضع شيء على شيء بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة مخصوصة : وقد كون الله السماء بنظام كنظام البناء . وسوى أجرامها على هذه الصفة المشاهدة وأمسكها بسنة الجاذبية فلا تقع على الأرض : ولا يصطدم بعضها ببعض ، إلا إذا جاء يوم الوعيد

و بطل نظام هذا العالم ليعود فى خلق جديد ، والواجب ملاحظته فى هذا المقام : هو تصور قدرة الله تعالى وعظمته ، وسعة فضله ورحمته

ثم بعد أن امتن بنعمة الايجاد ، ونعمة الفراش والمهاد ، ونعمة السماء ، التى هى كالبناء ، ذكر نعمة الامداد ، الذى تحفظ به هذه الاجساد ، وهى مادة الغذاء ، التى بها النمو والبقاء ، فقال ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ الثمرات مايحصل من النبات نجما كان أوشجراً : يصلح الزارع والغارس الأرض ، و يبذر البذر ، و يغرس الفسيل ، و يتعاهد ذلك بالسقى والعذق ، فيكون له كسب فى رزقه ، ولكنه ليس له كسب فى إنزال المطر الذى يسقى به ، ولا فى تغذية النبات بماء المطر أو النهر المجتمع من المطر ، و بأجزاء الأرض وعناصرها الأخر ، ولا فى تولد خلاياه التى بها نموه ولا فى إثماره إذا أثمر ، وإنما كل ذلك بيد الله القدير - فعلينا أن نتفكر فى ذلك لنزداد تعظيما له واجلالا فلا نعبد معه أحداً

و بعد أن عرفنا الله تعالى بأنفسنا ، و بنعمته علينا وعلى سلفنا ، وبعد أن عرفنا ذاته الكريمة . بآثار رحمته ومننه العظيمة ، وصرنا جديرين بأن نعرف أن العبد عبد فلا يعبد . وأن الرب رب فلا يشرك به ولا يجحد . قال تفريعا وترتيبا على ما سبق ﴿ فلا تجعلوا لله انداداً ﴾ من سلفكم المخلوقين مثلكم تطلبون منهم ما لا يطلب إلا منه . وهو كل ماتعجزون عنه ولا يصل كسبكم إليه ، لاتفعلوا ذلك فانهم فى الخلق والعبودية مثلكم

الانداد جمع ند بكسر النون وفسر بالشريك وهو فى اللغة المضارع والكفء يقال فلان ند فلان ومن أنداد فلان أى يضارعه و يماثله ولو فى بعض الشؤون . والانداد الذين اتخذوا فى جانب الله هم الذين خضع الناس لهم وصمدوا إليهم فى بعض الحاجات ، لمعنى يعتقده فيهم الخاضعون المخاطبون بترك الأنداد أولا و بالذات ، وهم مشركو العرب وأهل الكتاب . فالعرب كانت تسمى ذلك الخضوع والصمود عبادة إذلم يكن عندهم وحى ينهاهم عن عبادة غير الله فيتحاموا هذا اللفظ «العبادة» و يستبدلوا به لفظ التعظيم أو التوسل مثلا تأو يلا لظاهر نص التنزيل . وأما أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أنداداً وأربابا فكانوا يؤولون فلا يسمون

هذا الاتخاذ عبادة ولا أولئك المعظمين آلهة أو أنداداً أو أربابا. وفرق بين الاتخاذ بالفعل والتسمية بالقول. والجميع متفقون على أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله وإنما كانوا يسمون دعاءهم غير الله والتقرب إليه توسلا واستشفاعا . ويسمون تشريعهم لهم العبادات وتحليلهم لهم المنكرات . وتحريمهم عليهم بعض الطيبات، فقها واستنباطا من التوراة . إلا أن من النصارى من لا يتحامون التصريح بعبادة السيدة مريم و بعض القديسين استعمالا للفظ في مدلوله اللغوى

وصور العبادة تختلف عند الأمم اختلافا عظيما وأعلاها عند المسلمين الاركان الخمسة والدعاء . وقالوا : كل عمل غير محظور تحسن فيه النية لله تعالى فهو عبادة . كأن المعنى الذي يجعل جميع الأعمال عبادة هو التوجه إلى الله تعالى وحده وابتغاء مرضاته ، ولها عند أهل الكتاب صور أخرى. والمؤولون يخصون هذه الصور بالله تعالى وإذا ابتدعوا صورة فيها معنى العبادة يسمونها باسم آخر يستحلونها بل يستحبونها به . ولكنهم لا يخرجون بالتسمية أو التأويل عن حيز من يتخذ من دون الله أندادا كما ذكر الله عنهم في قوله (٩: ٣٠ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) ولم يكن منهم سوى التوسل بهم والأخذ في الدين بقولهم تقليداً لهم بدون فهم لما جاء على لسان الوحي ، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ . وقدماء الفرس جعلوا لله نداً في الخلق والايجاد ، فقالوا : إن للخير إلها هو الاله الأول . وإن للشر إلها يضاده . وليس النهي في الآية عن هذا الند الشريك لأن المخاطبين لا يدينون به كما قلنا وتدل عليه الآيات الكثيرة

لذلك وصل النهي بقوله عز وجل ﴿وأنتم تعلمون﴾ أي والحال أنكم تعلمون أنه لا ند له لأنكم إذ سئلتم : من خلقكم وخلق من قبلكم ؟ تقولون الله . وإذا سئلتم : من يرزقكم من السموات والأرض ومن يدبر الأمر ؟ تقولون الله . فلماذا تستغيثون إذن بغير الله وتدعون غير الله ؟ ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضر ولا تنفع وادعيتم أنهم شفعاؤكم عند الله ؟ ومن أين جاءكم أن التقرب والتوسل إلى الله يكون بغير ما شرعه من الدين حتى قلتم (٣٩: ٣ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله) ؟

يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم . وخلق وسائطكم وشفعاءكم .

وأعدكم جميعاً للتقوى التى تقربكم إليه زلفى ، وساوى بينكم فى أنواع المواهب إلا أنه خصّ الأنبياء عليهم السلام بالوحى ليعلموكم ما اخطأ نظركم ورأيكم فيه ، فعليكم أن تهتدوا بما جاءوا به ، فإن صد المرؤسين عن ترك تقاليدهم واتباع الوحى من غير زيادة فيه ولا نقصان منه خوفهم الرؤساء . فقد آثروا رؤساءهم على الله وجعلوهم له أنداداً ، و إنّ صد الرؤساء عن هذا الاتباع توقع زوال المنفعة والجاه لدى المرؤسين فقد اتخذوهم أنداداً ، فالندهو المكافىء والمثل ، وأنتم بترككم الحق لخوفهم ورجائهم تفضلونهم على الله تعالى وتجعلونه أقل الأنداد تعظيما ، ففروا رحمكم الله إلى الله ، ولا تخافوا غيره ولا ترجوا سواه ، فعار على من يعرف الله أن يؤثر رضاء أحد على رضاه ، لافرق بين رئيس ومرءوس ، وتابع ومتبوع ، بل هذا لايقع من مؤمن حقيقى لأن الله تعالى يقول (٣:١٧٥ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

---

(٢٣) وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *

(٢٤) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

قلنا: إن الكلام من أول السورة فى القرآن وتفصيل أحوال الناس فى الإيمان به وعدمه ، وهذه الآية دليل على عدم الخروج عن هذا الموضوع فى كل ماتقدم فالآيات متصل بعضها ببعض ، كحبات من الجوهر نظمت فى سلك واحد ، فانه بعد ماذكر المتقين الذين يهتدون بالقرآن وعلاماتهم ، و بين خصائصهم وصفاتهم ، وذكر الجاحدين المعاندين ، وما هم عليه من العمى عن جلية الحق المبين وما رزئوا به من الصمم المعنوى حتى لايسمعون الحجج والبراهين ، وما أصيبوا به من البكم بالنسبة لقول الحق أو سؤال المرشدين ، ثم ذكر المذبذبين بين ذلك فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وذكر فرقهم وأصنافهم ، و بين خلائقهم وأوصافهم ، وضرب لهم الأمثال ، ونضلهم فى ميدان الجدال ، بسهام الحجج النافذة ، وسيوف

البراهين القاطعة ـ بعد هذا كله تحداهم بالكتاب الذى يدعو إليه و يناضل عنه و يكافح دونه (ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه) فقال :

﴿ و إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾أى يا أيها الناس عليكم بعد أن تنسلوا من مضايق الوساوس ، وتتسللوا من مآزق الهواجس وتنزعوا ماطوقكم به التقليد من القلائد ، وتكسروا مقاطر ماورثتم من العوائد ، أن تهرعوا إلى الحق فتطلبوه ببرهانه ، وأن تبادروا إلى مادعيتم إليه فتأخذوه بربانه ، فان خفى عليكم الحق بذاته ، فهذه آية من أظهر آياته ، وهى عجزكم عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن من رجل أمى مثل الذى جاءكم به ، وهو عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ، و إن عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله تساوى سورة فى هدايتها ، وتضارعها فى أسلوبها و بلاغتها ، وأنتم فرسان البلاغة ، وعصركم أرقى عصور الفصاحة ، وقد اشتهر كثيرون منكم بالسبق فى هذا الميدان ولم يكن محمد ﷺ ممن يسابقكم من قبل فى هذا الرهان ، لأنه لم يؤت هذا الاستعداد بنفسه ، ولم يتمرن عليه أو يتكلفه لمباراة أهله ـ فاعلموا أن ماجاء به بعد أربعين سنة فأعجزكم بعدسبقكم لم يكن إلا بوحى إلهى ، و إمداد سماوى ، لم يسم عقله إلى علمه ، ولا بيانه إلى أسلوبه ونظمه .

وعبر عن كون الريب بان للايذان بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب فيه[1] لأن الحق فيه ظاهر بذاته ، يتلألأ نوره فى كل آية من آياته ، ولكن

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة   فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

«١» هذا مبنى على قاعدة معروفة فى العربية ، وهى أن شرط « إذا » يقتضى الوقوع ، وشرط «إن» يقتضى عدم الوقوع أو الشك فيه ، وكذا ماشأنه عدم الوقوع لذاته وإن وقع لعارض ، كما فى هذه الآية ، ومر توضيح هذا الشأن فى تفسير (لا ريب فيه) ومثله ما شأنه عدم الوقوع أو ماينزل منزلته لا لذاته بل بسبب آخر كالممنوع شرعاً فمن شأنه ألا يقع من مؤمن مذعن للشرع وإن وقع لضعف فى الايمان وتغلب للشهوات كقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وقوله (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) ويراجع تفصيل هذه القاعدة فى (دلائل الاعجاز) للامام عبد القاهر الجرجانى

والتنزيل من مادة النزول كالإنزال وتقدم تفسيره إلا أن صيغة «التفعيل» الدالة على التدريج أو التكثير تفيد أن القرآن نزل نجوما متفرقة وهو الواقع وصيغة أنزل لا تنافيه

وقوله تعالى (من مثله) فيه وجهان (أحدهما) أن الضمير في «مثله» للقرآن المعبر عنه بقوله (مما نزلنا) (والثانى) أنه لعبدنا . قال شيخنا وهو أرجح بدليل «من» الداخلة على «مثله» الدالة على النشوء، أى فإن كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الإتيان بسورة فليفعل قال تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أتيتم بسورة من مثله، وهؤلاء الشهداء هم غير الله تعالى بالضرورة أى ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ من دون الله ﴾ أو ادعوا كل أحد غير الله تعالى ليؤيد دعواكم ، كما أيد الله تعالى دعوة عبده محمد ﷺ ، وانظروا هل يغنيكم دعاؤكم شيئا ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى دعواكم [أن عندكم فيه ريباً ، وإنما يصدق المرتاب فى ريبه إذا خفيت الحجة ، وغلبت الشبهة ، وكان جاداً فى النظر ، فهو يقول: إن كنتم صدقتم فى أنكم مرتابون فلديكم ما يمحص الحق فجدوا فى الفكر ، ولا تتوانوا فى النظر ، وتدبروا هذا الكتاب وها هو ذا معروض عليكم ، وائتوا بسورة واحدة من مثل هذا النبى الأمى ، فاذا أمكن لكم ذلك فلخاطر الريب أن يمر بنفوسكم ، وإلا فما وجه إعراضكم عن عودته، وإبطائكم عن تلبيته ؟]

(أقول) هذا محصل سياق الأستاذ فى الدرس وقد قرأه بعد كتابتنا له وكتب العبارة الأخيرة لإيضاحه بخطه بعد طبع التفسير فى المنار . وترجيحه كون الضمير فى مثله للنبى ﷺ خاص بهذه الآية وهو لا ينافى العجز عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن من غير الأميين ورجح الجمهور الأول لموافقة الآيات الأخرى فى هذا التحدى. وأول ما نزل فى هذا المعنى : قوله تعالى فى سورة الإسراء (١٧:٨٨ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ثم نزل بعدها آية يونس (١٠ : ٣٨ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم آية هود (١١ : ١٣ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من

دون الله ان كنتم صادقين) وهذه السور الثلاث نزلت بمكة متتابعات كما رواه العلماء بهذا الشأن ولكن فى رواية عن ابن عباس ان سورة يونس مدنية والرواية الأخرى هى الموافقة لقول الجمهور ولأسلوبها فانه أسلوب السور المكية .

وقال بعض علماء الكلام ان الله تعالى تحدى الناس أولا بالقرآن فى جملته فى آية الاسراء ثم تحداهم بعشر سور مثله فى آية هود ثم تحداهم بسورة واحدة مثله فى آية يونس وكل ذلك بمكة ثم بسورة من مثله فى آية البقرة بالمدينة . وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول والظاهر أن التحدى فى سورتى يونس وهود خاص ببعض أنواع الاعجاز وهى ما يتعلق بالاخبار كقصص الرسل مع أقوامهم وهو من أخبار الغيب الماضية التى لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه كما قال تعالى عقب قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكما قال فى سورة القصص عقب قصة موسى (٢٨ : ٤٤ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) إلى آخر الآية ٤٦ وكما قال فى سورة آل عمران عقب قصة مريم (٣ : ٤٤ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) الآية .

ولعل وجه التحدى بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو ارادة نوع خاص من أنواع الاعجاز وهو الاتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية فى البلاغة و إزالة شبهة تخطر بالبال بل بعض الناس أوردها على الاعجاز بالبلاغة والاسلوب وهى أن الجملة أو السورة المشتملة على القصة يمكن التعبير عنها فى اللغة بعبارات مختلفة تؤدى المعنى ولابد أن تكون عبارة منها ينتهى إليها حسن البيان مع السلامة من كل عيب لفظى أو معنوى يخل بالفهم أو التأثير المطلوب فمن سبق إلى هذه العبارة أعجز غيره عن الاتيان بمثلها لأن تأليف الكلام فى اللغة لايحتمل ذلك ومن الامثال التى وضحوا بها هذه الشبهة قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟) قالوا ان هذه الجملة تحتمل بالتقديم والتأخير بضعة تراكيب أفصحها وأبلغها وأسلمها من الضعف والابهام تركيب

الآية . ولكن القرآن عبر عن بعض المعانى وبعض القصص بعبارات مختلفة الاسلوب والنظم من مختصر ومطول ، والتحدى بمثله لايظهر فى قصة مخترعة مفتراة بل لابد من التعدد الذى يظهر فيه التعبير عن المعنى الواحد والقصة الواحدة بأساليب مختلفه وتراكيب متعددة كما نرى فى سوره فتحداهم بعشر سور مثله فى هدايتها و بلاغتها وأسلوبها واشتمالها على الحكم والعبر والاسوة الحسنة المعينة على التربية والتهذيب كما هو شأن القرآن فى قصصه · كأنه يقول أدع لكم مافى سور القصص من الاخبار عن الغيب ، وأتحداكم انتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الاتيان بعشر سور مثل سور القرآن فى قصصها ، مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراة من حيث موضوعها ، فان جئتم به مثل سوره القصصية ، فى سائر مزاياها اللفظية والمعنوية ، فأنا أعترف لكم بدحض حجتى عليكم

وأما اكتفاؤه فى سورة يونس بعدها بالتحدى بسورة واحدة فى مقام الرد على قولهم « افتراه » فلأنه لم يقيده بكونها مفتراة ، لا من باب التخفيف عليهم بالواحدة بعد عجزهم عن العشر ، فيدخل فيه خبر الغيب والتزام الصدق .

فعلم من هذا التفصيل ان التحدى باعجاز القرآن لذاته فى جملته والتحدى ببعض انواع إعجاز فى عشر سور مثله و بسورة مثله ـ كلاهما ثابت فى السور المكية قبل نزول آية البقرة وسورتها بعد الهجرة فى المدينة المنورة ، ولما كان كفار المدينة الذين يوجه اليهم الاحتجاج اولا و بالذات هم اليهود وهم يعدون اخبار الرسل فى القرآن غير دالة على علم الغيب تحداهم بسورة من مثل النبى ﷺ فى أميته ليشمل ذلك وغيره مع بقاء التحدى المطلق بسورة واحدة مثله على إطلاقه غير مقيد بكونه من مثل محمد ﷺ وسيأتى بحث وجوه هذا الاعجاز قريباً

ثم قال تعالى ﴿ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ الخ أى فان لم تأتوا بسورة من مثله ، وتجتثوا دليله من أصله ، وما أنتم بفاعلين ، لان هذا ليس فى طاقة المخلوقين ، فاتقوا النار التى أعدت لامثالكم من الكافرين ، الذين يجحدون الحق بعد البرهان المبين ، وقوله تعالى (ولن تفعلوا) جملة معترضة بين الشرط وجوابه وهى مقصودة هنا فى ذاتها لما فيها من تقوية الدليل وتقرير عجزهم بما يثير حميتهم و يغريهم

بتكاف المعارضة ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالى المؤكد أو المؤبد من عاقل كالنبى عليه الصلاة والسلام فى أمر ممكن عقلا لولا أن أنطقه الله الذى خصه بالوحى ، وهو الذى يعلم غيب السموات والأرض ، بأنه غير ممكن لأحد

وعبر عن نفى وقوع الفعل منهم بأن التى يعبر بها عما يشك فى شرطه ، أو يجزم المتكلم بعد وقوعه ، ومقتضى القاعدة أن يكون الشرط هنا بإذا لأن المحقق أنهم لن يفعلوا كما صرحت به الآية مع القطع بأن الله تعالى منزه عن الشك . ولكن القواعد التى تذكر فى علم البلاغة قد ينظر فيها إلى حال المخاطب لا حال المتكلم ، والمعول عليه هو ما يقصد المتكلم أن يبلغه من نفس المخاطب و يودعه فى ذهنه ، فههنا يخاطب الله المرتابين ، والذين هم فى جحودهم وعنادهم كالواثقين الموقنين ، خطابا يؤذن أوله بأن عدم الإتيان بما تحداهم به مشكوك فيه ، ولازمه أن المعارضة جائزة منهم ، وداخلة فى حدود إمكانهم ، خاطبهم بهذا مراعاة لظاهر حالهم التى تومىء إلى القدرة على المعارضة ، وتشير إلى إمكان الإتيان بالسورة . ثم كر على هذا الايذان بل الايهام بالنقض بلا تلبث ولا تريث ، وأبطل مراعاة الظاهر بل حولها إلى تهكم ، بالنفى المؤكد الذى ذهب بذلك الذماء ، واستبدل اليأس بالرجاء ، كأنه يقول إن إعراضكم عن الايمان ، بعد سماع هذا القرآن . الذى أفاض العلوم على أمى لم يترب فى معاهد العلم ، وأظهر معجزات البلاغة على من لم تكن يعرف منه التبريز بها فى نثر ولا نظم ، يدل على أنكم تدعون استطاعة الاتيان بسورة من مثله وما أنتم بمستطيعين ، ولو استعنتم عليه بجميع العالمين . (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

كان يتحداهم بمثل هذه الآيات الصادعة التى تثير النخوة ، وتهيج الغيرة مع علو كعبهم فى البلاغة ورسوخ عرقهم فى أساليبها وفنونها ، فى عصر ارتقت فيه دولة الكلام ، ارتقاء لم تعرف مثله الأيام ، حتى كانوا يتبارون فيه و يتنافسون . و يباهون و يفاخرون ، و يعقدون لذلك المجامع و يقيمون الأسواق ، ثم يطيرون بأخبارها فى الآفاق ، ومع هذا لم يتصد أحد منهم للمعارضة ، ولم ينهض بليغ

من مصاقعهم إلى المناهضة (أقول) بل تواتر عنهم ما كان « من الاعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم ، والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم »[1] وسفك دمائهم بأسيافهم ، وتخريب بيوتهم بأيديهم ، أفلم يكن الأجدر بمدارة قريش وفحولها . وغرر بني معد وحجولها ، أن يجتمعوا على تأليف سورة ببلاغتهم التي كانوا يتبارون فيها بسوق عكاظ وغيرها من مجامع مفاخراتهم و يؤثروا هذا على سوق الخميس بعد الخميس من صناديدهم إلى يثرب لقتال محمد ﷺ ومن آمن به « رض » فى بدر وأحد ووراء الخندق لوكان ذلك مستطاعا لهم؟ ومثل هذا يقال فى اليهود الذين كانوا بجواره فى المدينة فأمنهم على دينهم وأموالهم وأعراضهم ، فأبوا إلا إعانة مشركى قومه عليه حتى اضطروه إلى قتالهم ، و إخراج بقيـة السيف من ديارهم . فلا شك أن الله تعالى قد رفع هذا الـكلام إلى درجة لا يرتقى البشر اليها ، وهو تعالى جده العالم بمبلغ استطاعتهم ، والمالك لأعنة قدرتهم .

قال المتكلمون فى بلاغة القرآن إننا نجده لم يلتزم شيئـاً مما كانوا يلتزمون بسجعهم و إرسالهم ، ورجزهم وأشعارهم ، بل جاء على النمط الفطرى ، والأسلوب العادى ، الذى يتسنى لـكل إنسان أن يحذوا مثاله ، ولـكنهم عجزوا فلم يأتوا ولن يأتى غيرهم بسورة من مثله ، ثم نلاحظ أيضـاً أن القرآن بهذا الأسلوب قد تحدى به كل من بلغه من العرب ، على تفرق ديارهم ، وتنائى أقطارهم ، وأرسل الرسول إلى الأطراف يدعو الناس إلى الإيمان به ، فعمت الدعوة و بلغت مبلغها ولم ينبر أحد للمعارضة كما قلنا . ألا يدل هذا على نهاية العجز وعمومه ، و إحساس كل بليغ بالضعف فى نفسه عن الانبراء لمباراته ، والتسامى لمحاكاته ، وعلى أن الله تعالى جعله فوق القدر ، خارقا لما يعتاد من كسب البشر ؟ بلى ، و إن لهـذا الاعجاز وجهين . أحدهما : كونه معجزا بذاته لأنه فى مرتبة لا يمكن لبشر أن يرتقى اليها ، وثانيهما : أنه جاء على لسان أمى لبث أربعين سنة لم يوصف بالبلاغه ولم يؤثر عنه شيء من العلم . وقد ذكروا وجوها أخرى للاعجاز ينطوى عليها القرآن . منها قوله هنا (ولن تفعلوا) بناء على أن المخبر هو الله تعالى . عالم الغيب وما يكون فى

(١) هذه الجملة من خطبة اساس البلاغة

المستقبل . ومن فائدة هذا القول فى عهـد نزوله . وقبل ظهور تأويله : أن قرعه لسمع من لا يؤمن بالغيب يقتضى أشد التحريض على المعارضة التى يظهر بها العجز ويقوم البرهان . بالاعجاز المقتضى للايمان . لولا مكابرة المستكبرين لوجدانهم . وجحود ألسنتهم لما استيقنته قلوبهم . (٢٧: ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وأما من يؤمن بالغيب ويعتقد الخوارق فما عليه إلا أن ينتهى إلى عجزه و يبادر إلى الايمان به و برسالة من أنزل عليه . للعلم القطعى بأنه لا يمكن لعاقل أن يجزم بذلك إلا اذا كان مطلعا على الغيب . فهو خبر عن الله عز وجل .

قال تعالى مخاطبا للفريقين بعد تسجيل العجز عليهم ﴿فاتقوا النار﴾ وهى موطن عذاب الآخرة نؤمن بها لانها من عالم الغيب الذى أخبر الله تعالى به ولا نبحث عن حقيقتها . ولا نقول انها شبيهة بنار الدنيا ولا إنها غير شبيهة بهـا . و إنما نثبت لها جميع الأوصاف التى وصفها الله تعالى بها كقوله ﴿ التى وقودها الناس والحجارة ﴾ المراد بالحجارة الاصنام كما فى قوله تعالى (انكم وماتعبدون من دون الله حطب جهنم) ولا يسبقن إلى الفهم أنها لاتوجد إلا بوجود الناس والحجارة إذ يصح أن يكونوا وقودها بعـد وجودها . والوقود بالفتح ما توقد به النار . و بالضم مصدر وقد . وسمع المصدر بالفتح أيضا

وقال بعضهم فى تفسير « وقودها » إن الناس بأعمالهم وعبادة بعضهم بعضا وانحرافهم عن صراط الحق المستقيم . والحجارة بعبادة الناس لها ـ سببان فى إيجاد النار و إعدادها لهم . فبذلك كانوا كالوقود الذى تضرم به النار . وفى الكلام تقديم السبب ، وهو الناس والحجارة على المسبب ، وهو قوله تعالى (أعدت للكافرين) و بهذا التفسير يظهر الحصر فى جملة (وقودها النـاس والحجارة) فانها اسمية معرفة الطرفين . وخص الحجارة بالذكر لأنها أظهر المعبودات عند العرب

والمراد بالكافرين الذين لا يجيبون دعوة الانبياء عليهم السـلام والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بهـا لبدع يبتدعونها . وتقاليد يحدثونها .

وتأويلات يلفقونها . فهؤلاء هم الذين أعدت وهيئت النار لهم لأنهم الذين يستحقون الخلود فيها ، ومن وردها وروداً وانتهى إلى موطن آخر فذلك الموطن هو الذى أعد له . وليس بعد الدنيا موطن إلا الجنة جعلنا الله من أهلها بالتوفيق للتقوى ، أو النار نعوذ بالله منها ومما يقرب إليها من قول وعمل

﴿ فصل فى تحقيق وجوه الإعجاز ، بمنتهى الاختصار والإيجاز ﴾

إعجاز القرآن: قد ثبت بالفعل ، وتواتر فيه النقل ، وحسبك منه وجود ما لا يحصى من المصاحف فى جميع الأقطار التى يسكنها المسلمون ، وكذا فى غيرها ووجود الألوف من حفاظه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهى تحكى لنا هذه الآيات فى التحدى بإعجازه ، ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعى على نقلها بالتواتر أيضا ، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم

ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علما وحكما وبيانا للعلم والحكمة حار العلماء فى تحديد وجه الإعجاز بعد ثبوته بالعلم اليقينى الذى بلغ حد الضرورة فى ظهوره ، حتى قال بعض علماء المعتزلة : إن إعجازه بالصرفة ، يعنون أن الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب الخلص فى عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته فلم يهتدوا إليها سبيلا ، ثم تسلسل ذلك فى غيرهم واستمر إلى عصرنا هذا ، وهذا رأى كسول أحب أن يريح نفسه من عناء البحث وإجالة قدح الفكر فى هذا الأمر ، وللباحثين فيه أقوال ، كتبت فيها فصول وألفت فيها رسائل وكتب ، وقد عقدت هذا الفصل عند طبع هذا الجزء من التفسير لبيانها وإيضاحها ، لما علمت من شدة حاجة المسلمين أنفسهم إليها ، دع أمر دعوة غيرهم أو الاحتجاج عليهم بها .

إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه

(الوجه الأول) اشتماله على النظم الغريب ، والوزن العجيب ، والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب فى مطالعه وفواصله ومقاطعه . هذه عبارتهم وأوردوا عليها شبهتين وأجابوا عنهما ، وحصروا نظم الكلام منثوره مرسلا وسجعا ، ومنظومه قصيدا ورجزا ، فى أربعة أنواع لا يمكن عد نظم القرآن وأسلوبه

واحداً منها ، كما يدل عليه كلام الوليد بن المغيرة من أكبر بلغاء قريش الذين عاندوا النبي ﷺ وعادوه استكبارا ، وجاحدوه استعلاء واستنكاراً . أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس قال «إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أباجهل فأتاه فقال ياعم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فانك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال: قدعلمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، قال: وماذا أقول ؟ فو الله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذى يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله[1] وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : والله مايرضى قومك حتى تقول فيه . قال فدعنى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره . وكان هذا سبب نزول قوله تعالى (ذرنى ومن خلقت وحيداً) الآيات

ولعمرى إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر ، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ، ولم يوفها أحد حقها ، على كثرة ما أبدوا وأعادوا فيها ، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد ، وإنما هو مائة أو أكثر : القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر : من السبع الطول التى تزيد السورة فيه على المائة وعلى المائتين من الآيات — إلى السور المثنين — إلى الوسطى من المفصل إلى ما دونها من العشرات فالآحاد كالثلاث الآيات فما فوقها ، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين ، المعين على الفهم المفيد للتأثير ، على اختلافها فى الفواصل ، وتفاوت آياتها فى الطول والقصر ، فمنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ، ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ، ومنها المتفق فى أكثر الفواصل أو كلها ، ومنها المختلف فى السورة الواحدة منها ، وهى على مافيها متشابه وغير متشابه فى النظم ، متشابهة كلها فى مزج المعانى العالية بعضها ببعض ، من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، وآياته فى الأنفس والآفاق ، والحكم والمواعظ والأمثال ،

(١) وفى رواية : وإن أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق إلخ

و بيان البعث والمآل ، ودار الأبرار ودار الفجار ، والاعتبار بقصص الرسل والأقوام وأحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام .

يقول قائل : إن أساليب جميع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك ، لا يشبه أسلوب منها أسلوبا ، ولا يستويان منظوما ولا منثورا ، فمجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يصح أن يعد معجزا (وتقول) من قال هذا فقد أبعد النجعة ، وأوغل فى مهامه الغفلة . فمهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعور المنقولة عن المتقدمين . والتوشيحات والأزجال المعروفة عند المولدين . ومهما تختلف خطب الخطباء والمترسلين من الكتاب . والمؤلفين فى العلوم والشرائع والآداب فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة التى بدأنا القول بها . ولا يشبه شيء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها . ولكل منهم نظم وأسلوب خاص

فإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشرى ونظم الكلام الإلهى فائت بقارىء حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلقين . وخطب المصاقع المفوّهين . المتقدمين والمتأخرين . بكل ما يستطيع من نغم وتحسين . ثم ليتل عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب كسورة النجم وسورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة وسورة الحديد ـ مثلا ـ ثم حكم ذوقك ووجدانك فى الفرق بينها فى أنفسها . ثم فى الفرق بين كل منها و بين كلام البشر فى كل أسلوب من أساليب بلغائهم . وتأثير كل من الكلامين فى نفسك . بعد اختلاف وقعه فى سمعك .

بل تأمل المعنى الواحد من المعانى المكررة فى القرآن . لأجل تقريرها فى الأنفس ونقشها فى الأذهان . كالاعتبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول . وافطن لاختلاف النظم والأساليب فيها . فمن المختصر ما فى سور الذاريات والنجم والقمر والفجر . ومن المطول ما فى سور الأعراف والشعراء وطه . لعلك إن تدبرت هذا تشعر بالبون الشاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق . وتحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكما ضروريا وجدانيا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك . و إن عجزت عن بيانه بقولك

ومن اللطائف البديعة التي يخالف بها نظم القرآن نظم كلام العرب من شعر ونثر : أنك ترى السور ذات النظم الخاص والفواصل المقفاة تأتى فى بعضها فواصل غير مقفاة، فتزيدها حسناً وجمالا وتأثيراً فى القلب ، وتأتى فى بعض آخر آيات مخالفة لسائر آيها فى فواصلها وزنا وقافية ، فترفع قدرها وتكسوها جلالة وتكسبها روعة وعظمة ، وتجدد من نشاط القارىء وترهف من سمع المستمع ، وكان ينبغى للخطباء والمترسلين أن يحاكوا هذا النوع من محاسنه ، وإن كانوا يعجزون عن معارضة السورة فى جملتها ، أو الصعود إلى أفق بلاغتها ، ومن أعجب هذه السور أوائل سور المفصل بل المفصل كله . قال شيخنا الأستاذ الإمام : كان المعقول أن يحدث القرآن فى هذه اللغة من البلاغة فى البيان فوق ما أحدثه بدرجات .

إعجاز القرآن ببلاغته

(الوجه الثانى) بلاغته التى تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفى عصر تنزيله وفيما بعده . ولم يختلف أحد من أهل البيان فى هذا ، وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار سوره بلغت حد الإعجاز فيه ، والقائلون به لا يحصرون إعجاز كل سورة فيه ، ويتحقق التحدى عندهم باعجاز بعض السور القصيرة بغيره . كأخبار الغيب فى سورة الكوثر التى هى أقصر سورة ، على أن مسيلمة تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها ، فجاء بخزى كان حجة على عجزه وصحة إعجازها

ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة ويمارى فيما كتب علماء المعانى والبيان من قواعدها ، زاعمين أنه يمكن حمل كل كلام عليها ، وأن الإحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول ، لا تقوم به حجة ولا يثبت به مدلول ، لأن الذوق المعنوى كالحسى خاص بصاحبه « من ذاق عرف » وسبب هذا جهلهم اللغة العربية الفصحى نفسها ، فقد مرت القرون فى أثر القرون على ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله ، واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وهى أدنى ما وضع فى فنونها فصاحة وبيانا ، وأشدها عجمة وتعقيداً ، وهى الكتب التى اقتصر مؤلفوها على

على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة أهل اللغة وعن بيان المتقدمين الواضعين لهذه الفنون ومن بعدهم إلى القرن الخامس ، كالخليل وسيبويه وأبي على وابن جنى وعبد القاهر الجرجانى ، حتى صار أوسع الناس علماً بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها . وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها ، بله الاتيان بمثله ، فمن لم يقرأ من كتب البلاغة إلا مثل السمرقندية وشرحى جوهر الفنون وعقود الجمان فشرحى التلخيص للسعد التفتازانى وحواشيهما لا يرجى أن يذوق للبلاغة طعماً ، أو يقيم للبيان وزناً ، فأنى يهتدى إلى الإعجاز بهما سبيلا ، أو ينصب عليه دليلا ؟ وإنما يرجى هذا الذوق لمن يقرأ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للامام عبد القاهر فإنهما هما الكتابان اللذان يحيلانك فى قوانين البلاغة على وجدانك ، وما تجد من أثر الكلام فى قلبك وجنانك ، فترى أن علمى البيان شعبة من علم النفس ، وأن قواعدهما يشهد لها الشعور والحس ، ولكن لا بد مع ذلك من قراءة الكثير من منظوم الكلام البليغ ومنثوره ، واستظهار بعضه مع فهمه ، كما قرر حكيمنا ابن خلدون فى الكلام على علم البيان من مقدمته .

فهذا هو الأصل فى تحصيل ملكة البلاغة فهماً وأداء ، والقوانين الموضوعة لها مستنبطة من الكلام البليغ وليس هو مستنبطاً منها ، وقد عكست القضية منذ القرون الوسطى حتى ساغ لمستقل الفكر أن يقول فى الكتب التى أشرنا إليها وهى التى تقرأ فى مدرسة الجامع الأزهر وأمثالها : إن قواعدها تقليدية لا يمكن أن يعلم بها تفاضل الكلام ، إذ يمكن حمل كل كلام عليها ، ولذلك كان أكثر الناس مزاولة لها أضعفهم بياناً ، وأشدهم عياً وفياهة .

فمعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتى حظاً عظيما من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور ، من مرسل ومسجوع ، حتى صار ملكة له وذوقا ، واستعان على فهمه فلسفته بمثل كتابى عبد القاهر والصناعتين لأبى هلال العسكرى والخصائص لابن جنى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، ومغنى اللبيب لابن هشام . هذه مقدمات البلاغة ونتيجتها الملكة ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ ، وهى ما كان للقرآن من التأثير فى الأمة العربية ، ثم فيمن حذقها من الأعاجم أيضاً .

الحد الصحيح للبلاغة فى الكلام هى أن يبلغ به المتكلم ما يريده من نفس السامع بإصابة

موضع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس (وقد يعبر عنهما بالقلب) ولم يعرف فى تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن فى قوة تأثيره فى العقول والقلوب ، فهو الذى قلب طباع الأمة العربية وحولها عن عقائدها وتقاليدها ، وصرفها عن عاداتها وعداواتها ، وصدف بها عن أثرتها وثاراتها ، و بدلها بأميتها حكمة وعلما ، و بجاهليتها أدبا رائعا وحلما ، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها وعدلها وحضارتها ، وعلومها وفنونها

اهتدى إلى هذا النوع من إعجازه بعض حكماء أوربة مستنبطا له من هذه الغاية التاريخية و بينه فى الرد على من زعم من دعاة النصرانية أن محمداً ﷺ لم يؤت مثل ما أوتى موسى وعيسى من الآيات المعجزة فقال ما معناه : إن محمداً كان يتلو القرآن مولهاً مدلهاً ، خاشماً متصدعاً[1] فيفعل فى جذب القلوب إلى الايمان به ، فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله .

وقد رأينا وروينا عن بعض أدباء هذه اللغة من غير المسلمين أنهم يذهبون فى بعض ليالى رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين ليسمعوا القرآن و يمتعوا ذوقهم العربى وشعورهم الروحانى الأدبى بسماع آياته المعجزة ، وقد شهد له أهل العلم والانصاف منهم بهذا الإعجاز فى النظم والأسلوب ، والبلاغة يغوص تأثيرها فى أعماق القلوب ، ولكنهم لم يفقهوا دلالة ذلك على أنه من عند الله عز جل ، وسنبينه فى آخر هذا البحث

ولو شئت أن أورد الشواهد على هذا الوجه ، لخرجت عن الإختصار الذى التزمته فى هذا الفصل ، و إنك لتجد من التنبيه على عجائبها فى كل جزء من هذا التفسير ما لا تجده فى غيره حتى الدقة فى معانى مفرداته ، وتحديد الحقائق فى جمله ، ومزج المعانى الكثيرة فى أسلوبه ، ولطف التناسب بين آياته و بين سوره . ومن أعجبها ضروب إيجازه التى انفرد بها ، وكثرة تكراره للمعنى الواحد بعبارات لا يمل القارىء ولا سامع وقد نبهنا فى هذا التفسير على الكثير منها . ومن العجب غفلة أكثر طلاب البلاغة عنها

(١) قوله : مولها الخ ترجمة لكلمة إفرنسية معناها فى حال يؤثر فيها الكلام فى نفسه وفى نفس سامعه تأثيرا يملك عليهما أمرهما أى فيكون فى قراءته فاعلا منفعلا ، وهاديا مهديا

إعجاز القرآن بما فيه من علم الغيب

(الوجه الثالث) اشتماله على الاخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم، وقد تقدم بعض الكلام فيه ، ومن حاضر فى عصر تنزيله كقوله تعالى (٣٠: ١ـ٥ غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله) الآية وفيها خبران عن الغيب ظهر صدقهما بعد بضع سنين من نزول الآية ، وكان الصديق رضى الله عنه راهن بعض المشركين على صدق الخبر فربح الرهان ، وكقوله تعالى (٤٨: ١٥ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم) الآية ، وقوله (٤٨: ١٦ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقوله (٤٨: ٢٧ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون) وهذه الثلاثة فى سورة الفتح وفيها غيرها أيضاً ، وفى سورة التوبة أمثالها من الإخبار عما فى قلوب المنافقين وعما سيقولون فى بعض المسائل، ومن أظهر هذه الأخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل فى قوله (١٥: ١٠ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ووعده بحفظ الرسول فى قوله (٥: ٦٧ والله يعصمك من الناس) دع ما تكرر فى عدة سور من وعد الله لرسوله وللمؤمنين ، ومن وعيده للكافرين ، كقوله تعالى (٢٤: ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً) وكان الأستاذ الإمام يقول : إن الله تعالى لما ينجز لنا وعده هذا كله بل بعضه ، ولا بد من إتمامه بسيادة الإسلام فى العالم كله حتى أوربة المعادية له . وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى (٦: ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) الآية أنه قال « إنها نبأ غيبى عمن يأتى بعد » بل ورد هذا المعنى فى حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم أيضا . وتجد بيان ذلك فى تفسيرها من سورة الأنعام ، ومنه ظهور مصداقها فى حرب الأمم الكبرى الأخيرة .

فهذه الاخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبينا وكون القرآن من

عند الله تعالى إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه ولا يمكن معارضتها بما يصح بالمصادفة أو القرائن أحياناً من أقوال الكهان والعرافين والمنجمين ، فان كذب هؤلاء أكثر من صدقهم ، ان صح تسمية مايتفق لهم صدقا منهم ، ولكن الناس لا يحصون عليهم أقوالهم ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم فيها ، وانما يذكرون بعض ذلك إذا اقتضته الحال ، كتشنيع أبى تمام على المنجمين فى زعمهم أن عمورية لا تفتح إلا عند نضج التين والعنب ، فى قصيدته المشهورة التى مطلعها * السيف أصدق إنباء من الكتب * ويقول فيها :

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت   جلودهم قبل نضج التين والعنب

وقد قتل فى عصرنا وزير من وزراء مصر فوجد الناس فى تقويم (نتيجة) تلك السنة لأحد المنجمين نبأ عن قتله ومن شأن هذا التقويم أن يكون طبع قبيل دخول السنة التى قتل فيها ، وقد بحث بعض المدققين فى ذلك فتبين له أن صاحب هذا التقويم قد طبع الورقة التى ذكر فيها هذا النبأ بعد وقوع القتل ووضعها فيه موضع ورقة أخرى أخرجها منه فأحرقها ، ولكن كان قد بيع بعض النسخ من التقويم فوجد المدقق المشار إليه بعضها ، على أن دأب هؤلاء المنجمين أن يعبروا عما يتوقعون من أنباء المستقبل بآرائهم و بقرائن الأحوال وأخبار الصحف الدورية برموز وكنايات واشارات يفسرون بها الوقائع بأهوائهم ، فان لم يجدوها تحتمل شيئاً منها كتموها ، وتعذر على غيرهم تكذيبهم فيها ، وأما ما يعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها فليس من التنجيم ولا من علم الغيب فى شىء

إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف

(الوجه الرابع) سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف ، خلافا لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى (٤ : ٨٢ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) و إنما نجد كبار العلماء فى كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون ، ثم يصححون و يبيضون ، ثم يطبعون و ينشرون ، ثم يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط اللفظية والمعنوية ولا سيما إذا طال الزمان ، وهذا أمر مشهور فى جميع الأمم

(فان قيل) إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض ، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها بما يزعمون أنه دفع الإيراد ، وأظهر بطلان الانتقاد ، و إن المسلم يقبل ذلك منهم تقليداً ، وإن لم يكن فى نفسه سديداً (قلت) إذا كانت عين الرضى متهمة فعين السخط أولى بالتهمة ، و إننا إذا لم نلتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلابة القول - ولا إلى المقلدين من المسلمين وعرضنا ما ذكر من ظواهر الاختلاف على فريق المستدلين المستقلين من الفريقين نرى أنه ليس فى القرآن تعارض حقيقى معنوى يعد مطعنا صحيحاً فيه ، ويرى الناظر فى تفسيرنا هذا وفى مجلتنا (المنار) بيان كل ما علمناه من ذلك مع الجواب المعقول عنه ، ولكن هذا النوع من الإعجاز انما يظهر فى جملة القرآن فى السور الطويلة منه لا فى كل سورة ، فإن سلامة السورة القصيرة من ذلك لا يعد أمراً معجزا يتحدى به

إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع

(الوجه الخامس) اشتماله على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية ، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ومكان ؛ و بذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية ، ومن الشرائع الوضعية ، ومن الآداب الفلسفية ، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية ، من آمن منهم بكونه من عند الله تعالى أنزله على رسوله الأمى ، ومن لم يؤمن بذلك ، حتى كبراء السياسين من خصوم الدول الإسلامية كلورد كرومر عميد الدولة البريطانية بمصر ، فانه شهد فى تقريره السنوى الأخير عن مصر بنجاح الإسلام الباهر فى التشريع الدينى دون التشريع الاجتماعى والسياسى وعلل الأخير بأن ما وضع منذ أكثر من ألف سنة لا يمكن أن يوافق مصالح جميع الناس الآن وفى كل آن ، فكتبت إليه يومئذ كتابا سألته فيه هل يعنى بأحكام الشريعة الكتاب والسنة أم الفقه الذى وضعه العلماء ومزجوا فيه آراءهم بما يأخذونه عنهما وخالف فيه بعضهم بعضاً ؟ وأنه إن كان يعنى الكتاب والسنة فأنا مستعد لإظهار خطئه له . فكتب إلى كتابا قال فيه : « انى عنيت بما كتبت مجموع القوانين

الاسلامية التي تسمونها الفقه لأنها هي التي تجرى عليها الأحكام ولم أعن الدين الاسلامي نفسه . » الخ

ولا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الاعجاز ، فان علوم العقائد الالهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم ، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الافراد القليلون ، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكمالا ، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها ، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها ، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى ؟

إعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شيء منه

(الوجه السادس) أن القرآن يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والانسان ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ودراريها ونجومها والأرض والهواء والسحاب والماء من بحار وأنهار وعيون وينابيع ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم ، وبيان لطريق التشريع السوي الأمم ، وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف ، ثم عجزت هذه القرون ، التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، أن تنقض بناء آية من آياته ، أو تبطل حكما من أحكامه ، أو تكذب خبراً من أخباره ، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكا ، ونسخت شرائع الأمم نسخا ، وتركت سائر علوم الاوائل قاعاً صفصفا ، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية ، ورجعت في تحقيقها إلى ما عثر عليه المنقبون من الآثار العادية ، وحكمت فيها أصول العمران ، وما يسمونه سنن الاجتماع ، بحيث لم يبق لعلماء الاوائل كتابا غير مدعثر الأعضاد ، ساقط العماد

وهذا النوع من أنواع الاعجاز ، غير ما تقدم من سلامته من التعارض والاختلاف ، فتلك في الماضي ، وهذه في الحاضر والمستقبل ، ذلك الاختلاف يقع من الناس بقلة العرفان ، وبضعف البيان ، أو بما يطرأ على صاحبه من الذهول والنسيان ، يريد بيان شيء فيخونه قلمه ولسانه ، ويعوزه ان يحيط بأطرافه ، وأن يجليه تمام التجلي لقارئ كلامه أو سامعه

ثم يقول فيه قولا آخر على علم فتواتيه العبارة فيؤدي المراد ، فيختلف ما أبدأ مع ما أعاد ، أو يقول القول ثم ينساه ، فيأتي بما يخالفه في معناه ، أو يتكلم بما لا يعلم ، فيعرف بما لا يعرف ؛ وذلك عيب في الكلام وضعف في المتكلم هو من شأن البشر

إن ما يأخذه الناس من المسائل العلمية والفلسفية بالتسليم في زمانهم ثم يظهر ما يبطل تلك المسلمات ، و ينقض ما بنيت عليه من النظريات ، لا يعد عيبا في قائله ، ولا ضعفا في بيانه ، وان كان موضوعه بيان تلك المسائل نفسها : لأنه مما لا يسلم منه البشر ، وأما من يتكلم في بعض مسائل الموجودات لبيان العبرة فيها ، أو الحث على الاستفادة منها ، لا لبيان حقيقتها في نفسها ، أو صفاتها الفنية عند أهل فنها ، فهو لا يكلف أن يبين تلك الحقيقة أو تلك الصفات التي لا تتعلق بغرضه من الكلام بالاصطلاحات العلمية والفنية ، وقد ينتقد منه هذا إذا كان مما يصرف السامع عن مراده منه ، أو يوجب نقصا في استفادته منه ، كما هو شأن الذين يعظون دهماء الناس من جميع الطبقات و يضربون لهم الأمثال بآيات الله تعالى و نعمه فيما سخر لهم من المخلوقات ، فاذا كان هذا النوع من الكلام الذي لا يعاب فيه مخالفته للمسائل الفنية ــ وقد يعاب فيه تكلف موافقتها ــ جاء مع ذلك إما موافقا و إما غير مخالف لمعارف أهل العصر الذي خوطب أهله به ، ثم تبين أن بعض هذه المعارف كانت جهلا ، وظهر أنه هو موافق لما تجدد من العلم الحق والتشريع العدل أو غير مخالف له ، فلا شك في أن هذه تعد له مزية خارقة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية مرت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر فيه خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صح أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضربا من ضروب إعجازه للبشر ، وان لم يكن هذا مما تحدى به الرسول ﷺ من عجز البشر عن مثله ، لأنه لم يكن ليظهر إلا من بعده ، فادخر ليكون حجة على أهله

فان قيل : إن الطاعنين في الاسلام من الملاحدة ودعاة النصرانية يزعمون ان العلوم والفنون العصرية ؛ من طبيعية وفلكية وتاريخية ، قد نقضت بعض آيات القرآن في موضوعها ، وأن التشريع العصري أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه

قلت : إننا قد اطلعنا على أقوالهم في ذلك فألفينا أن بعضها جاء من سوء فهمهم

أوقفهم بعض المفسرين، ومن جمود الفقهاء المقلدين ، و بعضها من التحريف والتضليل. وقد رددنا نحن وغيرنا ماوقفنا عليه منها . و إنما العبرة بالنقض الذى لا يمكن لأحد أن يمارى فيه مراء ظاهراً مقبولا ، ولو وجد شىء من هذا فى القرآن لاضطرب العالم له اضطرابا عظيما، كما أن العبرة فى التشريع بما جمع بين المصلحة العامة والفضيلة والرحمة، والتشريع الاسلامى يفضل التشريع الأوربى المادى بهذا او يسبقه إلى السؤال ، وقد سبقه إلى العدل والمساواة

(فإن قيل) إن كهنة أهل الكتاب يدعون مثلكم أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة و يتكلفون مثلكم لرد مايورده عليهم علماء الكون والمؤرخون مخالفا لتلك الكتب

(قلت) إن هذا النوع من مخالفة كلام الخالق لكلام الخلق يجب أن يكون مشتركا بين القرآن وغيره من الكتب الالهية كالتوراة والانجيل ، لو بقيت كما أنزلت من غير تحريف ولا تبديل ، ومن المعلوم من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ووضعها فى التابوت (صندوق العهد) وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما هو منصوص فى آخر سفر (تثنية الاشتراع) قد فقدت من الوجود عندما أغار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس ، والتوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه عزرا الكاهن بأمر أرتحشستا ملك فارس الذى أذن لبنى إسرائيل بالعودة إلى أورشليم ، وأذن له أن يكتب لهم كتابا من شريعة الرب وشريعة الملك ،ولذلك تكثر فيها الألفاظ البابلية كثرة فاحشة ،وقد بينا تحقيق ذلك فى تفسير أول سورة آل عمران و بعض آيات من سورة النساء والمائدة . كما بينا أن إنجيل المسيح عليه السلام لم يدون فى عصره ولم ينقل عنه وعن الحواريين كما نقل القرآن تواتراً بالحفظ والكتابة ،ولا كنقل الحديث بالأسانيد المتصلة .و إنما ظهرت هذه الأناجيل التى هى قصص مختصرة له واشتهرت بعد ثلاثة قرون كما ظهر عشرات غيرها فاعتمد أربعة منها رؤساء الكنيسة التى أسسها قسطنطين ملك الروم الذى تنصر تنصرا سياسياً وأدخل النصرانية فى دور جديد ممزوج بالوثنية ورفضوا الباقى ، كما بيناه مفصلا فى الآيات التى أشرنا إليها آنفا فى الكلام على التوراة

إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر

(الوجه السابع) اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التى لم تكن معروفة فى عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله فى الخلق، وهذه مرتبة فوق ماذكرناه فى الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشىء مما فيه، ولا تدخل فى المراد من أخبار الغيب المبينة فى الوجه الخامس وإن كان لبعضها اتصال بقصص الرسل عليهم السلام ونحن ننبه على كل ما علمناه من هذا النوع فى محله من تفسيرنا هذا، ونشير هنا إلى بعضه

فمن ذلك قوله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) كانوا يقولون فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة فى السحاب بما يكون سبباً لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه ، ولما اهتدى علماء أوربة إلى هذا وزعموا إنه مما لم يُسبقوا إليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه. قال مستر (أجنيرى) المستشرق الذى كان أستاذا اللغة العربية فى مدرسة اكسفورد فى القرن الماضى. إن أصحاب الابل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوربة بثلاثة عشر قرنا . اهـ نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك ، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز

ومنه قوله تعالى (٢١ : ٣٠ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى، أفلا يؤمنون؟) أى أكذّب الذين كفروا بآياتنا ولم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة ففتقناها وخلقنا منها هذه الاجرام السماوية التى تظلهم ، وهذه الأرض التى تقلهم ، وهذه المادة هى المبينة فى قوله تعالى (٤١ : ١١ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) الخ وهذا شىء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من أهل الأرض . وكذلك خلق كل الأشياء من الماء وهو أصرح فى الآية مما قبله

ومنه قوله تعالى (٥١ : ٤٩ ومن كل شىء خلقنا زوجين) وقوله (١٣ : ٣ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين)وهذه السنة الالهية فى النبات

أصل لسنة التلقيح المذكورة آنفاً فان المراد بها أن الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الأنثى كما تقدم ، وفى هذا المعنى عدة آيات،أعمها وأغربها وأعجبها قوله تعالى (٣٦:٣٦ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) ومنه قوله تعالى (١٥:١٨ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) إن هذه الآية هى أكبر مثال للعجب بهذا التعبير (موزون) فان علماء الكون الإخصائيين فى علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التى يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة فى كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الغرام والمليغرام ، وكذلك نسبة بعضها إلى بعض فى كل نبات ، أعنى أن هذا التعبير بلفظ «كل» المضاف إلى لفظ «شىء» الذى هو أعم الألفاظ العربية الموصوف بالموزون ــ تحقيق لمسائل علمية فنية لم يكن شىء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر ، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل .

ومنه قوله تعالى (٣٩:٥ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) تقول العرب كار العمامة على رأسه إذا أدارها ولفها، وكورها بالتشديد صيغة مبالغة وتكثير ، فالتكوير فى اللغة إدارة الشىء على الجسم المستدير كالرأس ، فتكوير الليل على النهار نص صريح فى كروية الأرض وفى بيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف فى الجغرافية الطبيعية عند أهلها . ومثله قوله تعالى (٧:٥٤ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا)

ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٨ والشمس تجرى لمستقر لها ــ إلى قوله ــ وكل فى فلك يسبحون) فهو موافق لما ثبت فى الهيئة الفلكية مخالفا لما كان يقوله المتقدمون

ومنه الآيات المتعددة الواردة فى خراب العالم عند قيام الساعة وكون ذلك يحصل بقارعة تقرع الأرض قرعا، وتصخها فترجها رجا، وتبس جبالها بسا فتكون هباء منبثا ، وحينئذ تتناثر الكواكب، لبطلان ما بينها من سنة التجاذب ، والآيات فى هذا وفيما قبله تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ومقلدتهم من علماء العرب فى الأفلاك والكواكب والنجوم ، وعلى إثبات ما تقرر فى الهيئة الفلكية العصرية فى ذلك وفى نظام الجاذبية العامة : ويجد القارىء تفصيل هذا فى عدة مواضع من هذا التفسير

فهذا النوع من المعارف التى جاءت فى سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر فى الغالب. حتى إن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم فى كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة ـ فإظهار ترقى العلم لحقيقتها المبينة فيه مما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى .

هذه أمثلة من مسائل العلوم الكونية والفنون الطبيعية التى خطرت بالبال عند الكتابة من غير تفكير ولا مراجعة إلا لأعداد الآيات والسور ، ولا بد من تعزيزها ببعض الأمثلة الخاصة بالتاريخ ، وليس التاريخ من حيث هو تاريخ حد من العلوم التى تطلب من الكتاب الإلهى ، ولم يذكر فيه شىء منه بقصد سرد حوادث التاريخ ، وإنما جاء ماجاء فيه من ذكر أمم الرسل للعظة والاعتبار ، وبيان سنن الله تعالى فى الأمم والأقوام ، وتثبيت قلب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام . كما أن ذكر السموات والأرض ومابينهما وما فى الأرض من المواليد الثلاثة لم يذكر شىء منه لبيان حقائق الموجودات فى أنفسها ، وإنما ذكرت فى سياق آيات الله تعالى الدالة على علمه وقدرته وحكمته ورحمته وفضله على عباده الخ وقد تضمن كل من هذا وذاك بدقة التعبير وإعجاز البيان ، آيات أخرى تظهر آناً بعد آن دالة على أنواع من إعجاز القرآن ، وكونه وحياً من الرحمن ، فكتابه تعالى مظهر لقوله (٥٥:٢٩ كل يوم هو فى شأن)

أكتفى من هذا النوع الذى له علاقة بالتاريخ بمسألة عظيمة الشأن تشتمل على شواهد كثيرة منه ، وهى حكم القرآن الحق على التوراة والإنجيل اللذين كان يدين الله تعالى بهما أعظم شعوب الأرض مكانة فى العالم وأوسعهم علماً وحضارة ولا يزال الكثيرون منهم يقدسونهما . مع بيان بعضهم لما نقض العلم منها ، وكذا سائر الكتب التى يعبرون عن مجموعها بالعهدين القديم والجديد .

ماهذا الحكم الذى صدر من عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ، على لسان عبده ورسوله النبى الأمى الذى لم يقرأ فى حياته سفراً ، ولم يكتب سطراً ، ولم يحط بشىء من أخبار التاريخ خبراً ؟ ملخص هذا الحكم. أن أهل الكتاب من

اليهود والنصارى قد أوتوا نصيباً منه ونسوا نصيبا وحظا منه، فلم يحفظوه كله، ولم يضيعوه كله، وأنهم حرفوا ما أوتوه عن مواضعه تحريفا لفظيا ومعنويا كما يفيده الاطلاق [1] وأنهم غلوا فى دينهم فزادوا فيه مالم يأذن به الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، يحلون لهم ويحرمون عليهم مالم يشرعه الله ، وأنهم قصروا فى إقامته من جهة أخرى فعملوا بما يوافق أهواءهم منه وتركوا مايخالفها كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، وأن اليهود قالوا على مريم بهتاناً مبينا ، والنصارى غلوا فيها غلواً عظيما ، فقالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا ثالث ثلاثة (وما من إله إلا إله واحد) الخ ما نطقت به الآيات التي يجد القارىء فى تفسيرنا هذا تفصيلها مع تفسيرها الحق المؤيد بالتاريخ الصحيح الذى حققه علماء أوربة وغيرهم بعد الاسلام المصدق للقرآن الحكيم فى حكمه الذى كان مجهولا بتفصيله عند جميع الناس [2] وقد قام فى هذه السنين بعض كبار رجال الدين فى بلاد الانكليز يكتبون فى الجرائد ما قرروه فى جمعيات الكنائس من أن الانجيل لايثبت الوهية المسيح وقد نشرنا بعض ما اطلعنا عليه فى الجرائد الانكليزية من هذه التحقيقات وسننشر غيره فى مجلتنا الاسلامية (المنار) .

وقد ثبت عندنا أن مستقلى الفكر من أهل أوربة بين مؤمن بما جاء به القرآن من حقيقة أمر المسيح وهو أنه بشر ممتاز بروح قدسية من الله ونبى له ولكن أكثرهم لايعلمون أنه مما جاء به القرآن — وبين كافر به — وأما عقيدة الكنيسة بربوبيته وألوهيته فهى محصورة فى رجالها وعامة المقلدين لهم ، وقد أخبرني قسيس كبير من الكاثوليك حرمته الكنيسة وأخرجته من طغمة كهنتها أن كبار علمائها موحدين كالمسلمين ، ولولا خشية ارتداد العوام لصرحوا بالتوحيد وبنفي التثليث كبعض قسوس البروتستنت

« ١ » راجع تفسير الآية الثالثة من السورة الثالثة فى الجزء الثالث من التفسير (ص ١٥٩ — ١٦٥) وراجع تفسير الآية : ٤٤ من السورة ٤ (ص ١٣٦ من الجزء الرابع) والآية ١٥ من السورة ٥ (ص ٢٨٢ من الجزء ٦)

« ٢ » راجع تفسير سورة المائدة وانظر فى فهرس الجزء السادس من التفسير كلمات : أهل الكتاب ، والتوراة ، والانجيل

ولا يزال الموحدون يكثرون فى أوربة والولايات المتحدة الأميركانية عاما بعد عام ، ويقربون من الايمان بالقرآن ١ الله أكبر الله أكبر ، إنهم سوف يفعلون)

فمن أين جاءت هذه الحقائق لمحمد بن عبد الله الأمى بعد ثلاث وأربعين سنة عاش معظمها فى عزلة عن العالم وعلومه ، رعى فى أوائلها الغنم فى جبال مكة وشعابها ، واتجر فى أثنائها سنين قليلة قلما كان يعاشر فيها أحداً ، وهى التى ظل المسلمون يجهلون مراد القرآن منها بالتحقيق والتفصيل حتى بعد فتحهم للعالم واطلاعهم على علومه وتواريخه، إلى أن وصل علم التاريخ وغيره إلى الدرجة المعروفة .

كان بعض أهل الكتاب والملاحدة من غيرهم يرون أن أكبر الشبهات على ما فى القرآن من قصص الرسل وأقوامهم حسبانها مقتبسة من هذه الكتب المقدسة عند القوم ومما كانوا عليه من التقاليد والمذاهب باحتمال أنه ﷺ سمعها من بعضهم فى أثناء سفره بالتجارة إلى الشام . وكانوا يعدون ما خالف تلك الكتب من آيات القرآن خطأ سببه عدم جودة الحفظ أو خطأ ممن سمع النبى ﷺ ذلك منهم أو تعمداً منهم لغشه ، كما غش بعض اليهود الذين ادعوا الاسلام خداعا بعض الصحابة والتابعين بأخبار كثيرة أدخلوها فى تفسير القرآن وكتب الوعظ والرقائق .

وكان من الأدلة على دحض هذه الشبهة أنه لا يعقل أن يكون محمد ﷺ تلقى كل هذه القصص عن بعض أهل الكتاب فى رحلته إلى الشام مع عمه أبى طالب وهو ابن تسع سنين أو ١٢ سنة ، ولا فى رحلته مع ميسرة مولى خديجة (رض) وهو وإن كان فى هذه الرحلة شابا له ٢٥ سنة إلا أنه لم ينفرد دون ميسرة وسائر تجار قريش لدراسة ولا غيرها ، بل لم يلبثوا إلا أياما فى بلدة (بصرى) باعوا واشتروا وعادوا ، ولا يعقل أن يكون سمع فيها أخبار جميع الرسل سراً أو جهرا ، وحفظها من هذه الكتب حفظا ، ثم لخصها بعد عشرين سنة تقريباً فى هذه السور — ولم يجد أهل مكة عليه شبهة فى هذا الباب إلا وقوفه أحيانا على قين (حداد صانع للسيوف) رومى كان بمكة ، فقالوا : إنه هو الذى يعلمه ، وهو لم يكن يحسن العربية وفيه نزل (١٦ :١٠٣ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر : لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) وقد تقدم فى مسألة اشتمال القرآن على

أخبار الغيب الماضية من هـذا البحث تصريح الآيات بأنه ﷺ لم يكن يعـلم ما قصته السور منها ولا قومه ، ولم يمكن لأحد من خصومه المشركين أن يكذب أو يماري في ذلك .

هذا وإن مالخصناه هنا من حكم القرآن عليها يثبت أنه حكم عليّ نزل من فوق السموات العلى : حكم العليم الحكيم الحكم العدل المهيمن ، وأن تحقيق المحققين من مؤرخي الأمم وتحقيق العقلاء من البشر قد أثبت ما أثبتـه هذا الحكم ، وقد نفى مانفاه ، أليس هذا أنصع برهان على كونه حكم الله ، لا حكم عبده محمد بن عبد الله؟ بلى والله ، ثم بلى والله ، ثم بلى والله ، لا يماري في ذلك إلا متعصب أضله الله

ومن قرأ التوراة والإنجيل ثم قرأ ما في القرآن من أخبـار الرسل يرى أمراً آخر ، يرى أن القرآن بين صفوة ما فيهما من صحة عقيدة ، ومن أدب وفضيلة ، ومن عبرة وموعظة ، ومن أسوة بالأخيار حسنة ، وسكت عن كل ما فيهما مما ينافي ذلك ويخل به ، أو يجعل أفضل البشر قدوة سـيئة ، وصرح بنقض ما طرأ على أهل الكتاب من نزغات الشرك والوثنية . فإن فرضنا ـ تنزلا ـ أن هذا من صنع محمد بن عبد الله الأمي ، أفلا يكون برهانا على أنه هو في شخصه أرقى من جميع الأنبياء والمرسلين علما وعقلا وهداية وإرشاداً ؟ بلى ، ولكن كيف يعقل حينئذ أن يكونوا أنبيـاء مرسلين ، وموحى إليهم من الله أو ملهمين ؟ الحق أن نفي نبوته ﷺ يقتضي نفي النبوة وإبطال الرسالة من أصلها ، لأنها هي التي تعقل لذاتها ، وإنما يظهر ثبوت غيرها بالتبع لثبوتها ، وإننا رأينا بعض الكافرين بالوحي ، من الباحثين المستقلي الفكر ، يفضلون محمداً ﷺ على جميع الخلق ، ومنهم الدكتور شـبلي شميل السوري المشهور ، فقد صرح بذلك قولا وكتابة ، وأثبته نظما ونثرا .

وقد آن أن نبين وجه دلالة القرآن على نبوته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به وشاركهم في الاهتداء بهديه من بعده إلى يوم القيامة

وجه دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ

(تمهيد) الإيمان بالنبوة والرسالة ، ينبنى على الإيمان بالربوبية والإلهية ؛ فلايخاطب بإثباتها والدليل عليها إلامن يؤمن بالله تعالى وصفاته من العلم والحكمة والمشيئة والقدرة وتدبير أمر العالم ، وأكثر البشر يؤمنون بوجود الخالق المدبر صاحب السلطان الغيبى، لأنه مما أودع فى الفطرة البشرية ، ولا يعقل هذا النظام المشاهد فى العالم بدونه ؛ كما هو مقرر فى مواضعه ، ولكن الكثيرين يخطئون فى فهم صفاته والكلام فى تدبيره وتقديره ، لاختلاف أنظارهم وتقاليدهم فى ذلك . والذين حرموا هذا الإيمان قسمان : همج من سكان الغابات الوحشية . وأصحاب شبهات طارئة . ومثل الأول مثل الخداج الذى يولد ناقصاً . ومثل الثانى مثل من يصاب ببعض مشاعره أو أعضائه . ومراكز الإدراك فى المخ يصاب بعضها بالمرض أو الضعف دون بعض . فلا يغترن أحد من المتقين بكفر بعض المتقنين لبعض العلوم والفنون ، الذين شغلتهم الصنعة عن الصانع . كما شغل حب ليلى مجنون بنى عامر عن شخصها . حتى قيل : إنها زارته فلم يحفل بها .

وأكثر الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بالرسل الذين خصهم الله بنوع من العلم والهدى بغير تعلم ولا كسب . وأيدهم بآيات منه دانت لها عقول المستعدين للهداية وخضعت قلوبهم فآمنوا واهتدوا . وكانت حالهم البشرية بعد الإيمان والهدى خيراً مما كانوا عليه هم وآباؤهم قبل ذلك صلاحا . وقد بعث الله تعالى رسلا إلى جميع الأمم دعوها إلى أصول الدين الثلاثة المبينة فى قوله تعالى (٢ : ٦٢ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

فالرسل عليهم السلام كانوا متفقين فى الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . وإنما كانوا يختلفون فى تفصيل الأعمال الصالحة والشرائع المصلحة بحسب اختلاف استعداد أممهم . وقد طرأت على أتباعهم من بعدهم بدع وثنية وخرافية وضاعت أكثر تعاليمهم من الأمم القديمة. وإنما بقيت بقية صالحة منها عند المتأخرين من اليهود والنصارى فيها من الشوائب ما أشرنا إليه آنفاً . وكذلك بقيت فى جميع

الأديان القديمة آثار تاريخية تدل على توحيد الله تعالى ، كما يراه فى تاريخ قدماء المصريين والفرس واليونان ووثنى الهند واليابان والصين

ومما حفظ من أخبار أنبياء بنى اسرائيل : أن الله تعالى أيدهم بالأخبار عن بعض المغيبات ، وأيد المرسلين منهم ، كموسى وعيسى عليهم السلام أجمعين بآيات أخرى من خوارق العادات ، فقامت بها حجتهم على الناس ، فآمن بها المستعدون ، وكابرها المعاندون المتكبرون ، وأعرض عنها المقلدون الجامدون .

﴿المقصد﴾ قد اختلف علماء الكلام فى وجه دلالة المعجزة على نبوة من ظهرت على يديه ورسالته — أى على كون ما يدعو إليه من العقائد والفضائل والأعمال الصالحة وحياً من رب العالمين — فقال بعضهم : إنها دلالة عقلية ، ورجح الأكثرون أنها وضعية ، بمعنى أن تأييد الله تعالى إياه بعد التحدى بها فى معنى قوله تعالى « صدق عبدى فيما يبلغ عنى » ومن المعلوم الذى لا مراء فيه : أن الذين آمنوا بالرسل فى عصرهم و بعد عصرهم من العقلاء والأذكياء وجدوا فى أنفسهم اعتقاداً اضطرارياً بأن ظهور ما لا يقدر عليه غير الله تعالى على أيديهم عقب ادعائهم ما ادعوه وطلبهم من الله تعالى أن يصدقهم ، و يعطيهم آية تدل على تصديقه إياهم فيه — دليل على أنه هو الذى فعله لأجل تصديقهم ، فسمّ الدلالة عقلية ، أو سمها وضعية ، أو اجمع بين التسميتين ، إن شئت .

وقال العلماء : إن الله تعالى كان يعطى كل رسول من الآيات ما يناسب حال قومه وأهل عصره . فلما كان قوم فرعون أهل علوم رياضية وطبيعية ، وأولى سحر وصناعة ، آتى رسوله موسى آيات كان العلماء والسحرة أعلم الناس بأنها من عندالله لا من كسب موسى ولا من صناعته ، ولما كان الرومانيون أولى السلطان فى قوم عيسى والسيادة فى بلادهم أهل علم واسع بالطب آتاه من الآيات إبراء الأكمه والأبرص و إحياء الميت ، ولما كانت العرب قد ارتقت فى لغتها فصاحة و بلاغة إلى درجة لم تتفق لغيرها ، لأن أذكياءها قد رجهوا جميع قواهم العقلية والخيالية إلى إتقانها ؛ جعل الله تعالى آية محمد الكبرى إليهم كتاباً معجزاً لهم ولسائر الخلق فى نظمه

وأسلوبه وفصاحته وبلاغته ، فقامت عليهم الحجة به بأقوى مما قامت آيات موسى وعيسى على قومهما . وفى هذا القول من التقصير فى حجة القرآن ماعلمت

والحق الذى يقال فى هذا المقام : أن ما أيد الله تعالى به رسله من الآيات الكونية كان مناسباً لحال زمان كل منهم وأهله ، وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات فى عهده ، ثم على من صدق المخبرين من بعده ، وقد علم الله تعالى أن سلسلة النقل ستنقطع ، وأن ثقة بعض المتأخرين به ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ستضعف ، وأن دلالتها على الرسالة ستنكر — فجعل الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبيين علمية دائمة لا تنقطع ، وهى هذا الكتاب المعجز للخلق بما فيه من أنواع الاعجاز السبعة التى ذكرناها ، وبينا أن كل واحد منها آية بينة لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وكان مستقلا مطلقا من أسر النظريات المادية وقيود التقليد. إذ لا يتصور عاقل يؤمن برب العالمين أن يصدر هذا الكتاب المشتمل على هذا القدر السنيع [1] من المعانى ، فى هذا الأسلوب البديع والنظم المنيع من المبانى ، من رجل أمى ولا متعلم أيضاً ، إلا أن يكون وحياً اختصه به الرب عز وجل ، ناهيك به وقد جزم بعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فهذا التحدى حجة مستقلة على نبوة محمد ﷺ بصرف النظر عن المتحدى به ما هو ، وكل نوع من تلك الأنواع السبعة الثابتة للقرآن حجة مستقلة فى نفسها ، وحجة أنهض وأقوى باعتبار أمية من جاء بها ، فان أمكن تمحل المراء والجدل فى بعض الوجوه التى ذكرنا لإعجازه ، فهل يمكن ذلك فى جملتها أوفى كل منها ؟ كلا

سبق لنا أن ضربنا مثلا لنبوته ﷺ : رجلا ادعى فى بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليله على ذلك أنه ألف كتابا فى علم الطب يداوى المرضى بما دونه فيه فيبرؤن ، فاطلع عليه الأطباء البارعون فشهدوا بأنه خير الكتب فى هذا العلم وما يتعلق به من عمل ، ثم عرض عليه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرؤا من عللهم وصاروا أحسن الناس صحة : فهل يمكن المراء فى صحة هذه الدعوى مع هذين البرهانين العلمى والعملى ؟ كلا. وإن

(١) السنيع : هو الجامع بين الطول والحسن ، من سنع سنوعا وسناعة

العلم بطب الأرواح ، أعلى وأعز منالا من العلم بطب الأجساد ، وأن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع ، أعسر من مداواة أعضاء الأفراد ، ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة ، والآداب العالية ، وأصول التشريع الاجتماعى والمدنى، وأن النبى ﷺ عالج به أمة عريقة فى الشقاق وحمية الجاهلية ، غريقة فى الجهل والأمية ، ورذائل الوثنية ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الأمم ، من بدو وحضر ، مع أنه كان أمياً لم يتعلم شيئا من العلوم ، ولم يتمرس بسياسة الشعوب .

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

لو استدل ذلك الطبيب الجسدانى على صحة دعواه بعمل غير مألوف للناس، ولكن لا علاقة له بالطب لأمكن المراء فى صحة دعواه – كذلك شأن هذا النبى فى ادعائه أنه مرسل من الله لهداية البشر ، فإن كتابه العلمى المؤيد بنجاح العمل به أدل على كونه وحيا أوحاه الله إليه من جعل عصاه حية، أو إحيائه ميتا. لأن هذين على غرابتهما ليسا من موضوع الإرشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب، فهما إن دلا على صدق الرسول فدلالتهما ليست فى أنفسهما ، والإتيان بعمل خارق للمألوف فى العادة من سنن الكون، هو دون الإتيان بالعلوم العالية الالهية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالإتيان بأنباء الغيب الماضى والمستقبل؟ فكيف بصلاح حال من عملوا بهذه العلوم دينا ودنيا ؟ فالقرآن إذاً برهان على أن ما فيه الطب الروحانى الاجتماعى وحى من الرب المدبر الحكيم لا يمارى فيه إلا معاند مكابر ، أو مقلد جاهل

أما المكابرون الذين يجحدون الحق وهم يعلمون ، فأمثال رؤساء المشركين ورؤساء اليهود فى زمن البعثة المحمدية الذين ثقل على طباعهم ترك رياستهم ، وصيرورتهم أتباعا مساوين لفقراء المسلمين ومواليهم ، ولا يخلوا هذا العصر من أناس منهم ، وأما المقلدون فعوام أهل الأديان والمذاهب فى كل عصر الذين لا ينظرون فى دليل ولو كان حسياً . وكذلك المفتونون ببعض شبهات الماديين من الفلاسفة وعلماء الطبيعة الذين قلدوهم فى الكفر بالله تعالى كما قال الشاعر فى أمثالهم:

عمى القلوب عموا عن كل فائدة   لأنهم كفروا بالله تقليداً

فهؤلاء المنكرون لوجود الخالق لا كلام لنا معهم فى مسألة النبوة والوحى إلا بعد أن نتكلم معهم أولا فى إثبات وجود الخالق وصفات ربوبيته ، ولكن أكثر منكرى النبوة يؤمنون بوجود الله تعالى ، وإنما يستبعدون معنى الوحى ، وليس ببعيد فى نظر العقل

الوحى فى اللغة : إعلام فى خفاء . ووحى الله تعالى إلى أنبيائه علم يخصهم به من غير كسب منهم ولا تعلم من غيرهم ، بل هو شىء يجدونه فى أنفسهم من غير تفكر ولا استنباط ، مقترنا بعلم وجدانى ضرورى بأن الذى ألقاه فى قلوبهم هو الرب القادر على كل شىء ، وقد يتمثل لهم ملك فيلقنهم ذلك العلم ، وقد يكون بغير وساطة ملك . قال تعالى (٢٦ : ١٩١ وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ نزل به الروح الأمين ١٩٣ على قلبك لتكون من المنذرين) فأى استحالة أو بعد فى هذا عند من يؤمن برب العالمين ، وعلمه وحكمته وقدرته فى المخلوقين ؟

وعرفه شيخنا فى رسالة التوحيد « بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين من قبل الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . (قال) ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » ثم بين إمكان هذا ووقوعه وأسباب شك بعض الناس فيه وتفنيد شبهاتهم عليه بما يراجع فى الرسالة نفسها

وأما تمثل الملك فكانوا يكتفون فى إثباته بقولهم : إنه ممكن فى نفسه وقد أخبر به الصادق فوجب تصديقه . ونقول اليوم : إن العلوم الكونية لم تبق شيئا من أخبار عالم الغيب غريبا ، إلا وقربته إلى العقل ، بل وإلى الحس تقريبا ، بل ظهر من الاختراعات المادية المشاهدة فى هذا العصر ، ما كان يعد عند الجماهير محالا فى نظر العقل ، لا غريبا فقط . فاذا كان الإنسان الكيميائى يحلل الأجسام الكثيفة حتى تصير غازات لا ترى من شدة لطفها ، ويكثف العناصر اللطيفة فتكون كالجامدة بطبعها ، فكيف يستغرب تكثيف الملك لنفسه ، وهو من الأرواح ذات المرة والقوة العظيمة يأخذه من مواد العالم المنبثة فيه هيكلا على صورة الانسان مثلا ؟ دع مخترعات

الكهرباء العجيبة التى لا يوجد شيء مما أخبر به الرسل من عالم الغيب إلا وفيها نظير له يقرب به من الحس ، لا من العقل وحده ، وهل الكهرباء إلا قوة مسخرة للملائكة ؟ ودع ما يثبته الألوف من علماء الأمم كلها من تمثل بعض أرواح البشر لبعض الناس فى صور كصور الاجساد ، وهو يوافق المأثور عندنا عن الامام مالك من أئمة الفقهاء فى صفة الروح ، ووقائعه عند الصوفية كثيرة ، ومن ينكر ما يحكى من وقوع هذا لا ينكر إمكانه فى نفسه ، ولا الرجاء فى ثبوته فى يوم ما ، بحيث يشاهده جميع الناس .

خلاصة ماتقدم : أن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ لها وجهان :

(أحدهما) ماقيل فى دلالة الآيات الكونية لبعض الأنبياء السابقين ، كناقة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى الميت ، وهو أن كلا منها أمر جاء على غير المعتاد من مقدور البشر ، واستدل به صاحبه على نبوته ورسالته . فكان تصديقا من الله الله تعالى له ، وتكذيبا وخذلانا منه تعالى لمن كذبه ، وهذا الوجه من الدلالة خارج عن موضوع النبوة والرسالة . ولذلك اختلف فيه علماء النظر كما تقدم آنفا

(الوجه الثانى) وهو يجتمع مع الأول . مأخوذ من معنى النبوة والرسالة . وهو أنها هداية عليا للبشر ، لا تغنيهم عنها هدايات الحواس الظاهرة والباطنة ولا هداية العقل ، فان هذه هدايات شخصية فردية وتلك هداية لنوع الانسان فى جملته ، وقد اكتفينا فى هذا الاستطراد بتمثيلها بطب الأبدان ليفهمها كل قارىء وسامع ، وإنما يفهمها الفهم التام من طريقه العلمى من يقف على ما اشتمل عليه القرآن من آيات الهداية وكونه أعلى وأكمل من كل مانقل عن الأنبياء السابقين على مافى نقله من التواتر القطعى ، وما فى نقلها من الضعف ـ ومن طريقه العملى من عرف تاريخ الاسلام وما كان من تأثير القرآن فى هداية العرب ثم هداية غيرهم من الأمم ، وعرف تأثير هداية الأنبياء السابقين فى أممهم ـ على مابين النقلين من التفاوت أيضاً ـ

ولا يمترى أحد من العقلاء فى كون العلم الذى موضوعه هداية الأمم والشعوب ونقلها من حال دنيوية إلى حال أعلى وأكمل منها هو من العلوم العالية التى يقل فى الناس من يحذقها ويكون إماماً مبرزاً فيها ، وأن عمل من يتدارسونه فى الكتب به أعسر مسلكا ، وأوعر طريقا ، وأن فلاح العاملين به المتمرسين بوسائله قلما يتفق إلا

لأفراد أتيح لهم من الأسباب ونفوذ الحكومات مالم يتح لغيرهم ، فما بالك بالجمع بين هذا و بين العلم والعمل فى سبيل الهداية الروحية والاستعداد لسعادة الآخرة والنجاح التام معا ، على مافيهما من عدم سبق الاستعداد لهما بعلم ولا عمل ؟

وجملة القول : أن موضوع الرسالة : تعليم و إرشاد إلهى يملك الوجدان، وتذعن له النفس بالإيمان ، فيكون هداية تزع صاحبها عن الباطل والشر ، وتوجهه إلى الحق والخير ، و إن القرآن قد بلغ مرتبة الكمال فيها، فاهتدت به الأمم والشعوب، فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها ، لا تقليداً لآبائه وقومه فيها ، لا يسعه أن يؤمن بالتوراة أو الانجيل أو الفيدا، أو غيرهن من الكتب المنسوبة إلى المرسلين الأولين ولا يؤمن بالقرآن ، وهو أكملها فى موضوعها ، وأصحها نسباً إلى من جاء به

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا

ومن كان يؤمن بالله تعالى وأنه هو الرب الخالق للعالم بأكمل نظام ، المدبر لأمور العباد بالحكمة والاحكام ، وأنه هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وتأمل فى تاريخ النبى ﷺ المنقول نقلا مستفيضاً ومتواتراً ، فلا يسعه أن يزعم أن بعثة محمد الأمى العربى ، و إتيانه بهذا القرآن ، المشتمل على ما أشرنا إليه من ضروب الإعجاز ، قد كان من أمور التعاليم البشرية الكسبية وما حدث به من الهداية التى قلبت تاريخ البشر كان من الأمور العادية ، بل لا يسعه إذا أنصف إلا أن يؤمن بأن هذه الحادثة الانقلابية فى دين الأمم ودنياها ، قد كانت بعناية خاصة من الرب الحكيم العليم ، المدبر الرحيم ، وأنه هو الذى أفاض هذا القرآن الحكيم على قلب ذلك الرجل الأمى بعد أربعين سنة ، قضاها فى قومه لم يؤثر عنه شىء من مثل علومه ، ولا مما يقرب من أسلوبه و بلاغته.

هذا و إن لتحقيق هذه الدلالة العلمية على النبوة والرسالة مقدمات علمية وفلسفية مستنبطة من حاجة البشر - فى كمالهم النوعى فى الدنيا وفى استعدادهم للحياة الأبدية - إلى هداية الرسالة ، وقد عقد شيخنا الاستاذ الإمام لهذا البحث فصلا طويلا فى «رسالة التوحيد» سلك فيه مسلكين (أحدهما) مبنى على عقيدة خلود

النفس البشرية وكونها لاتزول من الوجود بالموت المعهود ، وهى عقيدة اتفقت عليها كافة البشر من المليين موحديهم ووثنييهم والفلاسفة إلا قليلا من الماديين الجدليين الذين لا يعتدون إلا بمدركات الحس (وثانيهما) مأخوذ من طبيعة الإنسان فى حياته الاجتماعية

بين الاستاذ فى الأول ان الإنسان محتاج بمقتضى تلك العقيدة والشعور النوعى العام بالبقاء والانتقال من طور إلى آخر فى الحياة إلى هداية يستعد بها للحياة الآخرة الباقية وهى من عالم الغيب الذى لايدرك من أمره شيئاً فيستقل عقله فى العلم بما يجب عليه من الاستعداد له ، فلا بدأن تكون هذه الهداية من عند الله تعالى الذى خلقه للبقاء الذى يعقله فى الجملة ، لا للزوال والعدم المحض الذى لا يعقل ولا يتصور ولا يتخيل ، وانما عاقبة الموت انحلال هذه الصور الجسدية، وتفرق هذه المركبات المادية . فالله هو العليم بما يصلح به حاله فى تلك الحياة ، وتأبى حكمته ورحمته وجوده واتقانه لكل شيء خلقه وتنزهه عن الباطل والعبث أن يحرمه هذه الهداية

و بين فى الثانى أن هذه الحياة الاجتماعية الإنسانية لا يستقيم فيها التعاون بين الأفراد ولا بين الجماعات إلا بالأخذ بتعاليم اعتقادية وأدبية وعملية لاتختلف فيها الاهواء والشهوات لأن الوازع فيها نفسى وجدانى لصدورها عن الرب الحكيم العليم ، بوحى أوحاه إلى من اختصه بهذا الفضل العظيم ، ولولا أن طال هذا الاستطراد فى تفسير الآية لأوردت هذا الفصل برمته هنا فهو فى المسألة الحجة البالغة والحكمة وفصل الخطاب

إلا أننى أقول إن أعلم الحكماء الغربيين فى هذا العصر قد بينوا فى مباحثهم فى طبائع البشر ان الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية وتسلل من وجدان الدين والإلهام الإلهى بالحياة الأخرى يكون أشقى من جميع انواع الحيوان الأعجم ويكون جل شقائه من نظرياته العقلية ، فهو إذا فكر فى هذه الحياة القصيرة التى تساورها الآلام الشخصية من جسدية ونفسية والآلام المنزلية (العائلية) والقومية والوطنية والدولية ــ يراها عبثاً ثقيلا ، ويرى من السخف أو الجنون أن يحمل شيئاً منها مختاراً لأجل زوجة أو ولد أو وطن أو أمة ــ ويرى أن الطريقة المثلى فى الحياة أن لايتعرض لألم من هذه الآلام فلا يتزوج

ولا يعمل أدنى عمل ولا يتكلف أدنى تعب لأجل غيره ، وأن يطلب لذاته الجسديه من أقرب الطرق إليها ، و ينتظر الموت للاستراحة من هذه الحياة، فإن أبطأ عليه ونزلت به آلام يشق عليها احتمالها من مرض أو فقر مدقع أو ذل مخز فليبخع نفسه و يتعجل الموت انتحاراً

كل فضائل الإنسان من الصبر على المكاره والجهاد فى سبيل الزوجة والولد والأمة والوطن ، و إسداء المعروف وسائر أعمال البر لايبعث النفس عليها إلا الإيمان بالله و بالجزاء على الأعمال فى حياة خير من الحياة الدنيا ، كما قرره البرنس بسمارك عظيم أوربة فى عصره فى بيان الباعث للجندى على بذل نفسه فى الحرب وأنه وجدان الدين. وفى قوله عن نفسه : إنه لولا الإيمان لما خدم الأمة الألمانية فى ظل عاهلها . وهو يكره الملوك لأنه جمهورى بالطبع ـ ولئن انتصرت الأفكار المادية على الهداية الدينية انتصاراً تاماكاملا ليتحولن جميع مااهتدى إليه البشر من أسرار الكون والفنون والصناعات إلى ذرائع الفتك والتدمير ، و بئس المثوى والمصير ، وهو ماجزم هر برت سبنسر شيخ فلاسفة أور بة الاجتماعيين بأن سيكون عاقبة انتشار الأفكار المادية فى أور بة : صرح به لشيخنا عند التقائه به فى انجلترا .

فجملة القول: أن الدين هو الهداية العليا للانسان التى أفيضت على بعض خواصه وهم الرسل من أفق أعلى من عقله وحواسه فكانت أستاذاً مرشداً له فيهما لكيلا يستعملهما فيما يضره فى سيرته الشخصية والاجتماعية، وهاديا له إلى السعادة الأخروية، وأن القرآن أكمل الكتب الإلهية التى أوحاها إلى رسله ليبلغوها خلقه ، أكملها هداية و إرشادا، وأصحها تاريخاً و إسناداً ،ولذلك كان خاتمة لها، وكان آية دائمة ومعجزة ثابتة بأسلوب عبارته و بما اشتمل عليه، مما مرت الإشارة إليه. ولكن ماطرأ على دول خلافته العربية من الضعف والانحلال صد الناس عنه، وسيرجعون إلى إحياء لغته، وتعميم دعوته فينقذ الله به العالم من مصائبه المادية التى أوشكت أن تودى به (ولتعلمن نبأه بعد حين)

خاتمة البحث فيمن عارضوا القرآن

نختم هذا البحث بكلمة فيمن حاولوا معارضة القرآن ، وقد كان من دأب علماء المسلمين إحصاء كل مايبلغهم فى الدين والعلم والأدب وتدوينه وعزوه

إلى أهله ، حتى إن دعاة النصرانية يقرأون كتب علمائنا وينقلون منها كل طعن في الإسلام ويؤيدونه ، ويكتمون رد علماء المسلمين عليه أو يذكرون منه مايرونه ضعيفا ويوردونه مورد الهزو والسخرية لتنفير ضعفاء العلم أو العقل من المسلمين عنه

وقد أجمع رواة الآثار والتاريخ على أن فحول البلغاء من مشركي العرب لم تسم نفس أحد منهم إلى معارضة القرآن مع شدة حرصهم على صد الناس عن الاسلام ، وعن الرسول ﷺ — كما تقدم — اللهم إلا أن بعضهم نقل عن مسيلمة الكذاب أنه عارض سورة الكوثر وهي أقصر سورة منه ليثبت لدى غوغائه أنه يوحى إليه كمحمد ﷺ فقال كما في التفسير الكبير للفخر الرازي وغيره :

« إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وهاجر ، إن مبغضك رجل كافر »

وقد تعلق بهذا بعض دعاة النصرانية في رسالة له في الطعن على إعجاز القرآن ولكنه أوردها بألفاظ أخرى ، وزعم أنها فصيحة متناسبة المعني ، بعد أن طعن في سورة الكوثر وزعم أنه سأل علماء المسلمين عن بلاغتها وإعجازها فلم يستطع أحد أن يجيبه (وهو هو الذي نقلنا عنه معارضة سورة الفاتحة ص ٨٧) وهذه عبارته أو روايته

« إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، ولا تعتمد قول ساحر »

ولا شك أن هذا التغيير جاء من جاهل باللغة العربية الفصيحة ، ولا سيما لغة ذلك العصر ، وهو مع ذلك سخيف العقل ، فمن سخف عقله إتيانه بكلمة الجواهر هنا وترتيب الأمر بالصلاة على اعطائها ، وفرض هذا وحيا لمسيلمة المدعى للنبوة ، مع أنه لايوجد نقل بأن الله أعطاه جواهر معروفة تذكر بلام التعريف ، ولا غير معينة ، فتذكر بلام الجنس ، ثم إنه لامناسبة للأمر بالمجاهرة بالصلاة هنا وهي المشاركة في جهر الشيء أو الجهر بالقول ، وأما الفقرة الأخيرة فليست مما يقوله عربي قح لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى اذ لم يكن عند العرب أقوال للسحرة تعتمد أو لا تعتمد إن صح أن يقال هذا ، وإنما السحرة أناس مفسدون محتالون فعالون لا قوالون

ولو فرضنا أن هذه الألفاظ التي غيرها من السورة صحيحة ومناسبة المقام ومقتضى الحال لما صح أن يكون بها معارضا لها بل مقلداً وناقلا فهو ضرب من الاقتباس مع التصرف ،

كمن يغير قافية أبيات من الشعر بمعناها أو بمعنى آخر ، كقول الشاعر :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من رمقا
لك أن تبدى لنا حسناً ولنا أن نعمل الحدقا
قدحت عيناك زند هوى فى سواد القلب فاحترقا

غيرت قوافيها لفظا لامعنى بالبداهة فقلت :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من مقلا
لك أن تبدى لنا حسناً ولنا أن نعمل المقلا
قدحت عيناك زند هوى فى سواد القلب فاشتعلا

«مقل» نظر بمقلته . ثم غيرتها أيضا بكلمات : نظر ، أو بصرا - النظر - فاستعرا - فهل أكون بهذا معارضا للأصل ، وفى طبقة صاحبه من غزل الشعر ؟

إعجاز سورة الكوثر

وأما السورة فهى فى أفق أعلى مما قال مسيلمة الكذاب ، ومما عزاه إليه المبشر الجاهل الخادع ، حتى لو فرض أنه قال ما قال من تلقاء نفسه .

«الكوثر» فى السورة لا يوجد فى اللغة ما يحكيه أو يحل محله فيها ، إذ معناه الكثير البالغ منتهى حدود الكثرة فى الخير حسياً كان ، كالمال والرجال والذرية والأتباع ، أو معنويا ، كالعلم والهدى والصلاح والإصلاح ، ويشمل الكثير من خيرى الدنيا والآخرة . وهو يطلق على السخى الجواد أيضا .

وأما موقعه فى أول السورة وموقع كلمة «الأبتر» فى آخرها اللذان اقتضتهما البلاغة وتأبى أن يحل غيرهما محلهما فهو أن رؤساء المشركين المستكبرين كانوا يحقرون أمر النبى ﷺ لفقره وضعف عصبيته ويتربصون به الموت أو غيره من الدوائر زاعمين أن ماله من قوة التأثير فى الأنفس بتلاوة القرآن يزول بزوال شخصه كما قال تعالى (٥٢ : ٣٠ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ٣١ قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) وكانوا يقولون عند ما رأوا أبناءه يموتون : بتر محمد ، أو صار أبتر ، أى انقطع ذكره بانقطاع ولده وعصبته ، وكانوا يعدون الفقر وانقطاع العقب مطعنا فى دينه ودليلا على توديع الله له وعدم عنايته به تبعا لاستدلالهم بالغنى

وكثرة الولد على رضاء الله تعالى وعنايته كما حكى عنهم سبحانه بقوله (٣٤ : ٣٥ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) وقد أبطل الله تعالى بهذه السورة شبهتهم ، ودحض حجتهم ، وجعل فألهم شؤما عليهم ، بما بين من عاقبة أمرهم وأمره ، قال ما تفسيره بالايجاز .

(إنا) بما لنا من القدرة على كل شيء (أعطيناك) أيها الرسول من خيرى الدنيا والآخرة (الكوثر) الذى لاتحد كثرته ولا تحصر ، من الدين الحق ، وهداية الخلق ، وما لا يحصى من الاتباع ، ومالا يحصر من الغنائم والنصر على الأعداء ، ومالا ينقطع من الذرية التى تنسب اليك فتذكر بذكرهم ، ويصلى ويسلم عليك وعليهم ، ثم من الشفاعة العظمى يوم الفزع الأكبر ، والحوض الذى يرده المؤمنين فى المحشر ، فلفظ «الكوثر» يشمل كل هذا وغيره ، وإنما يكون كل نوع منه فى وقته . وكان الاخبار به فى أول الاسلام من البشارة ونبأ الغيب ، وذكر بلفظ الماضى لتحقق وقوعه كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أو على معنى الانشاء ..

فأين هذا اللفظ فى نفسه وفى موافقته لمقتضى الحال من كلمة « الجماهر » التى استبدلها به مسيلمة الكذاب ، وهى بالضم الشيء الضخم - أو كلمة « الجواهر » التى ذكرها المبشر المرتاب السباب ، وهى كذب لا مناسبة له ؟

ووصل تعالى هذه البشارة العظمى بالأمر بشكرها فقال (فصل لربك) ومتولى أمرك الذى منّ عليك بهذه النعم وحده مخلصا له الدين (وانحر) ذبائح نسكك له وحده ، — فهو كقوله تعالى (٦ : ١٦٢ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) وهذا يدل على أنه سيكون له الغلب على المشركين الذى يتم بفتح مكة وبحجه ونسكه مع أتباعه - وقد كان - ونحر (ص) فى حجة الوداع مائة ناقة ، فهذه بشارة خاصة بعد تلك البشارة العامة ، وكلاهما من أنباء الغيب

ثم قفى على ذلك ببشارة ثالثة هى تمام الرد على أولئك الطغاة المغرورين بأموالهم وأولادهم أوردها مفصولة غير موصولة بالعطف على ماقبلها لأنها جواب عن سؤال تقديره : وماذا تكون عاقبة شانئيه ومبغضيه الذين رموه بلقب الأبتر وتربصوا به الدوائر لما يرجون من انقطاع ذكره واضمحلال دعوته ؟ فأجاب (إن شانئك) أى

مبغضك وعائبك بالفقر وفقد العقب (هو الأبتر) من دونك ـ وهذا إخبار آخر بالغيب قد صح وتحقق بعد كر السنين، ولفظ «شانىء» مفرد مضاف فمعناه عام فهو يشمل العاص بن وائل وعقبة بن أبى معيط وأمثالهم ممن نقل عنهم ذلك القول فيه (ص) لفظا أو موافقة لاخوانهم المجرمين فقد بتروا كلهم وهلكوا ، ثم نسوا كأنهم ماوجدوا ، وزال ما كانوا يرجون من بقاء الذكر بالعظمة والرياسة وكثرة الولد والعصبية ، فلم يعد أحد منهم يذكر بخير ، ولا ينسب له عقب .

فأنت ترى أن هذه السورة على إيجازها فى منتهى الفصاحة والبلاغة ، قد جمعت من المعانى الكثيرة الصحيحة ومن أنباء الغيب التى فسرها الزمان ما تعد به معجزة بينة الاعجاز ، وفيها من المعانى واللطائف غير ماذكرنا ، فيراجع تفسيرها فى مفاتح الغيب وغيره من المطولات .

أنبياء العجم الكاذبون

هذا وإنه قد ظهر فى القرنين الماضى والحاضر دجالون من إيران فالهند ادعى بعضهم أنه المهدى و بعضهم أنه نبى يوحى إليه وشارع جديد فإله معبود ، و بعضهم أنه المسيح المنتظر . وقد ألف كل منهم رسائل وكتبا عربية ادعى أنها وحى من الله وأنها معجزة للانام ، على اعترافهم بنبوة محمد (ص) وأن القرآن كتاب الله عز وجل . وقد ضل بكل منهم أناس من الأعاجم الذين لا يفهمون العربية فهما صحيحا، ثم تألفت لهم أحزاب وعصبيات بمساعدة الأجانب المستعمرين الطامعين فى القضاء على الاسلام والمسلمين وصار لهم ثروة يستميلون بها الناس . وقد رددنا عليهم فى المنار ، ورد عليهم غيرنا من العلماء بما ظهر به جهلهم وكذبهم ، وسخافتهم فيما اغتروا به من وحى الشياطين لهم .

وقد كان لأعرضهم دعوى كتاب سماه الكتاب الأقدس حاول فيه محاكاة القرآن فى فواصل آياته وفى أنباء الغيب ـ ولكن أتباعه الأذكياء لم يجدوا بداً من إخفاء هذا الكتاب ، وجمع ما كان تفرق من نسخه المطبوعة فى الأقطار ، وما يدرى إلا الله ماذا يفعلون فيه بعد أن يثقوا بأنهم استردوا سائر نسخه من تصحيح وتنقيح ، وابرازه فى يوم من الأيام فى ثوب جديد وهذا العمل يؤكد

انفراد القرآن بالإعجاز ، وكونه هو حجة الله الباقية إلى آخر الزمان .

(٢٥) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما بين تعالى فى الآية السابقة ما أعده للكافرين الذين قامت عليهم الحجة فجحدوا بها ، أراد أن يبين فى هذه الآية نصيب مقابل هؤلاء ، وهم الذين ظهر لهم الدليل فآمنوا ، ولاح لهم نور الهداية فاهتدوا ، فالكلام متصل بعضه ببعض . ولذلك عطف الجملة على ما قبلها ، لأنها متممة لفائدتها ، إذ لا بد بعد بيان جزاء الكافرين من بيان جزاء المؤمنين ، والإرشاد ترهيب وترغيب ، والخطاب يصح أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، وأن يكون عاما لكل من يسمع الأمر من أهله ، وقالوا : إن الأخير هو المعروف فى لسان العرب والمفهوم عندهم من أمثال هذا الخطاب ، كقوله تعالى (١٥ : ٤٩ نبىء عبادى) وقوله (٣٦ : ١٣ واضرب لهم مثلا ...) فهو فى عمومه جار مجرى الأمثال ، والمخاطب الأول به هو الرسول على كل حال .

قال تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ ولم يذكر بماذا آمنوا لأن متعلق الايمان كان معروفا عند المخاطبين ، وهو الله تعالى وصفاته التى ورد بها النقل الصريح . وأثبتها العقل الصحيح ، والوحى ومن جاء به ، والبعث والجزاء . فهذه هى الأصول التى كان يدعو إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن صدقهم فيها كان مؤمنا ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل (قال الأستاذ) ولا بد فى تحقق الايمان من اليقين ، ولا يقين إلا ببرهان قطعى لا يقبل الشك والارتياب ، ولا بد أن يكون البرهان على الألوهية والنبوة عقليا ، وإن كان الارشاد إليها سمعيا ، ولكن [لا ينحصر البرهان العقلى المؤدى إلى اليقين فى تلك الأدلة التى وضعها المتكلمون وسبقهم إلى كثير منها الفلاسفة الأقدمون ، وقلما تخلص مقدماتها من خلل ، أو

تصح طرقها من علل ، بل قد يبلغ أمى علم اليقين بنظرة صادقة فى ذلك الكون الذى بين يديه ، أو فى نفسه إذا تجلت بغرائبها عليه ؛ وقد رأينا من أولئك الأميين ، مالا يلحقه فى يقينه آلاف من أولئك المصنفين ، الذين أفنوا أوقاتهم فى تنقيح المقدمات و بناء البراهين ، وهم أسوأ حالا من أدنى المقلدين]

(وأقول) كان الأستاذ قد أطلق اشتراط البرهان العقلى هنا كما أطلقه فى مواضع أخرى تقدم بعضها والبحث فيه ثم قيده هنا بما بين به خطأ بعض المتكلمين فى اشتراطهم البراهين المنطقية التى سموها قطعية على ما فيها من خلل وعلل . والحق أن اطمئنان القلب بما جاء به الرسول ﷺ من غير تردد ولا اضطراب كاف فى النجاة فى الآخرة ، وأن أفضل الأدلة ما أرشد إليه القرآن من النظر فى آيات الله تعالى فى الأنفس والآفاق ، فبداهة العقل فيه كافية عند سليم الفطرة الذى لم يبتل بشكوك الفلاسفة وجدليات المتكلمين ولا بتقليد المبطلين . هذا و إن إطلاق الايمان وذكر المؤمنين وما أعد لهم من غير وصله بذكر متعلقاته معهود فى القرآن لأن المتعلق معلوم للسامعين كما قلناه وهو بالنسبة لمن لم يؤمنوا : مادعاهم إليه النبى ﷺ إجمالا من الأصول ، وأما المؤمنون فقد عرفوه مفصلا تفصيلا

ثم وصف المؤمنين الذين يستحقون البشارة بقوله ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وأطلق فى هذا أيضا كما أطلق فى كثير من الآيات لأن العمل الصالح معروف عند الناس بالإجمال ، وذلك كاف فى الترغيب فيه وجعله تابعا للايمان متصلا به ولازما من لوازمه ، و بين الأعمال الصالحة بالتفصيل فى آيات كثيرة كقوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ وكالآيات فى أول سورة (المؤمنون) وآخرها وآخر سورة الفرقان وأوائل سورة المعارج وغير ذلك . كأن الله تعالى يقول : إن العمل الصالح معروف عند الناس لأنه أودع فى نفوسهم مايميزون به بين الخير والشر ، ولكن بعضهم يضل بانحراف يطرأ على نفسه فيخرجها عن الاعتدال الفطرى ثم يضل بضلاله آخرون ، فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هى الميزان عند الضالين فى معرفة الصلاح والفساد ، والخير والشر لا أصل الهداية الفطرية ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على

الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه الشيخان وغيرهما — يعنى أن الإنسان لو ترك ونفسه لاهتدى إلى الحق ما دام بعيداً عن التقاليد والعادات وقد بلغ فساد الطباع وانحراف الفطرة فى بعض الأمم مبلغاً كادوا يخرجون به عن طور البشر ، كمتنطعى البراهمة إذ ذهبوا إلى أن كمال الأرواح وسعادتها إنما هو فى تعذيب الأبدان وحرمانها من لذاتها . ولذلك جدوا فى البعد عن اللذات الجسمانية بأنواعها ، فمالوا عن سنن الاعتدال ، ومنوا أبدانهم وعقولهم بالفساد والاعتلال ، وكبعض كفرة العرب وطائفة من البراهمة إذ زعموا أنه لا خير إلا فى اللذة البدنية ولا شر إلا فى الألم الجسدانى ، فالسعادة والكمال عندهم فى البعد عن الآلام البدنية ، والتمتع بالشهوات الحسية ، فمثل هؤلاء المرضى النفوس المحرومين من الكمال الروحى والعقلى كمثل من غلبت عليه الصفراء فصار يذوق الحلو مراً ، وإن من المرضى من يشتهى فى طور النقه ما لا يشتهى فى حال الصحة والاعتدال وكذلك الحبالى فى مدة الوحم

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فالخير والشر والصلاح والفساد والحق والباطل والفضيلة والرذيلة كل ذلك معروف فى الجملة حتى عند الأشرار ولذلك يدعون الخير والصلاح وينكرون ماهم عليه فإطلاق القول بذكر الأعمال الصالحات ليس مبهما عندهم ، ولا خطاباً بغير مفهوم ، وإنما يحتاج معتل الفطرة إلى التفصيل فى ذلك ، وذكر الإمارات والدلائل التى تميز بين الصالحين والفاسقين ، والمحقين والمبطلين ، ولهذا نزلت آيات البيان والتفصيل التى أشرنا إلى بعضها آنفا ، وبها ينقطع تلبيس الأغبياء ، واعتذار الجهلاء ، وحق القول بأن الذى يستحق هذه البشارة هو من جمع بين الإيمان والعمل الصالح الذى ترشد إليه الفطرة السليمة ، ويهدى إلى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة

بشرهم ﴿ أن لهم جنات ﴾ ورد لفظ الجنة والجنات كثيراً فى مقابلة النار ، والجنة فى اللغة البستان والجنات جمعها ، وليس المراد بهما مفهومهما اللغوى فقط وإنما هما دار الخلود فى النشأة الآخرة ، فالجنة دار الأبرار والمتقين ، والنار دار الفجار والفاسقين ، فنؤمن بهما بالغيب ولا نبحث فى حقيقة أمرها ، ولا نزيد

على النصوص القطعية فيهما شيئا لأن عالم الغيب لا يجرى فيه القياس

ومما وصف الله تعالى به الجنات قوله ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ والمناسبة ظاهرة فان البساتين حياتها بالأنهار . (قال شيخنا) وهل سميت دار النعيم جنة وجنات على سبيل التشبيه وذكرت الانهار ترشيحا له أم سميت بذلك لأنها مشتملة على الجنات تسمية للكل باسم البعض ؟ الله أعلم بمراده. وأقول: لو لم يرد فى هذا المقام إلا ذكر الجنة أو الجنات لوجب التفويض وامتنع الترجيح ، أما وقد ذكر فى آيات أخرى أنواع من الشجر المثمر وذكر الثمرات . فقد تعين ترجيح الشق الثانى ، وإلا كان هربا من تشبيه أسرى الألفاظ عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه ، إلى تأويلات الباطنية المعطلين لدلالتها من كل وجه .

ألم تر إلى ربك كيف ذكر من شأن أهل تلك الجنات فيها أنهم ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا﴾ كلمة «من» الأولى للابتداء والثانية للتبعيض، أى كلما رزقوا من الجنات رزقا من بعض ثمارها ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ أى هذا الذى وعدنا به فى الدنيا جزاء على الإيمان والعمل الصالح، فهو كقوله تعالى (٣٩: ٧٤ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وذهب الجلال وغيره إلى اختيار أن معناه تشبيه ثمرات الآخرة بثمرات الدنيا لأنها مثلها فى اللون والشكل والرائحة وإن كانت تفضلها فى الطعم واللذة فقوله تعالى ﴿وأتوا به متشابها﴾ بيان لسبب القول على هذا التفسير ، أى أتوا بما ذكر من الرزق فى الدنيا والآخرة متشابها بعضه يشبه بعضاً ، ومحصله : أنهم عند ما يؤتون برزق الجنة يبادرون إلى الحكم بأنه غير ماوعدوا به وأنه عين رزق الدنيا ، لأن التشابه يكون سبب الاشتباه عليهم ، ولكنهم يعرفون الفرق بعد ذلك بالطعم لأن فرقا عظيما بين لذة رزق الدنيا ورزق الجنة، والتعبير بكلما ينافى هذا التفسير لأن الاشتباه إنما يكون فى المرة الأولى، ثم يعرفون التفاوت معرفة تذهب به وتمنع من الحكم بأن هذا عين ذاك أما بالنسبة لأفراد النوع الواحد من الثمار فبالاختبار ، وأما بالنسبة لما بعد النوع الأول من الأنواع فبالقياس عليه . وماذهب إليه الجلال مناف للبلاغة فى المعنى أيضا لأن

تشابه رزق الدنيا والآخرة فى الألوان والروائح واختلافه فى الطعم فقط ليس فيه كبير تشويق لأن اللذة فى التنقل ، ثم إن أطوار الجنة مخالفة لأطوار الدنيا ، والتشويق للناس إنما يكون بحسب ما عهدوا واعتادوا وألفوا . وإننا نعلم أن الأكل فى الدنيا لأجل حفظ البنية من الانحلال ، ولا انحلال فى دار الخلد والبقاء ؛ فلا بد أن يكون الأكل والشرب هناك على ماورد لحكمة أخرى ، أو هو لتحصيل لذة لا نعرفها لأنها من أحوال عالم الغيب ، وإنما نؤمن بما ورد ونفوض أمر حقيقته وحكمته إلى الله تعالى . ومما ورد أنه لذة أعلى من لذات الدنيا

أقول : بل قال ابن عباس رضى الله عنهما «ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسامى» وفى حديث الصحيحين المرفوع عن الله عز وجل «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» وهو تفسير قوله تعالى (٣٢ : ١٧ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)

وذهب بعض المفسرين إلى ما قلناه أولا من أن ذلك الرزق هو عين ما وعدوا به جزاء على أعمالهم ، فكلما رزقوا ثمرة منه يذكرون الوعد الإلهى شكرا لله على توفيقهم لذلك العمل الذى له أعد هذا الجزاء ، كما تفيده آية (وقالوا الحمد لله) التى ذكرناها آنفا ، فهو من قبيل ارتباط الموعود به بالموعود عليه كأن الأعمال عين الجزاء (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقوله تعالى بعد ذلك (وأتوا به متشابهاً) تأكيد وتقرير لما تضمنه قولهم وهذا هو الراجح الذى اختاره شيخنا ، وهنالك قول ثالث ، وهو أن رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها فى صورته ، ويختلف فى طعمه ولذته ، وهو المتبادر من اللفظ

ثم قال ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى مبالغ فى تطهيرهن وتزكيتهن فليس فيهن ما يعاب من خبث جسدى حتى ما هو فى الدنيا طبيعى كالحيض والنفاس ، ولا نفسى كالمكر والكيد وسائر مساوىء الأخلاق ، لأنهن طهرن كل نوع من أنواع التطهير . ونساء الجنات من المؤمنات الصالحات ، وهن المعروفات فى القرآن بالحور العين ، وصحبة الأزواج فى الآخرة كسائر شؤونها الغيبية نؤمن بما أخبر به الله تعالى منها لا نزيد فيه ولا ننقص منه ، ولا نبحث فى كيفيته ، وإنما نعرف بالاجمال أن أطوار الحياة

الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا كما تقدم ، ونحن نعلم أن الحكمة فى لذة الأزواج بالمصاحبة الزوجية المخصوصة هى التناسل وإنماء النوع ، ولم يرد أن فى الآخرة تناسلا ، فلابد أن تكون لذة المصاحبة الزوجية هناك أعلى ، وحكمتها أسمى وإنما نؤمن بها ولا نبحث فى حقيقتها كما تقدم فى بحث رزق الجنة

(أقول) هذا ملخص ماقاله الأستاذ على طريقته المثلى فى الإيمان بالغيب من غير قياس لعالمه على عالم الشهادة وهو لا ينافى كون الإنسان فى الآخرة يكون إنسانا لاملكا ، وإنما تكون لذاته الإنسانية أكمل مما كان فى الدنيا وأسلم من المنغصات ومنها الطعام والشراب والمباشرة الزوجية فتنبه ، وثبت فى الحديث الصحيح «أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفَس » رواه مسلم عن جابر بن عبد الله وفى معناه أحاديث أخرى. وفى الصحيح أيضا أن لكل رجل فى الجنة زوجين اثنين ـ قال العلماء إحداهن من نساء الدنيا والأخرى من نساء الجنة وما ورد من كثرتهن لا يصح منه شىء

ثم قال : ﴿وهم فيها خالدون﴾ الخلود فى اللغة طول المكث ومن كلامهم خالد فى السجن كما فى الأساس ، وفى الشرع الدوام الأبدى أى لا يخرجون منها ولا هى تفنى بهم فيزولوا بزوالها ، وإنما هى حياة أبدية لا نهاية لها ، وفقنا الله لما يجعلنا من خيار أهلها من العلوم الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، التى ترتقى بها الأرواح ، وتستعد لذلك الفلاح

---

(٢٦) إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا ، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

الآيات متصلة بماقبلها لم يختلف النظم ولم يخرج الكلام عن الموضوع الأصلى

وهو الكتاب الذى لاريب فيه ، وحال الناس فى الإيمان به وعدم الإيمان ، ولا فصل فى صحة هذا الوصل بين أن يكون الكلام رداً على اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت كما يروى عن ابن عباس ، أورداً على المنافقين الذين أنكروا الأمثال فى الآيات السابقة بمستوقد النار والصيب من السماء زاعمين أنه لايليق بالله ضرب الأمثال ، أو يكون المراد بالمثل القدوة تقريراً لنبوة النبى ﷺ . أما على الأول فيقال: إنه إنما نص هنا على نفى الاستحياء من ضرب أى مثل ، ولم يذكر ذلك هناك عند تمثيل الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله بالذباب والعنكبوت لأن المقام هنا مقام ذكر الاعتراض الموجه على القرآن ، فيكون هذا مقام رد شبه المكابرين عنه ، وأما على الثانى والثالث فهو أظهر . على أنه لاحاجة فى فهم الآية إلى ماقالوه فى سببها ، فان لم تكن رداً لما قيل فهى رد لما قد يقال ، أو يجول فى خواطر أهل المكابرة والجدال ، والمجاحدة والمحال

والاستحياء ــ قال صاحب الكشاف : إنه من الحياء وهو انكسار وتغير فى النفس يلم بها إذا نسب إليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه ، وفى الحالة الثانية يكون مانعاً من الفعل الذى يعرض ، يقال: فلان يستحى أن يفعل كذا ، أى إن نفسه تنكسر فتنقبض عن فعله ، و يقال إنه استحيا من عمل كذا ، أى إن نفسه انفعلت وتألمت عند ماعرض عليه عمله فرآه شيناً أو نقصاً . و يقال حيى بهذا المعنى ، كأنه أصيب فى حياته ، كما يقال : نسى إذا أصيب فى نساه — وهو عرق يسمونه عرق النسا بفتح النون — وحشى إذا أصيب فى حشاه . وقالوا : إن الحياء ضعف فى الحيوة بما يصيب موضعها وهو النفس ، فمعنى عدم استحياء الله تعالى أنه لايعرض له ذلك الانكسار والانفعال ، ولا يعتريه ذلك التأثر والضعف فيمتنع من ضرب المثل ، بل هو يضرب من الأمثال الهادية والمطابقة لحال الممثل به ما يعلم أنه يجلى الحقائق و يؤثر فى القلوب . ولكن صاحب الكشاف وغيره أرادوا أن يجعلوا الآية دليلا على اتصاف الله تعالى بالحياء ، فقالوا إن النفى خاص ومثله إذا ورد على شىء يدل على أن ذلك الشىء قابل للاتصاف بالمنفى ، فمن لاقدرة له على شىء لاينفى عنه ، لاتقول : إن عينى لاتسمع وأذنى

لاترى ، وقالوا : إن معنى نفي الاستحياء هو أن الله تعالى لايرى من النقص أن يضرب مثلا بعوضة فما دونها ، لأنه خالق كل شيء ، وقد ورد في الحديث نسبة الحياء إلى الله تعالى ، والنافون له يؤولون ماورد بأثره وغايته

أقول : هذا مؤدى ماقاله الاستاذ في الدرس ، والحديث في وصفه تعالى بالحياء مروى عن يعلى بن أمية وعن سلمان الفارسي أخرجهما أحمد وأبو داود والأول النسائي والثاني الترمذي وابن ماجه والحاكم وحسنوهما . والتحقيق : أن الحياء انفعال النفس وتألمها من النقص والقبيح بالغريزة الفضلى غريزة حب الكمال فهو كمال لها خلافا لأولى الوقاحة الذين يعدونه ضعفا ونقصا . وإنما النقص الافراط في هذه الصفة بحيث تضعف عن الاقدام على الشيء الحسن النافع اتقاء الذم من لايعرف حسنه أو لايعترف به

والمثل في اللغة الشبه والشبيه وضربه عبارة عن إيقاعه و بيانه وهو في الكلام أن يذكر لحال من الأحوال ماينا سبها و يشابهها و يظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا ، ولما كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية ، واختير له لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، و ينتهي إلى أعماق نفسه ، ولكن في الكلام قلباً حيث جعل المثل هو المضروب وإنما هو مضروب به . هذا الذي قاله الأستاذ وهو أبلغ في المعنى من جعل الضرب للمثل كضرب القبة والخيمة أو ضرب النقود .

وإذا كان الغرض التأثير فالبلاغة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها ، واعتادت النفوس النفور منها ، ومثل هذا لايخفى على بليغ ، ولا على عاقل أيضا ، ولذلك قال بعضهم : إن المنكرين لم يروا في القرآن شيئا يعاب ، فتمحلوا بقولهم هذا :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً و بغضاً إنه لدميم

وجروا في ذلك على عادة المتحذلقين المتكيسين[1] إذ يتحامون ذكر الألفاظ التي مدلولاتها حقيرة في العرف ، و إذا اضطروا لذكرها شفعوها بما يشفع لها كقولهم «أجلكم الله» و إذا كان شأن المثل ماذكرنا وكان ذكر الأشياء التي ينفرد منها من

(١) أي المتكلفين للحذق والكيس وهو الظرف ، يقال تكيس و تكايس

ذكرنا فى الأمثال التى يراد منها التنفير ، هو الأبلغ فى التأثير الذى هو روح البلاغة وسرها، كان قوله تعالى ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ مبينا لشأن من شؤون كماله عز وجل فى كتابه العزيز، وقاضياً على الذين يتحامون ذكر البعوضة وأمثالها بنقص العقل ، وخسران ميزان الفضل ، والمراد بما فوق البعوضة ماعلاها وفاقها فى مرتبة الصغر ومنها جِنة النسم (الميكروبات) التى لاترى إلا بالنظارات المكبرة (ميكرسكوب) وكانوا يضربون المثل بمخ النملة ، وفى كلام بلغائهم : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشة ، وأعز من مخ البعوضة . والمعنى أن الله تعالى لايترك ضرب مثل مّا من الأمثال حياء منه سواء كان بعوضة أو أصغر منها حجما ، وأقل عند الناس شأنا .

ثم ذكر تعالى أن الناس فى ذلك فريقان ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ لأنه ليس نقصا فى حد ذاته ، وقد جاء فى كلامه تعالى فهو ليس نقصاً فى جانبه ، وإنما هو حق لأنه مبين للحق ومقرر له ، وسائق إلى الأخذ به ، بما له من التأثير فى النفس ، وذلك أن المعانى الكلية تعرض للذهن مجملة مبهمة فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها ، والمثل هو الذى يفصل إجمالها ، ويوضح إبهامها ، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ، ومشكاة الهداية ونبراسها ، ورحم الله تعالى عبد القاهر الجرجانى إمام البلاغة والواضع الأول لعلمى المعانى والبيان ، ومؤلف أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لتحقيق اعجاز القرآن ، حيث قال فى كتابه الأول :

« واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .

« فان كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف وأسرع للألف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له

بغرر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر،

« وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ،

« وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .

« وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد .

« وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفى الغليل » الخ

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيجادلون فى الحق بعد ماتبين ، ويمارون بالبرهان وقد تعين ؛ فيخرجون من الموضوع ؛ ويعرضون عن الحجة ؛ ويتتبعون الكلم المفردة ؛ حتى إذا ظفروا بكلمة لا يستعذبها ذوق المتطرفين ، ولا تدور على ألسنة المتكلفين ، أظهروا العجب منها ، وطفقوا يتساءلون عنها ﴿ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ ولو أنصفوا لعرفوا ، ولكنهم ارتابوا فى الحق فانصرفوا (١٨ : ٥٤ وكان الانسان أكثر شيئا جدلا) يذهب به جدله إلى قياس رب العالمين ، بمتنطعى المتأدبين . وينكر على ربه المثل والقياس ، ولا ينكره على نفسه وعلى الناس .

قال تعالى فى جوابهم ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيرا ﴾ أى يضل بالمثل أو بالكلام المضروب فيه المثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الإنكار والريب، ويهدى به الذين يقدرون الأشياء بغاياتها ، ويحكمون عليها بحسب فائدتها . وأنفع الكلام ماجلى الحقائق ، وهدى إلى أقصد الطرائق ، وساق النفوس بقوة التأثير ، إلى حسن المصير (٣٠ : ٤٣ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون) فهؤلاء العالمون هم المؤمنون الذين يعلمون أنه الحق من ربهم وهم المهديون به، وأما الذين قالوا (ماذا أراد الله) الخ، أى الذين ينكرون المثل لكفرهم فهم الضالون به، وقد بين شأنهم بقوله ﴿ ومايضل به إلا الفاسقين ﴾ فعرفت علة ضلالهم وهى الفسوق أى الخروج عن هداية الله تعالى فى سننه فى خلقه التى هداهم إليها بالعقل والمشاعر، وبكتابه بالنسبة

إلى الذين أوتوه : وليس المراد بالفاسقين ما هو معروف فى الاصطلاحات الشرعية وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصى ، فانه لا يصح هنا ، وتلك الاصطلاحات حادثة بعد التنزيل ، وقد كان التعبير بيضل مشعراً بأن المثل هو منشأ الاضلال والهداية بذاته، فنفى ذلك بهذه الجملة ليبين أن منشأ الضلال راسخ فيهم وفى أعمالهم وأحوالهم

ثم إن الآية تشعر بأن المهتدين فى الكثرة كالضالين مع أن هؤلاء أكثر وكأن الحكمة فى التسوية إفادة أن المؤمنين المهتدين على قلتهم أجل فائدة وأكثر نفعاً وأعظم آثاراً من أولئك الكفار الفاسقين الضالين على كثرتهم ، لأن المؤمنين كما قيل * قليل إذا عدوا كثير إذا شدُّوا * ولذلك جعل الواحد فى القتال بعشرة فى حال القوة والعزيمة ، وباثنين فى حال الضعف ، قيل هو ضعف البدن ، وقيل: بل ضعف البصيرة ، ولقد كان من أثر ذلك العدد القليل من المؤمنين الأولين أن سادوا جميع العالمين

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد حتى عدّ ألف بواحد

إن الكرام كثير فى البلاد وإن قلوا كما غيرهم قلّ وإن كثروا

وأما وجه تقديم الاضلال على الهداية فلأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم فى الوجود ، وانما جاءت الآيات المبينة بالأمثال لاخراجهم مما كانوا فيه من ظلمات الباطل إلى نور الحق ، فزادت الفاسقين رجساً على رجسهم ، لأن نور الفطرة قد انطفأ من أنفسهم ، بتماديهم فى نقض العهد ، وقطع الوصل والافساد فى الارض ، كما فى الآية التالية لهذه . وقد علم بما ذكرنا أن فى الآية لفاً ونشراً غير مرتب فان الضلال ذكر أولا ، وهو للفريق الثانى ، والهدى ذكرنا آخرا ، وهو للفريق الاول

وهذا وإن ما تقدم تقريره فى ضرب المثل وضلال قوم به وهداية آخرين ، هو مبنى على أن المراد به المثل الكلامى كما عليه الجمهور ، أخذاً مما ورد فى سبب النزول ، وتقدم عن بعضهم أن المراد بالمثل فى الآية القدوة الذى يؤتم به و يهتدى بهديه ؛ وهذا المعنى للمثل معروف ، وقد نطق به القرآن فى قوله تعالى (٤٣ : ٥٦ فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) وقوله (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) وقال فيه (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل) فهذه الآية تهدينا

إلى فهم قوله تعالى (إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما) أن المراد به دحض شبهة الذين أنكروا نبوة النبي ﷺ وصلاحيته لأن يكون مثلا يقتدى به ، وهى أنه بشر يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق ، وهم المشركون ، والذين أنكروا أن يكون من العرب وهم اليهود .

وقد حكى هذه الشبهة عنهم فى آيات كثيرة ، كأنهم يقولون : إذا كان بشراً مثلنا فكيف يدعى أنه رسول من الله يجب اتباعه ، ومثل كامل ضرب للاقتداء به؟ (أأنزل الذكر عليه من بيننا) ولأى شيء لم يرسل الله ملكا ؟ ومنهم من قال (لولا أنزلنا عليه ملك فيكون معه نذيراً) وقد أقام الله الحجة على هؤلاء بقوله (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) الخ ، وأتبعها بوعيد من أعرض عن الايمان بعد قيام البرهان وهم الكافرون ، وبشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المؤمنون ، وبعد تقرير الحجة وهى تحديهم بسورة من مثله - كرّ على شبهتهم بالنقض وهى استبعاد أن يكون بشر رسولا من عنده ، ومحصله : أن الله تعالى خالق كل شيء ، فيجعل ماشاء من المنفعة والفائدة فيما شاء ومن شاء من خلقه ويضرب به مثلا للناس يهتدون به ، وليس هذا نقصاً فى جانب الالوهية فيستحى من ضربها مثلا، بل من الكمال والفضل أن يجعل فى المخلوقات الضعيفة والمحتقرة فى العرف كالبعوض فوائد ومنافع ، فكيف يستنكر أن يجعل من الانسان الكامل الذى كرمه وخلقه فى أحسن تقويم مثلا وإماما يقتدى به قومه ويهتدون بهديه ؟ وبقية الكلام فى الآية على هذا الوجه فى معنى المثل هو نحو ماتقدم تقريره أوظاهر منه أتم الظهور [فان الذين آمنوا يعلمون أن هذا الامام الذى نصبه للناس مهما يكن ضعيفا قبل أن يقويه ببرهانه هو الحق الذى ثبت تأييده من ربهم ، والكافرون يقولون لمَ لم يبعث إلى الناس من هو خير منه فى نظرهم ؟ وماذا يريد بأن يجعل لهم قدوة فى أضعفهم وأهونهم ، وهكذا تقول فى قوله : يضل به كثيراً] الخ

وقد عهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوانات والاستفادة من خصالها وأعمالها ، ويحكى عن بعض كبار الصوفية أنه قال : تعلمت المراقبة من القط ، وعن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتابا نحواً من ثلاثين مرة فلم يفهمه، فيئس منه وتركه

فرأى خنفسة تتسلق جداراً وتقع فعدَّ عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تيأس حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه والانتهاء إلى حيث أرادت ، فقال : لن أرضى أن تكون هذه الخنفساء أثبت منى وأقوى عزيمة ، فرجع إلى الكتاب فقرأه حتى فهمه . ويقال إن (تيمور لنك) كانت تحدثه نفسه بالملك من أول نشأته ، على ما كان من فقره ومهانته . فسرق مرة غنما (وكان لصاً) ففطن له الراعى فرماه بسهمين أصابا كتفه ورجله فعطلاهما ، فآوى إلى خربة وجعل يفكر فى مهانته ويوبخ نفسه على طمعها فى الملك ، ولكنه رأى نملة تحمل تبنة وتصعد إلى السقف وعند ما تبلغه تقع ثم تعود وظلت على ذلك عامة الليل حتى نجحت فى الصباح ، فقال فى نفسه والله لا أرضى بأن أكون أضعف عزيمة وأقل ثباتا من هذه النملة ، وأصرّ على عزمه حتى صار ملكا وكان من أمره ما كان

---

(٢٧) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ

وصف الضالين بالفسوق ثم بين من حال فسوقهم نقض العهد الموثق ، وقطع مايجب أن يوصل ، والإفساد فى الأرض . وسجل بذلك عليهم الخسران وحصرهم فى مضيقه ، بحيث لا يسلم منه إلا من رجع عن فسوقه ، (أقول) فعلم بهذا أن المراد بإسناد الاضلال إليه تعالى فى الآية السابقة بيان سنته تعالى فى أصحاب هذه الأعمال من الفساق وهو أنهم يضلون حتى بما هو سبب من أشد أسباب الهداية تأثيراً وهو المثل المذكور بسبب رسوخهم فى الفسق ونقضهم للعهد الخ . وليس المعنى أنه تعالى خلق الضلال فيهم خلقا وأجبرهم عليه إجباراً

العهد هنا لفظ مجمل لم يتقدم الآيات مايشعر به ، ولم يتل فيما تلاها ما يبينه ، وكذلك ما أمر الله به أن يوصل ، ليس فى سابق الآيات ولا فى لاحقها ما يفسره ويبين المراد منه ، فما المعنى الذى يتبادر منهما إلى أفهام المخاطبين ، ويصح أن يؤخذ من حال أولئك الفاسقين ، الذين أنكروا على الله أن يضرب مثلا يقتدى به

من البشر أو من العرب ، أو الذين أنكروا الوحي لمجيء الأمثال القولية فيه بما يعد حقيراً من المخلوقات في عرف المتكبرين والمتطرفين منهم ؟ دل ذكر العهد والسكوت عما يفسره ، وإطلاق ما أمر الله به أن يوصل بدون بيان ما يفصله ، على أن الله تعالى ما وصفهم إلا بما هم متصفون به ، ولا حاجة إلى بيان المجمل بالقول إذا كان الوجود قد تكفل ببيانه ، والواقع قد فسره بلسانه ، ويرشد إلى فهم العهد الإلهي هنا ماقلناه في معنى الفسوق فإن الفاسقين هم ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ فإذا كان معنى الفسوق الخروج عن سنن الله تعالى في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر ، وعن هداية الدين بالنسبة إلى الذين أوتوه خاصة ، فعهد الله تعالى هو ما أخذهم به بمنحهم ما يفهمون به هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار ، والتجربة والاختبار . أو العقل والحواس المرشدة إليها ، وهي عامة ، والحجة بها قائمة على كل من وهب نعمة العقل و بلغ سن الرشد سليم الحواس ، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالا صحيحاً حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من حكمها ، كما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وكما قال فيهم أيضاً (صم بكم عمى فهم لا يعقلون)

هذا هو القسم الأول من العهد الإلهي وهو العام الشامل ، والأساس للقسم الثاني المكمل الذي هو الدين ، فالعهد فطرى خلقى ، وديني شرعى ، فالمشركون نقضوا الأول ، وأهل الكتاب الذين لم يقوموا بحقه نقضوا الأول والثاني جميعا ، وأعني بالناقضين من أنكر المثل من الفريقين . والميثاق اسم لما يوثق به الشيء ويكون محكما يعسر نقضه ، والله تعالى قد وثق العهد الفطرى بجعل العقول بعد الرشد قابلة لادراك السنن الالهية في الخلق ، ووثق العهد الديني بما أيد به الأنبياء من الآيات البينات ، والأحكام المحكمات ، وقد وثق العهد الأول بالعهد الثاني أيضاً ، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سنته في تقويم البنية البشرية وإنمائها ، وإبلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الانساني الممكن لها

وأما قوله ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ ففيه من الاجمال نحو ما في نقض العهد ،

وليس هو بمعناه على طريق التأكيد . وإنما هو وصف مستقل جاء متمما لما سبقه. وهذا الأمر نوعان : أمر تكوين وهو ما عليه الخلق من النظام والسنن المحكمة، وقد سمى الله تعالى التكوين أمراً بما عبر عنه بقوله (كن) وأمر تشريع وهو ما أوحاه إلى أنبيائه وأمر الناس بالأخذ به ، ومن النوع الأول ترتيب النتائج على المقدمات . ووصل الأدلة بالمدلولات ، وإفضاء الأسباب إلى المسببات ، ومعرفة المنافع والمضار بالغايات . فمن أنكر نبوة النبي بعد ماقام الدليل على صدقه . أو أنكر سلطان الله على عباده بعد ما شهدت له بها آثاره فى خلقه . فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى التكوين الفطرى ــ وكذلك من أنكر شيئاً مما علم أنه جاء به الرسول . لأنه إن كان من الأصول الاعتقادية ففيه القطع بين الدليل والمدلول . وإن كان من الأحكام العملية ففيه القطع بين المبادىء والغايات . لأن كل ما أمر الدين به قطعاً فهو نافع ومنفعته تثبتها التجربة والدليل . وكل مانهى عنه حتما فلابد أن تكون عاقبته مضرة . فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل بغايته . أما بالنسبة إلى الايمان بالله تعالى و بالنبوة فيقطعون ما أمر به بمقتضى التكوين والنظام الفطرى . وأما بالنسبة إلى الأحكام فيقطعون ما أمر به فى كتبه أمر تشريع وتكليف . وصلة الأرحام تدخل فى كل من القسمين

إذا كان مشركو العرب قد نقضوا عهد الفطرة وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل بمقتضاها بتكذيبهم النبي ﷺ و إيذائه وهو ذو رحم بهم . فالمكذبون من أهل الكتابين قد قطعوا صلات الأمرين كما نقضوا العهدين : فإن الله تعالى قد بشرهم فى الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبي ﷺ لأنه ذكر للمبشر به صفات وأعمالا وأحوالا تنطبق عليه أتم الانطباق فحرفوا وأولوا واجتهدوا فى صرفها عنه وهم متعمدون (و إن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ومنهم من يحمل تلك الصفات والعلامات على غيره . ومنهم ينتظر مبعوثا آخر يجىء الزمان به

التعبير بالقطع هنا أبلغ من التعبير بالنقض ولذلك جاء بعده متمما له . كأن عهد الله تعالى إلى الناس حبل محكم الطاقات موثق الفتل . وكأن هذا الحبل قد وصل بحكمة أمر التكوين وحكم أمر التشريع بين جمع المنافع التى تنفع الناس .

فلم يكتف أولئك الفاسقون المنكرون المثل الذى ضربه الله لعباده بنقض حبل العهد الالهى . وحل طاقاته ونكث فتله حتى قطعوه قطعا . وأفسدوا بذلك نظام الفطرة ونظام الهداية الدينية أصلا وفرعا . ولذلك عقب هذا الوصف بقوله ﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ وأى إفساد أكبر من إفساد من أهمل هداية العقل وهداية الدين . وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج . وبين المطالب والأدلة والبراهين . من كان هذا شأنه فهو فاسد فى نفسه ووجوده فى الأرض مفسد لأهلها. لأن شره يتعدى كالأجرب يعدى السليم . ولذلك ورد فى السنة النهى عن قرناء السوء . والمشاهدة والتجربة مؤيدة للسنة ومصدقة لها . خصوصاً إذا قعدوا فى سبيل الله يصدون عنها ويبغونها عوجا . فإن إفسادهم يكون أشد انتشاراً وأشمل خساراً

ولما كان إفساد هؤلاء عاما للعقائد والأخلاق والأعمال لأن علته فقد الهدايتين هداية الفطرة وهداية الدين — سجل عليهم الخسران وحصره فيهم بقوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة أما خسرانهم فى الدنيا فهو ظاهر لأرباب البصائر الصافية . والفضائل السامية . ولكنه يخفى على الأكثرين . بالنسبة إلى الأغنياء من أولئك الخاسرين . يرونهم متمتعين بملذات الدنيا وشهواتها . فيحسبون أنهم مغبوطون سعداء بها . فيكون هذا الحسبان من آلات الافساد . ولو سبروا أغوارهم . وبلوا أخبارهم . لأدركوا أن ما هم فيه من ظلمة النفس وضيق العطن وفساد الأخلاق ينغص عليهم أكثر لذاتهم ويقذف بهم إلى الافراط الذى يولد الأمراض الجسدية والنفسية . ويثير فى نفوسهم كوامن الوساوس . ويجعل عقولهم كالكرة تتقاذفها صوالجة الأوهام . وأن حب الراحة يوقعهم فى تعب لانهاية له . وهو تعب البطالة والكسل أو العمل الاضطرارى ومن لا يذوق لذة العمل الاختيارى لا يذوق لذة الراحة الحقيقية . لأن الله تعالى لم يضع الراحة فى غير العمل . وإنما سعادة الدنيا بصحة الجسم والعقل وأدب النفس الذى يرشد إليه الدين . فمن فقد هذه الأشياء فقد خسر الدنيا والآخرة و (ذلك هو الخسران المبين)

(٢٨) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٩) هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

الكلام متصل بما قبله ومرتبط به ارتباطا محكما والخطاب للفاسقين الذين يضلون بالمثل فإنه وصفهم أولا بنقض العهد الالهى الموثق ، وقطع ماأمر به سبحانه أن يوصل ، سواء كان الأمر أمر تكوين وهو السنن الكونية ، أو أمر تشريع وهو الديانة السماوية ، ثم بعد هذا البيان جاء بهذا الاستفهام التعجبى عن صفة كفرهم مقترنا بالبرهان الناصع على أنه لا وجه له ، ولا شبهة تسوغ الاقامة عليه ، فقال ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أى بأى صفة من صفات الكفر بالله تعالى تأخذون ، وعلى أية شبهة فيه تعتمدون ، وحالكم فى موتتيكم وحياتكم تأبى عليكم ذلك ولا تدع لكم عذراً فيه؟ وبين هذه الحال بقوله ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ أى والحال انكم كنتم قبل هذه النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتا منبثة اجزاؤكم فى الأرض، بعضها فى طبقتها الجامدة و بعضها فى طبقتها السائلة و بعضها فى طبقتها الغازية (الهوائية) لافرق فى ذلك بينها و بين أجزاء سائر الحيوان والنبات ، فخلقكم أطوارا من سلالة من طين ، فكنتم بالطور الأخير فى أحسن تقويم ، وفضلكم على غيركم بما وهبكم من العقل والادراك ، وما سخر لكم من الكائنات ﴿ ثم يميتكم ﴾ بقبض الروح الحى الذى به نظام حياتكم هذه فتنحل أبدانكم بمفارقته إياها وتعود إلى أصلها الميت وتنبث فى طبقات الأرض وتدغم فى عوالمها ، حتى ينعدم هذا الوجود الخاص بها ﴿ ثم يحييكم ﴾ حياة ثانية كما أحياكم بعد الموتة الأولى بلا فرق الاما تكون به الحياة الثانية أرقى فى مرتبة الوجود وأكمل لمن يزكون أنفسهم فى تلك ، وأدنى منها وأسفل فيمن يدسونها و يفسدون فطرتها (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ فينبئكم بما عملتم ، ويحاسبكم على ما قدمتم ، ويجازيكم به
وأقول ان تراخى الارجاع إلى الله تعالى عن حياة البعث عبارة عن تأخير الحساب
والجزاء وطول زمن الوقوف والانتظار كما ورد فى حديث الشفاعة العظمى وغيره .
فاذا كان هذا شأنكم معه وهذا فضله عليكم ،وهذا مبدأكم وذلك منتهاكم، فكيف
تكفرون به وتنكرون عليه أن يضرب لكم مثلا تهتدون به ، ويبعث فيكم رسولا
منكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ،ويعلمكم مالم تكونوا
تعلمون من قيام مصالحكم فى حياتكم الأولى ، وسعادتكم فى حياتكم الأخرى ؟

لا يقال كيف يحتج عليهم بالحياة الثانية قبل الإيمان بالوحى الذى هو دليلها
ومثبتها ؟ لأنه احتجاج على مجموع الناس بما عليه الأكثرون منهم ، ولا عبرة
بالشذاذ المنكرين للبعث فى هذا المقام لأن الاحتجاج بالحياة الأولى بعد الموتة
الأولى كاف للتعجب من كفرهم بالله وانكارهم عليه أن يضرب مثلا ما لهداية
الناس زعما أن هذا لا يليق بعظمته، فان من أوجد هذا الانسان الكريم، وجعله
فى أحسن تقويم ، وركب صورته من تلك الذرات الصغيرة، والنطفة المهينة الحقيرة،
والعلقة الدموية أو الدودية، والمضغة اللحمية ، (لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة
فما فوقها) والكلام مسوق لابطال شبه منكرى المثل والقرآن الذى جاء به ، لا
لإبطال شبه منكرى البعث بلوامع شهبه، ثم إن تمثيل احدى الحياتين بعد الموت بالأخرى
داحض لحجة من يزعم عدم إمكان الثانية ، لأن ماجاز فى أحد المثلين جاز فى الآخر ،
والكلام فى اثبات الوحى الالهى للنبى المرسل من البشر والإيمان بالبعث تابع له

ثم بعد بيان بعض آياته فى أنفسهم بذكر المبدأ والمنتهى ذكرهم بآياته فى
الآفاق فقال ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ﴾ فالكلام على اتصاله وترتيبه
وانتظام جواهره فى سلك أسلوبه ،فليس فى قوله كيف تكفرون الخ انتقال لاثبات
البعث كما قال بعض المفسرين ، غفلة عن هذا الاتصال المتين ، ولعمرى أن وجوه
الاتصال بين الآيات ، وما فيهما من دقائق المناسبات ، لهى ضرب من ضروب
البلاغة ، وفن من فنون الإعجاز ، إذا أمكن للبشر الاشراف عليه ، فلا يمكنهم
البلوغ اليه ، والكلام فى البعث فى القرآن كثير جداً فلا حاجة إلى الاسراع إليه هنا

يصور لنا قوله تعالى (خلق لكم) قدرته الكاملة ، ونعمه الشاملة ، وأى قدرة أكبر من قدرة الخالق ؟ وأى نعمة أكمل من جعل كل مافى الأرض مهيئاً لنا ، ومعداً لمنافعنا ؟ وللانتفاع بالأرض طريقان (أحدهما) الانتفاع بأعيانها فى الحياة الجسدية (وثانيهما) النظر والاعتبار بها فى الحياة العقلية ، والأرض هى مافى الجهة السفلى ، أى ماتحت أرجلنا ، كما أن المراد بالسماء كل مافى الجهة العليا أى فوق رءوسنا و إننا ننتفع بكل مافى الأرض برها و بحرها من حيوان ونبات وجماد ، ومالا تصل إليه أيدينا ننتفع فيه بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير بفى يتناول مافى جوف الأرض من المعادن بالنص الصريح

(وأقول هنا) إن هذه الجملة هى نص الدليل القطعى على القاعدة المعروفة عند الفقهاء « ان الأصل فى الأشياء المخلوقة الإباحة » والمراد إباحة الانتفاع بها أكلا وشربا ولباساً وتداويا وركوبا وزينة ، و بهذا التفصيل تدخل الأشياء التى يضر استعمالها فى بعض الأشياء و ينفع فى بعض ، كالسموم التى يضر أكلها وشربها و ينفع التداوى بها ، وليس لمخلوق حق فى تحريم شىء أباحه الرب لعباده تدينا به إلا بوحيه و إذنه (قل ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا * قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) ؟ . وما يحظره الطبيب على المريض من طعام حلال فى نفسه وما يمنع الحاكم العادل الناس من التصرف فيه من المباحات لدفع مفسدة أو رعاية مصلحة — فليس من التحريم الدينى للشىء ولا يكون دائما ، و إنما يتبعان فى ذلك كما يأمران به بحق وعدل مادامت علته قائمة

قال تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ يقال استوى إلى الشىء إذا قصد إليه قصداً مستويا خاصا به لا يلوى على غيره . وقال الراغب إذا تعدى استوى بإلى اقتضى الانتهاء إلى الشىء إما بالذات و إما بالتدبير ، والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء كما قال فى سورة فصلت (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) الخ

﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ فأتم خلقهن من تلك المادة الدخانية فجعلهن سبع سموات تامات منتظمات الخلق . وهذا الترتيب يوافق ما كان معروفا عند اليهود عن سيدنا موسى عليه السلام من أن الله تعالى خلق الأرض أولا ، ثم

خلق السموات والنور ، ولا مانع من الأخذ بظاهر الآية فان الخلق غير التسوية ألا ترى أن الإنسان فى طور النطفة والعلقة يكون مخلوقا ولكنه لا يكون بشرا سويا فى أحسن تقويم كما يكون عند انشائه خلقا آخر ، وسنبين ان شاء الله تعالى عند تفسير قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) أن العالم كان شيئا واحدا ثم فصله الله تعالى بالخلق تفصيلا ، وقدره تقديراً ، فلا مانع إذن من أن يكون خلق الأرض وما فيهما سابقا على تسوية السماء سبعا ، نعم إن هذا من أسرار الخلقة التى لا نعرفها وربما يتوهم أن هذه الآية تناقض أو تخالف قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء وأنوارها ١ ٧٩ : ٣٠ والأرض بعد ذلك دحاها) والجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن البعدية ليست بعدية الزمان ولكنها البعدية فى الذكر وهى معروفة فى كلام العرب وغيرهم فلا بعد فى أن تقول فعلت كذا لفلان وأحسنت عليه بكذا و بعد ذلك ساعدته فى عمل كذا كما تقول وزيادة على ذلك ساعدته فى عمله ، تريد نوعا آخر من أنواع الإحسان ، من غير ملاحظة التأخر فى الزمان (ثانيهما) أن الذى كان بعد خلق السماء هو دحو الأرض أى جعلها ممهدة مدحوة قابلة للسكنى والاستعمار لا مجرد خلقها وتقدير أقواتها فيها ، وخلق الله وتقديره لم ينقطع من الأرض ولا ينقطع منها مادامت وكذلك يقال فى غيرها

(وأزيد على ذلك الآن) أن الدحو فى أصل اللغة دحرجة الأشياء القابلة للدحرجة كالجوز والكرى والحصا ورميها ويسمون المطر الداحى لأنه يدحو الحصى وكذا اللاعب بالجوز . وفى حديث أبى رافع كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحى وهى أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون ويدحون فيها بتلك الأحجار ، فان وقع الحجر فيها غلب صاحبها وان لم يقع غلب ، ذكره فى اللسان وقال بعده الدحو هو رمى اللاعب بالحجر والجوز وغيره . وأقول إن ماذكره وأعاد القول فيه من لعبة الدحو بالحجارة المستديرة كالقرصة لا يزال مألوفا عند الصبيان فى بلادنا ويسمونه لعب الأكرة ، ويحرفها بعضهم فيقول الدكرة . وقال الراغب فى مفردات القرآن قال تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) أى أزالها عن مقرها

كقوله (يوم ترجف الأرض والجبال) وهو من قولهم دحا المطر الحصى الخ ، ولكن فرقا بين دحو الأرض ودحرجتها من مكانها عند التكوين ، ورجفها قبيل خرابها عند قيام الساعة ، وقد يكون المراد به ـ والله أعلم ـ أنه دحاها عند مافتقها هي والسموات من المادة الدخانية التي كانت رتقا وفيه دلالة أو إشارة ـ على الأقل ـ إلى أنها كرة أو كالكرة في الاستدارة ، ولا يبعد أن يكون المراد بدحوها ودحرجتها حركتها بقدرته تعالى في فلكها (وكل في فلك يسبحون) وهذا لا ينافي ماقيل من أن معناه بسطها أي وسعها ومدفيها ، وأنه سطحها أي جعل لها سطحا واسعا يعيش عليه الناس وغيرهم ، فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين يقول بكل منهما قوم يطعنون في الآخرين فقد ضيقوا من اللغة والدين واسعاً بقلة بضاعتهم فيهما معاً .

وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الأرض وهذه السموات التي فوقنا بالتدريج وما أشهدنا خلقهن ، وإنما ذكر لنا ماذكره للاستدلال على قدرته وحكمته وللامتنان علينا بنعمته ، لا لبيان تاريخ تكوينهما بالترتيب ، لأن هذا ليس من مقاصد الدين ، فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبه إلا أن تسوية السماء سبع سماوات يظهر أنه كان بعد تكوين الأرض ، ويظهر أن السماء كانت موجودة إلا أنها لم تكن سبعا ، ولذلك ذكر الاستواء إليها وقال (فسواهن سبع سموات) فنؤمن بأنه فعل ذلك لحكم يعلمها ، وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكر ، فمن أراد أن يزداد علما فليطلبه من البحث في الكون [وعليه بدراسة ما كتب الباحثون فيه من قبل ، وما اكتشف المكتشفون من شؤونه وليأخذ من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح لا بما يتخرص به المتخرصون ، ويخترعونه من الأوهام والظنون] وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له.

هذه الاباحة للنظر والبحث في الكون بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم وتشوق النفوس ككون كل مافي الأرض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هو مما امتاز به الاسلام في ترقية الإنسان ، فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين أن أهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان

لايجتمعان ، والعلم والدين خصمان لايتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل .

ولذلك جاء القرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلى ، والتفكر والتدبر والتذكر ، فلا تقرأ منه قليلا إلا وتراه يعرض عليك الأكوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها ، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها (١٠:١٠١ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ٢٩:١٩ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ٢٢:٤٦ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ٨٨:١٧ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً . وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به ، ومن فوائد الحث على النظر فى الخليقة للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة ، واستخراج علومها لترقية النوع الإنسانى الذى خلقت هى لأجله ـ مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التى كان عليها أهل الكتاب فأودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به .

كانت أوروبا المسيحية فى غمرة من الجهل ، وظلمات من الفتن ، تسيل الدماء فيها أنهاراً لأجل الدين ، وباسم الدين والإكراه على الدين ، ثم فاض طوفان تعصبها على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبساً من دين الإسلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا إن لنا الحق فى أن نتفكر ، وأن نعلم وأن نستدل . فحاربهم الدين ورجاله حرباً عوانا انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله ، وبعد غسل الدماء المسفوكة قام منذ مائتى سنة إلى اليوم رجال منهم يسمون هذه المدنية القائمة على دعائم العلم : المدنية المسيحية ، ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها بعد انهزامها من امام الدين المسيحى لأنها لاتتفق مع العلم وفى مقدمتها الدين الإسلامى ، وحجتهم على ذلك حال المسلمين ، نعم إن المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها فى العلم حتى سقطوا فى جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الأولى ، فجهلوا الأرض التى هم عليها ، وضعفوا عن استخراج منافعها ، فجاء الأجنبى يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ＊ وسخر لكم مافى السموات

وما فى الأرض جميعا منه – قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) الآية وأمثال ذلك . ولكنهم (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) إلا من رحم الله ، ولو عقلوا لعادوا ، ولو عادوا لاستفادوا ، و بلغوا ما أرادوا ، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون ، ولا نيأس من روح الله (إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

ثم ختم الآية سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وهو بكل شىء عليم) أى فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته ، وبما ينفع الناس بيانه ، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لايكون إلا من عليم حكيم فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده ؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية فى تقرير رسالة النبى ﷺ و إبطال شبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولا ؛ والذين أنكروا أن يكون من العرب رسول ، لأن قصارى ذلك كله اعتراض الجاهلين ، على من هو بكل شىء عليم .

---

(٣٠) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ .

(تمهيد للقصة ومذهب السلف والخلف فى المتشابهات)

إن أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشئون الإلهية التى يعز الوقوف عليها كما هى ، وقد قص الله علينا فى هذه الآيات خبر النشأة الإنسانيه على نحو مايؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا ، ومثل لنا المعانى فى صور محسوسة ، وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار ، كما هى سنته فى مخاطبة الخلق ، و بيان الحق ، وقد ذهب الأستاذ إلى أن هذه الآيات من المتشابهات التى لايمكن حملها على ظاهرها ، لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة وذلك محال على الله تعالى ، و إما اخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم ومحاجة وجدال ، وذلك لايليق بالله تعالى

أيضا ولا بملائكته ، ولا يجادم ماجاء به الدين من وصف الملائكة ككونهم (لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) وقد أورد الاستاذ مقدمة تمهيدية لفهم القصة فقال مامثاله :

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات [1] وقد قام البرهان العقلى والبرهان النقلى على هذه العقيدة فكانت هى الأصل المحكم فى الاعتقاد الذى يجب أن يرد إليه غيره ، وهو التنزيه ، فإذا جاء فى نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافى ظاهره التنزيه . فللمسلمين فيه طريقتان :

(إحداهما) طريقة السلف وهى التنزيه الذى أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى (ليس كمثله شيء) وقوله عز وجل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وتفويض الأمر إلى الله تعالى فى فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه مانستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى من عقولنا ويصورها لخيالاتنا .

(والثانية) طريقة الخلف وهى التأويل يقولون : إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منها عن المعقول فإذا جزم العقل بشيء وورد فى النقل خلافه يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لايراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل (قال الأستاذ) وأنا على طريقة السلف فى وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب . وإننا نسير فى فهم الآيات على كلا الطريقتين لأنه لابد للكلام من فائدة يحمل عليها ، لأن الله عز وجل لم يخاطبنا بما لانستفيد منه معنى

(وأقول) أنا ـ مؤلف هذا التفسير : إننى ولله الحمد على طريقة السلف وهديهم عليها أحيا وعليها أموت إن شاء الله تعالى وإنما أذكر من كلام شيخنا ومن كلام غيره ومن تلقاء نفسى بعض التأويلات لما ثبت عندى باختبارى الناس أن ما انتشر فى الأمة من نظريات الفلاسفة ومذاهب المبتدعة المتقدمين والمتأخرين جعل قبول مذهب السلف واعتقاده يتوقف فى الغالب على تلقيه من الصغر بالبيان الصحيح

(١) كان الأصل أنه تعالى ليس بجسم ولا يشبه الأجسام ـ وهو قاصر

وتخطئة مايخالفه ، أو طول ممارسة الرد عليهم ، ولا نعرف فى كتب علماء السنة أنفع فى الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخى الاسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى ، وإننى أقول عن نفسى : إنى لم يطمئن قلبي بمذهب السلف تفصيلا إلا بممارسة هذه الكتب .

فنحن قد سمعنا بآذاننا شبهات على بعض الآيات والأحاديث لم يسهل علينا دفعها واقناع أصحابها بصدق كلام الله وكلام رسوله الا بضرب من التأويل وأمثال تقربها من عقولهم ومعلوماتهم أحسن التقريب ، وقد غلط كثيرمن علماء الكلام والمفسرين فى بيان مذهب السلف وفى معانى التفويض والتأويل ونجد تفصيل ذلك لنا فى أوائل تفسير سورة آل عمران كما أخطأ من قالوا إن الدليل العقلى هو الأصل فيرد اليه الدليل السمعى ويجب تأويله لأجل موافقته مطلقا والحق كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : إن كلا من الدليلين إما قطعى وإما غير قطعى ، فالقطعيان لايمكن أن يتعارضا حتى نرجح أحدهما على الآخر ، وإذا تعارض ظنى من كل منهما مع قطعى وجب ترجيح القطعى مطلقا ، وإذا تعارض ظنى مع ظنى من كل منهما رجحنا المنقول على المعقول لأن ماندركه بغلبة الظن من كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التى يكثر فيها الخطأ جدا ، فظواهر الآيات فى خلق آدم مثلا مقدم فى الاعتقاد على النظريات المخالفة لها من أقوال الباحثين فى أسرار الخلق وتعليل أطواره ونظامه مادامت ظنية لم تبلغ درجة القطع

وينبغى أن تعلم أيها القارى المؤمن أن من الخير لك أن تطمئن قلبا بمذهب السلف ولا تحفل بغيره ، فان لم يطمئن قلبك إلا بتأويل يرضاه أسلوب اللغة العربية فلا حرج عليك ، فان الله لايكلف نفسا إلا وسعها ، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعض الظواهر كما فعل الامام أحمد وغيره فى آيات المعية . وآخرون فى غيرها ، والذى عليك قبل كل شيء أن توقن بأن كلام الله كله حق ، وألا تؤول شيئا منه بسوء القصد . وكذا ماصح عن رسوله (ص) من أمر الدين بغير شبهة . والتفسير الموافق للغة العرب لايسمى تأويلا وإنما يجب معه تنزيه الخالق وعدم تشبيه عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه .

إذا تقرر هذا فهاك تفسير هذا السياق بما قرره شيخنا في الأزهر قال ما مثاله :

أما الملائكة فيقول السلف فيهم: إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم و ببعض عملهم فيجب علينا الايمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فنفوض علمها إلى الله تعالى ، فاذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك ولكننا نقول إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور إذ لو كانت كذلك لرأيناها، وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار فاننا نستدل بذلك على أن فى الكون عالما آخر ألطف من هذا العالم المحسوس وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بامكانه لذاته ، ويحكم بصدق الوحى الذى أخبر به

(قال الأستاذ) وقد بحث أناس فى جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن من وفقهم الله تعالى على هذا السر قليلون ، والدين إنما شرع للناس كافة ، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق ، ومن خصه الله تعالى بزيادة فى العلم فذلك فضله يؤتيه من يشاء ، فقد ورد فى الصحيح عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه فى هذا العلم اللدنى الخاص وقد سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من العلم ؟ فقال لا والذى فلق الحبة و برأ النسمة إلا أن يؤتى الله عبداً فهما فى القرآن الخ » وأما ذلك الحوار فى الآيات فهو شأن من شؤون الله تعالى مع ملائكته صوره لنا فى هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا ، وأن هناك معانى قصدت إفادتها بهذه العبارات وهى عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم وأنه كان يعدّ له الكون ، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الانسان ، وشأن آخر فى بيان كرامة هذا النوع وفضله .

وأما الفائدة فيما وراء البحث فى حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم و بين الله تعالى فهى من وجوه :

(أحدها) أن الله تعالى فى عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته فى صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره فى خلقه ، ولا سيما عند الحيرة ،

والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى فى استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التى جرت سنته تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العملى والاستدلال العقلى والالهام الالهى) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك

(ثانيها) إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه مايخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للانسان فى معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا .

(ثالثها) أن الله تعالى هدى الملائكة فى حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم لاقامة الدليل ، بعد الارشاد إلى الخضوع والتسليم ، وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم مالا يعلمون علم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتى بيانه .

(رابعها) تسلية النبى ﷺ عن تكذيب الناس ، ومحاجتهم فى النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ماجحدوا ، فاذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لايعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين ، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين ، أى فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين ، وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها . وكون الكلام لايزال فى موضوع الكتاب وكونه لاريب فيه وفى الرسول وكونه يبلغ وحى الله تعالى ويهدى به عباده وفى اختلاف الناس فيهما ، ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها مع كون الجميع فى سياق موضوع واحد .

وأما الخلف فمنهم من تكلم فى حقيقة الملائكة ووضع لهم تعريفا ومنهم من أمسك عن ذلك وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون . والقصة على مذهبهم وردت مورد التمثيل لتقرب من أفهام الخلق ماتفيدهم معرفته من حال النشأة الآدمية ، ومالها من المكانة والخصوصية : أخبر الله الملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، ففهموا من ذلك أن الله يودع فى فطرة هذا النوع الذى يجعله خليفة أن يكون

ذا إرادة مطلقة واختيار فى عمله غير محدود ، وأن الترجيح بين مايتعارض من الأعمال التى تعن له تكون بحسب علمه ؛ وأن العلم إذا لم يكن محيطا بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الارادة إلى خلاف المصلحة والحكمة وذلك هو الفساد ، وهو متعين لازم الوقوع ، لأن العلم المحيط لايكون إلا لله تعالى ، فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ، أو بلسان الحال والتوجيه اليه لاستفاضة المعرفة بذلك وطلب البيان والحكمة، وعبر الله عن ذلك بالقول لأنه هو المعهود بالاستعلام والاستفهام عند البشر الذين أنزل القرآن لهدايتهم ، كما نسب القول إلى السموات والأرض فى قوله (قالتا أتينا طائعين) .

فأول ماألقى اليهم من الالهام أو غيره من طرق الإعلام هو وجوب الخضوع والتسليم ، لمن هو بكل شىء عليم ، لأن مايضيق عنه علم أحد ويحار فى كيفيته يتسع له علم من هو أعلم منه ، ومن شأن الانسان أن يسلم لمن يعتقد أنه فوقه فى العلم مايتصدى له مهما يكن بعيد الوقوع فى اعتقاده ، ومثل الأستاذ لذلك بمشايخ الصوفية مع مريديهم .

ومن ذلك اعتقاد جماهير الناس فى بلاد الحضارة والصناعات فى هذا العصر إمكان أمور وأعمال لم يكن أحد يتصور إمكانها من قبل إلا بعض كبار علماء النظر، فاذا قيل إنهم يحاولون عمل كذا فانهم يصدقونهم ، وإن لم يعقلوا كيف يعملونه

فان الذين يصنعون شلكا لنقل الأخبار بالكهرباء إلى الأماكن البعيدة فى دقيقة أو دقائق قليلة يصدقون بأنهم يوصلون تلك الأخبار من غير سلك ، وقد كان ، ويصدقون بامكان إيجاد آلة تجمع بين نقل الصوت ورؤية المتكلم وهو مايحاولون الآن ، وإذا قال لنا أهل هذه الصناعة إن ذلك ممكن الحصول صدقناهم فيما يقولون من غير تردد ، وليس تصديقنا تقليداً ولا تسليما أعمى كما يقال بل هو تصديق عن دليل ركنه قياس مايكون على ماقد كان بعد العلم بوحدة الوسائل . والملائكة أعلم منا بشأن الله فى أفعاله وأنه العليم الحكيم ، فهم وإن فاجأهم العجب من خلق الخليفة يردهم إلى اليقين أدنى التنبيه ؛ ولذلك كان قوله تعالى (إنى أعلم مالا تعلمون) جوابا مقنعا أى اقناع .

على أن هذا النوع من التسليم للعالم القادر. ربما لا يذهب بالحيرة ولا يزيل الاضطراب من نفس المتعجب، وإنما تسكن النفس ببروز ذلك الأمر الذى كانت تعجب من بروزه إلى عالم الوجود ووقوفها على أسراره وحكمه بالفعل، ولذلك تفضل الله تعالى على الملائكة بإكمال علمهم بحكمته فى خلق هذا الخليفة الانسانى وسره عند طلوع فجره. فعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتى، فعلموا أن فى فطرة هذا الخليفة واستعداده علم ما لم يعلموا، وتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة فى الأرض، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه، وناهيك بمقام العلم وفائدته، وسر العالم وحكمته

فعلمنا أن السلف والخلف متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شؤون المخلوقين، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض أو الانكار. فلا فرق فى هذه النتيجة بين تفويض وتسليم، وتأويل وتفهيم؛ والله بكل شىء عليم، وهاك تفسير الآيات بالتفصيل.

قد علمت مما تقدم أن الآيات متصلة بما قبلها من الكلام فى الكتاب ومن جاء به ومن دعى إليه، فهى تجلى حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله تعالى بالطريقة التى تناسب حالهم فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم لأن طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شىء اكتسابا، وهى من جهة أخرى تسلية له ﷺ ببيان أن البشر أولى من الملائكة بإنكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا ويذنبوا، وأن الافساد فى الأرض وجحود الحق ومناصبة الداعى إليه ليس بدعا من قومه، وإنما هو جبلة أهل الفكر وطبيعة البشر.

ثم إن المفسرين فى (الخليفة) مذهبين: ذهب بعضهم إلى أن هذا اللفظ يشعر بأنه كان فى الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق، وأنه انقرض. وأن هذا الصنف الذى أخبر الله الملائكة بأن سيجعله خليفة فى الأرض سيحل محله ويخلفه، كما قال تعالى بعد ذكر إهلاك القرون (١٠: ١٤ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض

من بعدهم) وقالوا : إن ذلك الصنف البـائد قد أفسد فى الأرض وسفك الدماء وأن الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه ، لأن الخليفة لابد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر إلى الفهم ؛ ولكن لما لم يكن دليل على أنه يكون مثله من كل وجه وليس ذلك من مقتضى الخلافة ؛ أجاب الله الملائكة بأنه يعلم مالا يعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من قبله ، وما له سبحانه فى ذلك من الحكمة البالغة (قال الأستاذ) وإذا صح هذا القول فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض ، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه فى الذات والمادة ، وتخالفها فى بعض الأخلاق والسجايا.

هذا أحسن ما يجلى فيه هذا المذهب وأكثر ماقالوه فيه قد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ، ومنه أنه كان فى الأرض قبل آدم خلق يسمون بالحن والبن ، أو الطم والرم ، والاكثرون على أن الخلق الذين كانوا فى الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، والقائلون منهم بالحن (بالمهملة) والبن قالوا إنهم كانوا قبل الجن ، وقالوا : إن هؤلاء عاثوا فى الأرض فسـاداً ، فأبادهم الله (كما تقدم آنفا) وقالوا : إن الله تعالى أرسل إليهم إبليس فى جند من الملائكة فحارب الجن فدحرهم وفرقهم فى الجزائر والبحار . وليس لهم فى الاسلام سند يحتج به على هذه القصص ، ولكن تقاليد الأمم الموروثة فى هذه المسألة تنبىء بأمر ذى بال ، وهى متفقة فيه بالاجمال ، ألا وهو ماقلناه من أن آدم ليس أول الأحيـاء العاقلة التى سكنت الأرض .

هذا هو المذهب الأول فى تفسير الخليفة ، وذهب الآخرون إلى أن المراد إنى جاعل فى الأرض خليفة عنى ، ولهذا شاع أن الانسان خليفة الله فى أرضه .وقال تعالى(٣٨ : ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) والظاهر والله أعلم أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته ، ولكن ما معنى هذه الخلافة ، وما المراد من هذا الاستخلاف هل هو استخلاف بعض الانسان على بعض ؛ أم استخلاف البعض على غيره ؟

جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه

الوضعية (أى الشرعية لأن الشرع وضع إلهى) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ، نطق الوحى ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة ، وخص كل نوع غير نوع الانسان بشىء محدودمعين لايتعداه.فأما مالانعرفه إلامن طريق الوحى كالملائكةفقد ورد فيهامن الآيات والأحاديث مايدل على أن وظائفه محدودة . قال تعالى (٢١ : ٢٠ يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٣٧ : ١٦٥ و إنا لنحن الصافون ، و إنا لنحن المسبحون) (٣٧ :١،٢ والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا) (٧٩ : ١ ـ٥ والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمراً) على قول من قال : إن المراد بها الملائكة إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف لكل طائفة وظيفة محدودة ، وورد فى الأحاديث أن منهم الساجد دائما ، والراكع دائما إلى يوم القيامة .

وأما مانعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل . وحال النبات و إنما تأثير حياته فى نفسه، فلو فرض أن له علما و إرادة فهما لا أثر لهما فى جعل عمل النبات مبينا لحكم الله وسننه فى الخلق ، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها ، فكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية فان له استعداداً محدوداً ،وعلما إلهامياً محدوداً، وعملا محدوداً، وما كان كذلك لايصلح أن يكون خليفة عن الذى لاحد لعلمه و إرادته ، ولا حصر لأحكامه وسننه ، ولا نهاية لأعماله وتصرفه

وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً. كما قال فى كتابه (٤ :٢٧ وخلق الانسان ضعيفا) وخلقه جاهلا كما قال تعالى (١٦ :٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر ، وموضع لعجب المتعجب ، لأنه مع ضعفه يتصرف فى الأقوياء ، ومع جهله فى نشأته يعلم جميع الاسماء ، يولد الحيوان عالما بالإلهام ماينفعه ومايضره ، وتكمل له قواه فى زمن قليل ، و يولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ بالبكاء ، ثم يحس و يشعر بالتدريج البطىء بالنسبة إلى غيره من الحيوان و يعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره و إحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات ، فيسخرها و يذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة هى التى يسمونها

العقل ولا يعقلون سرها ، ولا يدركون حقيقتها وكنهها ، فهي التي تغنى الإنسان عن كل ما وهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحر ، والاعضاء التي يتناول بها غذاءه والتي يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه ، وغير ذلك من المواهب التي يعطاها الحيوان بلا كسب ، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان ، وسيكون له من ذلك مالا يصل إليه التقدير والحسبان .

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفا لا حد له بإذن الله وتصريفه ، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته ، وملكه الأرض وسخر له عوالمها — أعطاه أحكاما وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حداً يحول دون بغى أفراده وطوائفه بعضهم على بعض ، فهي تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له كل تلك المزايا فلهذا كله جعله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة

ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات ، وفي البر والبحر والهواء ، فهو يتفنن ويبتدع ، ويكتشف ويخترع ويجد ويعمل ، حتى غير شكل الأرض فجعل الحزن سهلا ، والماحل خصبا . والخراب عمراناً ، والبرارى بحاراً أو خلجاناً ، وولد بالتلقيح أزواجاً من النبات لم تكن كالليمون المسمى « يوسف أفندى » فان الله تعالى خلقه بيد الإنسان وأنشأه بكسبه ، وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والتغذية والتوليد ، حتى ظهر التغير في خلقتها وخلائقها وأصنافها ، فصار منها الكبير والصغير ، ومنها الأهلي والوحشى ، وهو ينتفع بكل نوع منها ويسخره لخدمته كما سخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات . أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . أن جعل الانسان بهذه المواهب خليفته في الأرض . يقيم سننه : ويظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه ، ومنافع أحكامه وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ؟ وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى فكيف تعجب الملائكة منه؟

﴿و إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ بادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب و ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء﴾ فيغفل بذلك عن تسبيحك وتقديسك ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ بلا غفلة ولا فتور ؟ لاشك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة ومايقتضيه من العلم غير المحدود والارادة المطلقة ، وكون هذا العلم المصرف للارادة لايحصل إلا بالتدريج ، وكون عدم الاحاطة مدعاة للفساد ، والتنازع المفضى إلى سفك الدماء كما تقدم .

نعم إن هذا العلم الواسع لايعطاه فرد من أفراد الإنسان ولا مجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه علم الله تعالى ، وكلما أوتى نصيباً منه ظهر له من جهله مالم يكن يعلم ، وكلما أعطى حظاً من الأدب والعقل ظهر له ضعف عقله ، ولله در الشافعى حيث قال :

كلما أدبنى الدهـ　　ـر أرانى نقص عقلى
وإذا ما ازددت علماً　　زادنى علماً بجهلى

فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الالهى إلا قليلا ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الالهى ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم ﴿قال إنى أعلم مالا تعلمون﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الانسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه فقال :

---

(٣١) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلٰئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صٰدِقِينَ (٣٢) قَالُوا سُبْحٰنَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٣) قَالَ يٰآدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ

تقدم فى بيان معنى الخليفة أن علم الملائكة وعملهم محدودان ، وأن علم

الانسان وعمله غير محدودين ، وبهذه الخاصة التى فطر الله الناس عليها كان الانسان أجدر بالخلافة من الملائكة ، وهذه هى حجة الله البالغة على الملائكة

التى بينها لهم بعد ما نبههم إلى علمه المحيط بما لا يعلمون فقال ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ أى أودع فى نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، فالمراد بالاسماء المسميات عبر عن المدلول بالدليل ، لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له ، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر . والعلم الحقيق انما هو ادراك المعلومات أنفسها ، والالفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التى تجرى بالمواضعة والاصطلاح فهى تتغير وتختلف والمعنى لاتغيير فيه ولا اختلاف

قال الأستاذ : ثم إن الاسم قد يطلق اطلاقا صحيحاً على ما يصل إلى الذهن من المعلوم أى صورة المعلوم فى الذهن ، و بعبارة أخرى: ما به يعلم الشىء عند العالم، فاسم الله مثلا هو مابه عرفناه فى أذهاننا ، بحيث يقال: إننا نؤمن بوجوده، ونسند اليه صفاته ، فالاسماء هى مابه نعلم الأشياء ، وهى العلوم المطابقة للحقائق . والاسم بهذا الاطلاق هو الذى جرى الخلاف فى أنه عين المسمى أو غيره ، وقد كان اليونانيون يطلقون على مافى الذهن من المعلوم لفظ الاسم ، والخلاف فى أن مافى الذهن من الحقائق هو عينها أو صورتها مشهور كالخلاف فى أن العلم عين المعلوم أو غير المعلوم ، وأما الخلاف فى أن الاسم الذى هو اللفظ عين المسمى أو غيره فهو ما أخطأ فيه الناظرون بعدم الدقة فى التمييز بين الاطلاقات لبداهة أن اللفظ غير معناه بالضرورة ، والاسم بذلك الاطلاق الذى ذكرناه هو الذى يتقدس و يتبارك و يتعالى (سبح اسم ربك الأعلى) (تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام) فاسمه جل شأنه ما يمكننا أن نعلم منه مانعلم من صفاته ، وما يشرق فى أنفسنا من بهائه وجلاله ، ولا مانع من أن نريد من الأسماء هذا المعنى ، وهو لا يختلف فى التأويل عما قالوه من إرادة المسميات ولكنه على مانقول أظهر وأبين

(وأقول) تقدم لنا فى أول سورة الفاتحة أن اسم الله تعالى يسبح و يعظم ومنه إسناد التسبيح إليه قولا وكتابة . وتسبيحه وتعظيمه بدون ذكر اسمه خاص بالقلب . ومن تعمد إهانة اسم الله تعالى يكفر كمن يتعمد إهانة كتابه

ثم إن الذى يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدريج قال تعالى (٢ : ١٥١ ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) وما كان ذلك إلا تدريجاً وهذا ظاهر فى جميع الآيات التى فيها لفظ التعليم كقوله (٤ : ١١٥ وعلمك مالم تكن تعلم) وقوله (٣ : ٤٨ و يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) إلى غير ذلك ــ ولكن المتبادر من تعليم آدم الاسماء: أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه بالفعل أو بالقوة، ولذلك قال شيخنا :

علم الله آدم كل شىء ولا فرق فى ذلك بين أن يكون لهذا العلم فى آن واحد أو فى آنات متعددة والله قادر على كل شىء ، ثم إن هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمى كله ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم فيكفى فى ثبوت هذه القوة لهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال ، علم الله آدم الاسماء على نحو ما بينا ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ أى أطلعهم اطلاعا اجمالياً بالالهام الذى يليق بحالهم على مجموع تلك الأشياء ولو عرضت على نفوسهم عرضاً تفصيلياً لعلموها ولم يكن علمهم محدوداً والحال أنه عرضها عليهم وسألهم عنها سؤال تعجيز ﴿ فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾ المسميات والغرض من الانباء بأسمائها الابانة عن معرفتها ومعنى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى إن كان هناك موقع للدهشة والاستغراب من جعل الخليفة فى الأرض من البشر ، وكان ماطرق نفوسكم وطرأ على أذهانكم أولا حالا محله ، ومصيباً غرضه ، ولما تعرفوا حقيقة ما يمتاز به الخليفة: فأنبئونى بأسماء ما عرضته عليكم ﴿ قالوا سبحانك ﴾ أى تنزيها لك، فلفظ سبحان مصدر قلما يستعمل إلا مضافا كمعاذ الله، وهو منصوب بفعل مقدر ، والمعنى نقدسك وننزهك أن يكون علمك قاصراً فتخلق الخليفة عبثاً ، أو تسألنا شيئاً نفيده وأنت تعلم أننا لا نحيط بعلمه، ولا نقدر على الانباء به ، وكلمة « سبحانك » تهدى إلى هذا فكأنها جملة وحدها ، وهذه هى البلاغة مضروب سرادقها ، مثمرة حدائقها ، متجلية حقائقها ، على أن القصة وردت مورد التمثيل ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، و بعد تنزيه البارى تبرؤا من علمهم إلى علمه تعالى وحكمته فقالوا ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ وهو محدود لا يتناول جميع الأسماء ولا يحيط بكل المسميات ﴿ إنك أنت العليم ﴾ بخلقك ﴿ الحكيم ﴾ فى صنعك

قال الاستاذ : إن هذه التأكيدات [1] تشعر بأن سؤال الاستغراب الأول كان يتنسم منه شيء ، وكذلك الجواب عن (أنبئونى) بقولهم (لا علم لنا) ولذلك ختموا الجواب بالتبرؤ من كل شيء والثناء على الله تعالى بالعلم الثابت الواجب لذاته العلية ، والحكمة البالغة اللازمة له ، فقد تقدم فى تفسير الفاتحة أن صيغة (فعيل) تدل غالباً على الصفات الراسخة اللازمة ، فكان جواب الملائكة بهذا مؤذنا بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب أن لا يغفل مثلهم عنه ، وهو التسليم لسعة علم الله وحكمته حتى يبلغ الكتاب أجله

﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ فكان الانباء كما أراد الله تعالى وذكره لأجل ترتيب الحكم عليه بقوله ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم قال ﴾ الله تعالى للملائكة ﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض﴾ ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئاً سدى ولا يجعل الخليفة فى الأرض عبثاً ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ والذى يبدونه هو ما يظهر أثره فى نفوسهم ، وأما ما يكتمون فهو ما يوجد فى غرائزهم وتنطوى عليه طبائعهم

وقد علم مما تقدم أن كل هذه الأقوال والمراجعات والمناظرات يفوض السلف الأمر إلى الله تعالى فى معرفة حقيقتها ، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها ، وقد تقدم بيان ذلك . وأما الخلف فيلجأون إلى التأويل ، وأمثل طرقه فى هذا المقام التمثيل ، وقد مضت سنة الله فى كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية ، فى قوالب العبارة اللفظية ، ويجلى لنا المعارف المعقولة ، بالصور المحسوسة ، تقريباً للافهام ، وتسهيلا للاعلام ، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا ، وما اودعته فطرتنا ، مما تمتاز به على غيرنا من المخلوقات ، فعلينا أن نجتهد فى تكميل أنفسنا بالعلوم التى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لأصلنا (٢٤ : ٣٥ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون)

(١) فى التنزيه تأكيد معنوى وكذلك فى نفى العلم عن انفسهم لذاتها واثبات ما أعطاها الله فقط ، ثم يلى ذلك التأكيد اللفظى بان والجملة الاسمية وضمير الفصل « أنت » والمعنوى بصيغتى المبالغة فى العلم والحكمة ــ المؤلف

(٣٤) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ .

بعد ماعرف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعله خليفة فى الأرض أمرهم بالخضوع له وعبر عن ذلك بالسجود، فقال ﴿ و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهو سجود لا نعرف صفته ، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة إذ لا يعبد إلا الله تعالى ، والسجود فى اللغة التطامن والخضوع والانقياد،وأعظم مظاهره الخرور نحو الأرض للأذقان ووضع الجبهة على التراب ، وكان عند بعض القدماء من تحية الناس الملوك والعظماء،ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف عليهم السلام . والسجود لله تعالى قسمان ، سجود العقلاء المكلفين له تعبداً على الوجه المشروع ـ وسجود المخلوقات كلها لمقتضى إرادته فيها.قال تعالى (١٣ : ١٥ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها) الآية وقال (والنجم والشجر يسجدان) وفى معناهما آيات . ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾أى سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس وهو فرد من أفراد الملائكة، كما يفهم من الآية وأمثالها فى القصة إلا آية الكهف فانها ناطقة بأنه كان من الجن (١٧: ٥٠ و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلا جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر و إنما هو اختلاف أصناف ، عند ما تختلف أوصاف ، كما ترشد إليه الآيات . فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة، وقد أطلق فى القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأى جمهور المفسرين فى قوله تعالى (٣٧: ١٥٨ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وعلى الشياطين فى آخر سورة الناس [وعلى كل حال فجميع هؤلاء المسميات بهذه الاسماء من عالم الغيب لا نعلم حقائقها ولا نبحث عنها ولا نقول بنسبة شيء إليها ما لم يرد لنا فيه نص قطعى عن المعصوم ﷺ] وصف الله تعالى إبليس بأنه ﴿ أبى ﴾ السجود والانقياد ﴿ واستكبر ﴾

فلم يمتثل أمر الحق ترفعاً عنه . وزعماً بأنه خير من الخليفة عنصراً ، وأزكى جوهراً ، كما حكى الله تعالى عنه فى غير هذه السورة (٧ : ١١ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) والاستكبار بمعنى التكبر وهو الظهور بصفة الكبرياء التى من آثارها الترفع عن الحق ، كأن السين والتاء للاشعار بأن الكبر ليس من طبيعة إبليس ولكنه مستمد له ، ثم قال تعالى بعد وصفه بالاباء والاستكبار ﴿وكان من الكافرين﴾ قال بعض المفسرين كان من حق الترتيب أن يقال : كان من الكافرين واستكبر وأبى لأن الكفر عنده سبب الاستكبار والاستكبار سبب الإباء ، ومثل هذا المفسر يعلل مخالفة الترتيب الطبيعى فى النظم برعاية الفاصلة (قال الاستاذ) ولكن نظم الآية جاء على مقتضى الطبيعة فى الذكر ، فانه يفيد أن الله تعالى أراد أن يبين الفعل أولا لانه المقصود بالذات وهو الاباء ثم يذكر سببه وعلته وهو الاستكبار ثم يأتى بالاصل فى العلة والمعلول والسبب والمسبب وهو الكفر .

(أقول) وقال بعض المفسرين : إن «كان» هنا بمعنى صار ، وخطأ ابن فورك وقال إن الاصول ترده ، ووجهه عند قائله : وصار بهذا الاباء والاستكبار من جملة الكافرين ، لما علم من أنه لم يكن قبل هذا العصيان المتضمن للاعتراض على الرب سبحانه من الكافرين ، وقد جعل بعضهم مناط كفره هذا الاعتراض على ربه عز وجل لان المعصية وحدها لا تقتضى الكفر كما تدل عليه النصوص ، وفيه أن ذلك فى معصية المسلم ، وهو المذعن لامر الله ونهيه إذا غلبه غضب أو شهوة فعصى ، وهو لا يلبث أن يندم ويتوب . وعصيان إبليس رفض للاذعان والاستسلام ابتداء وهو كفر بغير نزاع ، ككفر الذين صدقوا الرسل بقلوبهم ولم يتبعوهم عناداً واستكبارا (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) والجمهور : أن المعنى : وكان فى علم الله من الكافرين

ثم إن الاستاذ أعاد هنا ملخص ماتقدم بيانه فى وجه اتصال الآيات بما قبلها وكون الكلام فى القرآن والرسول الذى جاء به وتسليته بهذه القصة ثم توسع فى الكلام عن الملائكة فقال مامثاله ملخصا : تقدم أن الملائكة خلق غيبى لا نعرف حقيقته ، و إنما نؤمن به باخبار الله تعالى الذى نقف عنده ولا نزيد عليه ، وتقدم أن القرآن ناطق بأن الملائكة أصناف لكل صنف وظيفة وعمل ، ونقول الآن

إن إلهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء فى لسان صاحب الوحى (ص) وقد أسندا الى هذه العوالم الغيبية ، وخواطر الخير التى تسمى إلهاما وخواطر الشر التى تسمى وسوسة كل منهما محله الروح فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا [لان هذه لو اتصلت بأرواحنا فانما تتصل بها من طرق أجسامنا ، ونحن لا نحس بشىء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعى الخير من النفس ، فاذن هى من عالم غير عالم الابدان قطعا] والواجب على المسلم فى مثل الآية: الايمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل ، ثم الاعتبار بها بالنظر فى الحكم التى سيقت لها القصة

(وأقول) إن اسناد الوسوسة الى الشياطين معروف فى الكتاب والسنة ، وأما اسناد إلهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام، ومن حديث الشيخين فى المحدَّثين وكون عمر منهم ـ والمحدثون بفتح الدال وتشديدها الملهمون ـ ومن حديث الترمذى والنسائى وابن حبان وهو « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) قال الترمذى حسن غريب لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبى الاحوص . والرواية « إيعاد » فى الموضعين كما أن الآية من الثلاثى فى الموضعين ، فما قالوه فى التفرقة بين الوعد والايعاد أغلبى فيما يظهر ، وإلا فهو غير صحيح . واللمة بالفتح الالمام بالشىء والاصابة .

(قال الاستاذ) وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر فى فهم معنى الملائكة وهو أن مجموع ماورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالاعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه ايماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال فى الحيوان والانسان ، فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الالهية فى إيجاده فانما قوامه بروح الهى

سمى فى لسان الشرع ملكا، ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الامكان إلا ماهو طبيعة أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة . والأمر الثابت الذى لانزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمرا هو مناطها ، و به قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وان أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكا وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا لأن هذه الاسماء لم ترد فى الشرع ـ فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات [وان كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لايدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها . ولايعلم الا الله علام يختلف الناس؟ وكل يقر بوجود شىء غير مايرى و يحس و يعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى ادراك كنهه ، وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، و يفهم بذلك مايرد على لسان صاحب الوحى ، و يحظى بما يحظى به المؤمنون ؟].

يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن فى نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول : افعل وآخر يقول لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين ، و يترجح أحد الخاطرين، فهذا الشىء الذى أودع فى أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً ـ وهو فى الحقيقة معنى لايدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقتها ـ لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكا (أو يسمى أسبابه ملائكة) أو ماشاء من الاسماء، فان التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الارادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع ؟

(وأقول) إن الامام الغزالى سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمى ملكا فانه بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ، ومهما اختلفت

الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ماعرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذى يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواء وخذلانا ، فان المعانى المختلفة تحتاج إلى أسامى مختلفة ، » اهـ المراد منه فليراجعه فى كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء ، ثم قال الأستاذ الإمام مامعناه :

فاذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بماشاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ماحدد له من الأثر الذى خص به، خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير ،وجعله بهذا الاستعداد الذى لاحد له والتصرف الذى لم يعط لغيره خليفة الله فى أرضه . لأنه أكمل الموجودات فى هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهى القوة التى [لزها الله بهذا العالم لزا . وهى التى تميل بالمستعد للكمال او بالكامل إلى النقص وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم أوتقطع سبيل البقاء وتعود بالموجود إلى الفناء أو التى] تعارض فى اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الانسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته فيصل إلى مراتب الكمال الوجودى التى خلق مستعدا للوصول إليها [تلك القوة التى ضللت آثارها قوما فزعموا أن فى العالم إلها يسمى إلـه الشر . وماهى بإله ولـكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلاهو]

(قال) ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد فى الدين مايمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق

(وأقول) إن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذى عبر عنه بالايماء و بالاشارة

اقناع منكرى الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى به كثيرون ، وضل به آخرون فأنكروه عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لاتعقل فرد عليهم كتابة بما نصه بحروفه .

[ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد فى أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين فى الدين إذ ينفرون من هذه المعانى كما ينفر المرضى أو المخدجون من جيد الأطعمة التى لاتضرهم ، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ، و يتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام ، و يزيد السقام . لاأعرف ماالذى فهموه من لفظ روح أو ملك ، وما الذى يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ، أليس الروح فى الآدمى مثلا هذا الذى يظهر لنا فى أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل ، و إذا سلبوه سلبوا مايسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هى ماتصدر عنه الآثار فيمن وهبت له ، فاذا سمى الروح لظهور أثره قوة ، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا ، فهل يضر ذلك بالدين ، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين ؟

ألا لا يسمى الايمان إيمانا ، حتى يكون إذعانا ، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان ، وتخشع الأركان ، لذلك السلطان الذى تعلق به الايمان ، ولا يكون كذلك حتى يلقى الوهم سلاحه ، و يبلغ العقل فلاحه ، وهل يستكمل ذلك لمن لايفهم مايمكنه فهمه ، ولا يعلم مايتيسر له علمه؟ كلا إنما يعرف الحق أهله ، ولا يضل سبله ، ولا يعرف أهل الغفلة . لوأن مسكينا من عبدة الألفاظ من أشدهم ذكاء وأذربهم لسانا ، أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل [1]

« ١ » هذا هو التعريف المشهور فى كتب الكلام وغيرها وأول مايعترض به عليه أنه لايصح فيه معنى الجسم فى اللغة ولكنه صار مألوفا وإن لم يكن مفهوما .

ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معني نورانية الأجسام ، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء ؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب فى أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع فى حيرة ، ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث فى لسانه من العقد مالا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكا ؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه ، لكنها حيرة من أخذ بقول لايفهمه ، وكاف نفسه علم مالا تعلمه . فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيمانا صحيحا ، واطمأنت بإيمانه نفسه ، واذعن له قلبه ، ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله ، كما هو شأن صاحب الايمان الصحيح

فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذى وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف ، لاعلوم حفت بالسكينة والطمأنينة ، هؤلاء لم يشرق فى نفوسهم ذلك السر الذى يعبر عنه بالنور الالهى ، والضياء الملكوتى ، واللألاء القدسى ، أو مايماثل ذلك من العبارات . لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانب الحق ، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة إلى مطلع الوجود منه على الخلق ، ولو علموا أن العالم بأسره فان فى نفسه ، وأن ليس فى الكون باق كان أو يكون إلا وجهه الكريم ، وأن ماكشف من الكون وما لطف ، وما ظهر منه وما بطن ، إنما هو فيض من جوده ، ونسبة إلى وجوده ، وليس الشريف منه الا ما أعلى بذكره منزلته ، ولا الخسيس إلا مابين لنا بالنظر إلى الأول نسبته ، فان كل مظهر من مظاهر الوجود فى نفسه

واقع موقعه ، ليس شيء أعلى ولا أحط منه ؛ فان كان كذلك ولا بد أن يكون كما قدره ـ لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول فى تلك الشؤون حتى تصل إلى مستقر الطمأنينة حيث لاينازع العقل شيء من وساوس الوهم ، ولا تجد طائفا من الخوف ، ثم لايتحرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ

هذه القوى التى نرى آثارها فى كل شيء يقع تحت حواسنا ، وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل أدق الباحثين فى بحثه عنها إلا إلى آثار تجلّ إذا كشفت ، وتقل بل تضمحل إذا حجبت ، وهى التى يدور عليها كمال الوجود ، وبها ينشأ الناشيء ، وبها ينتهى إلى غايته الكامل ، كما لايخفى على نبيه ولا خامل ، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا ندرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا ؟ ألا تراها توافى بأسرارها ، من ينظر فى آثارها ، ويوفيها حق النظر فى نظامها ؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها ، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها ؟

أليس الوجود الالهى الأعلى من عالم الغيب وآثاره فى خلقه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذى وهب تلك القوى خواصها ، وقدر لها آثارها ؟ لم لاتقول أيها الغافل : إنه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ، ولم قصرت معنى الحياة على ماتراه فيك وفى حيوان مثلك ؟ مع أنك لوسئلت عن هذا الذى تزعم أنك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تصريفا ؟ لم لاتقول كما قال الله وبه نقول (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنَّ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) ؟

أفلا تزعم أن لله ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء ؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت أمكنتها ، ورسمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضىء لك فى الظلام ، أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك ، وما بين يديك وما خلفك ، وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك ، و بالعبارة التى تلقفتها عنهم ، كيلا يوحشك بما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها . أفلا يكون ذلك أروح لنفسك ، وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب ، ووقفت على سر من أسرار الكتاب ؟ فان لم تجد فى نفسك استعداداً لقبول أشعة هذه الحقائق، وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض فى إدراك الحقيقة و يقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذى آمنت به ، ويؤمنون بالرسول الذى صدقت برسالته ، وهم فى إيمانهم أعلى منك كعبا ، وأرضى منك بربهم نفسا ، ألا إن مؤمنا لو مالت نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذى يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه فى ثقة ؛ ومن فضل ربه فى سعة] اهـ

هذا ما كتبه شيخنا فى توضيح كلامه فى تقريب مايفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى - إلى مايفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة ، ولا يفقهه من هؤلاء إلا من له إلمام بما يقوله أولئك فى القوى و إسناد كل أحداث الكائنات وتطوراتها إليها مع اعترافهم بجهل كنهها، و إلمام أيضاً بما كان يقوله قدماء اليونان من أن لكل نوع من أنواع الموجودات إلهاً أو رباً مدبراً هو المسير لنظامه وكل هذه الأرباب

خاضعة للرب الإله الأكبر الذى يرجع إليه الأمر كله ، فالمعنى العام عند الأولين والآخرين هو أن أحداث هذا العالم وتغيراتها وتطوراتها والنظام فيها كلها لابد له من سبب خفى غير أجزاء مادتها ، فالتعبير عن ذلك عند المتقدمين قد وصل إلينا باصطلاحات تدل على الشرك برب العالمين ، وتعبير الماديين المتأخرين يدل على التعطيل . وتعبير القرآن وما ثبت فى السنة هو الذى حرر الحقيقة التى يمكن إذعان العقلاء لها وهى أن الفاعل الحقيقى واحد ، وأن نظام كل شىء قد ناطه سبحانه بموجودات روحية خفية ذات قوى عظيمة جدا سميت الملائكة ، فالأستاذ الامام يقول: إن التسمية وحدها لا تعطى أحدا علم الحقيقة ، وإن من فهم الحقيقة لا يحجبها عنه اختلاف التسمية ، وأراد بهذا أن يحتج على الماديين ويقنعهم بصحة ماجاء به الوحى من طريق علمهم المسلم عندهم ، كما صرح به فيما مر فى صفحة ٢٦٨ فأنكره عليه عباد الألفاظ وهم لا يعقلون مراده ، وهو بمثل هذه الأساليب فى الإقناع بحقية الدين كان حجة لله فى هذا العصر : حتى قال له أحد نوابغ رجال القضاء الأذكياء : إنك بتفسيرك للقرآن بالبيان الذى يقبله العقل ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت الذى يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيوده وجهل رجاله وجمودهم .

وإننى أنا قد جربت هذه الطريقة التى استنكروها عليه فى إقامة الحجة على بعض المنكرين لوجود الله تعالى فلم يستطيعوا لها دحضاً ، ذلك بأن علماءهم إنما ينكرون إله اللاهوتيين وكذا إله المتكلمين لا إله الخليقة . فإذا قلت لهم : هل تعقلون أن هذا النظام الدقيق فى كل نوع من المخلوقات ووحدة النظام العام فى مجموعها كلها قد وجدا بالمصادفة وليس لها مصدر وجودى ؟ يقولون : لا ، بل لابد لذلك من مصدر لكننا نجهل حقيقته ، حينئذ كنت أقول لهم ، وهذا أس عقيدة الإسلام وهو أننا نجهل كنه رب العالمين ، وإنما نعرفه بآثاره فى خلقه فالفرق بيننا لفظى .

ذلك . وإن ترتيب النظم يلتئم مع التأويل الذى أورده الأستاذ الإمام فى السياق فإن هذه المعانى التى وردت بصيغة الحكاية وبرزت فى صورة التمثيل جاءت عقب قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) وبقى شىء واحد لم يصرح به

فى الدرس وقد سبقت الاشارة إليه، وهو أن كل قوة من قوى هذه الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيما خلق خاضعاً للانسان، وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته إلا قوة الاغراء بالشر ، وناموس الوسوسة بالاغراء الذى يجذب الانسان دائما إلى شر طباع الحيوان ، ويعيقه عن بلوغ كماله الانسانى ، فالظاهر من الآيات أن الانسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى وكمل ، وقصارى ما يصل إليه الكاملون هو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها ، بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخرا لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال عز وجل (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ثم زاد الأستاذ هنا قوله : [أما سلطان تلك القوة فى الفناء وقطع حركة الوجود إلى الصعود فلا يستطيع إخضاعه لقدرته من البشر كامل ، ولا يقاوم نفوذه عامل ، وإنما ذلك لله وحده . وهذا حكمها فى الكائنات ، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات] فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وأن يعيذنا من الشيطان الرجيم .

---

(٣٥) وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٣٦) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٧) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

مجمل الآيات السابقة أن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الانسانى واقتضت الحكمة الالهية إيجاده واستخلافه فى الأرض آذن الله تعالى الأرواح المنبثة فى الأشياء لتدبيرها ونظامها بذلك ، وأن تلك الأرواح فهمت من معنى كون الانسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء ، حتى أعلمها الله تعالى بأن

علمها لم يحط بمواقع حكمته ، ولا يصل إلى حيث يصل علمه تعالى . ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الأسماء كلها ، على أن كل صنف من تلك الأرواح لا يعلم إلا طائفة منها ، ولذلك أخضع له تلك الأرواح إلا روحا واحداً هو مبعث الشر ومصدر الاغواء فقد أبى الخضوع ، واستكبر عن السجود ، لما كان فى طبيعته من الاستعداد لذلك . والاستعداد فى الشيء إنما يظهر بظهور متعلقه . فلا يقال : إذا كان لكل روح من هذه الأرواح والقوى الغيبية علم محدود فكيف ظهر من الروح الا بليسى مالم يسبق له وهو مخالفة الأمر بالسجود لآدم والتصدى لاغوائه ؟ لا يقال ذلك لأنه كان مستعداً لهذا العصيان والاباء فلما أمر عصى . ولما وجد خلقاً مستعداً للوسوسة اتصل به ووسوس إليه . كما أن ألوان ورق الشجر والزهور موجودة كامنة فى البذرة ولكنها لا تظهر إلا عند الاستعداد لها ببلوغ الطور المحدود من النمو .

ومجمل الآيات اللاحقة : أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بها . ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة وأخبرهما أن قربها ظلم . وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم إلى ضده . ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته فقبله . ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله وشقاءه بتركه . وقد تقدم أن الآيات كلها قد سيقت للاعتبار ببيان الفطرة الالهية التى فطر عليها الملائكة والبشر . وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الانكار . وتقدم وجه ذلك فى الآيات السابقة . وأما وجهه فى هذه الآيات فظاهر ، وهو أن المعصية من شأن البشر . كأنه يقول: فلا تأس يا محمد على القوم الكافرين ولا تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا [فقد كان الضعف فى طباعهم ينتهى إليهم من أول سلف لهم تغلب عليهم الوساوس . وتذهب بصبرهم الدسائس . انظر ماوقع لآدم وما كان منه . وسنة الله مع ذلك لا تتبدل . فقد عوقب آدم على خطيئته باهباطه مما كان فيه . وإن كان قد قبل توبته . وغفر هفوته] فالمعصية دائما مجلبة الشقاء . وقد استقر أمر البشر على أن سعادتهم فى اتباع الهداية الالهية وشقاءهم فى الانحراف عن سبلها .

وأما تفسير هذه الآيات بالتفصيل فقد اختلف علماء المسلمين من أهل السنة

وغيرهم فى (الجنة) هل هى البستان أو المكان الذى تظلله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه كما يفهمه أهل اللغة ؟ أم هى الدار الموعود بها فى الآخرة ؟ والمحققون من أهل السنة على الأول . قال الإمام أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات : نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ، ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم .

وبهذا التفسير تنحل إشكالات كثيرة وهى (١) إن الله خلق آدم فى الأرض ليكون هو ونسله خليفة فيها ، فالخلافة مقصودة منهم بالذات فلا يصح أن تكون عقوبة عارضة (٢) انه لم يذكر أنه بعد خلقه فى الأرض عرج به إلى السماء ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم (٣) إن الجنة الموعود بها لايدخلها إلا المؤمنون المتقون، فكيف دخلها الشيطان الكافر الملعون؟ (٤) انها ليست محلا للتكاليف (٥) إنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها (٦) إنه لايقع فيها العصيان . وبالجملة إن الأوصاف التى وصفت بها الجنة الموعود بها لاتنطبق على ماكان فى جنة آدم ، ومنه كون عطائها غير مجذوذ ولا مقطوع وغير ذلك .

(أقول) وقد أجاب بعضهم عن بعض هذه الاشكالات ولكل من الفريقين إشكالات وأجوبة أطال فى بيانها ابن القيم فى (حادى الأرواح) ولم يرجح شيئاً ولذلك مال بعضهم إلى الوقف وما اختاره شيخنا أقوى . وقد قال به أبو حنيفة وتبعه أبو منصور ، وقد كان ظهر لى عند كتابة تفسير الآيات شىء آخر لم يذكره الاستاذ الامام ولم أره فى كتب التفسير وهو أن القول بأن آدم أسكن جنة الآخرة يقتضى أن تكون الآخرة هى الدار الأولى والدنيا فتكون التسمية للدارين غير صحيحة وينافى أيضاً كون الجنة دار ثواب يدخلها المتقون جزاء بما كانوا يعملون كما ورد فى الآيات الكثيرة . وقد قال تعالى ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ولم يقل (ادخل) ولو انتقل من الأرض التى خلق فيها إلى الجنة لقال هذا أو مايعناه مما يشير إلى الانتقال فقوله (اسكن) يشير إلى أن الخلقة كانت فى تلك الجنة أو بالقرب منها ، وقوله ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ إباحة للتمتع بتلك

الجنة والتنعم بما فيها أى كلا منها أكلا رغداً واسعاً هنيئا من أى مكان منها إلا شيئا واحدا نهاهما عنه بقوله ﴿ ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها ، ولم يعين الله تعالى لنا هذه الشجرة فلا نقول فى تعيينها شيئا ، و إنما نعلم أن ذلك لحكمة اقتضته ، ولعل فى خاصية تلك الشجرة ماهو سبب خروجهما من حال إلى حال، وربما كان فى الأكل منها ضرر ، أوكان النهى ابتلاء وامتحاناً منه تعالى ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الميل إلى الإشراف على كل شيء واختباره ، و إن كان فى ذلك معصية يترتب عليها ضرر [١]

قال تعالى ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أى حولها وزحزحها عن الجنة أو حملهما على الزلة بسبب الشجرة وقرأ حمزة (فأزالهما) والشيطان إبليس الذى لم يسجد ولم يخضع وقد وسوس لهما بما ذكر فى سورتى الأعراف وطه حتى أوقعهما فى الزلل وحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا ﴿فأخرجهما مما كانافيه﴾ أى من ذلك المكان أو النعيم الذى كانا فيه، فكان الذنب متصلا بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب ثم بين الله تعالى كيفية الإخراج بقوله ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ يعنى آدم وزوجه و إبليس فلا حاجة لتقدير إرادة ذرية آدم بالجمع كما فعل مفسرنا (الجلال) فان العداوة فى قوله عز وجل ﴿بعضكم لبعض عدو ﴾ تنافى هذا التقدير فان العداوة بين الإنسان والشيطان لا بين الإنسان وذريته . والأصل فى الهبوط أن يكون من مكان عال إلى أسفل منه ، ولذلك احتج به من قال: إن آدم كان فى السماء ، وقد يستعمل فى مطلق الانتقال أو مع اعتبار العلو والسفل فى المعنى . وقال الراغب: الهبوط الانحدار على سبيل القهر ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطاً أو سمى بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد ، كقوله تعالى لبنى إسرائيل (اهبطوا مصراً)

ثم قال تعالى ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أى إن استقراركم فى الأرض وتمتعكم فيها ينتهيان إلى زمن محدود وليسا بدا أبدين ففى الكلام فائدتان

(١) راجع تفسير المسألة فى سورة الأعراف (ج ٨) تجد فيه ما ليس هنا

(إحداها) أن الأرض ممهدة ومهيأة للمعيشة فيها والتمتع بها (والثانية) أن طبيعة الحياة فيها تنافى الخلود والدوام، فليس الهبوط لأجل الإبادة ومحو الآثار، وليس للخلود كما زعم إبليس بوسوسته إذ سمى الشجرة المنهى عنها (شجرة الخلد وملك لا يبلى) يعنى أن الله أخرجهم من جنة الراحة إلى أرض العمل لا ليفنيهم ، وعبر عن ذلك بالاستقرار فى الأرض ، ولا ليعاقبهم بالحرمان من التمتع بخيرات الأرض، وعبر عن ذلك بالمتاع، ولا ليمتعهم بالخلود وعبر عن ذلك بكون الاستقرار والمتاع إلى حين

ثم قال ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ أى ألهمه الله إياها فأناب إليه بها وهى كما فى سورة الأعراف (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) تاب آدم بذلك وأناب إلى ربه ﴿فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ أى قبل توبته ، وعاد عليه بفضله ورحمته ، وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب أى الذى يقبل التوبة كثيراً ، فمهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب الرب عليه ، وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسىء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى ويرجع إليه فانه يحفه برحمته . وكل ما ورد فى هبوط آدم وحواء من تعيين الأمكنة فهو من الاسرائيليات الباطلة

وبقى مما يتعلق بهذا التفسير مسألتان قد أكثر الناس الكلام فيهما وهما مسئلة خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم ، ومسئلة عصمة آدم ، فأما الأولى فليس فى القرآن نص فيها ولا يلزمنا حمل قوله تعالى (وخلق منها زوجها) على ذلك لأجل مطابقة سفر التكوين ، فإن القصة لم ترد فى القرآن كما وردت فى التوراة التى فى أيدى أهل الكتاب حكاية تاريخية ، وإنما جاء القرآن بموضع العبرة فى خلق آدم واستعداد الكون لأن يتكمل به ، وكونه قد أعطى استعداداً فى العلم والعمل لانهاية لها ليظهر حكم الله ويقيم سننه فى الأرض فيكون خليفة له ، وكونه لا يسلم من داعية الشر والتأثر بالوسوسة التى تحمل على المعصية . ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هى تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين ، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره ، لم يبين الزمان والمكان كما بينا فى سفر التكوين ، وكان بيانهما سببا لرفض الباحثين فى الكون وتاريخ الخليقة لدين

النصرانية ، لأن العلم المبنى على الاختبار والمشاهدة أظهر خطأ ما جاء من التاريخ فى التوراة ، ووجدت للانسان آثار فى الأرض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة فى تاريخ تكوينه ، فقام فريق من أهل الكتاب يركب التعاسيف فى التأويل ، وفريق يكفر بالكتاب والتنزيل

(أقول) فإن قلت : إن النبى ﷺ قال فى حديث أبى هريرة فى الصحيحين فى تعليل التوصية بالنساء « فإن المرأة خلقت من ضلع » قلنا : إنه على حد قوله تعالى (خلق الانسان من عجل) كما قالوا فى شرحه . وسيأتى فى تفسير القصة من سورة الأعراف . ولم يتعرض شيخنا فى الدرس لقوله تعالى (وخلق منها زوجها) ولكنه كتب بعد ذلك وقبل ما ستراه عنه فى تفسير سورة النساء ما نصه :

[وأما قوله تعالى فى سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) وفى سورة الأعراف (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) فقد قال غير واحد من المفسرين : إن المعنى من جنسها كما قال فى سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فان المعنى هناك على أنه خلق أزواجا من جنسنا ، ولا يصح أن يراد أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها كما هو ظاهر]

(قال) وأما مسألة عصمة آدم فالجرى على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه ، كسائر ماورد فى القصة مما لا يركن العقل إلى ظاهره ، ولنا أن نقول : إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه (فنسى ولم نجد له عزما) والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الاوامر بعد النبوة . وقد يكون الذى وقع من آدم نسياناً ، فسمى تفخيما لأمره عصياناً ، والنسيان والسهو مما لا ينافى العصمة ، فان جعلنا الكلام كله تمثيلا فحديث الاخلال بالعصمة مما لا يمر بذهن العاقل

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف فى التمثيل فيقال فيه : إن القرآن كثيراً مايصور المعانى بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية لما فى ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الأذهان ، إلى ما وراءها من المعانى ،

كقوله تعالى(٥٠ : ٣٠ يوم نقول لجهنم هل امتلأت؟ وتقول هل من مزيد) فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه ، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ، ونحوه قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء (٤١ : ١١ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) والمعنى فى التمثيل الظاهر

(أقول) وهذا الأمر يسمى أمر التكوين ، ويقابله أمر التشريع، وإنما سمى أمر التكوين للتعبير عنه فى التنزيل بقوله تعالى (٣٦ : ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فهو تصوير لتعلق إرادة الربوبية بالإيجاد ، ولا أذكر عن أحد من المفسرين المتبعين للأثر تصريحاً بأن الأوامر فى قصة آدم من أمر التكوين إلا الحافظ ابن كثير فإنه ذهب فى تفسير (قال فاهبط منها) من سورة الأعراف إلى أن الأمر فيه أمر قدرى كونى ، ومثله ما فى معناه من قصة آدم ومن الآيات الأخرى من مخاطبة إبليس للرب وجوابها فى شأن اغوائه للبشر وانظاره إلى يوم القيامة

(قال الاستاذ الإمام ما مثاله) وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا : إن أخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض — وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعداداً فى العلم والعمل لاحد لهما هو تصوير لما فى استعداد الانسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض — وتعليم آدم الاسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض وانتفاعه به فى استعمارها — وعرض الاسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته — وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك — وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الانسان عن إخضاع روح الشر وابطال داعية خواطر السوء التى هى مثار التنازع والتخاصم، والتعدى والافساد فى الأرض — ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه

أفراده كالملائكة بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى

هذا ملخص ما تقدم فى سابق آيات القصة

وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجد فى الجنة التى هى الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرأى ومأكول ومشروب ومشموم ومسموع ، فى ظل ظليل ، وهواء عليل ، وماء سلسبيل ، كما قال تعالى فى القصة من سورة طه (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون فى الجنة وهو مستعمل ، ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبى القبيلة الأكبر على القبيلة ، فيقال كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، وكان من قريش كذا يعنى القبيلة التى أبوها قريش ، وفى كلام العرب كثير من هذا

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر الله تعالى فى مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وفسرت بكلمة الكفر . وفى الحديث تشبيه المؤمن بشجرة النخل ـ ويصح أن يكون المراد بالأمر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين فقد تقدم أن الأمر الإلهى قسمان : أمر تكوين وأمر تكليف

والمعنى على هذا : أن الله تعالى كون النوع البشرى على ما نشاهد فى الأطوار التدريجية التى قال فيها سبحانه (٧١ : ١٤ وقد خلقكم أطواراً) فأولها طور الطفولية [1] وهى لاهم فيها ولا كدر ، وإنما هى لعب ولهو، كأن الطفل دائماً فى جنة ملتفة الأشجار ، يانعة الثمار ، جارية الأنهار ، متناغية الأطيار ، وهذا معنى (اسكن أنت وزوجك الجنة) وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمى للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل فى جميع الشئون البشرية ، فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين ، أى إنه تعالى خلق البشر ذكوراً وإناثاً هكذا ـ وأمرهما

---

(٢) المتبادر من الأطوار فى الآية هو خلق الأفراد من سلالة من طين ثم جعله نطفة فعلقة فمضغة الخ كما فى سورة المؤمنون ، وماذكره الاستاذ أطوار لنوع الانسان

بالأكل حيث شاءا عبارة عن إباحة الطيبات و إلهام معرفة الخير — والنهى عن الشجرة عبارة عن إلهـام معرفة الشر ، وأن الفطرة تهدى إلى قبحه ووجوب احتنابه . وهـذان الإلهامان اللذان يكونان للانسان فى الطور الثانى وهو طور التميز هما المراد بقوله تعالى (٩٠ : ١١ وهديناه النجدين) ووسوسة الشيطان و إزلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التى تلابس النفوس البشرية فتقوى فيها داعية الشر ، أى إن إلهام التقوى والخير أقوى فى فطرة الإنسان أو هو الأصل ، ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه — والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الاعتدال الفطرى — وأما تلقى آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف فى الفطرة السليمة من الاعتبار بالمقوبات التى تعقب الأفعال السيئة ، ورجوعه إلى الله تعالى عند الضيق والتجائه إليه فى الشدة . وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه إلى المخرج من الضيق والتفلت من شراك البلاء ، بعد ذلك الاعتبار والالتجاء ، وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتى عيسى و يخلصهم منها وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ، و يرده الوحى المحكم المتواتر

فحاصل القول : أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة . طور الطفولية وهو طور نعيم وراحة ، وطور التميز الناقص وفيه يكون الإنسان عرضـة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشد والإستواء وهو الذى يعتبر فيه بنتائج الحوادث ، و يلتجىء فيه عند الشدة إلى القوة الغيبية العليا التى منها كل شىء و إليها يرجع الأمر كله ، فهكذا كان الانسان فى أفراده مثال للانسان فى مجموعه (قال الأستاذ) كأن تدرج الإنسان فى حياته الاجتماعية ابتدأ ساذجا سليم الفطرة ، قويم الوجهة ، مقتصراً فى طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونا على دفع ماعساه يصيبه من مزعجات الكون وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر و يسمونه بالذهبى

ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ماليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما فى نفوس سائرهم فثار النزاع ، وعظم الخلاف ، واستنزل الشقاء ، وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للاعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

(وأقول الآن) إن توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على الحقيقة قد كانت بالرجوع إلى الله واعترافه مع حواء بظلمهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبر العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر الخ ماقاله شيخنا هنا تبعاً لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين ، وقد بين هو فى بحث الحاجة إلى الرسالة من رسالة التوحيد أن عقل البشر لا يستقل بوضع حدود للاعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الأهواء والرغبات ، بل لا بد له من تشريع إلهى لذلك ، ولكنه أوجز هنا فترك المسألة مبهمة مظلمة ، وإننا نرى أن طور العقل والفكر قد بلغ فى هذا العصر مرتقى لم يعرف فى التاريخ ما يقربه ، ووضع علماؤه وحكماؤه شرائع وقوانين لإيقاف التنازع والتخاصم عند حد لا يتفاقم شره ، ثم نرى أعلم هذه الأمم ودولها مبعث الشرور والشقاوة ، والخبث والرياء والحروب والفتن ، فلا هداية إلا هداية الدين الإلهى الذى تذعن له الأنفس بمحض العبودية لله تعالى .

(قال) وبقى طور آخر أعلى من هذه الأطوار ، وهو منتهى الكمال وأعنى به طور الدين الإلهى والوحى السماوى الذى به كمال الهداية الانسانية . وبيانه فى قوله تعالى

---

(٣٨) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

أمرهم الله تعالى بالهبوط مرتين ، فالأولى بيان لحالهم فى أنفسهم بعد الهبوط من تلك الجنة أو الخروج من ذلك الطور وهو أن حالهم تقتضى العداوة والاستقرار فى الأرض والتمتع بها ، وعدم الخلود فيها ، والثانية بيان لحالهم من حيث الطاعة

والمعصية وآثارهما ، وهى أن حالة الإنسان فى هذا الطور لاتكون عصيانا مستمراً شاملا ، ولا تكون هدى واجتباء عاماً ـ كما كان يفهم لو اقتصر على ذكر توبة الله على آدم وهدايته واجتبائه ـ وإنما الأمر موكول إلى اجتهادالإنسان وسعيه،ومن رحمة الله تعالى به أن يجعل فى بعض أفراده الوحى ويعلمهم طرق الهداية ، فمن سلكها فاز وسعد ، ومن تنكبها خسر وشقى ، هذا هو السر فى إعادة ذكرالهبوط لا أنه أعيد للتأكيد كما زعموا .

قال تعالى ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ أى فقد انتهى طور النعيم الخالص والراحة العامة وادخلوا فى طور لكم فيه طريقان :هدى وضلال ، إيمان وكفران، فلاح وخسران ﴿ فاما يأتينكم منى هدى﴾ من رسول مرشد وكتاب مبين ﴿فمن تبع هداى﴾ الذى أشرعه ، وسلك صراطى المستقيم الذى أحدده ﴿ فلا خوف عليهم﴾ من وسوسة الشيطان،ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران﴿ولاهم يحزنون﴾ على فوت مطلوب ، أو فقدمحبوب ، لأنهم يعلمون بهذه الهدايةأن الصبر والتسليم مما يرضى الله تعالى ويوجب مثوبته ، ويفتح للانسان باب الاعتبار بالحوادث، ويقويه على مصارعة الكوارث، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته،وأفضل تعزية عما فقده .

قال الأستاذ الإمام مامثاله : الخوف عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه ، أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه، والحزن ألم يلم بالإنسان إذا فقد مايحب ، وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطمأنينة التامة فى مقابلة ماتحدثه كلمة (اهبطوا) من الخوف من سوء المنقلب ، وما تثيره من كوامن الرعب ، فالمهتدون بهداية الله تعالى لايخافون مما هو آت ، ولا يحزنون على مافات ، لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته ، يسهل عليه كل مايستقبله، ويهون عليه كل ما أصابه أو فقده ، لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب فى الكسب ، لايلبث أن يزول بلذة الربح الذى يقع أو يتوقع .

وإذا قال قائل: إن الدين يقيد حرية الإنسان ويمنعه بعض اللذات التى يقدر على التمتع بها ، ويحزنه الحرمان منها ، فكيف يكون هو المأمن من الأحزان ، ويكون باتباعه الفوز وبتركه الخسران؟ فجوابه : إن الدين لا يمنع من لذة إلا إذا كان فى إصابتها ضرر على مصيبها ، أو على أحد إخوانه من أبناء جنسه الذين يفوته من منافع تعاونهم إذا آذاهم أكثر مما يناله بالتلذذ بإيذائهم ، ولو تمثلت لمستحل اللذة المحرمة مضارها التى تعقبها فى نفسه وفى الناس ، وتصور مالها من التأثير فى فساد العمران لو كانت عامة، وكان صحيح العقل معتدل الفطرة، لرجع عنها متمثلا بقول الشاعر

* لاخير فى لذة من بعدها كدر *

فكيف إذا كان مع ذلك يؤمن باليوم الآخر، ويعلم أن هذه المحرمات تدنس الروح فلا تكون أهلا لدار الكرامة فى يوم القيامة .

(قال الأستاذ) وليست سعادة الإنسان فى حرية البهائم بل فى الحرية التى تكون فى دائرة الشرع ومحيطه. فمن اتبع هداية الله فلا شك أنه يتمتع تمتعا حسناً ويتلقى بالصبر كل ما أصابه، وبالطمأنينة مايتوقع أن يصيبه ، فلا يخاف ولا يحزن

يريد أن رجاء الإنسان فيما وراء الطبيعة هو الذى يقيه من تحكم عوادى الطبيعة فيه ، وبدون ذلك الرجاء تتحكم فيه أشد مما تتحكم فى البهائم التى هى أقوى منه طبيعة (وخلق الإنسان ضعيفا) فالتماس السعادة بحرية البهائم ، هو الشقاء اللازم، وقد صرح بلفظ التمتع الحسن أخذا من قوله تعالى (١١ : ٣ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) الآية .
فالآيات الدالة على أن سعادة الدنيا معلولة للاهتداء بالدين كثيرة جداً ، وقد حجبها عن كثير من المسلمين قولهم فى الكافرين: لهم الدنيا ولنا الآخرة ، يغالطون أنفسهم بحجة القرآن عليهم . وآيات سورة طه فى قصة آدم أوضح فى المراد من آيات البقرة، وهى قوله عز وجل (٢٠ : ١٢٣ ، ١٢٤ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) الآيات .

قال تعالى ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ (أقول) الآيات : جمع آية وهى

كما قال الجمهور: العلامة الظاهرة قال الراغب وحقيقته لكل شيء ظاهر ملازم لشيء باطن يعرف به و يدرك بإدراكه حسياً كان كأعلام الطرق ومنار السفن أو عقلياً كالدلائل المؤلفة من مقدمات ونتيجة اه بالمعنى (قال) واشتقاق الآية إما من أى فانهاهى التى تبين أيًّا من أى،والصحيح أنها مشتقة من التأيِّى الذى هو التثبت والاقامة على الشيء اه أقول: بل أصله قصد آية الشيء أى شخصه ، ومنه قول الشاعر :

تتأيا الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

أى تتحرى الطير وتقصد خروجه صباحا إلى القتال أو الصيد لثقتها بما سبق من التجارب بأن ستشبع مما يترك لها من الفرائس

وأطلقت الآية على كل قسم من الأقسام التى تتألف منها سور القرآن العظيم وتفصله من غيره فاصلة يقف القارىء عندها فى تلاوته. و يميزها الكاتب له ببياض أو بنقطة دائرة أو ذات نقش أو بالعدد . والعمدة فى معرفة الآيات بفواصلها التوقيف المأثور عن النبى ﷺ و إن كان أكثرها يدرك من النظم ، والآيات تطلق فى القرآن على هذه وهى الآيات المنزلة من عند الله تعالى لأنها دلائل لفظية على العقائد والحكم والأحكام والآداب التى شرعها لعباده كما تدل فى جملتها على كونها من عند الله تعالى لاشتمالها على ماتقدم بيانه من وجوه إعجاز البشر عن مثلها . وتطلق أيضاً على كل ما يدل على وجود الخالق تعالى وقدرته ووحدانيته وصفات كماله من هذه المخلوقات ، ومن نتائج العقول و براهينها ، أو على غير ذلك من السنن والعبر

وهذه الآية مقابل قوله قبله (فمن اتبع هدى) الخ ، أى وأما الذين لم يتبعوا هداى وهم الذين كفروا بنا وكذبوا بآياتنا المبينة لسبيل ذلك الهدى – كما قال قبل قصة آدم (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) – أو : وأما الذين كفروا بآياتنا اعتقاداً ، وكذبوا بها لساناً ، فجزاؤهم ما يأتى ، والتكذيب كفر، سواء أكان عن اعتقاد بعدم صدق الرسول أم مع اعتقاد صدقه وهو تكذيب الجحود والعناد الذى قال الله لرسوله ﷺ فى أهله (٦: ٣٣ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) كما أن الكفر القلبى قد يوجد مع تصديق اللسان كما هى حال المنافقين . والمعنى كما قرره شيخنا بالاختصار : والذين كفروا وكذبوا بآياتنا

التى تجملها دلائل الهداية وحجج الإرشاد بأن جحدوا بها وأنكروها ، ولم يذعنوا لصدقها ، اتباعاً لخطوات الشيطان وعملا بوسوسته ، وذهاباً مع إغوائه ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ تقدم تفسير الخلود فى آخر الآية ٢٥ وأقول : إن هذه الجملة تدل على الحصر أو الاختصاص الإضافى ، أى أولئك الكافرون المكذبون البعداء هم دون متبعى هداى أصحاب النار وأهلها هم فيها خالدون لا يظعنون عنها . أى وهم فى خوف قاهر ، وحزن مساور ، وقد فسر الجلال الآيات بالكتب المنزلة ، وهو يصح فى القرآن فانه آية على نفسه ، وعلى صدق من جاء به ، وسائر الكتب تحتاج إلى آية تدل على أنها من عند الله تعالى

(قال الأستاذ) بعد تفسير الكفر بالجحود ، والتكذيب بالانكار : وكل منهما يأتى فى فرق من الناس ، فمنهم من لاتقوى ولا إيمان له وهم الذين لايؤمنون بالغيب لأنه ليس عندهم أصل للنظر فيما جاءهم ، فهؤلاء منكرون وهم مكذبون لأن التكذيب يشمل عدم الاعتقاد بصدق الدعوى التى جاء بها الرسول واعتقاد كذبها ، والجحود قد يأتى من المعتقد . قال تعالى (٢٧: ١٤وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)

فهذا هو الطور الأخير للانسان بعد ما وكل إلى كسبه ، وجعل فلاحه وخسرانه بعمله ، فمن لطف الله به أن أيده بهداية الدين بعد هداية الحس والوجدان والعقل ، فبهذه الهدايات يرتقى بالتدريج ما شاء الله تعالى

---

(٤٠) يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ (٤١) وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ، وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ (٤٢) وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٣) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ

لايزال الكلام فى الكتاب وكونه لاريب فيه و بيان أحوال الناس وأصنافهم فى أمره . وقد قلنا إن التفنن فى مسائل مختلفة منتظمة فى سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التى لم تسبق لبليغ ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ : ذكر الكتاب أنه لا ريب فيه ، ثم ذكر اختلاف الناس فيه فابتدأ بالمستعدين للايمان به المنتظرين للهدى الذى يضيء نوره منه ، وثنى بالمؤمنين ، وثلث بالكافرين ، وقفى عليهم بالمنافقين . ثم ضرب الأمثال لفرق الصنف الرابع ثم طالب الناس كلهم بعبادته ، ثم أقام البرهان على كون الكتاب منزلا من الله على عبده محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحدى المرتابين بما أعجزهم ، ثم حذر وأنذر ، و بشر ووعد ، ثم ذكر المثل والقدوة وهو الرسول ، وذكر اختلاف الناس فيه كما ذكر اختلافهم فى الكتاب ، ثم حاج الكافرين ، وجاءهم بأنصع البراهين ، وهو إحياؤهم مرتين و إماتتهم مرتين ، وخلق السموات والأرض لمنافعهم ، ثم ذكر خلق الإنسان و بين أطواره ، ثم طفق يخاطب الأمم والشعوب الموجودة فى البلاد التى ظهرت فيها النبوة تفصيلا ، فبدأ فى هذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذى نذكره . والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه فى سلكه ، وحسن اتساقه فى سبكه ، فهو دائر على قطب واحد فى فلكه ، وهو الكتاب ، والمرسل به ، وحاله مع المرسل اليهم . قال تعالى :

﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ (أقول) إسرائيل لقب نبى الله يعقوب ابن نبيه اسحق ابن نبيه وخليله إبراهيم (ع . م) قيل معناه الأمير المجاهد مع الله . والمراد ببنيه ذريته من أسباطه الإثنى عشر ، وأطلق عليهم لقبه فى كتبهم وتواريخهم كما تسمى العرب القبيلة كلها باسم جدها الأعلى . ولما كانت سورة البقرة أول السور المدنية الطول وكان جل يهود بلاد العرب فى جوارها دعاهم الله تعالى فيها إلى الإسلام وأقام عليهم الحجج والبراهين و بين لهم من حقيقة دينهم وتاريخ سلفهم ما لم يكن يعلمه أحد من قومه المجاورين لهم فضلا عن أهل وطنه بمكة المكرمه . قال شيخنا فى سياق درسه ما مثاله :

«اختص بني إسرائيل بالخطاب اهتماماً بهم لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب

السماويةوالمؤمنة بالأنبياءالمعروفين ، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين ، ولأن فى دخولهم فى الإسلام من الحجج على النصارى وغيرهم أقوى مما فى دخول النصارى من الحجة عليهم ، وهذه النعمة التى أطلقها فى التذكير لعظم شأنها هى نعمة جعل النبوة فيهم زمناً طويلا (أو أعم) ولذلك كانوا يسمون شعب الله كما فى كتبهم ؛ وفى القرآن إن الله اصطفاهم وفضلهم ، ولا شك أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من الله منحهم إياها بفضله ورحمته فكانوا بها مفضلين على العالمين من الأمم والشعوب وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكراً ، وأشدهم لنعمته ذكراً ، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبى يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة حجة الإعراض عن الإيمان ، وسبب إيذاء النبى عليه السلام ، لأنهم زعموا أن فضل الله تعالى محصور فيهم ، وأنه لا يبعث نبياً إلا منهم ؛ ولذلك بدأ الله تعالى خطابهم بالتذكير بنعمته ، وقفى عليه بالأمر بالوفاء بعهده ، فقال :

﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ عهد الله تعالى إليهم يعرف من الكتاب الذى نزله اليهم ، فقد عهد اليهم أن يعبدوه ولا يشركوا بهشيئاً ، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم ، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه ، وعهد اليهم أن يرسل اليهم نبياً من بنى إخوتهم أى بنى إسماعيل يقيم شعباً جديداً . هذا هو العهد الخاص المنصوص ، ويدخل فى عموم العهد عهدالله الأكبر الذى أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبر والتروى ، ووزن كل شىء بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور ، ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهى العام ، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة فى كتابهم ، لآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوا النور الذى أنزل معه وكانوا من المفلحين ، ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان بالنبى ﷺ كما فعل مفسرنا (الجلال) فإن الإيمان داخل فى العهد العام وهو من أفراد العهد الخاص فلا دليل على قصر عموم العهد المضاف عليه

هذا هو عهد الله وأما عهدهم فهو التمكين فى الأرض المقدسة والنصر على الأمم الكافرة والرفعة فى الدنيا وخفض العيش فيها . هذا هو الشائع فى التوراة التى بين أيديهم ، ولا شك أن الله تعالى قد وعدهم أيضاً بسعادة الآخرة ، ولكن

لادليل على هذا فى التوراة إلا الاشارات ، ولذلك ظن بعض الباحثين أن اليهود لايؤمنون بالبعث ؛ ومع هذا يقول (الجلال) كغيره إن هـذا العهد هو دخول الجنة و يقتصر عليه .

ولما كان من موانع الوفاء بالعهـد الذى فشا تركه فى شعب اسرائيل خوف بعضهم من بعض لما بين الرؤساء والمرؤسين من المنافع المشتركة عقب الأمر بالوفاء بقوله ﴿ و إياى فارهبون ﴾ أى إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع ، ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتم الجماهير واتبعتم الحق ، فالأولى أن لاتخافوا ولاترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها ، وهو الله الذى أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى أوالنعم كلها ، وهو وحده القادر على سلبها ، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها ، فارهبوه وحده لاترهبوا سواه .

ثم انتقل من الأمر بالوفاء بعموم العهد إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال تعالى جل شأنه ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لمـا معكم ﴾ من تعليم التوراة وكتب الأنبياء كالتوحيـد والنهى عن الفواحش والمنكرات والأمر بالمعروف وما يتصل بهذا من الارشاد الموصل إلى السعادة ، فاذا نظرتم فى القرآن ووجدتموه مصدقا لما معكم من مقاصد الدين الالهى وأصوله ووعود الأنبياء وعهودهم ، تعلمون أن الروح الذى نزل به هو عين الروح الذى نزل بما سبقه ، وتعلمون أنه لاغرض لهذا النبى الذى يدعوكم إلى مثل مادعاكم إليه موسى والأنبياء إلا تقرير الحق ، وهداية الخلق ، بعد ماطرأ من ضلالة التأويل ، وجهالة التقليد ، فبادروا إلى الايمان بهذا الكتاب الذى قامت به الحجة عليكم من وجهين (أحدهما) إعجازه (وثانيهما) كونه مصدقا لما معكم ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أى ولا تبادروا إلى الكفر به والجحود له مع جدارتكم بالسبق إليه ، وهذا الاستعمال معروف فى الكلام البليغ لهذا المعنى لايقصد بالأولية فيه حقيقتها . والخطاب عام لليهود فى كل عصر وزمان ثم قال ﴿ ولاتشتروا بآياتى ثمناً قليلا ﴾ الآيات هى الدلائل التى أيد بهـا النبى ﷺ وأعظمها القرآن فهو كقوله تعالى (اشتروا الضلالة بالهـدى) أى

لاتعرضوا عن الايمان بهذا النبي وما جاء به وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل وهو مايستفيده رؤساؤكم من المرؤسين من مال وجاه أوقعاهم فى الكبر والغرور ، وما يتوقعه المرؤسون من الزلفى والحظوة بتقليد الرؤساء واتباعهم وما يخشونه إذا خالفوهم من المهانة والذلة ، وإنما سمى هذا الجزاء قليلا لأن كل ماعدا الحق قليل وحقير بالنسبة إليه ،وكيف لايكون قليلا وصاحبه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء لاعراضه عن الآيات البينات ، والبراهين الواضحات ، ثم إنه يخسر عز الحق وما يكون له من الشأن العظيم وحسن العاقبة ، ثم إنه يخسر مرضاة الله تعالى وتحل به نقمه فى الدنيا وعقوبته فى الآخرة ، وختم هذه الآية بشبه ماختم به ماقبلها وذلك

قوله ﴿ وإياى فاتقون ﴾ وليس فى هذه مع سابقتها تكرار ولا شبه تكرار كما يتوهم ، فقد حل كل من القولين محله ، ولامندوحة عن واحد منهما لأن استبدال الباطل بالحق إنما كان منهم لاتقاء الرئيس فوت المنفعة من المرءوس ، واتقاء المرءوس غضب الرئيس ، فدحض هذه الشبهة بالأمر بتقوى الله وحده الذى بيده قلوب العباد وجوارحهم ، وهو المسخر لهم فى أعمالهم ، وبيده الخير كله ، وهو على كل شيء قدير

ثم قال ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ بينت هذه الآية مسلكهم فى الغواية والاغواء فى سياق النهى عنه . فقد جاء فى كتبهم التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم ويعملون العجائب ، وجاء فيها أيضاً أنه تعالى يبعث فيهم نبياً من ولد اسماعيل يقيم به أمة ، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) وبين علاماته بما لالبس فيه ولا اشتباه ، ولكن الأحبار والرؤساء كانوا يلبسون على العامة الحق بالباطل فيوهمونهم أن النبي ﷺ من الأنبياء الذين نعتتهم الكتب بالكذبة (حاشاه) ويكتمون مايعرفون من نعوته التى لاتنطبق على سواه ، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين وما يدعون إليه ، وكله ظاهر فيه عليه الصلاة والسلام بأكمل المظاهر .

ومن اللبس أيضاً مايفتريه الرؤساء والأحبار فيكون صاداً لهم عن سبيل الله وعن الايمان بنبيه عن ضلال وجهل وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التى زادوها على الكتب المنزلة بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض

المتقدمين وأفهامهم ، فكانوا يحكمون هذه الزيادات فى الدين حتى فى كتب الأنبياء ويعتذرون بأن الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء ، وعلى من بعدهم الأخذ بما يقولون دون مايقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم ، ولكن الله لم يقبل هذا العذر منهم فأسند إليهم ذلك اللبس وكتمان الحق الموجود فى التوراة إلى اليوم ، وكذلك لايقبل الله ممن بعدهم ترك كتابه لكلام الرؤساء بحجة أنهم أكثر علما وفهماً ، فكل مايعلم من كتاب الله تعالى يجب العمل به ، وإنما يسأل الإنسان أهل الفهم عما لا يعلم منه ليعلم فيعمل

ثم قال جل ثناؤه ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ فبعد الدعوة إلى الإيمان اليقينى دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضى لله تعالى وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظواهر والوقوف عند الرسوم فقد كانوا يصلون ولكنهم ماكانوا يقيمون الصلاة ، لأن الإقامة هى الإتيان بالشىء مقوما كاملا وهى فى الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب والخشوع بين يديه والاخلاص له فى الذكر والدعاء والثناء ، فهذا هو روح الصلاة الذى شرعت لأجله ولم تشرع لهذه الصورة ، فان الصورة تتغير فى حكم الله تعالى على ألسنة أنبيائه لأنها رابطة مذكرة ، فلم تكن للأنبياء صورة واحدة للصلاة ، ولكن هذا الروح لايتغير فهو واحد لم يختلف فيه نبى ولم ينسخ فى دين

ثم أمر بعد الصلاة التى تطهر الروح وتقربها من الله تعالى بالزكاة التى هى عنوان الإيمان ومظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس . وقد عهد فى القرآن قرن الأمر بإتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة ، ومن أقام الصلاة لا ينسى الله تعالى ولا يغفل عن فضله ، ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال فى سبيله ، مواساة لعياله ومساعدة على مصالحهم التى هى ملاك مصلحته ، فان الانسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنياً إلا بهم ومنهم ، فاذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة فى فكره ونفسه أو علة فى بدنه ، فيجب على الآخرين الأخذ بيده ، وأن يكونوا عوناً له حفظاً للمجموع الذى ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر ، وشكراً لله على ماميزهم به من النعمة ، وظاهر أن الغنى فى حاجة دائمة

إلى الفقير كما أن الفقير فى حاجة إليه ، ولكن النفوس تمرض فتغفل عن المصلحة فى بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلوا فى حب المال الذى هو شقيق الروح كما يقولون ، لهذا جعل الله بذل المال والإنفاق فى سبيل الخير علامة من علامات الإيمان ، وجعل البخل من آيات النفاق والكفر كما سيأتى فى بعض الآيات

قال الاستاذ الإمام : إن البخل ــ ومنبعه القسوة على عباد الله تعالى والحرص على المال استرسالا فى الشهوات ، وميلا مع الأهواء ــ لا يجتمع مع الإيمان الصحيح فى قلب واحد قط . وليس لأحد أن يزعم أنه يؤمن بالله وبما أنزل على رسله من الأوامر والنواهى حتى يقوم بما أمر الله فيما طلب منه على مايحب الله ويرضى

ثم أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين ، والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها ، وقد أخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جليلة لا رعاية للفاصلة كما زعم بعض المفسرين ، فليس من الجائز أن يكون فى القرآن مايعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة ، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس فكيف يقع فى كلام الله تعالى ؟ وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله تعالى فإقامة الصلاة فى المرتبة الأولى من عبادة الله تعالى لأنها روح العبادة والإخلاص له ، ويليها إيتاء الزكاة لأنها تدل أيضا على زكاء الروح وقوة الإيمان ، وأما الركوع وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها فهو فى المرتبة الثالثة فرض للتذكير بسابقيه وماهو بعبادة لذاته ، وإنما كان عبادة لأنه يؤدى امتثالا لأمر الله تعالى وإظهاراً لخشيته ، والخشوع لعظمته ، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص فلا يعد عند الله شيئاً ، وإن عده أهل الرسوم كل شىء ، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذى ذكرناه وإيتاء الزكاة ، ولا يخفى أن الفصل بين معنى الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة . وسنتكلم على الزكاة والانفاق فى سبيل الله بالتفصيل فى تفسير آية أخرى إن شاء الله تعالى .

---

(٤٤) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٥) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخَٰشِعِينَ (٤٦) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

الكلام موجه إلى بني اسرائيل وقد تقدم فى الآيات السابقة أن الله ذكرهم بنعمته ، وأمرهم بالوفاء بعهده ، وأن يرهبوه و يتقوه وحده ، وأن يؤمنوا بالقرآن ، ونهاهم أن يكونوا أول كافر به ، وأن يشتروا بآياته ثمناً قليلا ، وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموه عمداً . ثم أمرهم بإقام الصلاة و إيتاء الزكاة ، وطفق فى هذه الآيات يوبخهم على سيرتهم المعوجة فى الدين ، ويهديهم إلى طريق الخروج منها

اليهود كسائر الملل يدعون الإيمان بكتابهم والعمل به ، والمحافظة على أحكامه والقيام بما يوجبه ، ولكن الله تعالى علمنا أن من الإيمان — بل مما يسمى فى العرف إيمانا ــ مالا يعبأ به ، فيكون وجوده كعدمه ، وهو الإيمان الذى لاسلطان له على القلب ، ولا تأثير له فى إصلاح العمل ، كما قال (ومن الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر وماهم بمؤمنين) وكانت اليهود فى عهد بعثته عليه الصلاة والسلام قد وصلوا فى البعد عن جوهر الدين إلى هذا الحد . كانوا ــ ولا يزالون ــ يتلون الكتاب تلاوة يفهمون بها معانى الألفاظ ، ويجلون أوراقه وجلده ، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق تلاوته ، لأن الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به كما قال تعالى وعلى الوجه الذى يرضاه تعالى : يتلون ألفاظه وفيها البشارة بالنبى ﷺ و يأمرون بالعمل بأحكامه وآدابه من البر والتقوى ، ولكن الأحبار القارئين الآمرين الناهين ما كانوا يبينون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم وتقاليدهم ، ولا يعملون بما فيه من الأحكام إلا إذا لم يعارض حظوظهم وشهواتهم . فقد عهد الله إليهم فى الكتاب أنه يقيم من إخوانهم نبيا يقيم الحق [1] وفرض عليهم الزكاة ،

---

(١) يشير إلى ما فى الفصل الثامن عشر من سفر تثنية الاشتراع : ١٧ قال لى الرب أحسنوا فيما تكلموا ١٨ أقيم ــ وفى ترجمة أخرى «سوف أقيم» لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ١٩ ويكون أن الانسان الذى لايسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمي أنا أطالبه » وفى ترجمة أخرى « فانا أكون المنتقم من ذلك » ولم يبعث بعد موسى نبى مثل موسى فى نبوته ، أى إنه صاحب شريعة مستقلة غير محمد عليه الصلاة والسلام

ولكنهم كانوا يحرفون البشارة بالنبي ﷺ ويؤولونها . ويحتالون لمنع الزكاة فيمنعونها ، وجعلت لهم مواسم واحتفالات دينية تذكرهم بما آتى الله أنبياءهم من الآيات وما منحهم من النعم لينشطوا إلى إقامة الدين والعمل بالكتاب . ولكن القلوب قست بطول الأمد ففسقت النفوس عن أمرر بها . وهذه التوراة التي بين أيديهم لا تزال حجة عليهم ، فلو سألتهم عما فيها من الأمر بالبر والحث على الخير لاعترفوا وما أنكروا ، ولكن أين العمل الذي يهدى إليه الايمان ، فيكون عليه أقوى حجة و برهان

كذلك كان شأن أحبار اليهود وعلمائهم في معرفة ظواهر الدين بالتفصيل وكان عامتهم يعرفون من الدين العبادات العامة والاحتفالات الدينية وبعض الأمور الأخرى بالاجمال ، ويرجع المستمسك منهم بدينه في سائر أموره إلى الأحبار فيقلدهم فيما يأمرونه به ، وكانوا يأمرون بما يرونه صوابا فيما ليس لهم فيه هوى ، وإلا لجأوا إلى التأويل والتحريف والحيلة ليأخذوا من الألفاظ ما يوافق الهوى ويصيب الغرض ، فاذا وجه الخطاب في قوله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ إلى حملة الكتاب فذاك لأن الأمر والنهي وظيفتهم ، وإذا كان عاما فذاك لأن شأن العامة فيما يعرفون من الدين بالاجمال كشأن الرؤساء فيما يعرفون بالتفصيل ، ولا يكاد يوجد أحد لا يأمر بخير ولا يحث على بر ، فاذا كان الآمر لا يأتمر بما يأمر به فالحجة قائمة عليه بلسانه

وبخ الله هؤلاء القوم على أنهم كانوا يأمرون الناس بالبر كالأخذ بالحق ومعرفته لأهله ، وعمل الخير والوعد عليه بالسعادة مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكيرها بذلك ، وما أجمل التعبير عن هذه الحالة بنسيان الأنفس ؛ فان من شأن الانسان أن لا ينسى نفسه من الخير ولا يحب أن يسبقه أحد إلى السعادة ، كأنه يقول : إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه فكيف نسيتم أنفسكم ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ وتأمرون الناس باتباعه وتعرفون منه ما لا يعرفه المأمورون ؟ أفيعملون مع نقص العلم بفائدة العمل ، ولا تعملون على كمال العلم وسعته ؟ ولما كان هذا غير معقول قفى على استفهام التوبيخ بقوله ﴿أفلا تعقلون﴾

يعني ألا يوجد فيكم عقل يحبسكم عن هذا السفه؟ فان من له مسكة من العقل لا يدعى كمال العلم بالكتاب والايمان اليقيني به والقيام بالارشاد اليه : هذا

كتاب الله ، هذه وصايا الله ، هذا أمر الله ، قد وعد العامل به السعادة فى الدنيا أو الآخرة أو كليهما ، فخذوا به واستمسكوا بعراه ، وحافظوا عليه ، — ثم هو لا يعمل ولا يستمسك ؟

مثل من كانت هذه حاله كمثل رجل أمامه طريق مضيء نصبت فيه الأعلام والصوى بحيث لا يضل سالكه ، ثم هو يسلك طريقا آخر مظلما طامس الأعلام وكلما لقى فى طريقه شخصا نصح له أن لا يمشى معه ، وأن يرجع إلى طريق الهدى الذى تركه ، أو مثل ساغب يدعو الناس إلى المائدة الشهية ، ويبيت على الجوع والطوى ، أو صاد يدل العطاش على مورد الماء ولا يرد معهم

إذا كان هذا لا يقع من صحيح العقل فكذلك أمر المؤمن بشعب الإيمان وعدم الائتمار بها ، مع تذكرها وتلاوة كلام الله فيها . فلا بد لتعقل هذا من القول بأن الإيمان بالوعد على البر والوعيد على الفجور غير يقينى عند الآمر المخالف. ويؤيده أن القوم كانوا عقلاء فى كسب المال وحفظ الجاه الدنيوى وإنما ضلوا من جهة الدين بأخذه على غير وجهه

الخطاب عام لليهود الذين كان هذا حالهم وعبرة لغيرهم لأنه منبىء عن حال طبيعية للأمم فى مثل ذلك الطور الذى كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هداية للعالمين إلى يوم الدين ، لا حكاية تاريخ يقصد بها هجاء الاسرائيليين ، فلتحاسب أمة نفسها فى أفرادها ومجموعها لئلا يكون حالها كحال من ورد النص فيهم فيكون حكمها عند الله كحكمهم ، لأن الجزاء على أعمال القلوب والجوارح ، لا لمحاباة الأشخاص والأقوام أو معاداتهم

(فان قيل) إن من يأمر غيره بالبر وينسى نفسه قد يكون متكلا فى ترك العمل على الشفاعات والمكفرات، كالأذكار والصدقات ، لا أنه يترك لعدم اليقين فى الإيمان ، وإذا أمر غيره بالبر مع هذا فذاك لأنه يلاحظ المكفرات فى شأن نفسه ولا يلاحظها فى شأن غيره (نقول) إن العالم بالدين لا يخفى عليه أن حكم الله تعالى واحد عام ، فكيف يحتم البر على غيره ويوهمه أنه لا يقرب به من رضوان الله

ويبعده من سخطه إلا هو ، وينسى نفسه فلا يحتم عليها ذلك ؟ ثم كيف يجهل أن الشفاعات والأعمال الصالحة التي ورد أنها تكفر السيئات لا يصح أن تكون مثبطة عن عمل البر أو سببا لتركه لأنه خلاف المقصود من الدين ؟ فهل يكون فرع من فروع الدين هادما لأصوله وسائر فروعه ؟ كل ذلك كان ينبغي أن يكون بعيداً عن العالم بالدين الذي يتلو كتاب الله تعالى ولكن هذا الضرب من الخذلان يعرض لأرباب الأديان عند فساد حال الأمم ، فنبه الله تعالى عليه بهذا التعبير اللطيف وهو نسيان النفس مع تلاوة الكتاب ، فكأن الزاعم أنه مؤمن ولا يعمل عمل الإيمان ، نسي أنه هو الذي يزعم الإيمان ، وصاحب هذا النسيان يمضي في العمل القبيح من غير فكر ولا روية بل انبعاثا مع الحظوظ والشهوات التي حكمها في نفسه ، وملكها زمام عقله وحسه ، ولكنه لا يلاحظها في غيره عند ما يعرض عليه عمله السيء أو يراه معرضا عن عمل البر ولذلك يعظه ويذمه

بعد ما بين سوء حالهم وأن عقلهم لم ينفعهم والكتاب لم يذكرهم ، أرشدهم إلى الطريقة المثلى للانتفاع بالكتاب والعقل والعمل بالعلم النافع فان العمل السيء الذي سببه نسيان النفس ليس طبيعيا كالنفس لا يمكن دفعه ومقاومته بل هو اختياري وسببه عارض تمكن إزالته بما أرشد الله إليه في قوله ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾

قال الاستاذ الامام : أمر بالصبر وهو كما قال المفسر حبس النفس على ما تكره . ونقول بعبارة أوضح : هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان كما يقول العامة في أمثالهم .. وذكر مثلا بمعنى قول الشاعر :

صبرت ولا والله مالي طاقة على الصبر، لكني صبرت على الرغم

والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله تعالى بالجزاء الحسن للصابرين على أعمال البر التي تشق على النفس وعن الشهوات المحرمة التي تصبو إليها ، وبتذكر أن المصائب من فعل الله وتصرفه في خلقه فيجب الخضوع له والتسليم لأمره ، ومن عجيب أمر هذا الصبر : أنه يقي الانسان من الخسران متى حسن في كل شيء كما تفيده سورة (العصر) ويؤيده الاختبار ، وقد اشتهر أن « من صبر ظفر » وربما أتينا على شيء من معنى الصبر وأنه قوة من قوى النفس

تدخل النظام فى كل عمل من أعمالها — فى موضع آخر

الاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الاسباب التى تأفك الناس وتصرفهم عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات ، والولوع باللذات ، والبعد عن المؤلمات ، ثم بالقياس بينها و بين مارغب الله فيه ، أو أوعد بالعقاب على فعله ، ثم بملاحظة أن ماأوعد الله تعالى به أولى بأن يتقى ، وما وعد به أولى بأن يرجى و يطلب ، وضرب الاستاذ لمن يفقدون الصبر فيقعون فى الخسران مثلا : صاحب الحاجة يبزه الطيش والتسرع إلى قضاء حاجته و يفقد الصبر على مرارتها فيكذب لاعتقاد أن حاجته تقضى فيدفع المضرة أو يجلب المنفعة بالكذب ، وأنه بالصدق يفوته هذا ، فيقترف جريمة الكذب لهذا الاعتقاد ، وهو ظان بل واهم ، ومتى اقترفه مرة هان عليه فيعود إليه فيكون كذابا [ومتى عرف بذلك ضاعت الثقه به وفسد حاله وأصبح يجد الحاجة إلى الصدق أشد مماكان منها إلى الكذب] و يؤيد ماقاله الأستاذ الإمام : حديث « لايزال العبد يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » رواه الشيخان عن ابن مسعود ، وإذا ذكر مثل هذا الرجل أو تذكر من تلقاء نفسه الوعيد على الكذب وما ورد فى ذلك من آيات فى كتاب الله وآثار عن رسول الله ﷺ وآله وأصحابه ومن تبعهم باحسان ، ومايجلبه لصاحبه من مقت الله وغضبه ، يسبق إلى ذهنه المكفرات (ومثلها الشفاعات وسعة العفو والمغفرة) كالاستغفار قبل النوم مائة مرة وقول كذا من الذكر بعد صلاة الصبح كذا وكذا مرة فلا يبقى للوعيد معها أثر ، إذ يذعن بأن ذنبه يغفر لامحالة ، و ينسى سبب المغفرة الحقيقى وهو التوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى ، وأن العفو عن غير التائب الأواب إلى الله تعالى مجهول بالنسبة إلى علمنا و إن كان جائزاً عقلا ، فإننا لم نطلع على ما فى علم الله تعالى فنعلم أننا ممن يعفو عنهم

[وكيف نترك ماجاء عن الله فى كتابه وعلى لسان نبيه من النصوص القاطعة الدالة على أن لعنة الله مسجلة على الكاذبين وهى بعمومها لاتدع لوهم مجالا فى نزول سخط الله بالكاذب ، ثم نخترع لأنفسنا تعلة نتوكأ عليها فى ارتكاب هذا الجريرة ونسندها إلى سعة عفو الله ، أو إلى مجمل من القول لايبينه إلا تلك النصوص القاطعة ؟ إن هذا إلا

خيال أو تصوير خيال ، أو فقد للإيمان بصحة تلك النصوص القاطعة نعوذ بالله]

(وأقول) إنما جعل شيخنا جريمة الكذب مثلا لاستباحة فاسدى الدين المعاصى لأنه فى معناه العام أكبر الكبائر وشر الرذائل حتى أن الكفر والشرك شعبة منه ، ولأنه ليس مما تغلب المرء عليه سورة غضب أو ثورة شهوة بل يقترف بالتروى والتعمد ، ولأنه مع ذلك عام فاش فى جميع طبقات الناس فى عصرنا هذا حتى العلماء والوزراء ومن فوقهم . ومن العجائب أننا سمعنا بآذاننا وقرأناه ورويناه عن أعداء الإصلاح وأهله من افتراء الكذب على دعاته مالا تستطيع عقولنا له تأويلا إلا بما كتبه شيخنا فى هذه العبارة من الخبال فى أنفسهم التى فسدت فطرتها : أو من فقد الإيمان بصحة النصوص إما فقداً تاماً عاما و إما فقداً خاصاً بالحال التى يقترون فيها الكذب وغيره من الجرائم على حد ماورد فى الحديث المتفق عليه « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » الخ على أحد التأويلات له . ووجه العجب والغرابة فى هذا النوع من الكذب : أنه بحسب الظاهر انتصار للدين ودفاع عنه وهو هدم له .

ثم أقول إن مثل من يقترف السيئات معتمداً على العفو والشفاعة كمثل من يرتكب الجرائم فى ملأ من الناس وعلى رءوس الاشهاد متعرضا لقبض الشرطة عليه وسوقه إلى المحكمة لتحكم عليه بعقوبة الجريمة اعتماداً على أن الامير أو السلطان قد يعفو عنه بعد الحكم عليه بالعقوبة ومثل هذا لايختلف اثنان فى حمقه . والله تعالى قد بين لنا شرط نفع الأعمال الصالحة فى مغفرة الذنوب وهو اقترانها بالتوبة الصحيحة كقوله فى حكاية دعاء الملائكة المؤمنين (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) الآيات وقوله (ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا) وقوله (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وأما الشفاعة فحسبك قوله فيها (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مع الجزم بأنه تعالى لايرضى بالكذب ولا بغيره من الجرائم . ومن يأذن تعالى لهم بالشفاعة لايعلمهم غيره عز وجل

ثم قال الأستاذ الإمام مامعناه : ومن الناس من يكتفى بالاعتذار عن ذنوبه وجرائمه بأنه غير معصوم ، وذكر بعض الشواهد عمن يظن أن لهم فى الدين قدم صدق ، وقال إن من هذا رأيه يتصور أن الصدق واتباع الحق إنما هو شأن طائفة

معدودة من البشر وهم الأنبياء عليهم السلام ، وكل من عداهم فليس من شأنه أن يثبت على عمل صالح ، ويكتفى بهذه التكأة فى تسلية نفسه وتجريئها على الجرائم وكفى بهذا حمقاً ، فليس يلزم من كون غير النبى ليس معصوما أن يكون إلف مآثم ، وحلف جرائم ، وخدن عظائم ، ولو لزم أن يكون الناس هكذا لكانت الشرائع عبثاً ، والتهذيب لغواً ، ولفسدت الأرض وخرب العمران .

[وهل يصح فى حكم العقل أن يقال: إن الشرائع والحدود وضروب الوعد والوعيد لم ينعم الله بتشريعها إلا لأجل المعصومين ؟ وهل يحتاج المعصوم إلى وعد أو وعيد؟ وما فائدتهما بالنسبة إليه ، وقد أيقن بتوفيق الله له وأنه لا يأتى أمراً يخالف ما أمر به ولا يقترف شيئاً مما نهى عنه ؟ ثم كيف لا يكون لغير المعصومين نصيب فى الوعيد ولا الزجر مع أنهم أحق الناس بالردع وأحوجهم إلى التخويف من سوء العاقبة؟]

وأما الاستعانة بالصلاة فهى أقرب إلى حصول المأمول وإرجاع النفس إلى الله تعالى لما لها من التأثير فى الروح ، ولكنها أشق على النفس الأمارة بالسوء . ولذلك قال تعالى ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ أى لثقيلة شديدة الوقع كقوله (كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) إلا على المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى . فهؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة الصبر وكل الخلائق الحسنة لما تعطيه الصلاة من مراقبة الله تعالى . كما قال عز وجل (إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين) فمن خواص الصلاة الصبر ونفى الجزع ، ومن خواصها النهى عن الفحشاء والمنكر . ومن خواصها الجود والسخاء ـ فالمصلى الحقيقى هو البار الحقيقى الذى لا يترك الحق لأجل شهوة ، ولا لما يعرض له فى معاملاته مع الخلق من خوف وخشية . هذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال . ولذلك قال تعالى (قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون)

ثم وصف الخاشعين وصفا يناسب المقام ، ويظهر وجه الاستعانة به فقال ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون ﴾ أى الذين يتوقعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء وأنهم اليه راجعون . بعد البعث لا مرجع لهم إلى

غيره - قال شيخنا: فالإيمان بلقاء الله تعالى هو الذى يوقف المعتقد عند حدوده . ولو لم يكن الاعتقاد يقينياً ، فان الذى يغلب على ظنه أن هذا الشيء ضار يجتنبه أو أنه نافع يطلبه ، ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن ، وقد فسر الظن مفسرنا (الجلال) باليقين لأنه الاعتقاد المنجى فى الآخرة ، وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ فى التقريع والتوبيخ كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرءون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذى يأخذ صاحبه بالاحتياط (أقول) بل هو تقليد عادى محض كالعادات القومية والوطنية فهو لا ينجى صاحبه فى الآخرة

---

(٤٦) يَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

تقدم تذكير بنى إسرائيل بالنعمة فى آية قبل هذه الآية مقرونا بالأمر بالوفاء بعهد الله ، و بالوعد بالجزاء عليه ، والأمر بالخشية منه والرهبة له وحده . (وهى آية ٣٩) وتلاها آيات أمرهم فيها بالإيمان بالقرآن ونهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ثم أمرهم بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة ، ثم وبخهم على نسيان أنفسهم من البر مع أمرهم الناس به وتلاوتهم الكتاب الداعى إليه ، ودلهم على الطريق التى لو سلكوها عوفوا من هذا النسيان ، تلك الطريق هى الاستعانة بالصبر والصلاة التى فقدوها بفقد روحها و هو الإخلاص والخشوع : و بعد هذا عاد إلى التذكير بالنعمة بنوع من التفصيل ، فان النعمة فى الآية الأولى مجملة والاجمال ينبه الفكر إلى الذكر فى الجملة ، فاذا تلاه التفصيل والبيان كان على استعداد تام لكمال الفهم [فيكون التذكر أتم والتأثر أقوى ، والشكر على النعمة أرجى]

ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته عليهم ، وتفضيله إياهم على الناس ، إحياء لشعور الكرامة فى نفوسهم ، ووصله بالأمر باتقاء يوم الدين والجزاء . وهذا أسلوب حكيم فى الوعظ ، فينبغى لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور

الكرامة فى نفوس الموعوظين لتستمد بذلك لقبول الموعظة [وتجد من ذلك الإحساس معونة من العزيمة الصادقة التى هى من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة ، فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلوها ونظرت إلى مافى الرذائل من الخسة أبى لها ذلك الشعور ـ شعور العلو والرفعة ـ أن تنحط إلى تعاطى تلك الخسائس ، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ على بلوغ قصده من نفس من يوجه إليه وعظه ، ثم إن فى الوعظ مساً يؤلم نفس الموعوظ وجرحا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه والاستنكاف من سماعه ، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه، و إباء ماينمى إليه من الشرف أن يدوم على مثل مايقترف يقبل بالنفس على القبول كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه]

ألا و إن هذا الشعور شعور الشرف والرفعة ملازم للانسان لا يفارقه ولكنه قد يضعف حتى لا يظهر له أثر ، وفى تحريك الواعظ له اعتراف ضمنى بكرامة وفضل الموعوظ يشفعان له بما يستلزمه الوعظ من مظنة الإهانة فيسهل احتماله و يقرب قبوله

شعور العزة والكرامة أمر شريف يحييه الإيمان فى نفوس المؤمنين الصادقين بل يستلزمه على وجه أكمل لأن صاحب الايمان الصحيح يرى أن له نسبة إلى الرب العظيم خالق السموات والأرض ، وأنه سنده وممده ، وعند ذلك تعلو نفسه وترتفع كما قيل:

قوم يخالجهم زهو بسيدهم   والعبد يزهو على مقدار مولاه

من كان يشعر لنفسه بقيمة أو يجد لها حقاً فى أن تعز وتكرم تراه إذا خلا بنفسه وتذكر أنه ألم بنقيصة يتألم و يتململ و يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. و إذا تذكر المؤمن أن قلبه الذى تشرف بمعرفة الله تعالى [وأن شرف تلك المعرفة خلصه من العبودية لغيره وصيره مربوبا لرب العالمين وحده فهو فى ذلك مع أرفع رفيع وأكرم كريم سواء ـ إذا ذكر ذلك لم يرمن اللائق بمثل هذا الاختصاص أن يجاوره مايدنسه من الاستعباد لما يذله ، بل يرى أن ذلك الشعور الطاهر والعرفان الهادى إلى مقامات الكرامة لا ينبغى أن يزاحمه فى موطنه من القلب دنس من رجس الرذائل] فينفر من هذه المزاحمة وتثقل عليه و يسهل عليه التزكى مما ألم به والانابة إلى الله تعالى (قال) لهذا بدأ الله تعالى تذكير بنى إسرائيل بما بدأ وثنى بما ثنى ،

وهو يتضمن من التقريع والتوبيخ ما يشعر بغلظ طباعهم وفساد قلوبهم فان من لا يتأدب بإحياء إحساس الكرامة ، يؤدب بالتأنيب والاهانة

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة

فقوله تعالى ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ مؤكد لمثله فى الآية ٣٩ وتمهيد لما عطفه عليه من تفصيل الاجمال فى الآية وما بعدها من الآيات ، وما اقترن به من بيان كفرهم للنعم ،وما تخللها من المواعظ والحجج، وأوله وأعلاه قوله ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أى أعطيتكم من الفضل - وهو الزيادة فيما يحسن - مالم أعط غيركم من الشعوب حتى ذات المزايا الدنيوية كالمصريين وسكان البلاد المقدسة

قال الأستاذ الإمام مامعناه : ناداهم باسم أبيهم الذى هو أصل عزهم وسؤددهم ومنشأ تفضيلهم ، وأسند النعمة إليهم جميعا لا إليه وحده لأن النعمة عمتهم والتفضيل شملهم ، ثم طفق يفصل النعمة التى ذكرها مجملة فيما سبق بذكر أمهات أنواعها فذكر تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله ، فإن بنى إسرائيل كغيرهم من البشر . والتفضيل هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل ، لأن الذى يرى نفسه رذلا خسيسا ، لا يبالى ما يفعل . ومن يرى نفسه مفضلا مكرما، فانه يترفع عن الدنايا والخسائس التى تدنس شرفه وتذهب بفضله . والحكمة فى التذكير بالتفضيل : أن يتذكروا أن الذى فضلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمته ، وتنبيههم إلى عدم الذهول عن أنفسهم ليذكروها عند أمر الناس بالبر ، و يعلموا أنهم أولى بأن يبروا ممن يأمرونهم بالبر ، لأنهم يتلون الكتاب الداعى إليه وهو آية تفضيلهم. والى أنهم أحق باستعمال الفكر فى الآيات التى أوتيها النبى ﷺ وأجدر من جميع الشعوب بالإيمان به ، فإن المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل هو عليه

ثم إن الفضل على العالمين إن كان بكثرة الأنبياء فيهم فهو ظاهر على عمومه لأنه لا يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم فى هذه المزية . ولا تقضى هذه الفضيلة بأن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم ، ولا تنافى أن يفضلهم أخس الشعوب — بله غيره — إذا هم انحرفوا عن هدى أنبيائهم وتركوا سنتهم واهتدى إليها

ذلك الشعب الذى كان مفضولا . وإن كان المراد من التفضيل هو القرب من الله تعالى برضاته، فلا بد من تخصيصه بأولئك الأنبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه ، ومن تقييده بمدة الاستقامة على العمل الذى استحقوا به التفضيل

ثم قال تعالى ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ أى واحذروا يوماً عظيما أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله فى جميع الأحوال ، ومراقبته فى جميع الأعمال ، فهو يوم لا تقضى فيه نفس، مهما يكن قدرها عظيما عن نفس مهما يكن ذنبها صغيراً - شيئا ما ، كحمل وزرها ، أو تكفير ذنبها (٣٥ : ١٨ ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل يوم القيامة مثلا للاشعار بأن التصرف فى ذلك اليوم والأمر كله لله ، فليس فيه ما اعتاد الناس فى هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض . وعبر عن هذا المعنى فى أول سورة بقوله (مالك يوم الدين) ثم وصفه هنا بوصف آخر يناسب الأول فقال ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تقبل) بالتاء، والمعنى لا يقبل منها أن تأتى بشفيع يشفع لها ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هى استطاعت أن تأتى بذلك كما يظن أكثر الكفار، ولن تستطيع. قال البيضاوى: وكأنه أريد بالآية نفى أن يدفع أحد عن أحد العذاب من كل وجه محتمل ، وفصل هذه الوجوه بما يشمل الثلاث المنفية، وجملة المعنى: أنه يوم لا تأثير لأحد فيه ولا كسب، ولا ينطق فيه أحد إلا بإذن الله تعالى . وقال (الجلال) أى ليس لها شفاعة فتقبل، واستدل بقوله تعالى حكاية عن المجرمين فى الآخرة (٢٦ : ١٠٠ فما لنا من شافعين) الآية وفسر العدل بالفداء قال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أى يمنعون من عذاب الله .

قال الأستاذ الإمام : ولا دليل فى هذا على أن المراد ما ذكره فى مسألة الشفاعة وإنما السياق فى الآية وأمثالها يدل على أن المراد بيان أن ذلك اليوم يوم تتقطع فيه الأسباب ، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة هذه الحياة من انطلاق الانسان فى اختياره يدفع عن نفسه بالعدل والفداء ، ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند

السلاطين والأمراء ، وقد يوجد له فيها أنصار ينصرونه بالحق و بالباطل على سواء . بل يكون له فى ذلك اليوم شأن آخر مع ربه تضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاصه فى عمله ، قبل حلول أجله ، ورحمة الله العلى الكبير له ، لضعف حوله ، وضيق طوله ، وأنه يوم لا يتحرك فيه عضو إلا بإذن الله ، ولا يقدر أحد أن ينبس بكلمة إلا بإذن الله (١٩:٨٢ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله)

كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من أمم الجاهلية وأهل الملل الوثنية كقدماء المصريين واليونان يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا فيتوهمون أنه يمكن تخلص المجرمين من العقاب بفداء يدفع بدلا وجزاء عنه – كما يستبدل بعض حكامهم منفعة مالية بعقوبة بدنية – أو بشفاعة من بعض المقربين إلى الحاكم يغير بها رأيه و يفسخ إرادته . ولقد اكتسح الإسلام هذه العقائد وآثارها العملية بالتوحيد الخالص ، وأتى بنيانها من القواعد ، ولكن المسلمين لم يسلموا منها فقد دخل فى الإسلام أقوام يحملون أوزاراً مما كانوا عليه من الوثنية ، ولم يلقنوا الدين من القرآن ولا كما أرشد القرآن ، ولكنهم تقلدوه ممن لا يعرفه حق المعرفة ، ولقنوه كما ترشد إليه كتب التقليد من مصطلحات مبتدعة ، فكانوا على بقية مما كان عندهم وعلى جهل بالإسلام ، وجاء قوم آخرون تعمدوا الافساد فجعلوا بالتأويل الباطلَ حقاً والكذب صدقا

وذكر الأستاذ الامام هنا بعض العادات المصرية التى لا تزال يعمل بها باسم الدين وهى من إرث قدماء الوثنيين ، كأعطائهم لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمونه « أجرة المعدية » أى أجرة نقله إلى الجنة . وغير ذلك مما يعملونه للأموات ، ولمن يعتقدون فيهم الولاية والقرب من الله ، ومثله أكثر تقاليدهم فى بناء المقابر واحتفالاتها

ثم ذكر المكفرات التى يعتقدها اليهود كقربان الاثم وقربان الخطيئة وقربان السلامة والمحرقة والاكتفاء ممن لم يجد القربان بحمامتين يكفر بهما عن ذنبه . وقال : وكانوا يفهمون أن هذه الأشياء تكفر الذنوب بذاتها . والحق أنها عقوبات لا مكفرات فإن من فهم التوراة حق فهمها يعلم أن المكفر الحقيقى هو التوبة والاقلاع عن الذنب ثم تقديم القربان يكون تربية وعقوبة . وقد أخبرهم الله تعالى فى هذه الآية بأن يوم القيامة لا يقبل فيه عدل يفتدى الانسان به . قال : وكانوا يعتقدون أنهم بانتسابهم

للانبياء لا يدخلون النار أو لا تمسهم إلا أياما معدودة ، لأن لهم الجاه والتأثير يوم القيامة ، ولا يرضون أن يتركوا أبناءهم فى العذاب ، ثم زادوا على ذلك شفاعة الأحبار لمن ينتسب إليهم . ومتى ضعف الدين يوجد من رؤسائه من يروج هذه العقائد فى العامة لما تسوق اليهم من المنافع . وكذلك كان اليهود حتى جاء الاسلام بهذه الآية وأمثالها فمحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون به أنه لا ينفع الانسان يوم القيامة إلا مرضاة الله تعالى بالايمان الخالص والعمل الصالح

فى القرآن آيات ناطقة بنفى الشفاعة مطلقة، كقوله تعالى فى وصف يوم القيامة (لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة) وأخرى ناطقة بنفى منفعة الشفاعة ، كقوله عز وجل (٧٤:٤٨فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وآيات تفيد النفى بمثل قوله (٢:٢٥٥إلا بإذنه) وقوله(٢١:٢٨إلا لمن ارتضى) فمن الناس من يحكم الثانى بالأول ومنهم من يرى أنه لامنافاة بينهما فنحتاج إلى حمل أحدهما على الآخر لأن مثل هذا الاستثناء(أى الاستثناء بالإذن والمشيئة) معهود فى أسلوب القرآن فى مقام النفى القطعى للاشعار بأن ذلك بإذنه ومشيئته عز وجل، كقوله تعالى (٨٨:٦،٧سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) وقوله (١١:١٠٧ خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) فليس فى القرآن نص قطعى فى وقوع الشفاعة ولكن ورد الحديث بإثباتها فما معناها ؟

الشفاعة المعروفة عند الناس هى أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك كان أراد غيره ـ حكم به أم لا ـ فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الارادة وفسخها لأجل الشفيع . فأما الحاكم العادل فانه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان أراده أو حكم به ، كأن كان أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العدل فى خلاف ما كان يريده أو حكم به . وأما الحاكم المستبد الظالم فانه يقبل شفاعة المقربين عنده فى الشيء ، وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل فى خلافه ، ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب منه على العدالة . وكل من النوعين محال على الله تعالى ، لأن إرادته تعالى على حسب علمه وعلمه أزلى لا يتغير

(قال شيخنا) فما ورد فى إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات وفيه يقضى مذهب السلف بالتفويض والتسليم ، وأنها مزية يختص الله بها من يشاء

يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة «الشفاعة» ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة فى لسان التخاطب العرفى

وأما مذهب الخلف فى التأويل فلنا أن نحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى [1] والأحاديث الواردة فى الشفاعة تدل على هذا ففى رواية الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ يسجد يوم القيامة ويثنى على الله تعالى بثناء يلهمه يومئذ فيقال له « ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع » وليس فى الشفاعة بهذا المعنى أن الله سبحانه يرجع عن إرادة كان أرادها لأجل الشافع وإنما هى إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الارادة الأزلية عقيب دعائه ، وليس فيها أيضاً ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهاونون بأوامر الدين ونواهيه إعتماداً على شفاعة الشافعين، بل فيه أن الأمر كله لله ، وأنه لا ينفع أحداً فى الآخرة إلا طاعته ورضاه (فما تنفعهم شفاعة الشافعين * فما لهم عن التذكرة معرضين ؟) (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)

---

(٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

هذه الآية كالتى قبلها واللواتى بعدها تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل التى ذكرت من قبل مجملة، وابتدىء التفصيل بذكر التفضيل لما تقدم من الحكمة فى ذكره، وهو نهوض الهمة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والترفع عن الرضا بما دون المقام الذى رفعهم الله إليه ، وتوطين النفس لقبول الموعظة الخ ما تقدم . ثم ذكرهم بما حل بهم من البلاء والعقوبات جزاء على جرائمهم ، و بلطف الله تعالى بهم وإنجائهم من البلاء وتوبته عليهم المرة بعد المرة ليعرفهم مقدار فضله وعقوبته معاً

والآية معطوفة على ما قبلها من سلسلة الذكريات فقوله ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ عطف تفصيل على الاجمال فى قوله (اذكروا نعمتى) أى نعمى الكثيرة، لأن الفرد المضاف يفيد العموم ، أى واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون

---

(١) قال بمثل هذا شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره ولم يعدوه تأويلا

وفرعون لقب لمن تولى ملك مصر قبل البطالسة ، وآله خاصته ، وقد يطلق على قومه قدماء المصريين . ولما كانت التنجية لاتكون إلا من ظلم أو شر بين مانجاهم منه بقوله ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ أى يكلفونكم ويبغونكم مايسوءكم ويذلكم من العذاب ، ثم بين ذلك بقوله ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أى يقتلون ذكران نسلكم ويستبقون إناثه أحياء لاضعافكم وإذلالكم المفضى إلى قطع نسلكم وإبادتكم ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أى وفى ذلكم العذاب وفى التنجية منه — فى كل منهما — بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم ، كما قال فى آية أخرى (٧ : ١٦٨ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)

(قال الأستاذ الامام) فى هذه الآية بعد قراءة عبارة الجلال ما مثاله :
خاطب الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ بما كان لآبائهم . لأن الانعام على أمة بعنوان أنها أمة كذا ، هو إنعام شامل للأمة من أصابه ذلك الإنعام من أفرادها ومن لم يصبه ، ويصح الامتنان به على اللاحقين منهم والسابقين . كما يصح الفخر به منهم أجمعين ، كما أن الانعام على شخص بشىء يختص بعضو من أعضائه كلبوس يلبسه ، أو لذيذ طعام يطعمه ، يكون إنعاماً على الشخص ، ولا يقال : إنه إنعام على لسان فلان ولا على رأسه ، أو يده أو رجله ؛ ولأن ماوصل إلى مجتمع بعنوان ذلك الاجتماع والرابطة التى ربطت أفراده بعضهم ببعض يكون له أثر فى مجموع الأفراد، لاسيما إذا كان الواصل من نقمة أو نعمة مسبباً عن عمل الأمة . شراً أو خيراً ، ويكون لذلك أثر فى الأمة يورثه السلفُ الخلفَ ما بقيت الأمة . وأنواع البلاء التى ذكر بها اليهود فى القرآن كانت لشعب إسرائيل من حيث هو شعب إسرائيل لأن الجرائم التى كان البلاء عقوبة عليها إنما كانت من مجموع الشعب . من حيث هو شعب إسرائيل ، ثم إن الله تعالى كان يتوب على الشعب بعد كل بلاء و يفيض عليه النعم . فتكون العقوبة تربية وتعلما تفيد المعتبرين بها نعمة وسعادة .

لا أقول إن هذا الخطاب إيماء أو إشارة للمخاطبين بأن يستحضروا تاريخ أمتهم الماضى ليتذكروا صنع الله تعالى فيهم فيعتبروا بما أصابهم من نعماء وضراء . وسعادة وشقاء ، ويتفكروا فيما حل بهم من بعدهم ، ومايننتظر أن يحل بهم ، وإنما

الكلام نص صريح لايحتاج إلى التأويل . فالروابط الاجتماعية بين أفراد الأمم وجماعاتها كالروابط الحيوية بين أعضاء الشخص الواحد بلا فرق . تعثر الرجل فتخدش أو توثأ ، والألم يلم بالشخص كله من حيث هو شخص حي بحياة واحدة تستوى فيها رجله وسائر أعضائه ؛ ولذلك يسعى بجملته لإزالة ألم الرجل ويتوقى أسباب العثار بعد ذلك مستعيناً بكل أعضائه وقواه .

علمنا الله تعالى هذا بما قص علينا من أخبار الأمم . وأنعم على أمتنا - التى لا تختص بشعب ولاجنس - بهذا القرآن الكريم فكان لهم به نعم لاتحصى تعرف من الكتاب والسنة . منها أنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً ومنها أنهم كانوا مستضعفين فمكن لهم فى الأرض وأورثهم أرض الشعوب القوية وديارهم وجعل لهم السلطان عليهم ، ومنها أنه جعلهم أمة وسطاً لاتفريط عندها ولا إفراط ، ليكونوا شهداء على الناس الذين غلوا وأفرطوا ، والذين قصروا وفرطوا . ثم لما كفرت بأنعم الله أنزل بها ألواناً من البلاء والنقم بعنوان الأمة . فإن التتار إنما نكلوا بها وتبروا ماعلوا تتبيراً لأنها الأمة الاسلامية ، ثم زحف عليها الغربيون أيام حروب الصليب وجاسوا خلال الديار . لأنها الأمة الاسلامية ، ثم إن الفتن لاتزال تحل بديارها ، وتنقصها من أطرافها ، وسوط عذاب الله يصب عليها بعنوان الأمة الاسلامية ، وقد مرت عليها قرون وهى لا تعتبر بما مضى ، ولا تتربى بما حضر ، بل جهلت الماضى فحارت فى الحاضر ، لاتعرف سببه ولا المخرج منه .

أليس من العجيب أن الجمهور الأعظم من المشتغلين بالعلم منها هم أجهلها بتاريخها ، لايعرفون شيئاً من ماضيها ولا حاضرها ؟ ولكنهم يعترفون بأن الأمة فى بلاء كبير ، ويعتذرون بالقضاء والقدر عن معرفة الأسباب ، ويكلون إلى القضاء والقدر النجاة منه أو البقاء فيه .

إن هذه الأمة أمة واحدة وإن اختلفت ديارها وتعددت أجناسها ، ولا يمكن أن تعرف حقيقتها إلا بعد معرفة تاريخها الماضى ، فلا بد من تتبع السواقى والجداول إلى الينبوع الأول الذى هو الأصل .

كان سلفنا رضى الله تعالى عنهم يضبطون أحوال من قبلهم من أمور الدين والدنيا

بكل اعتناء ودقه،حتى كانوا يروون البيت من الشعر أو النكتة بين العاشق ومعشوقته بالأسانيد المتصلة ، وليست هذه المبالغة مما يؤخذ عليهم فإن الأمة إنما تكون أمة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها ، فاذا لم يحفظ خلفها عن سلفها هذه المقومات[1] بحفظ تاريخها تكون عرضة للتغير بتأثير حوادث الزمان وتقلبات شئون الاجتماع مع جهل المتأخر بما كان عليه المتقدم و بكيفية حدوث التغيير الضار للجهل بالتاريخ. بهذا تفعل فواعل الكون بالأمة الجاهلة أفاعيلها حتى تقلب كيانها ، وتقوض بنيانها ، وتقطع عرى الربط العامة بين أفرادها، فلا يكون لهم عمل إلا لمصلحة الشخصية ، وهى لا حفاظ لها فى مجموع الأمة إلا بالمصلحة العامة ، فإذا أهملت تكون الأمة من الهالكين .

عنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة فلم تكتف بضبط الوقائع وتلقيها بالرواية كالسنة النبوية ؛ بل تفننت فيها فصنفت فى تاريخ الأشخاص كما صنفت فى تاريخ البلاد والشعوب، ثم نوعت تاريخ الأشخاص فجعلت لكل طبقة تاريخا فترى فى المكاتب طبقات المفسرين وطبقات المحدثين وطبقات النحويين وطبقات الأطباء وطبقات الشعراء إلى غير ذلك. ثم اهتدى بعضهم إلى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ فصنف ابن خلدون فى ذلك مقدمة تاريخه . ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد لكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا ولكننا تركناه وسبقنا غيرنا إلى إتمامه واستثماره. فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هى فيه من سعة العمران . وعزة السلطان ؛ وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله فى الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثانى إلى ذلك . فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ بل صار ممقوتا عند أكثر المشتغلين بعلم الدين ، فإن وجد من يلتفت إليه فإنما يكون متبعا فى ذلك سنة قوم آخرين،

---

(١) المراد بالمقومات: ما به قوام الامة من صفاتها التى تفصلها عن غيرها كمقومات الفصول لأنواع الجنس فى اصلاح المنطق ، وقد سبقت الى استعمال هذا الاصطلاح فى شئون الأمم هنا وفى المنار فيما أعلم ثم استعمله الكتاب

نكتفى الآن بهذا التنبيه ونعود إلى إتمام تفسير الآية التى صرفتنا إليه بمخاطبة بنى اسرائيل فى زمن تنزيل القرآن بما كان من تعذيب آل فرعون لسلفهم وانعام الله عليهم بالانجاء من ذلك العذاب .

أول من دخل مصر من بنى اسرائيل هو يوسف عليه السلام وانضم إليه بعد ذلك إخوته ونما نسله ونسلهم فيها وكثر ، حتى قيل : إنهم كانوا يوم خرجوا من مصر ستمائة ألف وهذا النمو كان فى مدة أربعمائة سنة . وكان المصريون من آل فرعون لايحبون مساكنة الغرباء [1] فلما رأى فرعون نمو شعب اسرائيل خاف مغبة الأمر ، لأنه كان يعلم أنهم إذا كثروا يتبسطون فى الأرض ويزاحمون المصريين فطفق يستذلهم ويكلفهم الأعمال الشاقة ، كصنع الطوب لبناء الهياكل والبرابى لعلمه بأن الذل يقلل النسل ويفضى بالأمة إلى الانقراض ، ولكنهم ظلوا مع الاستذلال يتناسلون ويكثرون . فلما رآهم الحكام المصريون يزدادون نسلا ، وأنهم مع هذا محافظون على عاداتهم وتقاليدهم ولا يمازجون المصريين وعندهم الأثرة والإباء لاعتقادهم أنهم شعب الله وأفضل خلقه ، خافوا أن يقووا بالكثرة فيعدوا عليهم ويغلبوهم على بلادهم كلها أو بعضها ، وإنما كانوا يزدادون على الذل نسلا لأن الذل لايؤثر إلا فى الزمن الطويل ، ذلك بأن الذليل الذى لاتطلق إرادته فى أعماله هو

---

(١) يوجد فى المصريين الآن من يكتب ويخطب لاحياء سنة آل فرعون ببغض المهاجرين إلى مصر وبغض فيهم وإن كانوا على لغته ومن أتباع حكومته العثمانية ، وكذا من أهل الدين الذى ينتمى إليه . ويوجد شرذمة من المصريين تلغط بلفظ المصريين والدخلاء ، انخداعا بالدعوة إلى السنة الفرعونية التى تبطل إذا نجحت «ولن تنجح» سنة القرآن الذى أرشد إلى أن الله جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ويتمازجوا ، وجعل أكرمهم أتقاهم وأنفعهم لعباده ، وقد اهتدى فلاسفة أوروبا إلى أن هذه السنة غاية كمال البشر اهـ من حاشية المنار سنة ١٣٢٠

وأقول الآن عند طبع هذا مستقلا فى أوائل سنة ١٣٤٦ : إن تلك النزعة قد قويت ووجد من القبط وزنادقة المسلمين من يجعلون الجنسية المصرية فوق الاسلام ومنهم من يدعون إلى التفصى من الدين والجنسية العربية وإلى استبدال التفرنج بهما كما فعل الكماليون فى الترك .

بمنزلة الشخص الذى يضعف عن تناول الغذاء الذى يمد حياته فهو يذبل رويداً رويداحتى ينحل ويموت . والقوة المعنوية التى تحفظ حياة الأمم هى قوة الأرواح والارادات ، لأن الجسم محمول بالروح . والعمـل النافع إنما يكون بالإرادة فمتى خذلت النفوس بالتسلط على إرادتها تبعها الجسم فيضعف بضعفها. والضعيف يأتى بنتاج ضعيف ويكون نسل نتاجه أضعف من نسله،ويتسلسل هكذا حتى يكون من لوازم ضعف النسل إسراع الموت إلى صغاره قبل بلوغ سن الرشد . وبهذا ينقرض النسل ، كما حصل لهنود أمريكا وسكان شمالى أوستراليا .

استنبطأ المصريون أثر الاستذلال فى الإسرائيليين فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء إناثهم فأمر فرعون القوابل بأن يقتلن كل ذكر لبنى إسرائيل عند ولادته،لأن من سنة الله فى الخلق أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الأجناس إنما يكون بالذكور . وقال مفسرنا (الجلال) تبعا لغيره إن سبب العذاب وتقتيل الأبناء دون البنات هو أن بعض الكهنة أخبر فرعون بأن سيولد من بني اسرائيل ولد ينزع منه ملكه و يكون على يديه هلـكه (قال الأستاذ الإمام) وليس لهذا القول سند صحيح ولا يعرف فى التاريخ ، وماقلناه هو الذى يعرفه بنو اسرائيل و يتناقلونه فى كتبهم المعروفة بالمقدسة وغير المقدسـة وهو المعقول فى نفسه أيضا

---

(٥٠) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥١) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥٢) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٣) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

جاء فى الآية السابقة ذكر تنجية بنى اسرائيل من آل فرعون ، وهو على

كونه تفصيلا لما قبله من حيث التذكير بالنعم ، مجمل من حيث الانجاء ، فانه يشمل النجاة بجميع أنواعها من ذلك العذاب . وذكر فى هذه الآية نعمته فى طريق الانجاء بالتفصيل بعد الإجمال لبيان عناية الله تعالى بهم فيها ، إذ جعل وسيلته من خوارق العادات ، وجعل فى طريقه هلاك عدوهم . وقد يقال : إن هذه نعمة مستقلة من نعمه تعالى عليهم ، لا أنها بيان الإجمال فى التى قبلها .

لما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه يدعوهم إلى توحيد الله وإلى أن يخلى بينه وبين شعب إسرائيل بعد إطلاقهم من ذلك الاستعباد والتعذيب لم يزدهم فرعون إلا تعذيبا وتعبيداً . وفى سفر الخروج من تاريخ التوراة أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه يقسى قلب فرعون فلا يخفف العذاب عن بنى إسرائيل ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته . وأنه بعد الدعوة زاد ظلما وعتواً فأمر الذين كانوا يسخرون بنى إسرائيل فى الأعمال الشاقة بأن يزيدوا فى القسوة عليهم وأن يمنعوهم التبن الذى كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفوهم أن يجمعوا التبن ويعملوا كل ماكانوا يعملونه من اللبن لايخفف عنهم منه شىء . فأعطى الله تعالى موسى وأخاه هارون الآيات البينات ، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون لعلمهم أن ماجاء به ليس من السحر وإنما هو تأييد من الله تعالى ورأى مارأى بعد ذلك من آيات الله لموسى سمح بخروج بنى اسرائيل بل طردهم طرداً ، وفى سفر الخروج أنهم خرجوا فى شهر أبيب وكانت إقامتهم فى مصر ٤٣٠ سنة . ثم أتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأنجى الله بنى إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه ، وذلك قوله عز وجل :

﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ أى واذكروا من نعمنا عليكم إذ فرقنا بكم البحر فجعلنا لكم فيه طريقا يبسا سلكتموه فى هربكم من فرعون ﴿ فأنجيناكم ﴾ بعبوره من جانب إلى آخر ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ إذ عبروا وراءكم ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ ذلك بأعينكم ، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه .

(قال الأستاذ الإمام) فلق البحر كان من معجزات موسى . وقد قلنا فى رسالة التوحيد : إن الخوارق الجائزة عقلا أى التى ليس فيها اجتماع النقيضين ولا

ارتفاعها لامانع من وقوعها بقدرة الله تعالى على يد نبي من الأنبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها، ولا يمنعنا هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله تعالى في الخلق واعتقاد أنها لا تتبدل ولا تتحول، كما قال الله في كتابه الذي ختم به الوحي، على لسان نبيه الذي ختم به النبيين، فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم مايعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال، كما كان في سن الطفولية (النوعية) بل أرشد تعالى بالوحي الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي، ثم جعل له كل ارشادات الوحي مبينة معللة مدللة حتى في مقام الأدب (كما أوضحنا ذلك في رسالة التوحيد) فإيماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان، لاينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان، من أن سننه تعالى في الخلق لاتبديل لها ولاتحويل.

(أقول) وجملة القول أن الذي يمنعه العقل هو وقوع المحال، فلا يمكن أن يؤيد نبي بما هو مستحيل عقلا، لأن المستحيل هو الذي لايمكن وقوعه وما وقع لايكون مستحيلا. ولذلك سمى المتكلمون المعجزات «خوارق العادات» ومنهم من يقول: إن لها أسبابا خفية روحية لم يطلع الله الامم عليها ولكنه خص بها الأنبياء عليهم السلام. والمشهور: أن الله يخلقها بغير سبب لتدل على أن السنن والنواميس لاتحكم على واضعها ومدبرها، وإنما هو الحاكم المتصرف بها، وإنما كان هذا هو المشهور لأنه الظاهر، والافمن ذا الذي يستطيع أن ينفي ذلك النفي المطلق عن عالم الغيب؟ وقد ذكر القولين الإمام الغزالي وأشار إليهما الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد

(قال) وزعم الذين لايحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بني إسرائيل البحر كان في إبان الجزر، فإن في البحر الأحمر رقارق إذا كان الجزر الذي عهد هنالك شديدا يتيسر للانسان أن يعبر ماشيا ولما اتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم وكان المد تفيض ثوائبه (وهي المياه التي تجيء عقيب الجزر) فلما نجا بنواسرائيل كان المد قد طغى وعلا حتى أغرق المصريين، تحقق إنعام

الله على بنى إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم ولا ينافى الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى عليه السلام، فان نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر - كذا قالوا ، قال شيخنا: ولكن يدل على كونه آية له وصف كل فرق منه بالطود العظيم . و إذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى فى سورة الشعرآء (فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم) وهو الموافق لما فى التوراة .اهـ

و يقول المؤولون إنهم لما عبروا انفرق بهم وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض قد جعلوا ذلك الماء الرقارق فرقين عظيمين ممتدين كالطودين وأن هذه الآية تشعر بذلك، فإنه يقول (و إذ فرقنا بكم البحر) ولم يقل: فرقنا لكم البحر: والظاهر أن الباء هنا للآلة، كما تقول قطعت بالسكين : وأما قوله تعالى (٢٦:٦٣ وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) فإنه لا ينافى أن الانفلاق كان بهم كما فى آية البقرة لا بالعصا ، وذلك أن الذى أوحاه الله تعالى إلى موسى هو أن يخوض البحر ببنى اسرائيل وقد عهد أن من كان بيده عصا إذا أراد الخوض فى ماء كترعة أو نهر فانه يضرب الماء أولا بعصاه ثم يمشى، فهذه الآية معبرة عن هذا المعنى أى ألهمه الله عند ماوصل إلى البحر أن يضرب به بعصاه و يمشى ففعل ومشى وراءه بنو اسرائيل بجمعهم الكبير، فانفلق بهم البحر . وأما قوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم) فهو تشبيه معهود مثله فى مقام المبالغة ، كقوله تعالى (٤٢:١١ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) وقوله (٤٢ : ٣٢ ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام) فالأمواج والسفن الجوارى لا تكون كالجبال الشاهقة ، والأعلام الباسقة ، و إنما تقضى البلاغة بمثل هذا التعبير ، لكمال التصوير و إرادة التأثير

هذا ماينتهى إليه تأويل المؤولين ولم يبسطه الاستاذ الإمام فى الدرس ، و إنما قرر أن فرق البحر كان معجزة لموسى عليه السلام، وحكى عن المتهورين من الذين لايحبون المعجزات خلافه ، وهو أنهم يزعمون أن عبور البحر كان فى وقت الجزر و إنما بسطنا تأويلهم لئلا يتوهموا أننا لم نقل به لأننا لم نهتد لتوجيهه مثلهم ، ولا يهمنا أن ننازعهم فى تأويل آية بخصوصها إذا علمنا أنهم يثبتون الآيات الكونية تأييداً

للانبياء عليهم الصلاة والسلام . فاذا كانوا ينفونها كلها فالأولى لهم أن لا يتعبوا في تأويل جزئياتها ، فان منها مالا يقبل التأويل بحال من الأحوال، وحينئذ يكون الكلام بيننا وبينهم لاثباتها أولا في قدرة الله وإرادته ، ثم في إثبات أصل الوحي وإرسال الرسل . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . ولنا أن نقول هنا : إن الباء في قوله « بكم » سببية أو للملابسة لا للآلة ، وقد أشار البيضاوى إلى ذلك كله بقوله : فلقناه وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالك لسلوككم فيه أو بسبب إنجائكم أو متلبسا بكم . وأزيد الآن : أنني رأيت بعد كتابة ماتقدم ببضع سنين جزءاً من تفسير الاصبهاني في خزانة كتب كوبريلي باشا في الآستانة فراجعت تفسير هذه الآية فيه فألفيته يذكر في الباء الوجهين ، أي إن فرق البحر حصل بهم، أي بنفس عبورهم أو بسببهم . ومثله قول البغوى : قيل معناه فرقناه لكم ، وقيل : فرقنا البحر بدخولكم إياه

قال الاستاذ الامام بعد أن قرر نعمة الانجاء من استعباد الظالمين ، والبعد من فتنة القوم الضالين : ذكر النعمة التي وليتها ، وذكرهم بما كان من كفرهم اياها ، فقال ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ وقد كانت هذه المواعدة لاعطائه التوراة. ولما ذهب لميقات ربه استبطئوه فاتخذوا عجلا من ذهب فعبدوه كما هو مفصل في غير هذه السورة (وسيأتي هناك تفسيره ان شاء الله تعالى) والمراد هنا التذكير بالنعمة وبيان كفرها، ليظهر أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ومعاندته ليس ببدع من أمرهم ، وانما هو معهود منهم مع رؤية الآيات وبعد اغداق النعم عليهم ، ولذلك اكتفى بالاشارة اليه بقوله ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي اتخذتموه إلها ومعبوداً ، او بعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ثم بالعفو الذي هو جزاء التوبة فقال ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ هذه النعمة بدوام التوحيد والطاعة

ثم قفى على هذا بذكر إيتائهم الكتاب وهو المنة الكبرى فقال ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ قال المفسر « الجلال » كغيره : إن

الفرقان هو التوراة وقال بعض المفسرين: إن الفرقان هو ما أوتيه موسى من الآيات والمعجزات . وقال الاستاذ الامام بعد حكاية القولين : ولكن ذكره بعد الكتاب معطوفا عليه دليل على أن المراد به ما فى الكتاب من الشرائع والاحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام ، ومعنى قوله ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ويعدكم بهذه الاحكام والشرائع للاهتداء ويهيئكم للاسترشاد فلا تقعوا فى وثنية أخرى ، وإن من كال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد ﷺ هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذى تفرقوا عنه واختلفوا فيه ، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون ، وجاحده الرؤساء المستكبرون ، والمقلدون الذين لا يعقلون

---

(٥٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٥) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٦) ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٧) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ : كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

فى هذه الآيات ضرب من ضروب التذكير غير ماسبقه ، ومن البلاغة والحكمة أن يجىء تاليا له ومتأخراً عنه : مهد أولا للتذكير تمهيداً يسترعى السمع : ويوجه الفكر ويستميل القلب ، وهو الابتداء بذكر النعمة مجملة والتفضيل على العالمين ولا يرتاح الانسان لحديث كحديث مناقب قومه ومفاخرهم ــ ثم طفق يفصل النعمة ويشرحها ، فبدأ بذكر فرد من أفرادها لا يقترن به ذكر سيئة من سيئاتهم وهو تنجيتهم من ظلم آل فرعون ، ولكن ذكر معه أكبر ضروب ذلك الظلم وهو قتل

الأبناء - : يخفض من عتو تلك النفوس المعجبة المتكبرة التى تعتقد أن الله لا يسود عليهم شعبا آخر ، وهو مع هذا لا ينفر بها عن الاصغاء والتدبر ، لأنه لم يفاجئها بشيء فيه نسبة التقصير وعمل السوء إليها . ثم ثنى بذكر نعمة خاصة خالصة تسكن النفس إلى ذكرها ، إذ لا يشوب الفخر بها تنغيص من تذكر غضاضة تتصل بواقعتها ، وهى فرق البحر بهم ، وإنجاؤهم ، وإغراق عدوهم .

لا جرم أن نفوس الاسرائيليين كانت تهتز وتأخذها الأريحية عندما تلا عليهم النبى ﷺ هذه الآية لما فيها من الشهادة بعناية الله تعالى بهم ، ولا سيما إذا قارنوا بين هذا التذكير وبين تذكير مشركى العرب بتلك القوارع الشديدة ، لم يتركها بعد هذه الهزة تجمح فى عجبها وفخرها ، وتتمادى فى إبائها وزهوها ، بل عقب عليها فذكر بعد هذه النعمة سيئة لهم هى كبرى السيئات التى ظلموا بها أنفسهم وكفروا نعمة ربهم وهى اتخاذ العجل إلها ، وقدم على ذكرها خبر مواعدة موسى وهى من النعم ، وختمها بذكر العفو ، ثم قفى عليها بذكر نعمة إيتائهم الكتاب والفرقان وهذا ما يجعل أنفس السامعين الواعين قلقة يتنازعها شعور اعتراف المذكر الواعظ لها بالشرف ، وشعور رميه إياها بالظلم والسرف .

بعد هذا كله استعدت تلك النفوس لأن تسمع آيات مبدوءة بذكر سيئاتها من غير تمهيد ولا توطئة ، فانتقل الكلام إلى هذا الضرب من التذكير مبدوءا بقوله تعالى

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ أى واذكر أيها الرسول فيما تلقيه على بني اسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين اتخذوا من حليهم عجلا عبدوه إذ كان يناجى ربه فى الميقاتين الزمانى والمكانى ﴿ يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ إلهاً عبدتموه . والقصة مفصلة فى سورتى الأعراف وطه المكيتين لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات ، وأما ماهنا فهو تذكير لبنى اسرائيل بما تقدم وجهه فى سياق دعوتهم إلى الإسلام ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ أى فتوبوا إلى خالقكم الذى لا يجوز أن تعبدوا معه إلهاً آخر هو أدنى منكم ، وهو من خلقكم ، أى تقديركم وصنعكم ، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضا ، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه ، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليبخع كل من عبد العجل نفسه انتحارا .

تكلم الأستاذ الامام فى التوبة وقال : إنها محو أثر الرغبة فى الذنب من لوح القلب ، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه وما له من السلطان عليه فى الحال ، وكون مصيره إليه فى المآل ، لاجرم أن الشعور بهذا السلطان الالهى بعد مقارفة الذنب يبعث فى قلب المؤمن الهيبة والخشية ويحدث فى روحه انفعالا مما فعل وندما على صدروه عنه ، ويزيد هذا الحال فى النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب ، وما رتبه الله عليه من العقوبة فى الدنيا والآخرة . هذا أثر التوبة فى النفس ، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذى تاب منه وتمحو أثره السيء (١١ : ١١٤ إن الحسنات يذهبن السيئات)

فمن علامة التوبة النصوح : الإتيان بأعمال تشق على النفس وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذى يحدثه الذنب . وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة سواء كان الذنب مع الله تعالى أو مع الناس . ألا ترى أن أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهى به أن يجيء معترفا بالذنب معتذراً عنه ؟ وهذا ذل يشق على النفس لا محالة ، وقد أمر بنو اسرائيل بأشق الأعمال فى تحقيق التوبة من أكبر الذنوب ، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم وقد قال (فتوبوا إلى بارئكم) لينبههم إلى أن الاله الحقيقى هو الخالق البارىء ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم . ذلك العمل الذى أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم . والقصة فى التوراة التى بين أيديهم إلى اليوم : دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب ، فأجابه بنو لاوى فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا ، وقتل فى ذلك اليوم « نحو ثلاثة آلاف » وقال مفسرنا (الجلال) كغيره إن الذين قتلوا سبعون ألفاً والقرآن لم يعين العدد ، والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه فنمسك عنه . كذا قال الأستاذ الامام ، وهذا مذهبه فى جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعى لا يتعداه ، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه

قال تعالى ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الذى دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلا لما وعدكم به فى الدنيا ولمثوبته فى الآخرة

وقوله ﴿فتاب عليكم﴾ من كلام الله تعالى لاتتمة لكلام موسى عليه السلام فى الظاهر وهو معطوف على محذوف تقديره ففعلتم ما أمركم موسى به فتاب عليكم ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أى إنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم ، وإن تعددت قبلها جرائمهم ، الرحيم بهم ، ولولا رحمته لعجل باهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولا سيما الشرك به .

﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ أى واذكروا إذ قلتم لنبيكم ياموسى لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان واتباع حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالإيمان لك ﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ أى فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم . وسيأتى بيان هذا بالتفصيل فى سورة الأعراف ، فالقصة هنالك مقصودة بكل مافيها من فائدة وعبرة ، وإنما المراد بها هنا التذكير كما تقدم .

قال الأستاذ الإمام : سؤال بنى اسرائيل رؤية الله تعالى واقعة مستقلة لاتتصل بمسألة عبادة العجل وهى معروفة عند بنى اسرائيل ومنصوصة فى كتابهم وذلك أن طائفة منهم قالوا لماذا اختصّ موسى وهارون بكلام الله تعالى من دوننا . وانتشر هذا القول فى بنى اسرائيل وتجرأ جماعة منهم بعد موت هارون وهاجوا على موسى وبنى هارون وقالوا لهم إن نعمة الله على شعب اسرائيل هى لأجل ابراهيم واسحاق فتشمل جميع الشعب ، وقالوا لموسى لست أفضل منا فلا يحق لك أن تترفع وتسود علينا بلا مزية ، وأننا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين ، وهذه النار هى المعبر عنها هنا بالصاعقة ، وهل ثمة من نار غير الاشتعال بالكهرباء وهو ماتحدثه الصاعقة التى تحدث الانشقاق فى الأرض أيضاً ؟ وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرون ينظرون ، وهكذا كان بنو اسرائيل يتمردون ويعاندون موسى عليه السلام وكان سوط عذاب الله

يصب عليهم، فرموا بالأمراض والأوبئة وسلطت عليهم الهوام وغيرها حتى أماتت منهم خلقا كثيراً . فجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ لم تكن بدعا من أعمالهم

قال تعالى ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ ذهب الأستاذ الإمام إلى أن المراد بالبعث هو كثرة النسل أى أنه بعد ماوقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن أن سينقرضون بارك الله فى نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التى تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها .

والعبرة الاجتماعية فى الآيات أن الخطاب فى كل ماتقدم كان موجها إلى الذين كانوا فى عصر التنزيل ، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر ، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة واعتبار أن كل مايبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصحح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به ، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى فى الاجتماع الإنسانى أن تكون الأمم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب فى الأمة وان لم يواقعها هو (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهذا التكافل فى الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها لأنه يحمل الأمة التى تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين .

بعد هذا ذكر الله تعالى نعمة أخرى بل نعمتين من النعم التى من بها على بنى اسرائيل فكفروا بها ولكنه لم يذكر ما كان به الكفران ، بل طواه وأشار إليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله تعالى بذلك الذنب المطوى و إنما ظلموا أنفسهم ، وهذا أسلوب آخر من أساليب البيان فى التذكير وضرب من ضروب الإيجاز التى هى أقوى دعائم الإعجاز .

أما النعمة الأولى فقوله تعالى ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ قال الأستاذ الامام : هذه نعمة مستقلة متصلة بما قبلها فى سياق الذكرى ، منفصلة عنها فى الوقوع ، فإن التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد ، ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظللهم فى

التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم . وقال لامعنى لوصف الغمام بالرقيق كما قال المفسر (الجلال) وغيره ، بل السياق يقتضى كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل الذى يفيده حرف التظليل، إلا بسحاب كثيف يمنع حر الشمس ووهجها. وكذلك لا تتم النعمة التى بها المنة إلا بالكثيف وهو المنقول المعروف عند الإسرائيليين أنفسهم

وأما النعمة الثانية ففى قوله تعالى ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ مامنح من الله تعالى يسمى إيجاده إنزالا ومنه (وأنزلنا الحديد) على أن المن ينزل كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائعة ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس ، ومنها الترنجبين و به فسر المن مفسرنا وغيره . وأما السلوى فقد فسروها بالسمانى وهو الطائر المعروف فمعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا . وظاهر أن قوله تعالى ﴿كلوا من طيبات مارزقناكم﴾ مقدر فيه القول . وفى (سفر الخروج) أن بنى اسرائيل أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرقاق بالعسل ، وكان لهم بدلا من الخبز وليس المراد أنه لم يكن لهم أكل سواه إلا السلوى فقد كان معهم المواشى ولكنهم كانوا محرومين من النبات والبقول كما يعلم مما يأتى

وفى قوله تعالى ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ تقرير لقاعدة مهمة وهى أن كل مايطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته ، وكل ماينهاه عنه فإنما يقصد به دفع الضرر عنه، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه ، ولن يبلغ أحد ضره فيضره، كما ثبت فى الحديث القدسى. فكل عمل ابن آدم له أو عليه (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

---

(٥٨) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٩) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

المراد بالقرية المدينة ، وهى فى الأصل اسم لمجتمع الناس ومسكن النمل الذى يبنيه ومادتها تدل على الاجتماع ، ومنها قريت الماء فى الحوض إذا جمعته وأطلقت

على الأمة نفسها : ثم غلب استعمالها فى البلاد الصغيرة ولا يصح هنا فإن الرغد لا يتيسر للانسان كما يشاء إلا فى المدن الواسعة الحضارة ،(قال شيخنا) ونسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن فقد أمر بنو اسرائيل بدخول بلاد كثيرة وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين عظمته وجلاله ونعمه و إفضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا .

وأما صورة السجود من وضع الجباه على الأرض فلا يصح أن تكون مرادة لأنها سكون والدخول حركة وهما لايجتمعان . والمراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم . وتبديل القول بغيره عبارة عن المخالفة كأن الذى يؤمر بالشىء فيخالف قد أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بخلافه . يقال بدلت قولا غير الذى قيل . أى جئت بذلك القول مكان القول الأول .

وهذا التعبير أدل على المخالفة والعصيان من كل تعبير خلافا لما يتراءى لغير البليغ من أن الظاهر أن يقال . بدلوا القول بغيره دون أن يقال . غير الذى قيل لهم ، فإن مخالف أمر سيده قد يخالفه على سبيل التأويل مع الاعتراف به ، فكأنه يقول فى الآية إنهم خالفوا الأمر خلافا لا يقبل التأويل ، حتى كأنه قيل لهم غير الذى قيل . وليس المعنى أنهم أمروا بحركة يأتونها ، وكلمة يقولونها ، وتعبدوا بذلك وجعل سبباً لغفران الخطايا عنهم فقالوا غيره وخالفوا الأمر ، وكانوا من الفاسقين . وأى شىء أسهل على المكلف من الكلام يحرك به لسانه ،وقد اخترع أهل الأديان من ذلك مالم يكلفوا قوله لسهولة القول على ألسنتهم ، فكيف يقال أمر هؤلاء بكلمة يقولونها فعصوا بتركها ؟ إنما يعصى العاصى إذا كلف مايثقل على نفسه و يحملها على غير ما اعتادت ، وأشق التكاليف حمل العقول على أن تفكر فى غير ماعرفت ، وحث النفوس على أن تتكيف بغير ماتكيفت .

وذهب المفسر (الجلال) إلى ترجيح اللفظ على المعنى والصورة على الروح ففسر السجود كـكثير من غيره بالانحناء ، وقال إنهم أمروا بأن يقولوا (حطة) فدخلوا زحفا على أستاههم وقالوا : حبة فى شعيرة : أى أننا نحتاج إلى الأكل . ومنشأ هذه الأقوال الروايات الاسرائيلية ولليهود فى هذا المقام كلام كثير

وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نجيز حشوها فى تفسير كلام الله تعالى

وأقول إن ما اختاره الجلال مروى فى الصحيح ولكنه لا يخلو من علة اسرائيلية وسنبين ذلك فى تفسير المسألة من سورة الأعراف مع المقابلة بين العبارات المختلفة فى السورتين وبيان وجوهها ، وتحقيق معانى ألفاظها

ويدل قوله تعالى ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ على أن هذا العصيان لم يكن من كل بنى إسرائيل ، وأن هذا الرجز كان خاصاً بالظالمين منهم الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه . وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر موضع المضمر فقال (فأنزلنا على الذين ظلموا) ولم يقل فأنزلنا عليهم : ولعل وجه الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إيهام كون الرجز كان عاما كما هو الغالب فيه ، ثم أكده بتأكيد آخر وهو قوله ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ وفى هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين ما فيه

وأقول الآن : القاعدة أن ترتيب الحكم على المشتق يدل على أن مصدره علة له كقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فالسرقة علة للقطع . والموصول مع صلته هنا كذلك ، والمعنى (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء) بسبب ظلمهم ، ثم أكد هذا السبب الخاص العارض المعبر عنه بالفعل الماضى ببيان سبب عام يشمله ويشمل غيره هم يفعلونه دائما وهو قوله (بما كانوا يفسقون) أى بسبب تكرار الفسوق والعصيان منهم واستمرارهم عليه الذى كان هذا الظلم منه

(قال الأستاذ) ونسكت عن تعيين نوع ذلك الرجز كما هو شأننا فى كل ما أبهمه القرآن . وقال المفسر وغيره إنه الطاعون ، واحتج بعضهم عليه بقوله تعالى (من السماء) وهو كما تراه . والرجز هو العذاب وكل نوع منه رجز . وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بالطاعون غير مرة ، وابتلاهم بضروب أخرى من النقم فى إثر كل ضرب من ضروب ظلمهم وفسوقهم ، ومن أشد ذلك تسليط الأمم عليهم، وحسبنا ما جاء فى القرآن عبرة وتبصرة فنعين ما عينه ، ونبهم ما أبهمه (والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

(٦٠) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ : كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

هذا بيان لحال آخر من أحوال بنى إسرائيل فى هجرتهم وعناية الله تعالى بهم فيها . أصابهم الظمأ فعادوا على موسى باللائمة أن أخرجهم من أرض مصر الخصبة المتدفقة بالأمواه ، وكانوا عند كل ضيق يمنون عليه أن خرجوا معه من مصر ويجهرون بالندم . فاستغاث موسى بربه واستسقاه لقومه كما قصه الله تعالى علينا بقوله ﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أى طلب السقيا لهم من الله تعالى ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ قال الأستاذ الامام : أمره أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التى ضرب بها البحر فضرب به ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ بعدد أسباطهم وذلك قوله عز وجل ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾

(قال) وكون هذا الحجر هو الذى روى أنه تدحرج بثوب موسى يوم كان يغتسل كما قال المفسر (الجلال) لا دليل عليه ، وقصة الثوب ليست فى القرآن فيحمل تعريف الحجر على أنه المعهود فى القصة ، وإنما يفهم التعريف أن الحجر الذى ضرب فتفجرت منه المياه حجر مخصوص له صفات تميزه عندهم ككونه صلباً أو عظيما تتسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن تكون منه موارد لتلك الأمم [أو كونه يقع تحت أعينهم منفرداً عن غيره ليس فى محلتهم سواه ، وقد يكون التعريف للدلالة على الجنس ليفيدنا بعد المرغوب عن التناول ، وعظمة القدرة الإلهية وأثرها الجليل فى تقريبه وتحصيله] وعبر عنه فى سفر الخروج بالصخرة : ولو علم الله تعالى أن لنا فائدة فى أكثر مما دل عليه هذا الخطاب من التعيين لما تركه

ثم أراد أن يصور حال بنى إسرائيل فى هذه النعمة واغتباطهم بما منحهم من العيش الرغد فى مهاجرهم فقال ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ فعبر عن الحال الماضية

بالأمر ليستحضر سامع الخطاب أولئك القوم فى ذهنه ويتصور اغتباطهم بما هم فيه حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب يوجه إليهم . وهذا ضرب من ضروب إيجاز القرآن التى لا تجارى ولا تمارى ثم قال ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى لا تنشروا فسادكم فى الأرض وتكونوا فى الشرور قدوة سيئة للناس . يقال عثا إذا نشر الشر والفساد وآثار الخبث فهو أخص من مطلق الإفساد ولذلك مع كون « مفسدين » حالا من ضمير « تعثوا »

قال الأستاذ الإمام : إن كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع . والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً فى قصص الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن . وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها . وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها . ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير

إن الباحثين فى التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الأسلوب فى التقديم والتأخير وقالوا ستأتى أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين ، وما كان لها من النتائج والآثار فى حال الحاضرين . وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر فى كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ ، فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة فى وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار ، بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه ـ فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمى جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع فى الإنسان

هذا ما نقوله إذا سلمنا أن الاستسقاء كان قبل التيه لا فيه ولنا أن نقول إن أرض التيه هى الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر من بيداء فلسطين مما يلى

حدود مصر وفيها كان الاستسقاء بلا خلاف (وفى سفر الخروج أنه كان فى رفيديم التى انتقل اليها بنو إسرائيل من (سين) التى بين إيليم وسيناء . ويطلق التيه على ضلال بنى اسرائيل أربعين سنة فى الأرض . والعبرة فى القصة على ما يظهر من التوراة أن موسى كان يحاول نزع ما فى قلوب قومه من الشرك الذى أشربوا عقائده فى مصر ، وما فى نفوسهم من الذل الذى طبعه فيها استبداد المصريين وتعبيدهم إياهم ، ليكونوا أعلياء أعزاء بعبادة الله تعالى وحده ، وأن يدخل بهم أرض الميعاد وهى بلاد الشام التى وعد الله بها آباؤهم . وكانوا لطول الإقامة فى مصر قد ألفوا الذل وأنسوا بالشعائر والعادات الوثنية ، فكانوا لا يخطون خطوة إلا و يتبعونها بخطيئة ، وكلما عرض لهم شىء من مشقات السفر يتبرمون بموسى و يتحسرون على مصر و يتمنون الرجوع اليها (كما سبق القول) و يستبطئون وعد الله فتارة يطلبون منه أن يجعل لهم إلهاً غير الله ؛ وتارة يصنعون عجلا و يعبدونه ، وتارة يفسقون عن أمر ربهم و يكفرون نعمه . ولما أمرهم بدخول البلاد المقدسة التى وعدهم الله أبوا واعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين لما استحوذ عليهم من الجبن الذى هو حليف الذل . وكان موسى أرسل كالبا و يوشع بن نون رائدين لينظرا حال البلاد فى القوة والضعف وأرسل غيرهما عشرة من بقية أسباط بنى إسرائيل فأخبر هؤلاء بأن فى تلك الأرض قوماً جبارين فقال بنو إسرائيل : إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فأخبر يوشع وكالب بأن الأرض كما وعد الله وأن دخولها سهل والظفر مضمون بالاعتماد على الله تعالى والتوكل عليه ، فلم يسمعوا لهما بل (قالوا إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها) فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة لحكمة بالغة وهى إرادة انقراض أولئك القوم الذين تأشبت فى نفوسهم عقائد الوثنية ، وزايلتها صفات الرجولية ، حتى فسد مزاجها ، وتعذر علاجها ، وخروج نشء جديد يتربى على العقائد الصحيحة ، وأخلاق الشهامة والرجولية ، فتاهوا حتى انقرض أولئك المصابون باعتلال الفطرة ، و بقى النشء الجديد و بعض الذين كانوا عند الخروج من مصر صغاراً لا يقدرون على حمل السلاح ، وقضى الله أمراً كان مفعولا

(٦١) وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ

هذا ضرب آخر مما ذكر الله تعالى به بنى اسرائيل فى سياق دعوتهم إلى الاسلام قال صاحب الكشاف : كانوا قوما فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء ا ه وقال الأستاذ الإمام فى تفسيره ونقده ورده مانصه : فلاحة بتشديد اللام جمع فلاح بمعنى الزراع ، وعكرهم بكسر العين أصلهم ، وأجم الطعام من باب ضرب وعلم كرهه من المداومة عليه . وهو بيان لما بعثهم على أن يسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم تلك الأشياء التى طلبوها والسبب فى جهرهم بذلك وثورتهم عليه كأنه يقول : إن الحامل لهم على ذلك هو تمكن المادة من نفوسهم فلما خرجوا منها وجاءهم مالم يكونوا يألفون نزعوا إلى ما كانوا قد عودوه من قبل . ولو كان الأمر كما قال لكان فى ذلك التماس عذر لهم ، ولما عد الله هذا القول فى خطاياهم ، بل إن السآمة من تناول طعام واحد قد يكون من لوازم الطباع البشرية إلا ماشذ منها العادة أو ضرورة ولا يعدماهو من منازع الطباع جرما إذا لم يسقط ذلك فى محظور . وسياق الآيات قبلها وما يلحق بعد ذلك من قوله تعالى (و إذ أخذنا ميثاقكم) الخ كل ذلك يدل على أن ماعدد من أفاعيلهم ، مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كله من خطاياهم ، ومن ذلك

قوله تعالى ﴿ و إذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما

تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها و بصلها ﴾ و يؤكدذلك إيراد تلك العقوبة الشديدة من ضرب الذل والمسكنة واستحقاق غضب الله تعالى عقب مقالهم هذا

والذى يقع عليه الفهم من الآية أن النزق قد استولى على طباعهم وملك البطر أهواءهم حتى كانوا يستخفون بذلك الأمر العظيم الذى هيأهم الله له من التمكن فى الأرض الموعودة والخروج من الخسف الذى كانوا فيه . ومع كثرة ماشاهدوا من آيات الله القائمة على صدق وعده لهم لم تستيقنه أنفسهم ، بل كانوا على ريب منه ، وكانوا يظنون أن موسى عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر وجاء بهم فى البرية ليهلكهم ، فلذلك دأبوا على اعناته والاكثار من الطلب فيما يستطاع ومالا يستطاع حتى ييأس منهم فيرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة ولهم مطمع فى العيش وأمل فى الخلاص من الهلكة ، فما ذكره الله عنهم فى هذه الآية على حد قولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) و يرشد إلى ما فيه من الاعنات قولهم : لن نصبر على طعام واحد . فقد عبر عن مسألتهم بما فيه حرف النفى الذى يأتى لسلب الفعل فى مستقبل الزمان مع تأكيده فكأنهم قالوا . اعلم أنه لم يبق لك أمل فى بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد فان كانت لك منزلة عند الله كما تزعم فادعه يخرج لنا مايمكن معه أن نبقى معك إلى أن يتم الوعد الذى وعدك ووعدتنا ـ وهم يعلمون أنهم كانوا فى برية غير منبتة ، وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أجم من وحدة الطعام ، ولكنه نزق و بطر كما بينا وطلب للخلاص مما يخشون على أنفسهم . و يؤيد ذلك ماهو معروف فى أخبارهم. ووصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان ـ المن والسلوى ـ لأنهما طعام كل يوم ، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لاتتغير : إنه يأكل من طعام واحد . كأنهم ينظرون إلى أن مجموع الألوان هى غذاؤه الذى لا يتغير فهى غذاء واحد فاذا تغيرت الألوان تغير نوع الغذاء فكان طعاما متعدداً

والبقل من النبات ماليس بشجر دِقٍّ ولا جل كما ذكره ابن سيده . وقال أبو حنيفة ما ينبت فى بزرة ولا ينبت فى أرومة ثابتة . وفرق ما بين البقل ودق الشجر أن البقل إذا رعى لم يبق له ساق ، والشجر تبقى له سوق وإن دقت .

وأرادوا من البقل ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما مما يغرى بالقضم، ويعين على الهضم، والقثاء هى أخت الخيار تسميها العامة « القتة» والعدس والبصل معروفان، والفوم هو الحنطة. وقال الكسائى وجماعة: هو الثوم أبدلت الثاء فاء كما فى جدث وجدف. وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذى يصنع منها ﴿قال﴾ موسى عليه السلام تقريعاً لهم على أشرهم وإنكاراً لتبرمهم ﴿أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟﴾ أى أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى؟ والمن فيه الحلاوة التى تألفها أغلب الطباع البشرية والسلوى من أطيب لحوم الطير وفى مجموعها غذاء تقوم به البنية وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية. أقول: والأدنى فى اللغة الأقرب، واستعير للأخس والأدون كما استعير البعد للرفعة. والاستبدال طلب شىء بدلا من آخر، والباء تدخل المبدل منه المراد تركه. ثم قال ﴿اهبطوا مصراً﴾ من الأمصار ﴿فإن لكم ما سألتم﴾ أى فإنكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم. أما هذه الأرض التى قضى الله أن تقيموا فيها إلى أجل محدود فليس من شأنها أن تنبت هذه البقول وإن الله جل شأنه لم يقض عليكم بالتيه فى هذه البرية إلا لجبنكم وضعف عزائمكم عن مغالبة من دونكم من أهل الأمصار، فلو صح ما تزعمون من كراهتكم للطعام الواحد فأنتم الذين قضيتم به على أنفسكم بما فرط منكم: فإن أردتم الخلاص مما كرهتم فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة، فإن الله كافل لكم النصر عليهم، وعند ذلك تجدون طلبتكم فالتمسوا الخير فى أنفسكم وفى أفعالكم فإن الله لا يضيع أجر العاملين.

قال تعالى ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ الذلة والذل خلق خبيث من أخلاق نفس الإنسان يضاد الإباء والعزة، وأصل المادة فيه معنى اللين. فالذل بالكسر اللين وبالضم والكسر ضد الصعوبة، وإذا تتبعت المادة وجدتها لا تخلو من هذا المعنى. صاحب هذا الخلق لين ينفعل لكل فاعل، ولا يأبى ضيم ضائم. غير أن هذا الخلق الذى يهون على النفس قبول كل شىء لا يظهر أثره غالبا على البدن وفى القول إلا عند الاستذلال والقهر، وكثيراً ما ترى الأذلاء تحسبهم

أعزاء ، يختالون فى مشيتهم من الكبرياء ، و يباهون بما لهم من سلف وآباء ، وربما فاخروا من لايخشون سطوته من الكبراء . .

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ولكن متى شعر الذليل بنية من نفس القاهر أو طاف بذهنه خيال يد تمتد إليه استخذى واستكان ، وظهر السكون على بدنه ، واشتمل الخشوع على قوله وفعله ، وهذا الأثر الذى يسطع من النفس على البدن هو الذى يسمى المسكنة .
و إنما سمى الفقر مسكنة لأن العائل المحتاج تضعف حركته ويذهب نشاطه فهو بعدم مايسد عوزه كأنه يقرب من عالم الجماد ، فلا تظهر فيه حاجة الاحياء فيسكن والمشاهدة ترشدنا إلى تحقيق ماعليه أهل المسكنة فى أوضاع أعضائهم ، ومايبدوا على وجوههم ، وما طبع فى أقوالهم وأعمالهم . فضرب الذلة والمسكنة على اليهود هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها . أو الصاقهما بطباعهم كاتطبع الطغرى على السكة ﴿و باؤا بغضب من الله﴾ أى رجعوا به كما يقال رجع أو عاد بصفقة المغبون — إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه . وكذلك كان آخر أطوار اليهود فى بغيهم أيام ملكهم . والمراد به فقد الملك ومايتبعه . وقال شيخنا استحقوا غضبه ومن استحقه فقد أصابه ، فقد غضب الله عليهم ، وتنكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ (أقول) أى ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الإلهى بسبب ماجروا عليه من الكفر بآيات الله الخ فإنهم بإحراجهم لموسى عليه السلام و إعناتهم له فى المطالب ، مع كثرة ماشاهدوا من العجائب ، وما أظهر الله لهم من الغرائب ، قد دلوا على أن لا أثر للآيات فى نفوسهم ، فهم بها كافرون فى الحقيقة . ونسيان الآيات وعدها كأن لم تكن يعده الكتاب العزيز كفراً كما قال شيخنا ﴿ يقتلون النبيين بغير الحق﴾ مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلاعنهم إلا بحقه المبين فيه ، كل ذلك دل فيهم على طباع بعيدة عن الكرم ، وقلوب غلف دون الفهم ، ومن كان هذا شأنه فالأجدر به أن يكون ذليلا مقهوراً ، ثم هو مهبط غضب الله ومحط نقمه ، لأنه أشد الناس كفراً لنعمه ، وقوله (بغير الحق) مع

أن قتـل النبيين لايكون إلا كذلك يزيد فى شناعة حالهم ، ويصرح بأنهم لم يكونوا مخطئين فى الفهم ، ولا متأولين للحكم ، بل ارتكبوا هـذا الجرم العظيم عامدين ، وهم يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع الله تعالى لهم فى كتاب دينهم

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ قال الأستاذ : ذلك الذل وتلك الخلافة بالغضب إنما لزماهم لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام ، ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التى حدها الله لهم فى شرائع أنبيائهم ، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هى الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم فى الأرض الموعودة لأنها كانت الكافلة بنظامهم ، الحافظة لبناء جماعتهم ، فاذا أهملوها فسدت ألفتهم ، وانهدم بناؤهم ، وأسرعت إليهم الذلة التى لم تكن فارقتهم ، إلا منهزمة من يدى سلطان الشريعة ، ولم يكن يصدها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته ، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع المطبوع .

والمتبادر وعده الأستاذ احتمالا أن ترجع الإشارة فى (ذلك) إلى الثاني أى الكفر بآيات الله وقتل النبيين . أى إن كفرهم وجراءتهم على النبيين بالقتل إنما منشؤها عصيانهم واعتداؤهم حدود دينهم ، لأن الذى يدين بدين أو شريعة أياً كانت يتهيب لأول الأمر مخالفتها ، فاذا خالفها الأول مرة تركت المخالفة أثراً فى نفسه ، وضعفت هيبة الشريعة فى نظره ، فاذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على إرادته ، ولا يزال كذلك حتى تصير المخالفة طبعاً ورينا ، وينسى ماقام على الشريعة من دليل وما كان لها من سيطرة ، ويضرى بالعدوان ، كما يضرى الحيوان بالافتراس وكل عمل يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه خصوصاً ما اتبع فيه الهوى .

---

(٦٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

أحاط القضاء فى الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضراً ولا غائباً فألزم

الذل باطنهم ، وكسا بالمسكنة ظاهرهم ، وبوأهم منازل غضبه ، وجعل أرواحهم مساقط نقمه ، فذلك الله الذى يقول (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات الله ، وانصراف عن العبرة ، واستعصاء على الموعظة وخروج عن حدود الشريعة واعتداء على أحكامها . اقترف ذلك سلفهم ، وتبعهم عليه خلفهم ، فحقت عليهم كلمة ربك ، فلو قرّ الخطاب عندها ، ولم يتلها من رحمته مابعدها ، لحقّ على كل يهودى على وجه الأرض أن ييأس ، وأن لا يبقى عنده للأمل فى عفو الله متنفس ؛ بل كان ذلك القنوط لازما لكل عاص ، قابضا على نفس كل معتد ، لافرق بين اليهود وغيرهم ، فان سبب مانزل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ماشرع الله لهم ، وسنن الله فى خلقه لا تتغير وأحكامه العادلة فيهم لاتتبدل ، لهذا جاء قوله تعالى (إن الذين آمنوا) الخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمنا لجميع من تمسك بهدى نبى سابق وانتسب إلى شريعة سماوية ماضية ، ليدل على أن الجزاء السابق ـ وإن حكى على أنه من خطأ اليهود خاصة ، لم يصبهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة وهى الفسوق عن أوامر الله وانتهاك حرماته ، فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ماسقط عليهم ، وعلى أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم على أنهم من شعب إسرائيل أو من ملة يهود بل (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)

وأما أنساب الشعوب وماتدين به من دين وماتنتحله من ملة فكل ذلك لا أثر له فى رضاء الله ولا غضبه ، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم ، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيرى الدنيا والآخرة إنما هو صدق الإيمان بالله تعالى بأن يكون التصديق به سطوعا على النفس من مشرق البرهان ، أو جيشانا فى القلب من عين الوجدان ؛ فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خاليا من شنوب التشبيه والتمثيل ، واليقين فى نسبة الأفعال إليه خالصا من وساوس الوهم والتخييل ويكون المؤمن قد ارتقى بإيمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الإلهى . فاذا رفع بصره إلى الجناب الأرفع أغضى هيبة وأطرق إلى أرض العبودية خشوعا ، وإذا أطلق نظره

فيما بين يديه ، مماسلطه الله عليه ، شعر فى نفسه عزة بالله ، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه . لا يحدوا حداً ضرب له ، ولا يقف دون غاية قدرله أن يصل إليها ، فيكون عبد الله وحده : سيدا لكل شىء بعده

كتب ماتقدم الاستاذ بقلمه إذ اقترحت أن يكتب تفسير الآية كما قرره فى درسه وأننى أتمه على المنهج الذى جريت عليه فأقول :

هذا هو الإيمان المرضى عند الله تعالى الذى يكون أصلا لتهذيب أخلاق صاحبه ، ومصدرا للأعمال الحسنة عنه . وللإيمان اطلاق آخر وهوالتصديق بالدين فى الجملة أى الإيمان بالله وبأن ماجاء به فلان النبى مثلا هوصحيح غير مكذوب على الله تعالى ويدخل فيه أهل الفرق الضالة من كل دين من الأديان السماوية ، فهو اطلاق صحيح لغة وعرفا كما تقدم فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) أى إنهم يصدقون بأن للعالم إلها ، وبأن بعد الموت بعثا ، ولكن هذا الإيمان ليس مطابقا فى تفصيله للاذعان الذى له السلطان الأعلى على النفوس فى تزكيتها وتهذيبها وحملها على الأعمال الصالحة . وهذا الإطلاق هو الذى عناه الاستاذ الامام بقوله : لاأثر له فى رضا الله ولا غضبه الخ وهو كون الدين جنسية لمن ينتسب إليه فقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ مراد به المسلمون الذين اتبعوا محمدا ﷺ والذين سيتبعونه إلى يوم القيامة ، وكانوا يسمون المؤمنين والذين آمنوا . وقوله ﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين ﴾ يراد به هذه الفرق من الناس التى عرفت بهذه الأسماء أو الألقاب من الذين اتبعوا الأنبياء السابقين ، وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ النصارى ، وعلى بعضهم لفظ الصابئين ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ﴾ هذا بدل مما قبله أى من آمن منهم بالله إيمانا صحيحا — وتقدم شرحه ووصفه آنفا — وآمن باليوم الآخر كذلك وقد تقدم تفسيرهما فى أوائل السورة ، وعمل عملا صالحا تصلح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه ، وماالعمل الصالح بمجهول فى عرف هؤلاء الأقوام ، وقد بينته كتبهم أتم بيان ، ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف

عليهم ولاهم يحزنون ﴾ أى إن حكم الله العادل سواء وهو يعاملهم بسنة واحدة لايحابى فيها فريقا ويظلم فريقا . وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسولهم ولاخوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم ولاهم يحزنون على شىء فاتهم . وتقدم هذا التعبير فى الآية (٣٨) مع تفسيره

فالآية بيان لسنة الله تعالى فى معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولانصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) فظهر بذلك أنه لا إشكال فى حمل من آمن بالله واليوم الآخر الخ على قوله (إن الذين آمنوا) الخ ولا إشكال فى عدم اشتراط الإيمان بالنبى ﷺ ، لأن الكلام فى معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبى ووحى بخصوصها ، الظانة أن فوزها فى الآخرة كائن لامحالة لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلا ، فالله يقول إن الفوز لايكون بالجنسيات الدينية و إنما يكون بايمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس ،ولذلك نفى كون الأمر عندالله بحسب أمانى المسلمين أو أمانى أهل الكتاب ،وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم : ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ،ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين ابراهيم ولن يدخل الجنه إلا من كان هودا : وقالت النصارى مثل ذلك . فقال المسلمون كتابنا بعد كتابكم ونبينا ﷺ بعد نبيكم ، وديننا بعد دينكم ،وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم ، نحن على دين ابراهيم واسماعيل و إسحاق. ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا . فانزل الله تعالى (ليس بأمانيكم) الآية . وروى نحوه عن مسروق وقتادة . وأخرج البخارى فى التاريخ من حديث أنس مرفوعا «ليس الإيمان بالتمني ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل . إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا ،

لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل. والحكمة فى عناية الله تعالى بالنعى على المغترين بالانتساب إلى الدين أيا كان ظاهره، فان هذا الغرور هو الذى صرفهم عن العمل به اكتفاء بالانتساب إليه وجعله جنسية فقط . وترك العمل لازم أو ملزوم لعدم الفقه فى الدين، أى عدم فهم حكمه وأسراره، وتبع هذا فى الأمم السابقة ترك النظر فيما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن المغرور بما هو فيه لا ينظر فيما سواه نظراً صحيحا لاسيما إذا كان مخالفا له .

وذكر الأستاذ الإمام فى تفسير هذه الآية مسألة أهل الفترة والخلاف المشهور فيها وهو أن جمهور أهل السنة يقول إنهم ناجون لأنه لاتكليف إلا بشرع وهؤلاء لم تبلغهم دعوة ، ومن قال إن بالعقل يدرك الواجب والمحرم والاعتقاد الصحيح والباطل عدهم غير ناجين. وهذا رأى المعتزلة وجماعة من الحنفية، وجمهور الأشاعرة على أنه لايمكن إدراك ذلك إلا بالشرع ، ثم إن محل النظر فى أهل الفترة من كان منهم كالعرب الذين كانوا يعتقدون نبوة أنبياء ولا يجدون لديهم شيئا من أحكام دينهم خالصا من الشوائب سالما من النزعات الفاسدة . وأما مثل اليهود فلا يصح أن يسموا أهل فترة فانهم على نسيانهم حظا مما ذكروا به وتحريفهم بعض ماحفظوا قد بقى جوهر دينهم معروفا لم يغش أحكامه مايمنع الاهتداء بها والله تعالى يقول(٥:٤٣وعندهم التوراة فيها حكم الله)وكذلك المسيحيون لا يسمون أهل فترة لأن عندهم فى التوراة ووصايا الأنبياء ماعند اليهود وزيادة مما حفظوا من وصايا المسيح وروح الدعوة موجود عندهم ، ولكنهم لا يعملون بهذه الوصايا ولا يأخذون بتلك الاحكام ، ولا عذر لهم يحول دون العقوبة . وأما الصابئون فان كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما فى كثير من التقاليد كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد فالأمر ظاهر أن حكمهم كحكمهم وإن كان الخلط عندهم أكثر ، والبعد عن الأصل أشد ، حتى إنهم اعتقدوا تأثير الكواكب ، وأحاطت بهم البدع من كل جانب ، على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارى فان عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة

تؤثر عن المسيح عليه السلام ، والنصارى صاروا أشد أمم الأرض عتوا وطمعا وإسرافا فى حظوظ الدنيا . ويقال إن الصابئة ملة مستقلة يؤمنون بكثير من الأنبياء المعروفين ولكن قد اختلط عليهم الأمر كما اختلط على الحنفاء من العرب إلا أن عندهم من التقاليد والأحكام مالم يكن عند العرب ، فان كانوا أقرب اليهم فلهم حكمهم و إلا فهم كاليهود والنصارى يسئلون عن العمل بدينهم بعد فهمه كما يجب حتى يأتيهم هدى آخر، كأن تبلغهم دعوة الاسلام فان لم يفعلوا فهم مؤاخذون

علمنا أن أهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة صحيحة تحرك إلى النظر أو بلغهم أن بعض الأنبياء بعثوا ولكن لم يصل اليهم شيء صحيح من شرائعهم ، فهم يؤمنون بهم إيمانا إجماليا كالحنفاء من العرب الذين كانوا يؤمنون بإبراهيم وإسماعيل ولا يعرفون من دينهما شيئا خالصا كما تقدم آنفا . وحجة الاشاعرة على عدم مؤاخذتهم آيات كقوله تعالى (١٧ : ١٥ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (٤ . ١٦٥ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)وذهب كثير منهم إلى الاكتفاء ببلوغ دعوة أى نبى فى ركنى الدين الركينين وهما الايمان بالله و باليوم الآخر ، فمن بلغته وجب عليه الايمان بهذين الأصلين ، و إن لم يكن النبى مرسلا اليه

وذهب جمهور الحنفية وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل فلا تتوقف المؤاخذة عليها على بلوغ دعوة رسول ، و إنما يجيء الرسل مؤكدين لما يفهم العقل موضحين له ومبينين أمورا لا يستقل بإدراكها كأحوال الآخرة وكيفيات العبادة التى ترضى الله تعالى . وأولوا آية (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) بأن المراد بالتعذيب هو الاستئصال فى الدنيا بإفناء الأمة أو استذلالها ، والذهاب باستقلالها ، و ينافيه ما يدل عليه استعمال «وما كنا» من إرادة نفى الشأن الدال على عموم السلب ، ولهم فى كتبهم أدلة ومناقشات ليس هذا من مواضعها

وعن الامام الغزالى أن الناس فى شأن بعثة النبى صلى الله عليه وآله وسلم أصناف ثلاثة ـ من لم يعلم بها بالمرة ـ أى كأهل أمريكا لذلك العهد ـ وهؤلاء ناجون حتما (أى إن لم تكن بلغتهم دعوة أخرى صحيحة) ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها إهمالا أو عنادا أو استكبارا ، وهؤلاء مؤاخذون حتما ومن بلغته

على غير وجهها أو مع فقد شرطها وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر ، وهؤلاء فى معنى الصنف الأول . هذا معنى عبارته المطابقة لأصول الكلام

(وأقول) عبارته فى كتاب فيصل التفرقة فى هذا الصنف هى: وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقنع (لعنه الله) تحدى بالنبوة كاذبا ، فهولاء عندى فى معنى الصنف الأول فان أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه ، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه، وهذا لايحرك داعية النظر فى الطلب . اه

وأقول فى حل معنى الآية على هذا : إن أهل الأديان الإلهية ـ وهم الذين بلغتهم دعوة نبى على وجهها وبشرطها ـ إذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح الذى بينه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجون مأجورون عند الله تعالى، و إذا آمنوا على غير الوجه الصحيح كالمشبهة والحلولية والاتحادية وغيرهم فلا ينالهم من هذا الوعد شىء بل يتناولهم الوعيد المذكور فى الآيات الأخرى، وكذلك حال الذين يؤمنون بأقوالهم دون أعمالهم ، فان الإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والارادة التى تحرك الأعضاء فى الأعمال ،فإن نازعه فى سلطانه طائف من الشهوة فانه لايلبث أن يقهره (٧:٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون) ثم أزيد الآن على ماتقدم ان كل هذه الأقوال والتفصيلات انما هى فى المؤاخذة على اتباع دعوة الرسل وعدمها . ولا يعقل أن يكون من لم تبلغهم الدعوة بشرطها أو مطلقا ناجين على سواء وأن يكونوا كلهم فى الجنة كأتباع الرسل فى الإيمان الصحيح والعمل الصالح . إذ لو صح هذا لكان بعث الرسل شراً من عدمه بالنسبة إلى أكثر الناس . والمعقول الموافق للنصوص أن الله تعالى يحاسب هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة ما بحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما وستجد تفصيل هذا فى موضع آخر من هذا التفسير

---

(٦٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا

ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٤) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

أطمع الله تعالى بالآية السابقة بنى اسرائيل فى رحمته بعد ما فرقهم بالنذر التى تكاد توقع اليأس فى قلوبهم ، وبين لهم ولسائر الناس أن المنفذ إلى هذا الطمع بل الباب الذى يؤدى إلى هذا الرجاء هو الجمع بين الأمرين اللذين بعث لتقريرهما الأنبياء عليهم السلام وهما الإيمان الصحيح اليقينى والعمل الصالح ، وإشراك غير بنى اسرائيل فى هذا الحكم لا يقضى بانتهاء السياق ، بل لا يزال الكلام فى بنى اسرائيل ، ولذلك عقب الاطماع بالتذكير ببعض الوقائع التى استحقوا فيها العقوبة فحالت دون وقوعها الرحمة فقال ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ وهو العهد الذى أخذه عليهم وتقدم الكلام فيه ، وأما قوله ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ فقد ذكر المفسرون فيه قصة وهى أن الله تعالى ظلل بنى اسرائيل بالطور وهو الجبل المعروف وخوفهم برفعه فوقهم ليذعنوا ويؤمنوا . ثم اعترض عليه بعضهم بأنه إكراه على الإيمان وإلجاء إليه وذلك ينافى التكليف ، وأجيب بأجوبة منها أن ما يفعل بالاكراه يعود اختياريا بعد زوال ما به الاكراه ، ومنها أن مثل هذا الالجاء والاكراه كان جائزاً فى الأمم السابقة ، ويزيد من قال هذا أن نفى الاكراه فى الدين خاص بالاسلام لقوله تعالى (لا إكراه فى الدين) وقوله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)

قال الاستاذ الامام : لا حاجة لنا فى فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح فهو لا يحتاج فى فهمه إلى إضافات ولا ملحقات ، وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بنى اسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الاكراه على الإيمان ، وإنما حكى عنهم فى آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم فقد قال تعالى فى سورة الاعراف (وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) والنتق الزعزعة والهز والجذب والنفض ونتق الشىء ينتقه وينتقه ـ من بابى ضرب ونصر ـ نتقاً جذبه واقتلعه وقد يكون ذلك فى الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالنتق وهو فى الأصل بمعنى الزعزعة

والنفض والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه . فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوى الايمان، وتحرك الشعور والوجدان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أى تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط ، لا يلابس نفوسكم فيه ضعف ،ولا يصحبها وهن ولا وهم ،ثم قال ﴿ واذكروا مافيه ﴾ أى بالمحافظة على العمل به ، فان العمل هو الذى يجعل العلم راسخاً فى النفس مستقراً عندها ، و يؤثر عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال : يهتف العلم بالعمل . فان أجابه و إلا ارتحل . وذلك أن العلم إنما يحضر فى النفس مجملا غير سالم من إبهام وغموض ، فاذا برز للوجود بالعمل صار تفصيليا جليا ، ثم ينقلب النظرى منه بالتكرار والمواظبة بديهيا ضروريا . و بذلك يثبت فلا ينسى . وأما النسيان فانه حليف الكفر و إنه ليصل بالإنسان إلى حد يساوى فيه من لم تسبق له معرفة بالشىء قط لأنه لا أثر له فى النفس ولا فى الظاهر . ولا فرق بين من بلغته دعوة الهداية فسلم بها وقبلها ثم ترك العمل بها حتى نسيها ، و بين من لم تبلغه ألبتة ومن بلغته على وجه غير مقنع فلم يؤمن – إلا بما تكون الحجة به على الأول أظهر ، وكونه بالمؤاخذة أجدر ، والثانى معذور عند الجماهير ، وكذلك الثالث إذا استمر على النظر من غير تقصير ، فعلى هذا تكون منزلة الناسى هى التى تلى منزلة الجاحد المعاند ، وهو خليق بأن يحشر يوم القيامة أعمى عن طريق النجاة والسعادة ،حتى إذا لقى ر به قال(٢٠ : ١٢٤ رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)

وأقول : إن فى هذا الحجة على قراء القرآن الذين ليس لهم منه إلا التغنى بألفاظه وأفئدتهم هواء لا أثر فيها للقرآن ، وأعمالهم لا تنطبق على ماجاء به القرآن، وهذا شر نوعى الإنسان ، وقد ضرب له أبو حامد الغزالى مثل عبيد أقطعهم سيدهم بستانا وكلفهم إصلاحه وعمارته ، وكتب لهم كتاباً يبين لهم فيه كيف يسيرون فى هذا الاصلاح ، وكيف تكون حياتهم فيه ، ووعدهم على الاحسان بمكافأة وأجر فوق مايستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته ، وتوعدهم على الإساءة فى العمل بالعقوبة

الشديدة وراء ما يفوتهم من خيرات البستان ، وما يذوقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم ، فكان حظهم من الكتاب تعظيم رقه وورقه ، والتغنى بلفظه ، وتكرار تلاوته ، بدون مبالاة بالأمر والنهى ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه ، بل عاثوا فى أرض البستان مفسدين فأهلكوا الحرث والنسل ، فهل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم ، وقاطع لألسنة العذر منهم ؟؟

أمرهم بالذكر الذى يثبت بالعمل ، ووصله بذكر فائدته وهى إعداده النفس لتقوى الله عز وجل ، فقال ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فان المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب تطبع فى النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها نقية نقية ، راضية مرضية (والعاقبة للتقوى)

وبعد أن ذكر لهم تلك الآية ، وما اتصل بها من الهداية ، ذكرهم بما كان منهم من التولى عن الطاعة والاعراض عن القبول ، ثم امتنّ عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة ، والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة ، فقال : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ أى ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التى تؤثر فى القلوب ، وتستكين لها النفوس ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ أى إنكم بتوليكم استحققتم العقاب ، ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم ، ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا وهو التمكن فى الأرض المقدسة التى تفيض لبناً وعسلا ، ثم خسرتم سعادة الآخرة وهى خير ثواباً وخير أملا . فمن فضله وإحسانه أن وفقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك

شايع الأستاذ الامام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية ، أى أنه انتزع من الأرض وصار معلقاً فوقهم فى الهواء ، وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق ، وإن لم تكن ألفاظها نصاً فيه ، إذ الرفع والارتفاع هو جعل الشىء — أو أن يكون الشىء — رفيعا عاليا كما قال تعالى (فيها سرر مرفوعة) وقال (وفرش مرفوعة) فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهى على الأرض . وقوله تعالى فى آية الأعراف (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) ليس نصاً أيضاً فى كون الجبل رفع فى الهواء . فأصل النتق فى اللغة الزعزعة والزلزلة كما سبق . قال فى حقيقة

الاساس : نتق البعير الرحل زعزعه ، ونتقت الزبد أخرجته بالمخض ، ونتق الله الجبل رفعه مزعزعا فوقهم اهـ . والظلة كل ما أظلك سواء كان فوق رأسك أو فى جانبك وهو مرتفع له ظل ، فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا ، أى مرتفعاً مزعزعا فظنوا أن سيقع بهم ، وينقض عليهم ، ويجوز أن ذلك كان فى أثر زلزال تزعزع له الجبل ، وقد سبق القول ببطلان كون ذلك إرهاباً للاكراه على قبول التوراة ، واذا صح هذا التأويل ، لا يكون منكر ارتفاع الجبل فى الهواء مكذبا للقرآن

---

(٦٥) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٦) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

أباح الله تعالى لبنى اسرائيل العمل فى ستة أيام من الأسبوع وحظر عليهم العمل فى يوم واحد وهو يوم السبت ، وفرض عليهم فى هذا اليوم الاجتهاد فى الأعمال الدينية إحياء للشعور الدينى فى قلوبهم ، وإضعافا لشرههم فى جمع الحطام وحبهم للدنيا ، فتجاوز طائفة منهم حدود الله فى السبت واعتدوها ، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض نفسه بآداب الدين ، وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الانسانى ، والرتوع فى مراتع البهيمية ، كالقرد فى نزواته ، والخنزير فى شهواته ، وقد سجل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة ، والنواميس التى أقام بها نظام الخليقة ، وذلك قوله عز وجل ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ﴾ أى وأقسم أنكم لقد علمتم نبأ الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب فى ترك العمل الدنيوى يوم السبت — وسيأتى نبؤهم مفصلا فى سورة الاعراف ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى (٦٢ : ٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) ومثل هذا قوله تعالى (٥ : ٦٠ وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) والخسوء هو

الطرد والصغار . والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله فى طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس : والمعنى أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرأهم على المعاصى والمنكرات بلا خجل ولا حياء حتى صار كرام الناس يحتقرونهم ولا يرونهم أهلا لمجالستهم ومعاملتهم

وذهب جمهور المفسرين : إلى أن تلك القرية أيلة وقيل طبرية أو مدين وقالوا إن ذلك كان فى زمن داود عليه السلام ، والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان ، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات ، فالحجة فيما ذكر قائمة على بنى اسرائيل ومبينة أن مجاحدتهم ومعاندتهم للنبى ﷺ ليست بدعا من أمرهم . ثم انها عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ إلهه هواه ويعيش عيشة بهيمية . وذهب الجمهور أيضا إلى أن معنى (كونوا قردة) ان صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين ، والآية ليست نصا فيه ولم يبق إلا النقل ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان ، إذ ليس ذلك من سننه فى خلقه ، وانما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله تعالى فى الذين خلوا من قبل : أن من يفسق عن أمر ربه ، ويتنكب الصراط الذى شرعه له ، ينزل عن مرتبة الانسان ويلتحق بعجماوات الحيوان . وسنة الله تعالى واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة

بمثل ماعامل به القرون الخالية ، ولذلك قال ﴿ فجعلناها نكالا لمابين يديها وماخلفها وموعظة للمتقين ﴾ أى جعلنا هذه العقوبة نكالا وهو مايفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر غيره أى عبرة ينكل من يعلم بها أى يمتنع من اعتداء الحدود ، ومن هذه المادة (النكل) للقيد أو هو أصلها ومنها النكول عن اليمين فى الشرع وهو الامتناع ، وما بين يديها يراد به من وقعت فى زمنهم كما يراد بماخلفها من بعدهم إلى ماشاء الله تعالى

وأما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتقى يتعظ بها فى نفسه بالتباعد عن الحدود التى يخشى اعتداؤها (تلك حدود الله فلا تقربوها) ويعظ بها غيره أيضا ولا يتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين ، إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة فى تربية الأمم وتهذيب الطباع ، وذلك ما هو

معروف لأهل البصائر، ومشهور عند عرفاء الأوائل والأواخر [وحديث المسخ والتحويل وأن أولئك قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير إنما قصد به التهويل والاغراب فاختيار ماقاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة والأجدر بتحريك الفكرة]

وأقول : إنه ليس فى تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبى ﷺ نص فيه على كون ماذكر مسخا لصورهم وأجسادهم . وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسيره قول مجاهد فى أن المسخ معنوى وقول الآخرين إنه صورى ، ثم قال والصحيح أنه معنوى صورى . فما مراده بذلك ؟

---

(٦٧) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٧٠) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧١) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا . قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بنى اسرائيل فى قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها . ومن وجوه الاعتبار أن التنطع فى الدين والإحفاء فى السؤال ، مما يقتضى التشديد فى الاحكام ، فمن شدد شُدد عليه ، ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله (٥ : ١٠١ ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن

أشياء إن تبد لكم تسوءكم ، وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم . عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) وفى الحديث الصحيح « و يكره لكن قيل وقال ، و إضاعة المال ، وكثرة السؤال » وقد امتثل سلفنا الأمر فلم يشددوا على أنفسهم فكان الدين عندهم فطريا ساذجا وحنيفيا سمحا ، ولكن من خلفنا من عمد إلى ماعفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها باجتهاده ، وأكثروا منها حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته وملت ، وألقته وتخلت .

قال الأستاذ الامام : جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ، فهو فى هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى فى القصة الواحدة . و إنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، و يحرك الفكر إلى النظر تحريكا ، و يهز النفس للاعتبار هزاً . وقد راعى فى قصص بنى اسرائيل أنواع المنن التى منحهم الله تعالى إياها ، وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها ، وما كان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات ، وابتلائهم بالحسنات والسيئات ، وكيف كانوا يحدثون فى أثر كل عقوبة توبة ، و يحدث لهم فى أثر كل توبة نعمة ، ثم يعودون إلى بطرهم ، و ينقلبون إلى كفرهم .

كان فى الآيات السابقة يذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالتوبة فالرحمة كالتفضيل على العالمين، وأخذ الميثاق، والانجاء من آل فرعون، وما كان فى أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجملنا ، وأوضحنا من قبل وفصلنا . وفى هذه القصة اختلف النسق فذكر المخالفة بعد فى قوله (و إذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) ثم المنة فى الخلاص منها فى قوله (فقلنا اضربوه ببعضها) الخ وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهى ذبح البقرة بما يعجب السامع و يشوقه إلى معرفة ماوراءها [حيث لم يسبق فى الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة ، فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الأمر والجدال الذى وقع فيه يثير الشوق فى الأنفس إلى معرفة السبب فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه] إذ الحكمة فى أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة

خفية وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها . لاسيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب . وأقول: قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التى يسمونها الروايات فى هذا العصر

يقول أهل الشبهات فى القرآن : إن بنى إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها فى التوراة فمن أين جاء بها القرآن ؟ ونقول : إن القرآن جاء بها من عند الله الذى يقول فى بني إسرائيل المتأخرين : إنهم نسوا حظا مما ذكروا به وأنهم لم يؤتوا إلا نصيباً من الكتاب . على أن هذا الحكم منصوص فى التوراة وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول فى واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التى كسر عنقها فى الوادى ، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم ، إغفر لشعبك إسرائيل : ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل فى هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هى السبب فيه . وماهذه بالقصة الوحيدة التى صححها القرآن ، ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذى حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى . (قال الأستاذ) وقد قلت لكم غير مرة إنه يجب الاحتراس فى قصص بنى إسرائيل وغيرهم من الأنبياء وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين. فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشىء من تاريخ تلك الأزمنة التى يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحرى والبحث واستخراج الآثار فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التى لا يوثق بها لحسن قصدهم ، ولكننا لا نعول على ذلك بل ننهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها ، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته

(وأقول) إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو فى أول الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

(١) إذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً فى الحقل لا يعلم من قتله

(٢) يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل

(٣) فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير

(٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي

(٥) ثم يتقدم الكهنة بنى لاوى لأنه إياهم اختار الأب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب ، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة

(٦) ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي

(٧) ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر

(٨) اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم برىء في وسط شعبك إسرائيل . فيغفر لهم الدم اهـ

فعلم من هذا أن الأمر بذبح البقرة كان لفصل النزاع في واقعة قتل ويروون في قصته روايات منها أن القاتل كان أخ المقتول قتله لأجل الارث وأنه اتهم أهل الحي بالدم وطالبهم به . ومنها أنه كان ابن أخيه . وغير ذلك مما لاحاجة إليه ، وكانوا طلبوا من موسى الفصل في المسألة وبيان القاتل ولما أمرهم بذبح البقرة استغربوه لما فيه من المباينة لما يطلبون ، والبعد بينه وبين ما يريدون ، فذلك قوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا ﴾ أي سخرية يهزأ بنا ، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال ، وإن لم تظهر حكمته بادي الرأي ، ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك . ولما كان في جوابهم هذا رمي لموسى عليه الصلاة والسلام بالسفه والجهالة ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ أي ألتجىء إلى الله وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ أي ما الصفات المميزة لها ؟ قال الأستاذ الإمام : إن السؤال بما هي ليس جاريا هنا على اصطلاح علماء

المنطق من جعله سؤالا عن حقيقة الماهية ، وإنما هو على حسب أسلوب اللغة ، والعرب يسألون بما عن الصفات التى تميز الشىء فى الجملة كالذى ذكره فى الجواب ﴿قال إنها بقرة لا فارض﴾ أى غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ولا بكر﴾ لم تلد بالمرة والمراد بها التى لم تلد كثيرا ﴿عوان بين ذلك﴾ العوان النصف فى السن من النساء والبهائم أى هى بين ما ذكر من السنين الفارض والبكر فالمشار إليه بكلمة ذلك متعدد فى المعنى وإن كان لفظه مفرداً . و « بين » من الكلم التى تختص بالمتعدد تقول جلست بينهم أو بينهما ولا تقول جلست بينه واستعمال الإشارة والضمير المفردين فيما هو بمعنى الجمع على تقدير التعبير عنه بالمذكور أو « ما ذكر » كثير فى كلامهم ومنه قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد و بلق * كأنه فى الجسم توليع البهق

ذكر هذا الوصف المميز للبقرة فى الجملة وقال ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ وكان يجب عليهم الاكتفاء به والمبادرة بعده للامتثال ولكنهم أبو إلا تنطعا واستقصاء فى السؤال ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ الفاقع الشديد الصفرة فى صفاء بحيث لا يخالطه لون آخر ، وبعض أهل اللغة لا يخصه بالأصفر بل يجعله وصفا لكل لون صاف .

وكان يجب أن يكتفوا بهذه المميزات ولكنهم زادوا تنطعا إذ ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا و إنا إن شاء الله لمهتدون﴾ وقد أرادوا بهذا السؤال زيادة التمييز ككونها عاملة أو سائمة ﴿ قال إنها بقرة ﴾ سائمة ﴿ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ أى غير مذللة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى ﴿ مسلمة ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال ﴿ لا شية فيها ﴾ أى ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة . والشية مصدر كالعدة من وشى الثوب يشيه إذا جعل فيه خطوطا من غير لونه بنحو تطريز . ولما استوفى جميع المميزات والمشخصات ولم يروا سبيلا إلى سؤال آخر ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أى وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم ، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم . روى ابن جرير فى التفسير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفا « لو ذبحوا

أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » وأخرجه سعيد بن منصور فى سننه عن عكرمة مرفوعا مرسلا : وههنا يذكر المفسرون قصة فى حكمة هذا التشديد وهو المصير إلى بقرة معينة لشخص معين كان باراً بوالدته وقد يكون هذا صحيحا غير أنه لاداعى إليه فى التفسير وبيان المعنى . وقد يشتبه بعض الناس فيما ذكر بأن أحكام الله تعالى لاتكون تابعة لأفعال الناس العارضة ويرد هذه الشبهة أن التكاليف كثيرا مايكون عقوبة لأنه تربية للناس وقد وردت الأسئلة والأجوبة فى هذه القصة مفصولة غير موصولة بالفاء وذلك ما يقتضيه الأسلوب البليغ فقد تقرر فى البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال كان مايأتى بعده مما يصح أن يكون جوابا للسؤال المقدر مفصولا عما قبله ، وقوله (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) يشعر بسؤال كأنه قيل ماذا كان منهم بعد الأمر فأجيب عنه بقوله (قالوا أتتخذنا هزوا) وهذا يشعر بسؤال أيضا كأنه قيل ماذا قال موسى إذ قالوا ذلك فأجاب (قال أعوذ بالله) الخ وهكذا ورد غيرها من المراجعات فى التنزيل كما ترى فى قصة موسى وفرعون

---

(٧٢) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٣) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

هذا هو أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا إليه وهى القتل ثم التنازع فى القاتل ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وما كان من إلحاحهم فى السؤال على ما سبق . فقوله تعالى ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ﴾ أسند فيه القتل إلى الأمة وإن كان القاتل واحداً باعتبار ما تقدم من كونها فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . والتدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع فمعناه التدافع وهو يدل على أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها

الحقيقة ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ من الإيقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل لأنه لايخفى عليه مكركم.

وأما قوله ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾ فهو بيان لإخراج مايكتمون. ويروون فى هذا الضرب روايات كثيرة. قيل إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها ... وقالوا إنهم ضربوه فعادت إليه الحيـاة وقال: قتلني أخي أو ابن أخي فلان الخ ماقالوه ، والآية ليست نصا فى مجمله فكيف بتفصيله. والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره ، فمن غسل يده وفعل مارسم لذلك فى الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية. ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس أى يحييها بمثل هذه الأحكام. وهذا الإحياء على حد قوله تعالى (٥:٣٢ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) وقوله (ولكم فى القصاص حياة) فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين. ثم قال ﴿ويريكم آياته﴾ بما يفصل بها فى الخصومات ، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ، فهو كقوله تعالى (٤:١٠٥ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) وأكثر مايستعمل مثل هذا التعبير فى آيات الله فى خلقه الدالة على صدق رسله. وليس عندى شىء عن شيخنا فى تفسير هذه الجملة ولكنه قال فى تعليلها مايرجح القول الأول وهو ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهمون أن ماوقع مختص بهذه الواقعة فى هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله فى كل وقت بالقبول من غير تعنت: قال تعالى:

---

(٧٤) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ

فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(أقول) وصفهم الله تعالى بأنه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات ما أزال أثرها من قلوبهم ، وذهب بعبرتها من عقولهم ، فقال ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ فالعطف بثم يفيد أن الأولين منهم قد خشعت قلوبهم لما رأوا في زمن موسى عليه السلام ما رأوا ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتها ما وصفه عز وجل . والقسوة الصلابة وهي من صفات الأجسام . ووصف القلوب بالقسوة مجاز تشبيه مما يسمونه الاستعارة بالكناية ، ويصح في «أو» الترديد والتشكيك وهو بالنسبة إلى المخاطبين لا إلى المتكلم باعتبار ما يعهد في التخاطب العربي كأن عربياً يحدث آخر ويقول له : إن هذه القلوب في قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها . ويصح فيها التقسيم أي إن القسوة عمت قلوبكم فأقلها قسوة يشبه الحجر الصلد ، ومنها ما هو أشد منه قسوة . وأظهر منهما أن تكون للاضراب على طريقة المبالغة ، أي بل هي أشد قسوة من الحجارة ، إذ لا شعور فيها يأتي بخير ، ولا عاطفة تفيض منها بعبرة ، والحجارة ليست كذلك ، لأن منها ما يفيض بالخيرات ، ومنها ما يكون موضع ظهور آثار القدرة الإلهية في الجمادات .

وصف الحجارة بالثلاث الصفات الآتية بعد أن شبه القلوب بها في الصلابة المطلقة ، وفرق بين القلوب وبينها بالاضراب والانتقال إلى أن القلوب أشد صلابة ، وأراد أن يبين بهذه الصفات وجه ضعف الصلابة في الحجارة وشدتها في القلوب مكان الكلام يشبه أن يكون عذراً عن الحجارة دون القلوب ، والمراد بالقلوب ما اعتبرت عنوانا له وهو الوجدان والعقل ، وأكثر ما تستعمل في الأول لأنه سائق الإقناع والإذعان ، ويطلق لفظ القلب على النفس الناطقة لأن من شأن القلب أن يتأثر مما يتأثر منه الوجدان أو العقل أو الروح مطلقاً . وفي الكلام من المبالغة أن هذه القلوب فقدت خاصة التأثر والانفعال بما يرد عليها من المواعظ والآيات التي هي من خواص الروح الإنساني حتى كأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان

إلى دركة الجماد كالحجارة ، بل نزلوا عن دركة الحجارة أيضاً ، وذلك ما أفاده قوله تعالى ﴿و إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، و إن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، و إن منها لما يهبط من خشية الله﴾ التفجر تفعل من الفجر وهو الشق الواسع يكون للمطاوعة كفجرته فتفجر (بالتشديد فيهما) و يكون لتكرر الفعل وحصوله مرة بعد أخرى ، ومثله التشقق إلا أنه أعم ، ولما فى التفجر من معنى السعة عبر به عن خروج الأنهار من الصخور الكبار وهو معهود فى الجبال ، وعبر بالتشقق لخروج الماء الذى يصدق بالقليل منه .

والمعنى أن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف فيشقها و ينفذ منها بقلة أو كثرة فيحيي الأرض و ينفع النبات والحيوان. وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر ، فالحكم لاتقوى على شقها والنفوذ منها إلى أعماق الوجدان ، وأنوار الفطرة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها على انسان ، ومن الحجارة مايشقه الماء القليل كماء العيون والينابيع الحجرية ، ومنها مالا يفجره إلا الماء القوى الغمر الذى يسمى نهراً (و إن منها لما يهبط من خشية الله) وهو ماينحط من أعلى الجبل ومن أثنائه بسبب أثر من آثار القهر الإلهى كالبراكين والصواعق التى تهبط بها الصخور وتندك الجبال ،وقد جعل هذا شبهاً للآيات الإلهية التى أظهرها على يد عبده ونبيه موسى عليه السلام فهى حوادث عظيمة فى الكون تفزع بها نفوس المؤمنين إلى الله ، وتخشع لأمره ونهيه ، لعظمتها وخفاء سر إيجادها. كما تفزع النفوس من حوادث البراكين والصواعق التى تدك الصخور وتدمر الحصون ،وقد أصبحت تلك القلوب بعد مشاهدة الآيات لاتتأثر بها ولا تزداد إيماناً.

فملخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة فى القسوة بل قد تزيد فى القساوة عنها ، فإن الحجارة الصم تتأثر فى باطنها بالماء اللطيف النافع بعضها بالقوى منه و بعضها بالضعيف ، ولكن قلوبكم لاتتأثر بالحكم والمواعظ التى من شأنها التأثير فى الوجدان ، والنفوذ إلى الجنان ، والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التى يحدثها الله فى الكون كالصواعق والزلازل ، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية

التى تشبهها ، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت فى الأحجار ، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة ، ثم هددهم بقوله ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أى فهو سيرميكم بضروب النقم ، إذا لم تتربوا بصنوف النعم .

(٧٥) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٦) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٧) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٨) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .

كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (رض) يرون أن أولى الناس بالإيمان وأقربهم منه اليهود لأنهم موحدون ومصدقون بالوحى والبعث فى الجملة ولذلك كانوا يطمعون بدخولهم فى الإسلام أفواجا لأنه مصدق لما معهم فى الجملة ومحل لجميع شبهات الدين وحال لجميع إشكالاته بالتفصيل وواضع له على قواعد لاترهق الناس عسراً (و يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم)

كان هذا الطمع فى إيمانهم مبنياً على وجه نظرى معقول لولا أنهم اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية ، ولم يجعلوه هداية روحية ، ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء ، و يحرفون كلمه عن مواضعها بحسب الأهواء ، وما أعذر الله المؤمنين فى طمعهم هذا إلا بعد ماقص عليهم من نبأ بنى اسرائيل الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات ماعلم به أنهم فى المجاحدة والمعاندة على عرق راسخ ونحيزة موروثة لايكفى فى زلزالها كون القرآن مبيناً فى نفسه لايتطرق إليه ريب ، ولا يتسرب إليه شك ، ولذلك بدأ السورة بوصف الكتاب بهذا وكونه هدى للمتقين من أهل الكتاب وغيرهم . وثنى ببيان أن من الناس

من يعانده و يباهته ، ومنهم المذبذب الذى يميل مع الريحين ، فلا يثبت مع أحد الفريقين ، ثم أفاض فى شرح حال بنى اسرائيل الذين لم يؤمن منهم إلا قليل من أهل العلم والتقوى ، وكان الأكثرون أشد الناس استكباراً عن الإيمان و إيذاء للرسول ولمن اتبعه من المؤمنين . و بعد هذا كله أنكر على المؤمنين ذلك الطمع بدخول اليهود فى دين الله أفواجا ، ووصل الانكار بحجةواقعة ناهضة، تجعل تلك الحجة النظرية داحضة فعلم بهذا أن الكلام لايزال متصلافى موضوع الكتاب وأصناف الناس بالنسبة إلى الإيمان به وعدم الإيمان . كما بعد العهد جاء مايذكر به تذكيراً

قال تعالى ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون ﴾ كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه فى الألم من أيذائهم والطمع بهدايتهم فأشركهم بالتسلية كما سبق ، ولأن طمع بعض المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم على الانبساط معهم فى المعاشرة إلى حد الافضاء إليهم ببعض الشؤون الملية المحضة واتخاذهم بطانة ، وكان يعقب ذلك من الضرر مايعقب حتى نهاهم الله تعالى عن اتخاذ البطانة من دون المؤمنين إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء ، وذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانةمن دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) والآية الآتية تدل على هذا الافضاء أيضاً

أما الحجة التى وصلها بانكار الطمع بإيمانهم للدلالة على أنه طمع فى غير مطمع فهى تعمد تحريف كلام الله ممن سمعه منهم . وذلك أن موسى اختار بأمر الله سبعين رجلا من قومه لسماع الوحى ومشاهدة الحال التى يكلمه الله تعالى بها وقد سمعوا كلام الله تعالى على الوجه الذى لا نعرفه ، وانما نعرف أنهم صحبوه إلى حيث كان يناجى الله تعالى ، وكان من شأن الله تعالى معهم أن صدقوا بأن ماجاء به موسى عليه السلام هو وحى من الله تعالى . والتصديق بذلك لايتوقف على معرفة كيفيته وكنهه فان أكثر ما نصدق به تصديق يقين لا نعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه و إيجاده . وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى

قومهم حرفوا كلام الله الذى حضروا وحيه وأذعنوا له بأن صرفوه عن وجهه بالتأويل -- كما حققه ابن جرير الطبرى وغيره وهذا التحريف ثابت عندهم منصوص فى التوراة والتاريخ الدينى الذى يسمى التاريخ المقدس

فدل هذا وما سبقه على أن القسوة المانعة من التأثر والتدبر ، ومكابرة الحق والتفصى من عقال الشريعة ، كان شنشنة قديمة فيهم، ثم تأصل فصار غريزة مطبوعة : فاعراضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه ، ولا القول بجواز تسلق شىء من الريب إليه ، فانهم قد حرفوا و بدلوا ، وعاندوا وجاحدوا ، وهم يشاهدون الآيات الحسية ، و يؤخذون بالعقوبات المعاشية ، فكيف يستنكر بعد هذا أن يعرضوا عن دين دلائله عقلية ، وآيته الكبرى معنوية ، وهى القرآن المعجز بما فيه من علوم الهداية ، ودقائق البلاغة ، وأنباء الغيب على أنه من أمى عاش أربعين سنة لم يؤثر عنه فيها شىء من العلم ، ولم يزاحم فحول البلاغة فى نثر ولا نظم ، وفهم تلك الدلائل انما يكون من ذوى العقول الحرة والقلوب السليمة ، الذين لطف شعورهم ، ورق وجدانهم وصحت أذواقهم .

قال ابن جرير : لو كان المراد بما هنا تحريف كلام التوراة المكتوب لما قال يسمعون كلام الله ثم يحرفونه فزيادة « يسمعون » هنا لابد لها من حكمة ولولا ذلك لجاء الكلام على نسق الآيات الأخرى التى ذكر فيها التحريف كأن يقول « وقد كان فريق منهم يحرف كلام الله » . وقوله تعالى «من بعد ماعقلوه » نص فى التعمد وسوء القصد ، و إبطال لما عساه يعتذر لهم به من سوء الفهم ، ثم قال «وهم يعلمون» أى كانوا يفعلون فعلتهم الشنعاء فى حال العلم بالصواب واستحضاره لأنهم كانوا على نسيان أو ذهول . وفى هذين القيدين من النعى والتشنيع عليهم مالا مزيد عليه . وكيف وقد بطل بها عذر الخطأ والنسيان ، وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان .

ثم بعد هذا الاحتجاج انتقل إلى بيان بعض أحوال الذين كانوا فى زمن التنزيل وقد غير الأسلوب هنا فانه كان يحكى سيئاتهم مبتدئا بكلمة (و إذ) لأنه تذكير بما كان فى الزمان الماضى . والابتداء بكلمة (إذا) هنا هو المناسب فى الحكاية عن حال واقعة فى الحال ، مستمرة فى الاستقبال ، والمراد من حكاية

أحوال الحاضرين ، بيان أنها مساوية لأحوال سلفهم الغابرين ، وأنه لا يرجى من هؤلاء أفضل مما كان من أوائك . قال :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ ﴾

ترشد هذه الآية إلى طور من أطوار البشر في زمن الاصلاح وهي أن جماهير الناس يقعون في الحيرة بين الهداية الجديدة والتقاليد القديمة . لا ينظرون إلى الحق فيتحروا اتباعه أين كان ، ولكنهم يفكرون في منفعتهم الخاصة . يقولون : نخشى أن نجهر بالجديد فيخذل حزبه ويتفرق شمله ، فنكون من الخاسرين . ولا نأمن إن بقينا على القديم أن يتقلص ظله . ويذل أهله ، فنكون مع الضالين . فالحزم أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الآخر إذا هو علم بما كان منا إلى أن نتبين الفوز في أحد الفريقين : فيكونون هكذا مذبذبين كما قال تعالى «وإذا لقو الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » الخ الضمير في قالوا الثانية غير الضمير في قالوا الأولى كما هو ظاهر من السياق ، ولا لبس فيه ولا اشتباه ، ومثله مستفيض في كلام البلغاء وفي التنزيل أيضا كقوله تعالى(وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن)فان المنهي عن العضل الأولياء لا المطلقون . والكلام في القرآن للمكلفين كافة فيوجه كل كلام إلى صاحبه الذي يتعين أن يكون له بقرينة الحال أو المقال . فاذا وجه الخطاب بالطلاق إلى الأزواج،لأنه لا يكون إلا منهم فكذلك يوجه الخطاب بالنهي عن العضل ـ وهو منع المرأة من التزوج ـ إلى الأولياء لأنه لا يكون إلا منهم . وعلى هذه الطريقة يتخرج قوله (قالوا آمنا) وقوله (قالوا أتحدثونهم) فالكلام في مجموع اليهود ، ويوجه الأول إلى الذين يلاقون المؤمنين (والثاني) إلى الذين يلاقيهم هؤلاء من قومهم ويعذلونهم على الافضاء إلى المؤمنين بما فتح الله عليهم

المراد بالفتح هنا الانعام بالشريعة والأحكام ، والبشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، شبه الذي يعطى الشريعة بالمحصور يفتح عليه فيخرج من الضيق . أو معنى (بما فتح الله عليكم) بما حكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الايمان بالنبي

الذى يجيئكم مصدقا لما معكم ونصره ، وقوله (ليحاجوكم به عند ربكم) معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث إن ماتحدثونهم به موافق لما فى القرآن فلهم أن يقولوا : لولا أن محمداً نبى لمـا علم بهذا الذى حكاه عنكم وقد كان مثلنا لا يعرف من أمر الكتاب شيئاً : هذا ماجرى عليه المحققون فى تفسير (عند ربكم) وهو أنه بمعنى فى كتابه فهو كقوله فى أهل الافك (فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى فى حكمه المبين فى كتابه . وذهب مفسرنا (الجلال) إلى أن معناه المحاجة فى الآخرة والنظم لايأباه ، ولكن فيه اعترافا من اللائمين المؤنبين بأن المسلمين على الحق الذى لا ينجى عندالله سواه . ومن اعتقد هذا لايجعله تعليلا للانكار على من يراه من قومه يحدث المؤمنين بما يوافقهم و يقوى حجتهم ، بل فيه أيضا ان ترك تحديثهم لاينفعهم فى الآخرة .

مثل هذه الذبذبة تكون من الأمم فى طور الضعف ولا سيما ضعف الارادة والعلم ، ولو كان لأولئك القوم ارادة قوية لثبتوا ظاهراً على ما يعتقدونه باطلا ولم يصانعوا مخالفيهم من أهل الملة الأولى أو الملة الآخرة ، وقد وبخهم الله تعالى وأنكر عليهم هذا التلون والدهان فى الدين ولقاء كل فريق بوجه يظهرون له ما يسرون من أمر الآخر فقال ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون ﴾ يعنى أيقول اللائمون أو المنافقون كلهم ما قالوا ، و يكتمون من صفات النبى ﷺ ما كتموا ، و يحرفون من كتابهم ما حرفوا ، ولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون من كفر وكيد ، وما يعلنون من اظهار إيمان وود ، فان كانوا مؤمنين باحاطة علمه تعالى فلم لا يحفلون باطلاعه على ظواهرهم ، واحاطته بما يجول فى أطواء ضمائرهم ، و بما يترتب على علمه من خزى فى الدنيا وعذاب فى الآخرة

قال تعالى ﴿ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وان هم الا يظنون﴾ ذلك الذى تقدم هو شأن علمائهم : يحرفون كتاب الله ويخرجون من حكمه بالتأويل ، وهذا هو شأن عامتهم : لا علم لهم بشىء من الكتاب ، ولا معرفة لهم بالأحكام ، وما عندهم من الدين فهو أمانى يتمنونها وتجول صورها فى خيالاتهم ، وهذه الصور هى كل ماعندهم من العلم بدينهم ، وماهم على بينة منها ، وإنما هم ظنون

يلهون بها . وهذا هو محل الذم لامجرد كونهم أميين ، فان الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحاً وهؤلاء لم يكونوا كذلك .

فان قيل : لم سمى ماكانوا عليه من الأماني ظنا مع أنهم أخذوه عن رؤساء دينهم الموثوق بهم عندهم وسلموه تسليما فلم يكن في نفوسهم مايخالفه ومثل هذا يسمى اعتقادا وعلما ؟ نقول إنما العلم بالدليل ولا يسمى مثل ذلك علما إلامن لايعرف معنى العلم . على أنه لم يكن راجحا ومسلما إلا لأن مقابله لم يخطر ببالهم ولو أورد عليهم لتزلزل ما عندهم ثم زال ، أوظهر فيه الشك وتطرق إليه الاحتمال ، ويصح أن يقال في مثل هؤلاء إن الظن أو التردد كان نائما في نفوسهم وهو عرضة لأن يوقظه نقيضه ويذهب به متى طرأ . ونوم الظن لايصح أن يسمى اعتقادا

قال الأستاذ الامام : هذه الاماني توجد في كل الأمم في حال الضعف والانحطاط يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها وبما لهم من الآثار التي كانت ثمرة تلك الهداية ، وتسول لهم الأماني أن ذلك كاف في نجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس . هكذا كان اليهود في زمن التنزيل وقد اتبعنا سننهم وتلونا تلوهم فظهر فينا تأويل الحديث الصحيح « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع » وإننا نقرأ أخبارهم فنسخر منهم ولا نسخر من أنفسنا ، ونعجب لهم كيف رضوا بالأماني ونحن غارقون فيها

ثم إن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه وقد مضى على هذا إجماع الصدر الأول وأهل القرون الثلاثة وإنما كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها ، والأحكام بروايتها ، ولا يتقلد رأيه كيفما كان ، من غير بينة ولا برهان ، وفسر بعضهم الأماني بالاكاذيب ابتداء ومنهم من فسرها بالقراآت أي أنهم لاحظ لهم من الكتاب الاقراءة الفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرها في العمل : فهو على حد (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقد ورد التمني بمعنى القراءة ومنه قول الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليله   تمنيّ داود الزبور على رسل

وهذا النوع من التمني قد برّز فيه المسلمون حتى سبقوا من قبلهم فقد أمسوا

أكثر الأمم تلاوة لكتابهم وأقلهم فهما له واهتداء به

قال الأستاذ الإمام : إنما يحسن تفسير هذه الآيات من كان على علم بتاريخ اليهود فى ذلك العصر ووقوف على حالهم ، وإن كانت الأنسخة من حال بعض الشعوب الموجودين الآن .... كانوا أكثر الناس مراء وجدالا فى الحق وان كان بينا باهرا ، وأشد الناس كذبا وغرورا وأكلالأموال الناس بالباطل كالربا الفاحش وغشاوتدليسا وتلبيسا ، وكانوامع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص وأفضل الناس كما يعتقد أشباههم فى هذا الزمان . فهذه هى الأمانى التى صدتهم عن قبول الإسلام

وأما اللفظ والنظم ففيه أن قوله تعالى « إلا أمانى » استثناء منقطع والعلم المنفى قاصر لايشمل الأمانى . و يصح أن يكون متصلا والآية على حد قولهم « ماعلمت فلانا الافاضلا » ويكون المعنى أنهم إنما يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أمانى يمنونها أنفسهم ، فهم لايأخذون منه الا ماهو لهم ويمدهم فى غرورهم ، وأما ماينعيهم على سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب . ثم قال جل ثناؤه

---

(٧٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .

قال المفسر (الجلال) إنهم كانوا يكتبون الأحكام على خلاف ماهى عليه فى الكتاب كآية الرجم ووصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال الأستاذ الإمام لو كان هذا هو المراد من هذه الآية لما بدىء الكلام بالفاء وإنما الآية وعيد على أن لبسوا على الناس بالكتابة وتأليف الكتب الدينية و إيهام العامة أن كل ما كتبوه فيها مأخوذ من كتاب الله كما يعتقد المقلدون من كل ملة بكتب الدين التى يألفها علماؤهم فى الأصول والفروع حتى أن بعضهم يقول إن اختلافها لاينافى كونها من عند الله خلافا لقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) . فهذه الكتب هى مثار الأمانى والغرور ولذلك أنذر على

أصحابها الهلاك بعد ما ذكر أصناف اليهود من منافقين ومحرفين وأميين فقال

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ أقول : أى ويل وهلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم ويودعونها آراءهم ويحملون الناس على التعبد بها قائلين إن ما فيها من عند الله ويمكن الاستغناء بها عن كتاب الله الذى نفهم منه ما لا يفهم غيرنا : يخطبون بتلك الكتب ميل العامة وودهم ويبتغون الجاه عندهم ويأكلون أموالهم بالدين . ولذلك قال ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾ وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها ، وأرفعها وأعلاها ، ولذلك كرر الوعيد فقال

﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ فالهلاك والويل محيط بهم من أقطارهم ونازل بهم من جانب الوسيلة ومن جانب المقصد .

قال الأستاذ الإمام : من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه أولئك اليهود فلينظر فيما بين يديه فانه يراها واضحة جلية . يرى كتبا ألفت فى عقائد الدين وأحكامه حرفوا فيها مقاصده وحولوها إلى ما يغر الناس ويمنيهم ويفسد عليهم دينهم ، ويقولون هى من عند الله وما هى من عند الله . وإنما هى صادة عن النظر فى كتاب الله والاهتداء به . ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين : رجل مارق من الدين يتعمد إفساده ويتوخى إضلال أهله فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الصلاح يخادع بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول . ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيل ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه

ثم ذكر الأستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل وما عليه المسلمون الآن – ذكر وقائع للقضاة والمأذونين ، وللعلماء والواعظين ، فسقوا فيها عن أمر ربهم ، فمنهم من يتأول ويغتر بأنه يقصد نفع أمته كما كان أحبار اليهود يفتون بأكل الربا أضعافا مضاعفة ليستغنى شعب إسرائيل ، ومنهم من يفعل ما يفعل عامداً عالما أنه مبطل ولكن تغره أمانى الشفاعات والمكفرات

(٨٠) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨١) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

هذا ضرب من ضروب غرورهم عطفه على ماقبله فقال ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ قيل هى أربعون يوما مدة عبادتهم العجل والذى عليه أكثر اليهود أنها سبعة أيام لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة فالاسرائيلى الذى لاتدركه الشفاعة يمكث فى النار سبعة أيام عن كل الف سنة يوم. ومثل هذا الحكم لايمكن القول به إلا بعهد من الله تعالى مالك يوم الدين والجزاء و إلا كان افتئاتا عليه سبحانه وقولا عليه بغير علم وهذا مارد به عليهم ولله الحجة البالغة وأمر رسوله أن يخاطبهم به بقوله ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ﴾ أى هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكان حقاً لكم عنده ، لأن الله لا يخلف عهده ؟ وقال ابن جرير و بعض المفسرين معناه هل اتخذتم عند الله عهداً باتباع شريعته اعتقاداً وائتماراً وانتهاء وتخلقا فأنتم واثقون بعهد الله فى كتابه لمن كان كذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة ومغفرة ما عساه يفرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة ؟؟ والاستفهام للانكار أى لستم على عهد من الله تعالى ولذلك كذبهم بقوله ﴿ أم تقولون على الله مالا تعلمون ﴾ أى أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم ، إذ العلم بمثله لايكون إلا بوحى منه يبلغه عنه رسله ، والقول على الله بغير علم جرأة وافتيات عليه وكفر به . والمعنى أنه لا بد من أحد الأمرين إذ لا واسطة بينهما : إما اتخاذ عهد عند الله ، و إما القول على الله بغير علم و إذا كان اتخاذ العهد لم يحصل تعين أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم ، ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ الآية . بلى مبطلة لدعواهم ،

وقال الأستاذ : للسيئة هنا اطلاقها وخصها مفسرنا (الجلال) و بعض المفسرين بالشرك ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ معنى فان الشرك أكبر السيئات وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان . ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لايجد لنفسه مخرجا منها . يرى نفسه حراً مطلقاوهو أسير الشهوات ،وسجين الموبقات ، ورهين الظلمات ؟ و إنما تكون الإحاطة بالاسترسال فى الذنوب ، والتمادى على الاصرار ، قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أى من الخطايا والسيئات فى كلمة « يكسبون » معنى الاسترسال والاستمرار ، وران عليه غطاه وستره أى أن قلوبهم قد أصبحت فى غلف من ظلمات المعاصى حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه . ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحا و إقلاعا صحيحاً لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات . روى أحمد والترمذى والحاكم وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه و إن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى ذكر الله تعالى فى القرآن (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) لمثل هذا كان السلف يقولون : المعاصى بريد الكفر.

قوله ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خبر (من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) أى هم أصحاب دار العذاب فى الآخرة الاحقاء بها دون من لم يصل إلى درجتهم فى الدنيا وهو من فى قلبه شىء من نور الإيمان وتوحيد الله تعالى وما يتبعه من الخير

قال الأستاذ الإمام : ومن المفسرين من ترك السيئة فى الآية على إطلاقها فلم يؤولها بالشرك ولكنهم أولوا جزاءها فقالوا إن المراد بالخلود طول مدة المكث لأن المؤمن لا يخلد فى النار وان استغرقت المعاصى عمره وأحاطت الخطايا بنفسه فانهمك فيها طول حياته . أولوا هذا التأويل هربا من قول المعتزله : إن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار ، وتأييداً لمذهبهم أنفسهم المخالف للمعتزلة ،والقرآن فوق

المذاهب يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمنا

(وأقول) - : ان فتح باب تأويل الخلود يجرىء أصحاب استقلال الفكر فى هذا الزمان على الدخول فيه والقول بأن معنى خلود الكافرين فى العذاب طول مكثهم فيه لأن الرحمن الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض خلقه عذابا لا نهاية له لأنهم لم يهتدوا بالدين الذى شرعه لمنفعتهم لا لمنفعته ولكنهم لم يفقهوا المنفعة ، و إذا كان التقليد مقبولا عند الله كما يرى فاتحو الباب فقد وضح عذر الأكثرين لأنهم مقلدون لعلمائهم - الخ ما يتكلم به الناس ولا سيما فى هذا العصر فإن هذه المسألة قديمة وهى أكبر مشكلات الدين . نعم إن العلماء يحتجون عليهم بالاجماع ولو سكوتيا ولكن التأويل باب لا يكاد يسده متى فتح شىء

ثم ذكر فى مقابلة أهل النار أضدادهم أهل الجنة على سنته فى كتابه فقال ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وأما الذين جمعوا بين الايمان الصحيح وما يلزمه من الأعمال الصالحات ﴿ فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أقول أى أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقون بها بحسب وعد الله تعالى وفضله هم خالدون فيها . وفيه دليل على أن الوعد على الإيمان والعمل معاً إذ لا ينفك أحدهما عن الآخر ، إلا من آمن فمات ولم يتسع له الوقت للعمل فهو من أهله بمقتضى إيمانه الصحيح وما حال دونه من الاحال عذر لأنه لا ذنب له فيه

---

(٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ

الآيات السابقة كانت تذكيراً بالنعم التاريخية الملية و بالتقصير فى الشكر وعواقبه . وذلك كالتفضيل على العالمين الذى يرفع النفس ، والانجاء من آل فرعون ومن الغرق ، و إيتاء موسى الكتاب والآيات البينات ، وتسهيل المعيشة عليهم فى التيه بما ساق الله إليهم من المن والسلوى ، ثم ما كان منهم فى أثر كل نعمة وما أعقبه

كفر النعم من النقم . ولم يذكر فيما سبق من الاحكام العملية إلا اماجاء على سبيل التبع لهذه الأصول . وفي هذه الآية ومابعدها التذكير بأمهات الاحكام في العبادات والمعاملات وماكان من إهمالها وترك العمل بها · هذا هو المراد أولا وبالذات على أن فيما يأتي إعادة الاشارة إلى بعض مامضى قضى بها ماكان عليه اليهود من سوء الفهم وغلظ القلوب وكثرة المشاغبات والمماراة فالخطاب معهم دائما في باب الاطناب

قال الاستاذ الامام : لاحظ بعض البلغاء والمفسرين أن القرآن يطنب و يبدىء و يعيد في خطاب اليهود خاصة وذلك لما كانت شحنت به أذهانهم مما يسمى علما أو فقها فأبعدهم عن أن يصل شعاع الحق إلى ماوراء ذلك من نفوسهم ، و يكتفي بالايجاز بل بالاشارة الدقيقة في خطاب العرب لما كانوا عليه من سرعة الفهم ورقة الاحساس لقربهم من السذاجة الفطرية ، فالاشارة الى البرهان في ضمن تمثيل، يغني عندهم عن الاسهاب والتطويل ، ولذلك خاطبهم بمثل قوله في الأصنام (وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)

قوله تعالى ﴿ و إذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل ﴾ أي واذكر أيها الرسول إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل وقدتقدم ذكر أخذ الميثاق عليهم في سياق خطابهم ولم يبينه لعلمهم به وقوله هنا ﴿ لا تعبـدون إلا الله ﴾ الخ بيان له أي للميثاق لامقول قول محذوف كما قال المفسر . يقال : أخذت عليك عهداً تفعل كذا : كما تقول : أن تفعل كذا : سواء . وهو خبر بمعنى النهي المبالغة والتأكيد ، يلاحظ فيه أن الأمر والنهي قد امتثل فيخبر بوقوعه ، أو إنه لتوثيقه والتشديد في تأكيده سيمتثل حتما فيخبر بأنه كائن لامحالة . (أقول) وهذا النهي عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته تعالى ولم يصرح به لأنهم كانوا يعبدون الله و إنما يخشى عليهم الشرك به كما وقع منهم في بعض الأجيال ومن غيرهم من الشعوب ، فالأصل الأول لدين الله على ألسنة جميع رسله هو أن يعبد الله وحده ولا يشرك به عبادة أحـد سواه من ملك ولا بشر ولا ما دونهما بدعاء ولا بغيره من أنواع العبادة كما قال (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) فالتوحيد لا يحصل إلا بالجمع بين الأمرين

قال تعالى ﴿و بالوالدين إحسانا ﴾أي وتحسنون بالوالدين إحسانا . والاحسان

نهاية البر فيدخل فيه جميع مايجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين فى التوراة حتى أنه يوجد فيها الآن أن من يسب والديه يقتل . وقد قرن الأمر بالإحسان بالوالدين إلى الأمر بالتوحيد أو النهى عن الشرك فهو كقوله تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وليست هذه العناية بأمر الوالدين فى الكتب السماوية لكونهما سبب وجود الولد كما يقول الناس فانه لا منة لهما على الولد بهذه السببية لأنها لم تكن إكراما له ولا عناية به ، كيف وهو لم يكن معروفا أو موجوداً فيكرم ، وإنما كانت بباعث الشهوة وإرضاء النفس ، ومنهم من لم يكن يخطر بباله الولد إلا بعد الزواج بزمن طويل ، ومنهم من كان يود أن لا يولد له ، أو أن يكون له ولد واحد أو ولدان فقط ، فيكون له أكثر . فإذا كان وجوب الإحسان بالوالدين معلولا لإرادتهما الولد فينبغى أن يخص هذا الإحسان بولد لم يكن لهما من الزوجية حظ سواه بعينه ، وهو ما لا وجود له . ذلك كلام شعرى والعلة الصحيحة فى وجوب هذا الإحسان على الولد هى العناية الصادقة التى بذلاها فى تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفا عاجزاً جاهلا لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يقدر أن يدفع عنها ضرراً ، إذ كانا يحوطانه بالعناية والرعاية ، ويكفلانه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه ، فهذا هو الإحسان الذى يكون منهما عن علم واختيار ، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم وماجزاء الإحسان إلا الإحسان ، وإذا وجب على الإنسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله ، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال فى المساعد وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يسمدانه على كل شىء ، أيام كان يتعذر عليه كل شىء ؟ ؟

وكذلك حب الوالدين للولد ليست علته كما يقول الناس كونه جزءاً منهما وفلذة كبدهما ، هذا كلام شعرى لا حقيقى أيضاً ، فان جسم الإنسان مركب من الأغذية النباتية والحيوانية ، فلو كانت العلة صحيحة لكان ينبغى أن يحب الحنطة والغنم أكثر مما يحب والديه . وإنما لحب الوالدين الولد منبعان (أحدهما) حنان فطرى أودعه الله تعالى فيهما لإتمام حكمته (وثانيهما) ماجرت به سنة البشر من

التفاخر بالأولاد ومن الأمل بالاستفادة منهم فى المستقبل وليست الفائدة محصورة فى المال والعون على المعيشة ، وإنما تتناول الشرف والجاه أيضاً

وكم أب قد علا بابن له شرفا كما علا برسول الله عدنان

ولما كان حب الوالدين للأولاد بمكانة من القوة لا يخشى زوالها ترك النص

على الإحسان بهم وثنى بالإحسان بمن دونهم فى النسب فقال ﴿ وذى القربى ﴾ الاحسان هو الذى يقوى غرائز الفطرة ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين حتى تبلغ البيوت فى وحدة المصلحة درجة الكمال . والأمة تتألف من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها . وههنا قال الأستاذ كلمة جليلة وهى « من لم يكن له بيت لا تكون له أمة » وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدها وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد ، ثم بين سائر الأقربين ، فمن فسدت فطرته حتى لاخير فيه لأهله فأى خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لاخير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أمة ، لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التى هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ، فأى لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءاً منهم يسره مايسرهم ، ويؤلمه مايؤلمهم ، ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرتهم عين مضرته ، وهو ما يجب على كل شخص لأمته . قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة وصلتها أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص

ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة فعلم أنها مقصودة لذاتها

قال الأستاذ الامام : أكد الله تعالى الوصية باليتيم وفى القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على أكل ماله تشديداً خاصاً ولو كان السر فى ذلك غلبة المسكنة على اليتامى لا كتفى هنا بذكر المساكين . كلا إن السر فى ذلك هو كون اليتيم لا يجد فى الغالب من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه ، والعناية

بأموره الدينية والدنيوية ، فان الأم إن وجدت تكون فى الأغلب عاجزة ولا سيما إذا تزوجت بعد أبيه فأراد الله تعالى - وهو أرحم الراحمين - بما أكد من الوصية بالأيتام أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم يربونهم تربية دينية دنيوية لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم فينتشر الفساد فى الأمة فتنحل انحلالا . فالعناية بتربية اليتامى هى الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد . والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة ، فاهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة.

وأما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون الملحفون الذين يقدرون على كسب ما يفي بحاجاتهم أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا إلا أنهم اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملا ينفع الناس ، ولكن المسكين من يعجز عن كسب يكفيه

وأما قوله عز وجل ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ فهو كلام جديد له شأن مخصوص ولذلك تغير فيه الأسلوب فلم يرد على النسق الذى قبله مع دخوله فى الميثاق فانه بين فيما سبق الحقوق العملية وعبر عنها بالاحسان ويستحيل أن يحسن الانسان بالفعل إلى جميع الناس لأنه لا يمكن أن يعامل جميع الناس ، فالذين لابد له من معاملتهم هم أهل بيته وأقاربه الذين ينشأ فيهم ويتربي بينهم فجاء النص بوجوب الاحسان فى معاملتهم لتصلح بذلك حال البيوت . ثم إن اليتامى والمساكين من قومه هم الذين لا يستغنون عن إحسانه وإحسان أمثاله بالفعل ، لأنه لا قيم للأولين، ولا غناء عند الآخرين ففرض عليه أن يجعل لهم حظا منه . ثم بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم بقى بيان حقوق سائر الأمة وهى النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيهم ، فهذا هو معني قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة فى الخطاب ، فالحسن هو النافع فى الدين أو الدنيا ، وهو لا يخرج عما ذكرنا ، فلما كان هذا النوع من الحقوق مستقلا بذاته جاء بأسلوب آخر ولا شك أن فى القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها

جاء الأمر بالعبادة مجملا ليعلم الانسان أنه مكلف بكل فرد من أفرادها

بحسب الطاقة، ولكن من العبادة مالا يهتدى إليه الإنسان إلا بهداية إلهية، وأكبر ذلك النوع إقامة الصلاة . لإصلاح نفوس الأفراد ، و إيتاء الزكاة لاصلاح شئون الاجتماع .لذلك قال تعالى بعد ماتقدم ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وإنما إقامة الصلاة بالاخلاص لله والصدق فى التوجه اليه والخشوع لعظمته وجلاله والاستكانة لعز سلطانه ، ولا تكون بمجرد الاتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة ، ولو كان هذا هو المراد لما وصفهم بالتولى والاعراض عنه ، فانهم ما أعرضوا عن صورة الصلاة إلى ذلك اليوم الذى ذكرهم فيه بهذه الآيات و إلى هذا اليوم أيضا . وأما الزكاة فقد كان بعض أحبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرابين المفروضة لتكفير الخطايا أو شكر الله تعالى على إخراجهم من مصر وغير ذلك من النعم .وليس الأمر كذلك، فان لهم زكوات مالية، منها مال مخصوص يؤدى لآل هارون وهو إلى الآن فى اللاويين . ومنها مال للمساكين . ومنها مايؤخذ من ثمرات الأرض . ومنها سبت الأرض، وهو تركها فى كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع ، وكل مايخرج منها فى تلك السنة فهو صدقة .

قال تعالى ﴿ ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾ أى ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذى فيه سعادتكم أن توليتم عن العمل به وأنتم فى حالة الاعراض عنه وعدم الاكتراث له . وقد يتولى الانسان منصرفا عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه و يوفيه حقه، فليس كل متول عن شىء معرضا عنه ومهملا له على الدوام ، لذلك كان ذكر هذا القيد (وأنتم معرضون) لازماً لابد منه وليس تكراراً كما يتوهم، و إنما هو متمم للمعنى ومؤكد للمبالغة فى الترك المستفاد من التولى قال الأستاذ الامام : ولا حاجة إلى مازاده المفسر من قوله : فقبلتم ذلك: ليعطف عليه (ثم توليتم) فالمقام مقام وعيد وزجر وتوبيخ ، وفى كلمة (ثم) نفسها ما يفيد أن التولى لم يكن عقب أخذ الميثاق .

وقد كان سبب ذلك التولى مع الاعراض أن الله أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلا من كتابه . فاتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله ، يحلون برأيهم و يحرمون .

و يبيحون باجتهادهم و يحظرون ، و يزيدون فى الأحكام والشرائع ، و يضعون ماشاءوا من الاحتفالات والشعائر ، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله . فان الله هو الذى يضع الدين وحده .و إنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه وما شرع على ألسنة رسله . وقد اتبع سنن اليهود فى هذا التشريع جميع من بعدهم من أهل الملل وحكم الجميع عند الله تعالى واحد لايختلف فهو لا يحابى أحداً (ولا يظلم ربك أحداً) وكذلك كانوا قد قطعوا صلات القرابة ، و بخلوا بالنفقة الواجبة ، وتركوا النهى عن المنكر . وفقدوا روح الصلاة ، ومنعوا الزكاة ، ولكنهم الآن عادوا إلى بعض ماتركوا . ولم يعد الذين تشبهوا بهم ، أو اتبعوا بغير شعور سننهم ، والأمر لله العلى الكبير

وأما قوله ﴿ إلا قليلا منكم ﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا فى زمن سيدنا موسى عليه السلام أو فى كل زمن، فانه لاتخلو أمه من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة فى ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم و بيان أن وجود قليل من الصالحين فى الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهى إذا فشا فيها المنكر وقل المعروف .

لو تدبر جهالنا هذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال فى تحمل البلاء عنهم ، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم، فلو فرض أن هؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة فإن وجودهم لايغنى عن الأمة شيئا ، وقد عصى الله جماهيرها ونقضوا ميثاقه الذى واثقهم به . فقد جرت سنته تعالى فى خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظة الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال التى تكون بها العزة و يحفظ بها المجد والشرف . ومن لم يعتبر بآيات الله فى كتابه ، لا يعتبر بآياته وسننه فى خلقه ، فقد فتن المسلمون فى دينهم ودنياهم وحل بجميع بلادهم ماحل من البلاء وهم لايعتبرون (٤٧: ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟)(٩: ١٣أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون)

(٨٤) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٥) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ ، وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٦) أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

كان التذكير فى الآية السابقة بأهم المأمورات التى أخذ الله تعالى الميثاق على بنى اسرائيل بها بعد توحيد الله تعالى و إفرادهم بالعبادة و بيان أنهم نقضوا ميثاق الله تعالى ولم يأتمروا بها ، وفى هاتين الآيتين التذكير بأهم المنهيات التى أخذ الله تعالى الميثاق عليهم باجتنابها ، و بيان أنهم نقضوا ميثاقه ولم ينتهوا عنها ، وقد قال هناك (و إذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) أى الذين نزلت عليهم التوراة ، ثم التفت إلى خطاب الحاضرين فى زمن التنزيل فقال (ثم توليتم) وقال هنا ﴿ و إذ أخذنا ميثاقكم ﴾ تماديا فى سياق الالتفات وتذكيراً بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص الواحد يصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر ما استنوا بسنتهم . وجروا على طريقتهم ، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة فى قواه النفسية ؛ وطبع ملكاته بعد انحلال مادة تلك الأعضاء التى ابتدأت العمل وحلول مواد أخرى فى محلها تتمرن على مثل ذلك العمل ، فما يفعله الشخص فى صغره ، يبقى أثره فى قواه فى كبره ، فكذلك الأمم .

وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً شريفاً يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال ﴿ لاتسفكون دماءكم ﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده. وقال ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ على هذا النسق. وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن. فهذه الأحكام لاتزال محفوظة عند الاسرائيليين في الكتاب وإن لم يجروا عليها في العمل، ولكن العبارة عنها عندهم لاتطاول هذه العبارة التي تدهش صاحب الذوق السليم، والوجدان الرقيق: فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنايا الأحكام يهدي إلى أسرارها، ويومىء إلى مشرق أنوارها، من تدبره علم أنه لا قوام للأمم، إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم. لافرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه وبين الأرواح والدماء التي يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة والمصالح العامة، هذا هو الوجه الوجيه في الآية، وقيل: معناها لاترتكبوا من الجرائم ماتجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار. ويقال في قوله (لا تسفكون) كما قيل قبله في قوله (لاتعبدون إلا الله) من تضمن صيغة الخبر للتأكيد.

وقوله تعالى ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه الصلاة والسلام. و (ثانيهما) أن المراد الحاضرون أنفسهم، أي أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به.

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه لاينكرون منه شيئا ذكر نقضهم إياه فقال ﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون ﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ أي يقتل بعضكم بعضاً، كما كان يفعل من قبلكم مع اعترافكم

بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذاً عليهم : كان بنو قينقاع من اليهود أعداء بنى قريظة إخوانهم فى الدين وكان الأولون حلفاء الأوس ، والآخرون مع بنى النضير حلفاء الخزرج . ثم افترقوا فبقى بنو النضير مع الخزرج وحالف بنو قريظة الأوس ، وكان الأوس والخزرج قبل الاسلام أعداء وكانوا يقتتلون ومع كل حلفاؤه ، فهذا ما احتج الله تعالى على بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم فى عصر التنزيل . ويتبع هذا القتال الأسر ، ومن لوازمه الاخراج من الديار ولذلك قال ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ﴾ والتظاهر التعاون وتظاهرون أصله تتظاهرون كما قرأ الجمهور ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بحذف إحدى التائين للتخفيف وهو مقيس مشهور . كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالاثم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالاخراج من الديار .

ومن مثارات العجب أنهم كانوا إذا اتفقوا على فداء الاسرى يفدى كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون فى الكتاب بفداء أسرى شعب إسرائيل . فان كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك فى الكتاب ؟ هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين ولذلك قال تعالى ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ بعد أن كنتم أسرتموهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ بميثاق أغلظ من طلب مفاداتهم ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو فداء الأسرى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ آخر منه وهو النهى عن القتل والاخراج ؟ أليس من الحماقة والهزء والسخرية أن يدعى مدع مثل هذا الايمان بأهون الأمور مع الكفر بأعظمها ؟ والايمان لا يتجزأ فالكفر بالبعض كالكفر بالكل .

قال الاستاذ الامام : فى التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على ما سبق بيانه فى معنى قوله تعالى (وأحاطت به خطيئته) فالقرآن يصرح هنا وفى آيات كثيرة بأن من يقدم على الذنب لا تضطرب نفسه قبل إصابته ، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تعالى تائباً ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله تعالى

عنه وتحريمه له ، فهو كافر به ، لأن المؤمن بأن هذا شيء حرمه الله تعالى ، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته ، لا يمكن أن لا يكون لايمان قلبه أثر في نفسه ، فان من الضروريات أن لكل اعتقاد أثراً في النفس ، ولكل أثر في النفس تأثيراً في الأعمال . وهذا هو الوجه في الاحاديث الصحيحة الناطقة بأنه « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن »

سمى الله الذنب ههنا كفراً لما تقدم وتوعد عليه بوعيد الكفر فقال ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا ﴾ الخ أوعدهم الله تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم ، والشريعة التي هي مناط وحدتهم ، ورباط جنسيتهم ، بالخزي العاجل ، والعذاب الآجل . وقد دل المعقول ، وشهد الوجود ، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها ، واعتدت حدود شريعتها ، إلا وانتكث فتلها ، وتفرق شملها ، ونزل بها الذل والهوان ، وهو الخزي المراد في القرآن ، وهذه هي سنة الخليقة ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها

وأما العذاب الآجل الذي عبر عنه بقوله ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى ، وهاد إلى حكمة عليا ، ذلك أن النفوس البشرية إذا سحل مريرها ، واختلت بفساد الأخلاق أمورها وكثرت في هذا العالم شرورها ، حتى سلبت ما أعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة ، واستقاموا على الطريقة ، تكون جديرة بأن تسلب في الآخرة ما أعده الله تعالى للأرواح العالية ، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية ، فان سعادة الدار الدنيا لم تكن أجراً على أعمال بدنية ، لا تتعلق بصلاح النفس في خلق ولا نية ، وإنما هي ثمرة تزكية النفس ، التي يتوسل إليها بعمل الحس ، فاذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية ، وهي الدار التي تغلب فيها الروحانية ??? (٩١ : ٧ ـ ١٠ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها)

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ بل هو محيط به لا يخفى عليه منه شيء . وقد قرأ عاصم في رواية المفضل (تردون) بالخطاب لمناسبة قوله (منكم) كما قرأ

الجمهور (تعملون) بالخطاب لذلك ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم فى رواية أبى بكر و يعقوب (يعملون) على الغيبة لرجوع الضمير إلى (من يفعل)

ثم أكد الله تعالى ذلك الوعيد الشديد و بين سببه بقوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أى جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلا من الآخرة بما فرطوا فى جنب الله وأهملوا من شرعته حتى لم يتبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم ولا يعارض شهواتهم كالحمية التى حملت كل حليف على الانتصار لمحالفه المشرك ، ومظاهرته إياه على قومه الذين تجمعه بهم رابطة الدين والنسب ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ لأن علته ذاتية فيهم وهى ظلمة أرواحهم وفساد أخلاقهم ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ بشفاعة شافع أو ولاية ولى من دون الله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وأنى يأذن بالشفاعة لمن سجلت عليهم الشقاء أعمالهم باحاطة الخطايا بهم من كل جانب ، حتى أخذت عليهم طريق الرحمة ، وقطعت عليهم باختيارهم سبيل الرضوان الالهى ؟ من الجهل إهمالهم الأمر والنهى ، ونقضهم ميثاق الله تعالى فى أهم ماواثقهم به ، واعتمادهم مع هذا كله على الشفعاء (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)

ومن مباحث الالفاظ فى قوله (وهو محرم عليكم) أن الضمير للشأن عند المفسر والجماهير . وقال الأستاذ الإمام : إن المعهود فى كلام العرب أن الجملة التى تقضى الحال فيها بتقدم الإسم وتأخر الفعل أو مايشتق منه لابد أن تصدر بضمير تعتمد عليه ، ولهذا شواهد فى كلام البلغاء يتفق فيها ذوقهم و إن اختلف النحاة فى اعرابها

---

(٨٧) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٨) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ

عهد فى سيرة البشر أن الأمة توعظ وتنذر، فتتعظ وتتدبر، فاذا طال عليها الأمد بعد النذير تقسو القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، وتفسق عن أمر ربها، وتنسى مالم تعمل به مما أنذرت به، أو تحرفه عن موضعه بضروب التأويل، وزخرف القال والقيل، ولقد يكون للمتأخر منها بعض العذر لجهله بما فعل المتقدم وأخذه مايؤثر عنه بالتسليم لكمال الثقة وحسن الظن

بين الله تعالى هذه السنة الاجتماعية فى سورة الحديد بقوله (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ولهذا كان تعالى يرسل الرسل بعضهم فى إثر بعض حتى لايطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا ويضلوا . ولا يعرف التاريخ شعبا جاءت فيه الرسل تترى كشعب اسرائيل، لذلك كانوا بمعزل عن صحة العذر بطول الأمد على الانذار . وفى ناحية عما يرجى قبوله من التعلل والاعتذار، لهذا قال تعالى بعد كل ما تقدم

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل﴾ فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرون وينهون كأنه يقول اعلموا يابنى اسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يد فى تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع، وكان فى ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين، فان ذلك لا يتناولكم، فان الرسل قد جاءتكم تترى ثم كان من أمركم معهم ما كان

ذكر رسل بنى اسرائيل بالإجمال لبيان ماذكر، ثم خص بالذكر المسيح عليه السلام فقال ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ فأما البينات فهى مايتبين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة . وقال الأستاذ الامام : المراد بها مادعا إليه من أحكام التوراة . وأما روح القدس فهو روح الوحى الذى يؤيد الله تعالى به أنبياءه فى عقولهم ومعارفهم ؛ وهو هو المراد بقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان)الآية . ويطلق عليه روح القدس لأن التعليم الذى يكون به مقدس أو لأنه يقدس النفوس كما يطلق عليه « الروح الأمين » لأن النبى الموحى إليه يكون على بينة من ربه فيه

يأمن معها التلبيس فيما يلقى إليه ، قال تعالى فى القرآن (نزل ٢٦ : ١٩٣ ، ١٩٤ به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين)

(ثم قال الاستاذ) : ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك المسمى بجبريل الذى ينزل على الأنبياء ، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى وهو على حد قولهم « حاتم الجود » وذكر بعضهم وجها آخر وهو أن المراد بها روح عيسى نفسه ، ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعاذته من الشيطان أن يكون له حظ فيه ، أو لأنه أنزل عليه الانجيل بالتعاليم التى تقدس النفوس ، بل قال بعضهم: إن روح القدس هو الانجيل ، والمراد من الكل واحد، وهو أن الله تعالى أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى وأعطاه مالم يعط كل رسول من أولئك الرسل من الوحى أو من قوة الروح ، وزكاء النفس ومكارم الاخلاق ، ونسخ بعض الأحكام ، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ سابقيه الذين لم يؤتوا من المواهب مثل ما أوتى

ماذا كان حظ أولئك الرسل من بنى اسرائيل ؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخى فى قوله ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات ، وعصيتم الرسل واحتميتم عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم﴿ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾كان المعهود فى التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوىء ثم يوبخون عليها ، ولكن طواها فى الخطاب وأدمجها فى الاستفهام لتفاجىء النفوس بقوة التشنيع والتقبيح ، وتبرز لها فى ثوب الانكار والتوبيخ ، وفى ذلك الايماء إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لايخفى خبرها ، ولا تغيب عن الانكار صورها ، فلا ينبغى الالماع إليها ، إلا فى سياق تقريع مجترحيها ، وهذا من إعجاز القرآن ، الذى لايعرج إليه فكر الإنسان ، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التى تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يمثلها فى الخيال ، وإن مرت عليها القرون والأحوال لأنها أفاعيل لاتخلق جدتها ، ودماء لاتطير رغوتها ، وإن مثل هذا التعبير لمثل

تلك الصورة المشوهة لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفومها يتناول الخيال ذلك المفهوم و يصوره بالصورة اللائقة به ، فيكون له من التأثير ما يناسبه .

قتلوا من الأنبياء المرسلين زكريا و يحيى عليهما السلام، و يروى أنهم قتلوا فى يوم واحد مائة وخمسين نبياً، فان صح هذا فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة فى الدعوة إلى إقامة التوراة ، ودليلها محصورا فى الإنباء ببعض المغيبات وكان هذا الفريق منتشراً فى أسباط بنى اسرائيل وكثيراً بكثرتهم .

وفى هذه الآية حجتان للنبى ﷺ — حجة على بنى إسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به و إجابتهم دعوته ، و بيان أن المجاحدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شنشنتهم ، وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الايمان به ، والاهتداء بكتابه ، بعد تقرير الدعوة ، و إقامة الحجة ، فقال

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ الغلف بضم وسكون و بضمتين جمع أغلف، وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لا نعقل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك فهو بمعنى قوله تعالى (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب)

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى أن قلوبهم ليست غلفا لا تفهم الحق بطبعها ، و إنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لأهوائهم ، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سبباً فى حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين . هذا هو معنى اللعن وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى فى الأسباب والمسببات وأن الله لم يظلمهم بهذا ، و إنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذى يستتبع الكفر ، والعصيان الذى يجر إلى التمادى فى العصيان ، كما هى السنة فى أخلاق الإنسان . ولما ذكر اللعن معللا بالكفر الذى هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة فى أنفسهم ، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين ، بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله إليهم ، استدرك فقال ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ و إنما القلة فى الإيمان

باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة ، وبالنسبة إلى اليقين في الإيمان ، وتحكيمه في الفكر والوجدان

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة وكما تعطيه ظواهر الألفاظ ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلا ، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها ، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم ، ولم تكن هي المحركة لإرادتهم في أعمالهم ، وإنما كان يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة ، فالإيمان إنما كان عندهم قولا باللسان ، ورسما يلوح في الخيال ، تكذبه الأعمال ، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال ، وهذا هو الإيمان الذي لاقيمة له عند الله تعالى . ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة ، والأساليب المؤثرة ، وأهل القرآن عن ذلك غافلون ، فقليلا ما يعتبرون ويتذكرون .

ومن مباحث اللفظ في الآية : أن كثيراً من المفسرين يزعمون أن «ما» زائدة وما هي بزائدة وفاقا لابن جرير الطبري ، وجل القرآن أن يكون فيه كلم زائدة وإنما تأتي «ما» هذه لإفادة العموم تارة ولتفخيم الشيء تارة ، ويقول ابن جرير إنما يؤتى بها في مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم كأنه قال : فإيمانا قليلا ذلك الذي يؤمنون به : وأما التي لتفخيم الشيء فكقوله تعالى (٣: ١٥٩ فبما رحمة من الله لنت لهم) أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم ، وقد بين تعالى هذه الرحمة بقوله في وصفه ﷺ (٩ : ١٢٨ بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقوله (٢١: ١٠٧ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

هذا ما اختاره الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى (فقليلا ما يؤمنون) وهناك وجه آخر أورده ابن جرير في تفسيره ، وهو أنه لا يؤمن بالنبي وما جاء به إلا قليل منهم . والاستدراك على هذا الوجه أظهر ، فانه لما بين أن كفرهم المستقر ، وعصيانهم المستمر ، كانا سببا في لعنهم وإبعادهم ، كان للوهم أن يذهب إلى أنهم قوم قد سجل عليهم الشقاء وعمهم حتى لا مطمع في إيمان أحد منهم ، فجاء قوله تعالى (فقليلا ما يؤمنون) يبين أن هذا الوهم لا يصح أن ينطلق على إطلاقه ، وأن تأثير ما ذكر في مجموع الشعب لم يستغرق أفراده استغراقا ، وإنما غمر الأكثرين ، ويرجى أن

ينجو منه النفر القليل ، وكذلك كان . أقول : وفيه من دقة القرآن فى الصدق وتحديد الحق مالا يعهد فى كلام الناس

(٨٩) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٩٠) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟ .

قال الاستاذ الامام : ان قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ الخ متصل بقوله قبله (فقليلا مايؤمنون) والمعنى أن إيمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبياً وكتابا مصدقا لما معهم وكانوا يستفتحون به على المشركين فكيف لا يكون قليلا ، أو أقل بعد ماجاء ما كانوا ينتظرون وعرفوا أنه الحق ثم كفروا ؟ فالجملة حالية : ويصح أيضاً هذا الاتصال الذى ذكره على الوجه الثانى فى تفسير (قليلا ما يؤمنون) والكتاب هنا القرآن نكره للتفخيم وقوله ﴿ مصدق لما معهم ﴾ معناه أنه موافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده ، والاستفتاح فى قوله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ معناه طلب الفتح وهو الفصل فى الشىء والحكم ويستعمل بمعنى النصر لأنه فصل بين المتحاربين . وكانت اليهود تستفتح على مشركى العرب بالنبى المنتظر يقولون إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذى نحن عليه ويخذل الوثنية التى تنتحلونها ويبطلها ، فيكون مؤيداً لدين موسى

(أقول) روى محمد بن اسحاق عن أشياخ من الأنصار أن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة ، قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم الخ وروى الضحاك عن ابن عباس في تفسير (يستفتحون): يستنصرون يقولون نحن نعين محمداً عليهم الخ وتتمته في تفسير العماد ابن كثير . وشذ بعضهم كالبغوي في تفسيره فقال إنهم كانوا يقولون إذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة والإنجيل ـ فكانوا ينصرون وفيه روايات ضعيفة عن ابن عباس لم يعرج ابن كثير على شيء منها ، ولعله لأنها على ضعف روايتها ومخالفتها للروايات المعقولة شاذة المعنى بجعل الاستفتاح دعاء بشخص النبي ﷺ وفي بعض الروايات «بحقه» وهذا غير مشروع ولا حق لأحد على الله فيدعى به كما قال الإمام أبو حنيفة وغيره . وكذلك فعل ابن جرير لم يذكر شيئا من روايات الدعاء بحقه والاستنصار بشخصه ، بل ذكر عدة روايات في أنهم كانوا يدعون الله بأن يبعثه ليقتل المشركين وفي بعضها أنهم كانوا يرجون أن يكون منهم . والكلام هنا في مجيء الكتاب لا في مجيء الرسول ﷺ الذي يأتي ذكر مجيئه قريبا ، على أنهما متلازمتان ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ أعاد فلما جاءهم وهي عين الأولى لطول الفصل ووصل به الجواب وهو «كفروا به» ذلك أنه راعهم كونه بعث في العرب فحسدوه فحملهم الحسد على الكفر به جحودا وبغيا ، فسجلت عليهم اللعنة التي أصابتهم بكفرهم الأول بأن الكفر صار وصفا لازما لهم ولذلك قال ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ وأعم وأشمل

ثم ذكر علة هذا الكفر وسببه وبين فساد رأيهم فيه بقوله ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ أي بئس شيئا اشتروا به أنفسهم هو كفرهم بما أنزل الله مصدقا لما معهم ، كما كانوا ينتظرون . شرى الشيء واشتراه يستعمل كل منهما بمعنى باع الشيء ، وبمعنى ابتاعه ، لأن الحرف يدل على المعاوضة . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن « اشتروا » هنا بمعنى باعوا أي إنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بما حرصوا عليه من الكفر بغياً وحسداً للنبي، وحباً في الرياسة واعتزازاً

بالجنسية، وبما كان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة فى المحافظة عليها، فهذا كله يعد ثمنا لأنفسهم التى خسروها بالكفر حتى كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع . وذكر ابن جرير وجها آخر وهو أن « اشتروا » هنا بمعنى ابتاعوا، أى إنهم جعلوا أنفسهم ثمنا للكفر الذى ذكرت علته آنفا . وفيه من الزيادة على معنى المعاوضة فى الوجه الأول أنهم قد أنقذوا أنفسهم بذلك الكفر ، أى أنهم يزعمون ذلك ويدعونه فى الظاهر ، وإن كانوا فى الباطن قد عرفوا أن ماجاءهم هو الحق الذى كانوا ينتظرون ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يكتمون.

وقد فهم مما تقدم معنى قوله تعالى ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ فهو تعليل لكفرهم لا لشرائهم، أى كفروا بمحض البغى الذى أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحى من فضله بمقتضى مشيئته ، وأى بغى أقبح من بغى من يريد أن يحجر على فضل الله ويقيد رحمته فلا يرضى منه أن يجعل الوحى فى آل اسماعيل كما جعله فى آل أخيه اسحاق ؟ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ينزل) بالتخفيف من الإنزال والباقون بالتشديد من التنزيل . وأما قوله ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ فهو الغضب الذى استوجبوه حديثا بالكفر بالنبي ﷺ فوق ذلك الغضب الذى لحقهم من قبل باعنات موسى عليه السلام والكفر به ، وقد ذكر فى قوله (٢ : ١١٣ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) ثم توعدهم بعد الغضب المزدوج فقال ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أى مقرون بالاهانة والإذلال ، وبذلك صار بمعنى الآية السابقة، فكأن الجزاء واحدا تكرر بتكرر الذنب . وقال (وللكافرين) ولم يقل (ولهم) لما فى المظهر من بيان التعليل بالوصف الذى سجله عليهم كما تقدم آنفا وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وقد تقدم أن ذنوب الأمم تتبعها عقوبتها فى الدنيا لأنها أثر طبيعى لها ، وإنما جعلها الله كذلك لتكون عبرة يتأدب المتأخرون بما أصاب منها المتقدمين . وكذلك الحال فى عقوبة الآخرة بالنسبة إلى الأفراد، فإن عذاب كل شخص إنما يكون بحسب تأثير الجهل فى عقله وفساد الأخلاق وسوء الأعمال فى نفسه .

اعتذر بعض اليهود فى عصر التنزيل عن عدم الايمان به بأن قلوبهم غلف

لم تفهم الدعوة ولم تعقل الخطاب ، فرد الله تعالى عليهم ببيان السبب الحقيقى فى ترك الإيمان ، وما استحقوه عليه من الغضب والهوان . ثم ذكر اعتذاراً آخر لهم مقرونا بالرد والإبطال ، وإقامة الحجة عليهم به فقال ﴿و إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ صيغة الدعوة تشعر بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالى لأنه هو الذى أنزله لا لأن المنزل عليه فلان. ولذلك لم يقل : آمنوا بما أنزل على محمد . فان ما أنزل عليه لو أنزل على غيره لوجب الإيمان به . فان الوحى هو المقصود بالذات والأنبياء إنما هم مبلغون ، فتقييد الخضوع لوحى الله بكونه لابد أن يكون منزلا على شخص من شعب كذا بعينه تحكم على الله تعالى وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه . فايراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيداً بقيد (نؤمن بما أنزل علينا) يشعر بقوة حجة الدعوة ، ووهن ما بنى عليه الجواب من الشبهة . ثم صرح بالحقيقة وهى أنهم إنما يدعون هذا الايمان بألسنتهم ﴿و يكفرون بما وراءه﴾ من مدلول ولازم لاينفك عنه كالبشارة برسول من بنى إخوتهم أى ولد إسماعيل ، وكون ما تثبت به نبوة محمد بمساواته لما تثبت به نبوة موسى يستلزم وجوب اتباع محمد كما اتبع موسى لأن المدلول يتبع دليله فى كل زمن وكل موضوع . قال : إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم ﴿وهو الحق﴾ أى والحال أنه الحق الثابت فى نفسه بالدليل حال كونه ﴿مصدقا لما معهم﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل، وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه. ليعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم ويحكمون شهواتهم بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ ، ولذلك قال ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ بما أنزل اليكم وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء بل فيه النهى الشديد عن قتل أنفسكم .

ومن مباحث اللفظ أو البلاغة : أنه جاء بالجملة الحالية فى بيان كون ما كفروا به هو الحق لأن الجملة الحالية تدل على تقدم ثبوت مضمونها على حدوث ماجعلت قيداً له ، وما كفروا به كذلك هو الحق من قبل كفرهم . وهذا المعنى للجملة الحالية

هو ما حققه الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ، ولم يشر إليه شيخنا هنا لأنه لم يكن عند تفسير هذه الآيات قد قرأ دلائل الاعجاز ، وقوله (مصـدقا لما معهم) حال مفردة مؤكدة والأصل فيها المقارنة لما هى قيد له ؛ وهو يتضمن إثبات كفرهم بالتوراة بالتبع لكفرهم بالقرآن المصدق لها ولو فيما صدقها فيه ، والكفر ببعضه كالكفر به كله كما تقدم بيـانه قريبا . ومن مباحث اللفظ أيضاً : وضع المضارع (تقتلون) موضع الماضى (قتلتم) لما سبق بيانه فى مثل هـذا التعبير من إرادة استحضار صورة هذا الجرم الفظيع مبالغة فى التقريع ، وإغراقا فى التشنيع ، ولما كانت هذه الصيغة تدل على الحال فتوهم أن الذين فى زمن التنزيل كانوا لايزالون يقترفون هذه الجريمة على أنه لم يكن فى ذلك العهد أنبياء إلا من يبكتهم ويحتج عليهم ــ وصلها بقوله (من قبل) دفعا لذلك الوهم . والفاء فى قوله (فلم) واقعة فى جواب شرط دل عليه ما بعده

وقد سبق القول غير مرة بأن خطاب الخلف بإسناد ما كان من سلفهم إليهم مقصود لبيان وحدة الأمة وتكافلها وكونها فى الأخلاق والسجايا المشـتركة بين أفرادها كالشخص الواحد ، وبيان أن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو أثر الأخلاق الغالبة عليها والأعمال الفاشية فيها منبعثة عن تلك الأخلاق فما جرى من بنى إسرائيل من المنكرات لم يكن من فلتات المصادفة ، وإنما كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع الآخرون فيها الأولين ، إما بالعمل وإما بالاقرار وترك الإنكار . ولو أنكر المجموع ما كان من بعض الأفراد لما تفاقم الأمر ، ولمـا تمادى واستمر . فالحجة تقوم على الحاضرين بأن الغابرين قتلوا الأنبياء فأقرهم من كان معهم ، ولم يعدوا ذلك خروجا من الدين ولا رفضا للشريعة ، وتبعهم من بعدهم على ذلك ، وفاعل الكفر ومجيزه واحد ، وقد سبق تقرير هذا غير مرة

---

(٩٢) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِى

قُلوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . قُلْ بِئْسَمَا يأمُرُكم بِهِ إيمَـٰنُكم إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ (٩٤) قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوتَ انْ كُنْتُم صَـٰدِقِينَ (٩٥) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ (٩٦) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

سبق التذكير باتخاذ العجل فى قوله تعالى (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين فى سياق آخر . أما اختلاف العبارة والأسلوب فظاهر وأما السياق فقد كان أولا فى تعداد النعم على بنى إسرائيل وبيان ما قابلوها به من الكفران وهو هنا فى ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الايمان بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فهناك يقول إن النعم التى أسبغها الله عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه . وههنا يقول إن الآيات البينات على النبوة والوحدانية ، لم تزدكم إلا إيغالا فى الشرك وانهما كا فى الوثنية ، فكيف تعتذرون عن الايمان بمحمد بأنكم لا تؤمنون إلا بما أنزل اليكم وهذا شأنكم فيه ؟ ومجموع الآيتين ينبىء بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع فى هداية أكثرهم من جهة الوجدان ، ولا من ناحية العقل والجنان . وهذه البينات التى ذكرها ههنا قد كانت فى مصر قبل الميعاد الذى نزلت فيه التوراة وأما النعم التى ذكرها هناك فقد كانت فى أرض الميعاد كما تقدم . ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قد علم مما قلناه فى السياق وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى عليه السلام ومعاملتهم للنبى صلى الله عليه وآله وسلم إذ قالوا : قلوبنا غلف : وادعوا أنهم مأمورون بأن لا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة . وقد علم من هذه

الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم فى دعواهم وأنه لا عذر لهم فى ترك الإيمان

قال ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أى من بعد هذا المجىء لا من بعد موسى والمراد أنه لم يكن لهم عذر فى ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة ، وقيام الحجة ، ولذلك قال ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ وأى ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى ؟ ولا تغفل عن الايجاز فى قوله (من بعده) وحذف مفعول (اتخذتم) أى اتخذتموه إلها

ثم ذكرهم هنا أيضاً بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به فى آية تقدمت، وقد قال هناك (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) وقال هنا (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) وأمرهم فى تلك بالحفظ وأمرهم فى هذه بالفهم والطاعة . وقلنا فى تفسير (واذكروا) إن المراد الحث به على العمل فالعبارتان تتلاقيان فى المعنى والمراد .

وفى اختلاف النظم والأسلوب حجة على الذين توهموا أن إعجاز القرآن فى البلاغة إنما هو فى السبق إلى العبارة التى يتأدى بها المعنى على أكمل الوجوه الممكنة فى نظم الكلمات العربية . رأى هؤلاء أن المعنى الذى يفيد علماً بشىء ما له كلمات فى اللغة تؤديه بوجوه من النظم وأن الكلمات والوجوه محدودة فمن سبق إلى أتمها أداء وأبلغها تأثيراً كان كالسابق إلى انتقاء أكرم جوهرة من طائفة من الجواهر أمامه أو إلى أنفس عقد وأحسنه نظما من عقود عرضت عليه . مثال ذلك قوله تعالى (٤٠ :٢٨ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) قال علماء هذا الشأن إنه يتألف من هذه الكلمات عشرة ضروب من النظم بالتقديم والتأخير ، ما من ضرب منها إلا وهو منتقد بالخطل أو إيهام خلاف المراد أو الخطأ فى الاعراب إلا نظم الآية فهو الذى يؤدى المعنى على أكمل الوجوه ولا يتأتى نظم آخر يؤدى مؤداه . وزعم بعض الناس أن هذا الاعجاز ليس إلهياً

لو أخذ ما قالوه مسلماً على إطلاقه لكان لنا أن نقول إنه ليس فى قدرة أحد من البشر أن يأتى بكلام طويل يتجلى له فى كل جملة منه جميع الكلمات التى تدخل فى تأدية المعنى المراد له وجميع ضروب النظم ووجوه الأساليب الممكنة فى ترتيب تلك الكلمات وتأليفها فيختار الأحسن الأبلغ منها . وإذا لم يكن هذا فى قدرة

البشر كما هو ظاهر فلابد أن يكون من جاء به مؤيداً بعناية من الله تعالى . على أننا لا نسلم بما قالوه على إطلاقه فانه لا يتجه إلا فى ألفاظ معينة كألفاظ آية (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) الخ و إذا نظرنا إلى المعانى لا سيما الكلية نراها تتجلى فى صور كثيرة من النظم الذى تختلف ألفاظه . وأمامنا الآن معنى الآية التى نفسرها وهو أن الله أخذ العهد على بنى إسرائيل بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يعملوا بشريعته ووصاياه وكان أخذ هذا العهد فى موقف رهبة وخشوع يعين على أخذه بالجد والعزيمة إذ كان الجبل مرفوعا فوقهم بصفة لم يعهدوها حتى ظنوا أنه يريد أن يقع بهم ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق وتركوا العمل به وعبدوا العجل الذى صاغوه من حليهم بأيديهم عن حب متمكن من النفس ، وغالب على العقل والحس ، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى فى كتابه غير مرة ولكن بعبارات مختلفة كالآية التى تقدمت وذكر هناك أنهم تولوا عن الميثاق بعد الأمر بحفظه والعمل به رجاء التقوى ، وكآية الأعراف (و إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وتقدمت الإشارة اليها هناك وكلاهما غاية فى البلاغة .

وذكره هنا بنظم آخر تنتهى اليه البلاغة فى سياق آخر فقال ﴿ و إذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ ثم التفت عن خطاب الحاضرين إلى الحكاية عن الغابرين فقال ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ أى إنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتاً وتأولا وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين (سمعنا وعصينا) بل المراد أنهم بمثابة من قال ذلك ، ومثل هذا التجوز معروف فى عهد العرب وفى هذا العهد ـ يعبرون عن حال الانسان وغيره بقول يحكيه عن نفسه حتى حكى مثل ذلك عن الحيوانات والطيور وعن الجمادات أيضاً وهو أسلوب أظن أنه يوجد فى كل لغة أو فى اللغات الراقية فقط . ثم ذكر أقبح أمثلة هذا العصيان بعبارة مدهشة فى بلاغتها فقال ﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ هذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن . و إشراب الشىء الشىء مخالطته إياه وامتزاجه به ،

يقال بياض مشرب بحمرة ، أو هو من الشرب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ فهو يسرى فى قلب المحب و يمازجه كما يسرى الشراب العذب البارد فى لهاته . وقد قدر الأكثرون هنا مضافا محذوفا ، فقالوا المراد « حب العجل » وذهب بعض الجامدين على الظواهر إلى أن المراد بالشرب هنا حقيقته. وزعموا أن موسى لما سحق العجل وذراه فى اليم طفقوا يشربون المسحوق مع الماء . وغفل صاحب هذا الزعم عن قوله تعالى (فى قلوبهم) والشراب الحقيقى لايكون فى القلب . والشرب غير الإشراب . ولبعض المفسرين مزاعم وقصص فى العجل لا يدل عليها وحى منزل ، ولا تاريخ صحيح ينقل ، والباء فى قوله (بكفرهم) للسببية أى سبب هـذا الحب الشديد لعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية فى مصر ، فقد رسخ الكفر فى قلوبهم بطول الزمن وورثه الأبناء عن الآباء

وأما السياق الذى وردت فيه هذه الآية بهذا النظم والأسلوب المخالفين لأسلوب تلك الآية مع الاتحاد فى المعنى فهو إقامـة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم، ورد زعمهم أنهم مؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله بالإيمان بغيرها كما قلنا فى التى قبلها، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطباً للنبى عليه الصلاة والسلام

﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أى إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة ــ والإيمان الحقيق يقتضى العمل بما له من السلطان على الإرادة ــ فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان من الأعمال التى منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق . لكن هذا الزعم مشكوك فيه بل يصح القطع بعدمه ، بدليل الأعمال التى يستحيل أن تكون أثراً له . ولا ينسى القارىء ما تقدم من ربط الإيمان بالعمل الصالح فى تفسير قوله تعالى (بلى من كسب سـيئة وأحاطت به خطيئته) الآية

هذه حجة عليهم بطبيعة الإيمان وأثره فى عمل المؤمن . وتليها حجة أخرى تتعلق بفائدة الإيمان ومثوبته فى الحياة الأخرى، وهى قوله عز وجل : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ المراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها، لأن حال الانسان فيها لا يخلو من أحد الأمرين ــ المثوبة بالنعيم المقيم ، والعقوبة بالعـذاب الأليم ، واستغنى

عن التصريح بالنعيم أو الثواب بقوله (لكم) فانه يشعر بالمحذوف . وانما أوجز هنا فى خطاب اليهود لأنه يحكى عن شىء يعرفونه فى أنفسهم، وقد أوضح المراد بقوله (خالصة من دون الناس) والخالصة هى السالمة من الشوائب .

(قال الاستاذ الامام) فسر مفسرنا (الجلال) الخالصة بالخاصة وقالوا إنه استعمال لم يعهد فى الكلام الفصيح ، والتخصيص مفهوم من قوله (من دون الناس) يقول إن صحت دعواكم وصدق قولكم إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وأنكم شعب الله المختار فلن تمسكم النار إلا أياما معدودات لاتزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه ، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم ، الذى لامنازع لكم فيه ولا مزاحم ، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين ، إذلا يعقل أن يرغب الانسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها.

والتمني هو ارتياح النفس وتشوفها إلى الشىء توده وتحب المصير اليه . وروى عن ابن عباس تفسير التمنى بالسؤال والطلب، وهو غير معروف عن غيره من العرب. ولعله فسره باللازم، فان من تمنى شيئاً طلبه بالقول أو الفعل أو بهما. وقد روى عن كثير من الصحابة عليهم رضوان الله تمنى الموت عند القتال و بعدالقتال يعبرون بألسنتهم عمافى نفوسهم، وما هو إلاصدق الايمان بماأعدالله للمؤمنين فى الدار الآخرة

(أقول) تفسير التمنى بلازمه القولى كمانقل عن ابن عباس أوالعملى كالتعرض للقتل فى سبيل الايمان كما نقل عن غيره يدفع إيراد من يقول : إذا كان المراد بالتمنى تمنى النفس فلا يظهر صدق قوله تعالى فى الآية التى بعد هذه الآية (ولن يتمنوه) وقد ظهر صدقها على الوجه الاول فلم يتمن أحد من المخاطبين الموت ، وقد ورد أنهم لوتمنوا الموت لماتوا رواه البخارى : وما قاله الأستاذ الإمام فى تفسير التمنى بحقيقته يدفع كل إيراد . فقد قال: إن الكلام حجة على مدعى الإيمان واستحقاق ما أعده الله لأهله فى الآخرة تقنعهم فى أنفسهم بأنهم إما صادقون فى دعواهم وذلك اذا كانوا يتمنون فى أنفسهم الموت والوصول الى الدار الآخرة ويبذلون أرواحهم فى سبيل الله بارتياح اذا كان حفظ الحق يقتضى بذلها ، وإما كاذبون فيها ، وذلك إذا كانوا شديدى الحرص على هذه الحياة . وليس المراد به الحجة

الإلزامية أمام الناس . ولذلك كانت العبرة فى الآية عامة فهى واردة فى سياق الاحتجاج على اليهود ويجب على المسلمين أن يتخذوها ميزانا يزنون به دعواهم اليقين فى الإيمان والقيام بحقوقه لأن الله أنزلها لذلك .

لو كان المراد بقوله ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ أنهم لن يقولوا : ياليتنا نموت . أو كلمة هذا معناها لكان الاحتجاج عليهم إنما هو بالتعجيز عن لفظ يحركون به ألسنتهم ولكان ذلك من الخوارق الكونية ولما صح تعليل نفى التمنى بقوله ﴿بما قدمت أيديهم﴾ فإن هذا التعليل صريح بأن المانع لهم من تمنى الموت هو أنهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التى يستحقون عليها العقوبة لا أن ألسنتهم عاجزة عن النطق بكلمة تدل على تمنى الموت وإن كذبا ، وكثيراً ما كانوا يكذبون ، وقد أسند الفعل إلى الأيدى لأن أكثر الأعمال تزاول بها ولذلك جرى عرف اللغة على جعلها كناية عن الشخص باعتبار أنه عامل مطلقا . وقد ختم الآية بقوله ﴿والله عليم بالظالمين﴾ ليبين أنهم ظالمون فى حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم وأن غيرهم من الشعوب محروم منها ، وأن كل من كان مثلهم مفتاتا على الله تعالى فهو ظالم مثلهم .

ثم بين حقيقة حالهم فى الإخلاد إلى الأرض ، والفناء فى حب البقاء ، وأنهم ليسوا على بينة مما يدعون ، ولا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون ، فقال ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن . والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون إلى ماشاء الله وإن كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا فى عصر التنزيل يحاجهم النبى ﷺ ويشاغبونه ويجاحدونه ، معتزين بشعبهم مغترين بكتابهم ، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد علماؤهم فقط . ونكر الحياة للتحقير ، كأنه يقول : إنهم شديدو الحرص على الحياة وإن كانت فى بؤس وشقاء . ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة وتمنى طول البقاء فى الدنيا لأنهم لايؤمنون بحياة بعدها فقال ﴿ومن الذين أشركوا﴾ أى أنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى

من الذين أشركوا ، ثم بين مثالا من هذا الحرص مستأنفاً فقال ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ أى يتمنى لو يعمره الله و يبقيه ألف سنة ، أو أكثر ، فإن لفظ الألف عند العرب منتهى أسماء العدد فيعبر به عن المبالغة فى الكثرة لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه و يتوقع سخط الله وعقابه فيرى أن الدنيا على مافيها من المنغصات خير له من الآخرة وما يتوقعه فيها. قال تعالى ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أى وما تعميره الطويل بمزحزحه أى منحيه ومبعده عن العذاب المعد له ولأمثاله فإنه ميت مهما طال عمره وكل ماله حد فهو منته إليه ﴿والله بصير بما يعملون ﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم ولو عرفوه حق معرفته لعلموا أن طول العمر لايخرجهم من قبضته ، ولا ينجيهم من عقوبته ، فإن المرجع إليه ، والأمر كله بيديه. ومن مباحث اللفظ أن الضمير فى قوله (وماهو) مبهم يفسره مابعده كما اختاره الاستاذ الامام وأكثر المفسرين على أن «ما» حجازية والضمير العائد على (أحدهم) اسمها و بمزحزحه خبرها ، والباء زائدة فى الاعراب و (أن يعمر) فاعل مزحزحه .

---

(٩٧) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٨) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكٰلَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكٰفِرِينَ (٩٩) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (١٠٠) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

الكلام متصل بما قبله من ذكر تعلات اليهود واعتذارهم عن الإيمان بالنبى عليه الصلاة والسلام و بما جاء به من البينات والهدى — زعموا أنهم مؤمنون بكتاب لاحاجة لهم بهداية فى غيره ، فاحتج عليهم بما ينقض دعواهم ، وزعموا أنهم ناجحون فى الآخرة على كل حال لأنهم شعب الله وأبناؤه فأبطل زعمهم ، ثم

ذكر لهم تعلة أخرى أغرب مما سبقها ، وفندها كما فند ما قبلها ، وهي أن جبريل الذي ينزل بالوحي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عدوهم فلا يؤمنون بوحي يجيء هو به . وقد جاء في أسباب النزول روايات عنهم في ذلك . منها أن عبد الله بن صوريا من علمائهم سأل النبي ﷺ عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي؟فقال: هوجبريل،فزعم أنه عدو اليهود، وذكرمن عداوته أنه أنذرهم خراب بيت المقدس، فكان . ومنها أن عمر بن عبد الخطاب رضي الله عنه دخل مدراسهم فذكر جبريل ، فقالوا : ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلم : الخ،وهذا القول هراء،وخطله بين ، وإنما عنى القرآن بذكره ورده لأنه مؤذن بتعنتهم وعنادهم ، وشاهد على فساد تصورهم وعدم تدبرهم ، ليعلم الذين كانوا ينتظرون ما يقول أهل الكتاب وفيه أنه لا قيمة لأقوالهم ، ولا اعتداد بآرائهم وجدالهم

قال تعالى ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله ﴾ أي قل لهم أيها الرسول حكاية عن الله تعالى : من كان عدوا لجبريل فان شأن جبريل كذا ـ فهو إذاً عدو لوحي الله الذي يشمل التوراة وغيرها ولهداية الله تعالى لخلقه وبشراه للمؤمنين ، على ما يأتي في بيان ذلك . قال شيخنا في تقييد تنزيله باذن الله : وإذا كان يناجي روحك ويخاطب قلبك باذن الله ،لاافتياتا من نفسه، فعداوته لا يصح أن تصد عن الإيمان بك ، وليس للعاقل أن يتخذها تعلة وينتحلها عذراً ، فان القرآن من عند الله لا من عنده . فقوله (باذن الله) حجة أولى عليهم ، ثم قال ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أي حال كونه موافقا للكتب التي تقدمته في الأصول التي تدعو إليها من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح ومطابقا لما فيها من البشارات بالنبي الذي يجيء من أبناء إسماعيل ، كأنه يقول: فآمنوا به لهذه المطابقة والموافقة، لا لأن جبريل واسطة في تبليغه وتنزيله. وهذه حجة ثانية ثم عززها بثالثة وهي قوله ﴿ وهدى ﴾ أي نزله هاديا من الضلالات والبدع التي طرأت على الأديان ، فألقت أهلها في حضيض الهوان . والعاقل لا يرفض الهداية التي تأتيه ، وتنقذه من ضلال هو فيه ، لأن الواسطة في مجيئها كان عدواً له من

قبل ، فإن هذا الرفض من عمل الغبي الجاهل الذى لا يعرف الخير بذاته وإنما يعرفه بمن كان سبباً فى حصوله . ثم أيد الحجج الثلاث برابعة فقال ﴿و بشرى للمؤمنين﴾ أى إذا كنتم تعادون جبريل لأنه أنذر بخراب بيت المقدس فهو إنما أنذر المفسدين وقد أنزل هذا القرآن علىَّ بشرى للمؤمنين فما لكم أن تتركوا هذه البشرى إن كنتم من أهل الإيمان ، لأن الذى نزل بها قد نزل بإنذار أهل الفساد والطغيان

ومن مباحث اللفظ فى الآية: أن جبريل اسم أعجمى مركب من «جبر» ومعناه بالعبرانية أو السريانية القوة ومن «إيل» ومعناه الإله أى قوة الله وقيل معناه عبد الله . وفيه ١٣ لغة منها ثمان لغات قرىء بهن أربع فى المشهورات : جبرئيل كسلسبيل قرأ بها حمزة والكسائى وجبريل بفتح الراء وحذف الهمزة قرأ بها ابن كثير والحسن وابن محيصن وجبرئل كجحمرش قرأ بها عاصم برواية أبى بكر ، وجبريل كقنديل قرأ بها الباقون . وأربع فى الشواذ جبرإل وجبرائيل وجبرئل وجبرين.

ومنها أن قوله (نزله على قلبك) ورد على طريق الالتفات عن التكلم إلى الخطاب إذ كان مقتضى السياق أن يقول (نزله على قلبى) وقد قالوا فى نكتته إنها حكاية ماخاطبه الله تعالى به . ولا أرى صاحب الذوق السليم إلا مستنكراً صيغة التكلم فى هذا المقام ، والعلة فى ذلك لا تبعد عن الأفهام ، ومنها أن الضمير المنصوب البارز فى (نزله) للقرآن وهو لم يذكر فيما قبلها وإنما عينته قرينة الحال ، وذلك يدل على فخامة شأنه ، كأنه لشهرته قد استغنى عن ذكره (قاله البيضاوى)

أقام الحجج على حماقتهم وسخفهم فى دعوى عداوة جبريل وبيان أنها لا يصح أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب أنزله الله بتلك الصفات التى طويت فيها الحجج

ثم بين فى آية أخرى حقيقة حالهم فى هذه العداوة فقال ﴿من كان عدواً لله﴾ بكفره بما ينزله من الهداية ﴿وملائكته﴾ برفض الحق والخير الذى فطروا عليه وكراهة القيام بما يعهد به إليهم ربهم عز وجل ، لأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) ﴿ورسله﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض ﴿وجبريل وميكال﴾ بأن الأول ينزل بالآيات والنذر ، ومن كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكال لأن

فطرتهما واحدة وحقيقتهما واحدة من مقتهما وعاداها فى أحدهما فقد عاداها فى الآخر ﴿ فان الله عدو للكافرين ﴾ أى من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين من الله الذين جعلهم رحمة لخلقه فان الله عدو له ، لأنه كافر بالله ومعاد له ، والله عدو للكافرين أى يعاملهم معاملة الاعداء للاعداء ، وهم الظالمون لأنفسهم إذ دعاهم فلم يقبلوا أن يكونوا مع الأولياء (ميكال) بوزن ميعاد قراءة أبى عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ، وقرأ نافع ميكائل وحمزة والكسائى وابن عامر ميكائيل . وفى الشواذ ميكئل وميكئيل وميكاييل

(قال الاستاذ الامام) هذا وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التى جاءوا بها وهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ولكنهم كذلك فى نفس الأمر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم فى الواقع ، وهى أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله وينقله ويدعو إليه ، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكال الذى يزعمون أنهم يحبونه وأنهم كانوا يؤمنون بالنبى لو كان هو الذى ينزل بالوحى عليه . ومعاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب الالهية ، لأن الغرض من الجميع واحد . ومعاداة محمد ﷺ كمعاداة سائر رسل الله لأن وظيفتهم واحدة . فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر . وهذا من ضروب إعجاز القرآن التى انفرد بها .

وفى قوله تعالى (للكافرين) وضع المظهر فى موضع المضمر لبيان أن سبب عداوته تعالى لهم هو الكفر ، فان الله لايعادى قوما لذواتهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو

(أقول) وقد تقدم غير مرة أن عذاب الله وانتقامه من الكفرة الفجرة لايشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها ، وإنما قضت سنته تعالى بأن يكون لكل عمل يعمله الانسان فى ظاهره أو فى نفسه وضميره أثراً فى نفس العامل يزكيها ويدسيها وسعادة الانسان فى الآخرة أو شقاؤه تابع لآثار اعتقاداته وأعماله فى نفسه . ولذلك قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين)

ثم صرح بأن القرآن منزل من عند الله وحده ، وأنه فى نفسه آيات بينات لايحتاج إلى آية أخرى تبينه وتشهد له ، فان ما كان بيناً فى نفسه أولى بالقبول مما

يحتاج فى بيانه إلى غيره ، فقال ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ وقد تقدم أن الوحى من الله للنبى يسمى تنزيلا وانزالا ونزولا لبيان علو مرتبة الربوبية لأن هناك نزولا حسياً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض .

قال هذا شيخنا : وعلو الله تعالى على خلقه حقيقة أثبتها لنفسه فى كتابه ، لا حاجة إلى تأويلها بعلو مرتبة الربوبية على مرتبة المخلوقين هربا من استلزامها الحصر والتحيز فى جهة واحدة ، فان التنزيه القطعى يبطل اللزوم . ومسألة الجهات نسبية لا حقيقية ، وإذ كان الرب تعالى بائناً من خلقه وهو من ورائهم محيط فهم أينما كانوا يتوجهون إليه إلا أنه فوقهم وإذا كان الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) فماذا يقال فيمن دونهم ؟ وتوجه البشر إلى ربهم فى جهة العلو وقبل السماء فطرى معروف فى جميع أهل الملل ، فهو فوق الخلق فى جملته وفوق العباد أينما كانوا من أرض أو سماء ، وهنالك مقام الاطلاق الذى لا يقيد بقيد ولا يحصر فى حيز ، وانما الحيز والحصر من الأمور النسبية والاعتبارية فى داخل دائرة الخلق . وصح فى الحديث أن الملائكة إذا سمعوا كلام الله فى السموات عراهم ما عراهم مما أشير إليه فى قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير) وشيخنا على دعوته إلى مذهب السلف كان لا يزال متأثراً بمذهب الاشعرية

وأما كون آيات القرآن بينات فهى أنهـا باعجازها البشر وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها ، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه منافعها ، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى وأنها جديرة بالاتباع ، بل هى دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا فى ظلمة التقليد فتركوا طلب الحق بذاته لاعتقادهم أن فطرتهم ناقصة لا استعداد فيها لادراكه بذاته على شدة ظهوره ، وانما يطلبونه من كلام مقلديهم - وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسداً لمن ظهر الحق على يديه وعناداً له

بعد هذا كله بين الله تعالى شأنين من شئون أهل الكتاب وهما أنه لا ثقة بهم

فى شىء لما عرف عنهم من نقض العهود وأنه لارجاء فى إيمان أكثرهم لأن الضلالة قد ملكت عليهم أمرهم إلا قليلا منهم ، فمن كان ماتقدم من الأعمال والأقوال قد صدر عن بعضهم ـ وإن كان نقض العهود قد وقع فى كل زمن من فريق منهم دون فريق ـ فلا يتوهمن أحد أن أولئك هم الأقلون،كلا بل هم الأكثرون،ولذلك قال ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ همزة الاستفهام التوبيخى داخلة على محذوف أى أكفروا بالآيات وقالوا ماقالوا وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟. النبذ طرح الشىء وإلقاؤه والمراد بالعهود هنا عهودهم للنبى ﷺ ولما كان لفظ «فريق» يوهم العدد القليل وكان الواقع أن الذين كانوا يرون الوفاء له ﷺ قليلون ، والناقضين هم الأكثرون ـ أضرب عنه وقال ﴿بل أكثرهم لايؤمنون﴾ فهم لا أيمان لهم لأنهم لا إيمان لهم ، أى لاعهود لهم . وفيه من خبر الغيب أن أكثر اليهود لايؤمنون بالنبى ﷺ وكذلك كان وصدق الله العظيم

---

(١٠١) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ﴾ تقدم معناه فى تفسير الآية ٤١ والآية ٨٩ وقوله ﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتب الله وراء ظهورهم ﴾ بيان لحال جديدة من أحوال أهل الكتاب يصح أن تكون علة لجميع ماصدر عنهم من الشناعات فى معاداة النبى عليه السلام ومجاحدته ، وهى أن فريقاً منهم قد نبذوا كتاب الله الذى يفاخرون به ويحتجون بأنهم اكتفوا بالهداية به ، وأنه لاحاجة لهم بسواه ــ نبذوه أن جاءهم رسول مصدق له بحاله وصفاته لأن البشارات التى فيه بالنبى الذى يجىء من آل اسماعيل لاتنطبق إلا على هذا الرسول ومصدق له بمقاله باعترافه بنبوة موسى عليه السلام وصدقه فيما جاء به من الهدى والشريعة ، وتوبيخه اليهود على تحريف بعضها ونسيان بعض وترك العمل بما بقى لهم منها

(قال الاستاذ الامام) ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته ، وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله ، وانما المراد أنهم طرحوا جزءاً منه وهو ما يبشر بالنبى صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ويأمرهم بالايمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقى الشىء وراء ظهره حتى لايراه فيتذكره . وترك الجزء منه كتركه كله لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس ويجرىء على ترك الباقى (٥: ٣٢ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (قال) ولا فرق فى هذا الحكم بين اليهود والنصارى فكل منهما مبشر بالنبى عليه الصلاة والسلام فى كتابه ، وكل منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به . ولم يضر النبى ﷺ هذا الجحود من الفريق الجاحد لأن دعوته قد قبلها الآخرون واهتدى بها من لايحصى من الامتين ومن سائر الأمم ، وإنما يضر الجاحدين لأنهم تركوا كتابهم الذى يزعمون أنه المنجى والمخلص لهم وحرموا من هداية خاتم النبيين ، التى هى أكمل هداية أنعم الله بها على العالمين

قال تعالى بعد ما ذكر نبذهم الكتاب ﴿ كأنهم لايعلمون ﴾ أى نبذوه نبذ من لايعلم أنه كتاب الله ، يريد أنهم بالغوا فى تركه واهماله ، ومن ترك شيئاً من أمر الله وهو يعلم أنه أمره ولكن طاف به طائف من الشيطان فغلب على أمره

فانه لايلبث أن يعود ، ولكن هذا الفريق النابذ لكتاب الله تعالى من حيث هو مبشر بالنبى وآمر باتباعه ، يتمادى بهم الزمان ولايتوبون ولا يرجعون ، وما أحسن التعبير عن ذلك بنفى الحال والاستقبال دون نفى الماضى

مبحث السحر وهاروت وماروت

ثم ذكر تعالى أن أولئك الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم مجاحدة للنبى صلى الله عليه وسلم وحسداً له قد تبدلوا الكفر بالإيمان واشتروا الضلالة بالهدى ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ من الإنس فى قصصها وأساطيرها ، أو من الجن فى وسوستها ، أومنهما جميعاً ، على حد قوله تعالى (٦: ١١٦ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) ﴿ على ملك سليمان ﴾ أى ما كانت تتلو على عهده وفى أيام ملكه ، إذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات ، وأنه ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات ﴿وما كفر سليمان﴾ وما سحر ﴿ولكن﴾ أولئك ﴿الشياطين﴾ الذين يسندون إليه ما انتحلوه من السحر ، وما تلبسوا به من الكفر ، هم الذين ﴿ كفروا — يعلمون الناس السحر ﴾ ليفتنوا به العامة ويضلوهم عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة

هذه الأوهام والأكاذيب على نبى الله سليمان عليه السلام مما افتجره بعض الدجالين من بنى إسرائيل ووسوسوا به إلى بعض المسلمين فصدقوهم فى بعض ما زعموه من حكايات السحر ، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر ، وإنك لترى دجاجلة المسلمين إلى اليوم يتلون أقساما وعزائم ، ويخطون خطوطا وطلاسم ويسمون ذلك خاتم سليمان وعهوده ، ويزعمون أنها تقى حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت ، ولقد رأى كاتب هذا التفسير شيئا من ذلك ، وكان فى أيام حداثته يصدق به ويعتقد فائدته

وقد زعم اليهود أن سليمان سحر ودفن السحر تحت كرسيه ، وأنه أضاع خاتمه الذى كان به ملكه ، فوقع فى يد آخر وجلس مجلسه للحكم الخ ماخلطوا فيه التاريخ بالدجل . وروى عنهم أن سليمان هو الذى جمع كتب السحر من الناس ودفنها

تحت كرسيه ثم استخرجها الناس وتناقلوها . وفى رواية أخرى أنه انما دفن تحت كرسيه كتباً أخرى فى العلوم فلما استخرجت أشاع الشياطين أنها كتب سحر ، وأنشأ الدجالون بعد ذلك ينتحلون ماشاءوا و ينسبونه إلى تلك الكتب .ولاشك أن ما قالوه على سليمان وملكه من خبر السحر والكفر مكذوب افتراه أهل الاهواء وقد قصه الله تعالى علينا لنعتبر بما افتراه هؤلاء الناس على الأنبياء ، و بترجيح فريق من خلفهم الاشتغال بذلك على الاهتداء بالنبى ﷺ حتى إنهم نبذوا كتابهم الذى بشر به وراء ظهورهم

ومن البديهى أن ذكر القصة فى القرآن لا يقتضى أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً فذكر السحر فى هذه الآيات لا يستلزم اثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التى علمت من النفى لاتستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت فى القرآن ولولم يكن ذكرها فى سياق النفى

(قال الأستاذ الإمام مامثاله) بينا غير مرة أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، و إنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية ، ولا بدّ أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم مايدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح . وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم و إن لم تكن صحيحة فى نفسها كقوله (كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وكقوله (بلغ مطلع الشمس) وهذا الأسلوب مألوف فاننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الافرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم لا سيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية . و يقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس فى البحر أو فى الماء ، ولا يعتقدون ذلك وانما يعبرون به عن المرئى

جاء ذكر السحر فى مواضع متعددة فى القرآن وأ كثره فى قصة موسى وفرعون

وذكر هنا فى الكلام عن اليهود . وإذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا أن السحر عند العرب كل مالطف مأخذه ودق وخفى ، وقالوا سحره وسحَّره بمعنى خدعه وعلله ، وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر . وفى الحديث الصحيح « إن من البيان لسحراً » والسحر بالفتح وبالتحريك الرئة وهى أصل هذه المادة والرئة فى الباطن فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدى إليه غير أهله فهو باطن خفى ومنه الخداع وهو أن يظهر لك شيئاً غير الواقع فى نفس الأمر فالواقع باطن خفى ، وتأثير العيون فى عشاق الحسان ، والكلام البليغ فى عشاق البيان ، مما يخفى مسلكه ويدق سببه ، حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة فى تأثيره .

وقد وصف الله السحر فى القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين فيريها ماليس بكائن كائناً فقال (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) والكلام فى حبال السحرة وعصيهم وفى آية أخرى (فسحروا أعين الناس واسترهبوهم) وفى هذه الآية التى نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم والتاريخ يشهد بهذا ، وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى (وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك) ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحراً لخفاء سببه ولطف مأخذه ، ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية فى نفس أخرى لمثل هذه العلة . وقد قال المؤرخون إن سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان وأنهم يحضرون إذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعى . ولمثل هذا الكلام تأثير فى إثارة الوهم عرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره ، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير وليس فيه خاصية وإنما تلك العقيدة الفاسدة تفعل فى النفس الواهمة ما يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته . وهذا هو السبب فى اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب

وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء في حقيقة السحر وفي أحكامه وعده بعضهم من خوارق العادات ، وفرقوا بينه وبين المعجزة ، ولم يذكروا في فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل فهو أمر عادي قطعاً بخلاف المعجزة

(قال الاستاذ الامام) في قوله تعالى (يعلمون الناس السحر) وجهان (أحدهما) أنه متصل بقوله (ولكن الشياطين كفروا) أي ان الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر (والثاني) وهو الاظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وان الكلام في الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم . وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً في زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم . أي إن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وههنا يقول القائل : بماذا أتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان في رميه بالكفر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التي كانت تحت كرسيه؟ فأجاب على طريق الاستئناف البياني (يعلمون الناس السحر) الخ ، ونفي الكفر عن سليمان . وإلصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض فعلم أيضاً أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية أيضاً . وانما كان القصد إلى وصف اليهود بتعليم السحر لأنه من السيئات التي كانوا متلبسين بها ويضرون بها الناس خداعاً وتمويهاً وتلبيساً

ثم قال ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ فأجمل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها كما أجمل في ذكر تعليم السحر فلم يذكر ماهو؟ أشعوذة وتخييل ، أم خواص طبيعية ، وتأثيرات نفسية ؟ وهذا ضرب من الاعجاز في الايجاز انفرد به القرآن — يذكر الأمر المشهور بين الناس في وقت من الأوقات لأجل الاعتبار به فينظمه في أسلوب يمكن لكل أحد أن يقبله فيه مهما يكن اعتقاده لذلك الشيء في تفصيله . ألا ترى كيف ذكر السحر هنا وفي مواضع أخرى بأساليب لا يستطيع أن ينكرها من يدعي أن السحر حيلة وشعوذة أو غير ذلك مما ذكرناه ولا يستطيع أن يردها من يدعي أنه من خوارق العادات؟

والحكمة في ذلك أن الله عز وجل قد وكل معرفة هذه الحقائق الكونية إلى

بحث الإنسان واشتغاله بالعلم لأنه من الأمور الكسبية ، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم فى كل جيل لم يرتق العلم فيه إلى أعلى درجة ، ولكانت تلك المخالفة من أسباب الشك أو التكذيب فاننا نرى من الناس من يطعن فى كتب الوحى لتفسير بعض تلك الأمور المجملة بما يتراءى لهم و إن لم تكن نصاً ولا ظاهراً فيه ، و يزعمون أن كتاب الدين جاء مخالفاً للعلم وان كان ذلك الذى يطلقون عليه اسم العلم ظنياً أو فرضياً

فى (الملكين) قراءتان فتح اللام وكسرها ، فالأولى قراءة الجمهور والثانية قراءة ابن عباس والحسن وأبى الأسود والضحاك . وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر و يؤيده ماقيل إن المراد بهما داود وسليمان عليهما السلام . وقيل بل هما رجلان صاحبا وقار وسمت فشبها بالملائكة ، وكان يؤمهما الناس بالحوائج الأهلية و يجلونهما أشد الاجلال فشبها بالملوك ، وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة يقولون : هذا ملك وليس بإنسان كما يقولون فيمن كان سيداً عزيزاً يظهر الغنى عن الناس من حيث يحتاجون إليه : هذا سلطان زمانه . جلت حكمة الله فى خلقه فقد قدَّ هؤلاء الآدميين من أديم واحد ، كان الناس على عهد هاروت وماروت — اللذين كان يتحدث بخبرهما ولا يحدد تاريخهما — على مثالهم اليوم لا يقصدون للفصل فى شئونهم الأهلية من الجهة الروحانية إلا إلى أهل السمت والوقار اللابسين لباس أهل التقوى والصلاح ، هذا ما نشاهدهم عليه فى زماننا وهذا ماحكى الله تعالى عنهم فى الزمن القديم ، وقال الأستاذ الامام : لعل الله تعالى سماهما ملكين (بفتح اللام) حكاية لاعتقاد الناس فيهما وأجاز أيضا كون إطلاق لفظ الملكين عليهما مجازاً كما قال بعض المفسرين . قال تعالى فى اليهود (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل) والظاهر من العطف أن ماأنزل عليهماهو غير السحر ضم إليه لأنه من جنسه فى كون تعليمه سيئة مذمومة أو هو لتغاير الاعتبار أو النوع . وليس معنى الانزال عليهما أنه وحى من الله كوحيه للانبياء فيشكل عده من الشر والباطل الذى يذم تعلمه ، فان كلمة أنزل تستعمل فى مواضع لاصلة بينها و بين وحى الأنبياء . قالوا : أنزلت حاجتى على كريم ، وانزل لى عن هذه الأبيات :

ويقال : قد أنزل الصبر على قلب فلان : وقال تعالى (٥٧:٢٥وأنزلنا الحديد) وقال (٩:٢٦ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) ولعل التعبير عما أوتياه من العلم بالانزال لأنه لم يكن يعرف له مأخذ غيرهما يراد أنهما ألهماه إلهاما واهتديا إليه من غير أستاذ ولا معلم . ويصح أن يسمى مثل هذا وحيا لخفاء منبعه وليس الوحى و إلهام الخواطر خاصاً فى عرف اللغة ولا عرف القرآن بالأنبياء ولا بما يكون موضوعه خيراً أو حقا فقد قال تعالى (١٦:٦٨وأوحى ربك إلى النحل) وقال (٢٨:٧ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقال (شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) وقال الشاعر:

رأس الغواية فى العقل السقيم فما فيه فأكثره وحى الشياطين

وذكر ابن جرير الطبرى وجها آخر فى تفسير (وما أنزل على الملكين) ونقله كثير من المفسرين وهو أن (ما) نافيه أى إن اليهود يعلمون الناس السحر و يرتقون بسنده إلى الملكين ببابل ، وما أنزل السحر على الملكين فكيف كانوا يعلمونه بنى إسرائيل ؟ وقد ضعفوه بأن الثابت فى الواقع أن بنى إسرائيل كانوا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين . وقد أجاز هذا التضعيف الأستاذ الإمام . على أنه يمكن أن يراد به نفى الانزال خاصة أى أن ذلك السحر الذى ينسبونه إلى الملكين لم ينزل عليهما إنزالا من الله فينظمه اليهود فى سلك العلوم المحمودة و يزعمون أنه حق و إنما هو شيء افتجراه واخترعاه من عند أنفسهما

ثم قال ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ أى إن ما عندنا هو أمر يبتلى به الله الناس و يختبرهم فلا تتعلم ماهو كفر . فان أصر علماه هذا ما عليه الجمهور واقتصر عليه الأستاذ الإمام فى الدرس . وقال البيضاوى : وما يعلمان أحدا حتى ينصحاه و يقولا له : إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به ، وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور و إنما المنع من اتباعه والعمل به اه . ويجوز أن يكون المعنى إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك أتشكر أم تكفر وننصح لك بأن لا تكفر . ولعلهما يقولان هذا للمحافظة

على حسن اعتقاد الناس بفضلهما إذ كانوا يقولون هما ملكان . وإننا نسمع الدجاجلة الذين ينتحلون مثل هذا و يوهمون الناس أنهم روحانيون يقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة وللبغض نوصيك بأن لاتكتب هذا لجلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها . ولا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر ، وأن تخص هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين ، والتفريق بين العاشقين الفاسقين ، و إنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن علومهم إلهية ، وأن صناعتهم روحانية ، وأنهم صحيحوا النية . وقد كان اليهود يسندون سحرهم إلى ملكين ببابل ونرى دجاجلة المسلمين من المغاربة وغيرهم يسندون خزعبلاتهم إلى « دانيال النبي » وهذا المعنى يصح على القول بأن قوله « وما أنزل » نفي بحسب توجيهنا السابق وقال البيضاوي إن معناه على وجه النفي : إنما نحن مفتونون فلا تكن مثلنا .

قال تعالى ﴿ فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ صيغة المضارع في هذه الجملة وما قبلها لتصوير ماكان كأنه كائن فالكلام تصوير القصة لاحكم بمضمونها أي أنهم كانوا يتعلمون منهم ماوضع لأجل التفريق بين الزوجين وهو نحو مايسميه الدجاجلة الآن « كتاب البغضة » وليس في العبارة مايدل على أن مايتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه أو بسبب خفي أو بخارقة لاتعقل لها علة ولا أنه غير مؤثر ، وليس فيها بيان لما يتعلمونه هل هو كتابة تمائم ، أوتلاوة رقى وعزائم ، أو أساليب سماية ، أودسائس تنفير ونكاية ، أو تأثير نفساني ، أو وسواس شيطاني ؟ وأي شيء من ذلك ثبت علما كان تفصيلا لما أجمله القرآن في الواقع . ولا يجوز لنا أن نتحكم بتفصيل ماأجمله القرآن فنحمله على أحد ماذكر أو على غيره . ولو علم الله أن الخير لنا في بيان ذلك لبينه كما قلناه في مثله مراراً

لم يبين القرآن ذلك الإجمال ولا حقيقة ذلك العلم لأنه موكول إلى بحث البشر وارتقائهم في العلم كما تقدم ، ولكنه لم يهمل مايتعلق بالعقائد و بيان الحق فيها ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم ﴿ وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ أي أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات فهم يفعلون بها مايوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر ، وفوق مامنحوا من القوى والقدر ،

فاذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فانما ذلك باذن الله أى بسبب من الاسباب التى جرت العادة بان تحصل المسببات من ضر ونفع عند حصولها باذن الله تعالى. وهذا الحكم التوحيدى هو المقصد الأول من مقاصد الدين فالقرآن لا يترك بيانه عند الحاجة بل يبينه عند كل مناسبة وربما ترد فى القرآن قصة مثل هذه القصة لاجل بيان الحق فى مسألة اعتقادية كهذه المسألة لان ايراد الاحكام فى سياق الوقائع أوقع فى النفس وأعصى على التأويل والتحريف

ثم قال بعد نفى القوة التى وراء الاسباب عنهم ﴿و يتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم﴾ يضرهم لانه سبب فى الاضرار بالناس وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه فى الآخرة ومن عرف بايذاء الناس يمقته الناس ويكونون عليه . ولما كان بعض الضار من جهة نافعا من جهة أخرى وربما كانت منفعته أكبر من إثمه نفى المنفعة بعد اثبات المضرة ، فهذا النفى واجب فى قانون البلاغة لابد منه . وقد صدق الله تعالى فاننا نرى منتحلى السحر وما فى معناه أفقر الناس وأحقرهم ، ولو عقل السفهاء الذين يختلفون اليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والايقاع بأعدائهم لعلموا أن الشقى فى نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره ، لان فاقد الشيء لا يعطيه . هذه حالهم فى الدنيا فكيف يكونون فى الآخرة يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ؟

لاجرم أنها تكون حالا سوءى واليهود يعلمون ذلك كما قال ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ أى إنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين الحق وأحكام الشريعة العادلة الموصلين إلى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب فى نعيم الآخرة ، وذلك أن التوراة قد حظرت تعليم السحر وجعلته كعبادة الاوثان وشددت العقوبة على فاعله وعلى اتباع الجن والشياطين والكهان ، ولا ينافى هذا العلم قوله ﴿ ولبئس ماشروا به أنفسهم لوكانوا يعلمون ﴾ فان العلم علمان ـ علم تفصيلى متمكن من النفس متسلط على إرادتها يحركها الى العمل ، وعلم اجمالى خيالى يلوح فى الذهن مبهما عند مايعرض ما يذكر به ككتاب و إلقاء سؤال ، وهو يقبل التحريف والتأويل ، وليس له منفذ الى الإرادة ولا سبيل ، فقد كانوا يستحلون أكل السحت كالرشوة والربا بالتأويل كما يفعل غيرهم اليوم

وقبل اليوم . ولو كانوا يعلمون حرمة ماذكرعلما تفصيليا يستغرق جميع جزئيات المحرم ويفقهون علة التحريم وسره ويصدقون بما توعد الله مرتكبه من العقوبة فى الآخرة تصديقا جازما ويتذكرونه وقت العمل بما للعقيدة من السلطان على الارادة لما ارتكبوا ما ارتكبوه مع الاصرار عليه ، ولكنهم فقدوا هذا النوع من العلم ولم يغن عنهم تصور أن السحر والخداع كلاهما حرام كالربا والرشوة لان فى الكتاب عبارة تدل على ذلك فان العبارة تحتمل ضروبا من التأويل ككون النهى خاصا بمعاملة شعب إسرائيل وكانوا يقولون (ليس علينا فى الاميين سبيل) إذا أكلنا أموالهم بالباطل ، وكاشتراط الضرر فى السحر مع ادعاء أن ما يأتونه منه نافع غير ضار وغير ذلك

وإننا نرى كثيرا من الحرمات قد انتهكت فى المسلمين بمثل تلك التأويلات حتى جوز بعض المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الاسلام بالحيلة وهو ركن الزكاة الذى يحارب تاركوه شرعا ، وترى هذه الحيل قد أثرت فى الامة أسوأ التأثير فقلما يوجد فيها غنى يؤدى الزكاة . ولا يعتقد المتمسك بالدين من هؤلاء الاغنياء أنه متعرض لمقت الله وعقوبته ، وأنه قد فسق عن أمر ربه ، لانه يمنع الزكاة بحيلة يسميها شرعية ، وقد أخذها عمن يسمون فقهاء ، ويفتخرون بأنهم ورثة الانبياء ، ثم إن الحيل على التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها فى بعض الكتب وعلى ألسنة كثيرين من أصحاب العمائم مجال واسع وميدان فسيح ، ولها أقبح التأثير فى إفساد العامة واستباحتهم المحظورات ، ولقد صارت هذه الحيل على الله عز وجل والتأويلات الباطلة الهادمة لدينه معدودة من علم الدين حتى إنه ليأتيها من لا منفعة له فى إتيانها ممن يعدون صالحين ، ومن أعجب ذلك أن بعض أهل العلم الصالحين يشهد الزور بمثل هذه التأويلات ، وقد نقل الثقات أن طالب الشهادة يستعطفه ويستميل قلبه بالشكوى من الظلم وإرادة الاستعانة بشهادته على دفع المظلمة والتخلص من الاذى فيأمر الشيخ بأن تطوى الورقة المشتملة على قول الزور بحيث يحجب سواد الكتابة فلا يراه ويضع توقيعه وختمه فى ذيلها كأنه وضعها على ورقة خالية ، وهو يعلم أنها ليست خالية من الكتابة ، ويعرف مافيها من الكذب . فهل نقول إنه غير عالم بقوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور) وقوله (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون)

وبما رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ قال وكان متكئا « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله وعقوق الوالدين - ثم قعد فقال - ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . وبما روياه من حديث أبى هريرة مرفوعا أيضا « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » وفى رواية لغيرهما « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إنه مسلم » وذكرهن - بلى إنه عالم بكل ذلك ولكنه التأويل أفسد على كل أهل دين دينهم .

أقول: أشار الاستاذ الامام إلى ماكان من إقدام هذا العالم العابد على شهادة الزور واستحلالها بتلك الحيلة السخيفة وذكر أمثلة أخرى وقد تذكرت عند كتابة الحديث فى المنافقين أن بعض شيوخ الازهر المعروفين كان وعدنى وعداً وأخلف فسألته به فقال : إن فقهاءنا الحنفية قالوا بأن الوفاء بالوعد غير واجب ، فقلت وقد تميزت من الغيظ : إن من يقول هذا القول بعد ما ورد من النصوص الصريحة فى الوفاء وفى الوعيد على تركه فهو مخطىء وقوله مردود كما ورد فى الصحيح (بل قلت أكثر من هذا) وانى أبرىء الأئمة من القول بحل إخلاف الوعد من غير عذر صحيح ولكننى أعذر الفقهاء إذا قالوا بأنه ليس للقاضى أن يحكم على من وعد بالوفاء ويلزمه ذلك إلزاما ، ولا أعذر من يقول إن الوفاء مستحب وتركه جائز وإن كان هو المعروف فى أكثر كتب الفقه المتداولة .

ولقد صار العالم المسلم عاجزاً فى أكثر بلاد المسلمين عن إنكار ما يخالف هدى الكتاب والسنة من كتب الميتين لاسيما إذا اشتهروا باختيار كتبهم للتدريس . وحجة هؤلاء المقلدين على نصر كتب الميتين وترجيحها على كتاب الله وسنة رسوله هى أن القادرين على الاهتداء بهما قد انقرضوا فوجب على المسلمين ترك العمل بهما والاعتماد على كتب العلماء المتأخرين الذين استنبطوا من قواعد أئمتهم جميع مسائل الدين ، فعلينا أن نأخذ بكل ماقالوا ، وأن لا ننظر فى الكتاب والسنة إلا للتبرك بهما ، فان رأينا خلافا بين قول الله ورسوله وقول الفقه لا يحتمل التأويل فعلينا أن نتهم عقولنا وأفهامنا وننزه فهم الفقيه الميت وعقله ونعمل بقوله مكابرين

أنفسنا التى سجل علينا الحرمان من فهم الكتاب المبين والسنة البيضاء التى وصفها صاحبها بأن ليلها كنهارها أى لا يشتبه فيها أحد !!! هذا ماعليه جماهير المسلمين ، ولم يبعد من قبلهم عن كتاب ربهم أشد من هذا البعد ، وسيعودون إليه بعد حين ، فقد أخذهم العذاب على تركه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

ثم قال تعالى ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ أى لو أنهم استبدلوا الايمان بما جاء به النبى ﷺ بهذا السحر الخادع واتباع نزغات الشياطين أو لو آمنو بكتابهم إيمانا حقيقيا ومنه البشارة بالنبى والامر باتباعه واتقوا بالعمل به والمحافظة على حدوده مغبة ما ينتظره المجرمون من العقوبة على العصيان ــ لكان ثواب الله لهم على الايمان الصحيح والعمل الصالح خيراً لهم من جميع ماتوهموه فى المخالفة من المنافع . ثم قال ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى إنهم فى كل ماهم عليه من الاباطيل ، ومن زعمهم أنها ترجع إلى الكتاب بضروب من التأويل ، يتبعون الظنون ويعتمدون على التقليد ، وليسوا على شىء من العلم الصحيح ــ ولو كانوا يعلمون علما صحيحا لظهر أثره فى أعمالهم ولآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوه فكانوا من المفلحين

ومن مباحث اللفظ فى الآيات : أن بابل بلدة قديمة كانت فى سواد الكوفة (قبل الكوفة) فى أشهر أقوال المفسرين ، ويؤخذ من بعض كتب التاريخ أنها كانت فى الجانب الشرقى من نهر الفرات بعيدة عنه ، ويقال إن أصل اشتقاقها فى العبرانية يدل على الخلط ، إشارة إلى مايرويه العبرانيون من اختلاط الالسنة هناك . وهاروت وماروت اسمان أعجميان ، ولو كانا مشتقين من الهرت والمرت كما زعم بعضهم لما منعا من الصرف . و « من » فى قوله تعالى (وما يعلمان من أحد) لاستغراق النفى وتأكده ، وقد شدد الاستاذ الامام كعادته الانكار على من قال انها زائدة ، وقال إنما الزائدة مايذكر للتحلية ولا يكون له معنى ما وفاقا لكثير من المفسرين. والمثوبة الثواب و (لمثوبة) خبر (لو) قال الاستاذ: أى لكانت مثوبة من الله خيرا. وقد قدروا لها فعلا فقالوا : الأصل لأثيبوا مثوبة ، فحذف الفعل وركب الباقى جملة اسمية ليدل على ثبات المثوبة ، ونكرت لبيان أنها مهما قلت فهى خير لهم ، وأصلها الثوب بمعنى الرجوع ، كأن المحسن يثوب إلى من أحسن إليه بعد الاعراض

(١٠٤) يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْـكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٥) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْـكِتَٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْـكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّـكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

أقول: هذا خطاب للمؤمنين فى أمر له علاقة بما كان بينهم و بين اليهود فهو متعلق بماضى السياق الخاص ببنى إسرائيل ، و بدء انتقال منه إلى سياق مشترك بين المؤمنين واليهود والنصارى جميعا فى أمر الدين . و « راعنا » كلة كانت تدور على ألسنة الصحابة فى خطاب النبى صلى الله عليه وسلم . والمعنى المتبادر منها لغة هو : راعنا سمعك وهو كأرعنا سمعك أى اسمع لنا مانريد أن نسأل عنه ونراجعك القول فيه لنفهمه عنك ، أو راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا فى حفظ ما تلقيه علينا وفهمه . قال فى مجاز الأساس : « وراعيت الأمر — نظرت إلام يصير . وأنا أراعى فلانا — أنظر ماذا يفعل ، وأرعيتـه سمعى وأرعنى سمعك وراعنى سمعك اه ولكن الله تعالى نهى المؤمنين عن قول هذه الـكلمة والمشهور فى كتب التفسير : أن سبب ذلك هو أن اليهود سمعوها فافترصوها وصاروا يخاطبون بهـا النبى صلى الله عليه وسلم لاوين ألسنتهم بها لتوافق كلة شتم بلسانهم العبرانى قيل : كانوا ينطقون بها « راعينا » وقيل : كانوا يريدون بتحريفهـا نسبته إلى الرعونةوفى سورةالنساء(٤ : ٤٦من الذين هادوا يحرفون الـكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ـ ليًّا بألسنتهم وطعنًا فى الدين) الآية

(الأستاذ الإمام) إن هذا النهى له صلة وارتباط بشأن اليهود لامحالة لأن الكلام لايزال فى شؤونهم مع النبى ﷺ والمؤمنين ولكن هذا لايستلزم أن يكون سبب النهى هو كون الكلمة تستعمل للشتم فى العبرانية ولا أقول بهذا إلا بنقل صحيح

عمن يعرف هذه اللغة ، وللمفسرين وجوه أخرى فى تعليل النهى فعن مجاهد وغيره أن معنى الكلمة « خلاف » والمراد لا تخالفوه كما يفعل أهل الكتاب ، ولكن اعترض على هذا الوجه بأن ليس له شاهد من اللغة . والمعروف فى اللغة أن « راعنا » من المراعاة . وهى تقتضى المشاركة فى الرعاية أى أرعنا نرعك ، وفى خطاب النبى بذلك من سوء الأدب ماهو ظاهر ، فالنهى عنه تأديب كقوله تعالى (٤٩ : ٢ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) كأنه يقول لا تكونوا كهؤلاء الغلاظ القلوب الذين قصصنا عليكم خبرهم أو الذين عرفتم سوء أدبهم مع الأنبياء ، بل اجمعوا بين الطاعة والأدب .

(قال) وههنا وجه آخر وهو أنه يقال فى اللغة : راعى الحمار الحمر إذا رعى معها ، فيجوز أن اليهود كانوا يحرفون الكلمة بصرفها إلى هذا المعنى فنهى الله المسلمين عن هذه الكلمة وشنع على اليهود بإظهار سوء قصدهم فيها . وقد رضوا بصرف اللفظ إلى هذا المعنى وإن كان يتضمن أنهم حمر لأن السباب يسب نفسه كما يسب غيره فهو على حد قول القائل :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ﴾ نهاهم تعالى عن كلة كانوا يقولونها وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها . فكلمة « انظرنا » تفيد معنى كلة « راعنا » فان فيها معنى الانظار والامهال ويؤيد هذا المعنى قراءة « انظرنا » من الانظار وفيها معنى المراقبة وهو ما يستفاد من النظر بالعين . تقول : نظرت الشيء ونظرت اليه ، إذا وجهت إليه بصرك ورأيته وتقول: نظرته بمعنى انتظرته ومنه (٣٦ : ٤٩ ماينظرون إلا صيحة واحدة) أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة « أنظرنا » وأمرهم بالسماع للنبى ليعوا عنه مايقول من الدين وهو

أمر يتضمن الطاعة والاستجابة . ثم ختم الآية بقوله ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ لبيان أن ماصدر عن اليهود من سوء الأدب فى خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذى يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الايجاع ، وللتنبيه على أن التقصير

فى الأدب معه ﷺ ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة المساواة، بله الألفاظ المنافية للآداب.

أقول: لاشك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة فى القول والعمل يقل احترامه له وتزول هيبته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم. وإذا لم تزل الاستفادة منه من حيث كونه معلما فانها تقل وتزول لامحالة من حيث كونه مربيا لأن المدار فى التربية على التأسى والقدوة، ومن أراد مثلى لا أرضاه إماما وقدوة لى. فان رضيته بالمواضعة والتقليد وكذبتنى المعاملة فأى قيمة لهذا الرضى والعبرة بما فى الواقع ونفس الأمر، وهو أن من اعتقد أن امرءاً فوقه علماً وكمالا وأنه فى حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده ومن أخلاقه وآدابه، فانه لا يستطيع أن يساوى نفسه به فى المعاملة القولية ولاالفعلية، إلا ما يكون من فلتات اللسان ومن اللمم، وعن مثل هذا نهى الصحابة رضى الله عنهم لئلا يجرهم الانس به ﷺ وكرم أخلاقه إلى اعتداء حدود الأدب الواجب معه الذى لا تكمل التربية إلا بكماله، وهو تعالى يقول (٣٣:٢١ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) الآية.

(الأستاذ الامام) إنما كان عدم الاصغاء لما يقوله الرسول عليه الصلاة والسلام وخطابه خطاب الأكفاء والنظراء مجاوراً للكفر، لأنه يتكلم عن الله عز وجل لسعادة من يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب ويسأل عما لا يفهمه بالأدب، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقى الذى لايعدل بشقائه شقاء: ومعنى هذه المجاورة أن سوء الأدب بنحو ما حكى عن اليهود فى سورة النساء هو من الكفر الصريح ولذلك قال بعده(٤:٤٦ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) فالألفاظ التى تحاكى الألفاظ التى توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر إذا صدرت من المؤمن غير محرفة ولا مقصوداً بها ما كانوا يقصدون تسمى مجاورة لألفاظ الكفر لأنها موهمة وخارجة عن حدود الأدب اللائق بالمؤمنين.

(قال) إن لمن جاء بعد الرسول حظا من هذا التأديب، وليس هو خاصاً

بمن كان فى عصره من المؤمنين. فهذا كتاب الله الذى كان يتلوه عليهم، وكان يجب الاستماع له والانصات لأجل تدبره ؛ هو الذى يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شىء وهو كلام الله الذى به كان الرسول رسولا تجب طاعته والاهتداء بهديه ، فما هذا الأدب الذى يقابله به الأكثرون ؟ إنهم يلغطون فى مجلس القرآن،فلا يستمعون ولا ينصتون ، ومن أنصت واستمع فانما ينصت طربا بالصوت واستلذاذاً بتوقيع نغمات القارىء ، وإنهم ليقولون فى استحسان ذلك واستجادته ما يقولونه فى مجالس الغناء ، ويهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة ، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق ، ولا يلتفتون إلى شىء من معانيه إلا مايرونه مدعاة لسرورهم فى مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عما فيها من العبرة وإعلاء شأن الفضيلة ولا سيما العفة والامانة. أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذى ترشد إليه هـذه الآية الكريمة وأمثالها ، وتتوعد على تركه بجعله مجاوراً للكفر الذى يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم (٢٣: ٦٨ ، ٦٩ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟)

ثم قال تعالى ﴿ مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يقول تعالى للمؤمنين: إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة، لا يلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالى بعدوانهم ، ولا يضركم كفرهم وعنادهم ، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم ، والقرآن أعظم الخيرات،لأنه النظام الكامل ، والفضل الشامل ، والهداية العظمى،والآية الكبرى ، جمع به شملكم ، ووصل حبلكم ، ووحد شعوبكم وقبائلكم ، وطهر عقولكم من نزغات الوثنيـة ، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية ، وأقامكم على سنن الفطرة ، وشرع لكم الحنيفية السمحة ، فكيف لايحرق الحسد عليه أكبادهم ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم ؟

(أقول) الود محبة الشىء وتمنى وقوعه، يطلق على كل منهما قصداً، وعلى الآخر تبعاً. ويكون مفعول الأول مفرداً والثاني جملة، ونفيه بمعنى الكراهة فالمعنى

ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم . أما أهل الكتاب ولاسيما اليهود فلحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم ، وأما المشركون فلأن فى تنزيل المرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره ماخيب آمالهم فى تربصهم الدوائر بالنبى ﷺ وانتهاء أمره .

ثم إن الله تعالى رد عليهم بما بين جهلهم وجهل جميع الحاسدين فقال ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أى أن الحاسد لغباوته وفساد طويته يكون ساخطاً على الله تعالى ومعترضاً عليه أن أنعم على المحسود بما أنعم ، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين ، ولايحول مجارى نعمه حسد الحاسدين فالله يختص برحمته من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم - أسند كلاً من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم لبيان أنهما حقه لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير فى منحهما ولا فى منعهما .

(١٠٦) مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٧) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٨) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

قال أئمة اللغة: إن أصل النسخ النقل سواء كان نقل الشىء بذاته، كما يقال : نسخت الشمس الظل : أى نقلته من مكان إلى مكان ، أو نقل صورته، كما يقال : نسخت الكتاب : إذا نقلت عنه صورة مثل الأولى، وورد : نسخت الريح الأثر : أى أزالته . وأصل النسيان الترك أو هو غايته اللازمة له ، ومنه قوله تعالى (أتتك

آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى تركتها بترك العمل بها فجزاؤك أن تترك فى العذاب فاحفظ المعنى اللغوى .

(الأستاذ الإمام) للمفسرين فى تفسير هذه الآية طريقان . أحدهما: أنها على حد قوله تعالى(١٦ : ١٠١ و إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) فالنسخ هنا بمعنى التبديل أى إذا جعلنا آية بدلا من آية فاننا نجعل هذا البدل خيراً من المبدل منه أو مثله على الاقل،فالآية عند هؤلاء فى نسخ التلاوة ، وقالوا إن المراد بالنسيان هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فتنسى بالمرة . (قال) وهذا بمعنى التبديل،فما هى الفائدة فى عطفه عليه بأو ؟ وهل هو إلا تكرار يجل كلام الله عنه ؟

وثانيهما : أن المراد نسخ حكم الآية وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة، وهذا هو القول المختار للجمهور ، وقالوا فى توجيهه :إنه لامعنى لنسخ الآية فى ذاتها ولا حاجة إليه و إنما الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال ، فاذا شرع حكم فى وقت لشدة الحاجة إليه ثم زالت الحاجة فى وقت آخر فمن الحكمة أن ينسخ الحكم و يبدل بما يوافق الوقت الآخر فيكون خيراً من الأول أو مثله فى فائدته من حيث قيام المصلحة به . وقالوا إن المراد بالانساء إزالة الآية من ذاكرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اختلف فى هذا أيكون بعد التبليغ أم قبله فقيل؟بعده كما ورد فى أصحاب بئر معونة (*) وقيل

(*) بئر معونة موضع بين الحرمين قيل لهذيل وقيل لسليم وهناك اغتيل جماعة من الصحابة أكثرهم قراء فحزن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عليهم ، وروى البخارى وغيره أنه نزل فيهم وحى منه حكاية عنهم « بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » وليس كل وحى قرآناً فان للقرآن أحكاما ومزايا مخصوصة وقد ورد فى السنة كثير من الأحكام مسندة إلى الوحى ولم يكن النبى (ص) ولا أصحابه يدونها قرآنا ، بل جميع ماقاله عليه السلام على أنه دين فهو وحى عند الجمهور واستدلوا عليه بقوله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى)وأظهره الاحاديث القدسية . ومن لم يفقه هذه التفرقة من العلماء وقعت لهم أوهام فى بعض الأحاديث رواية ودراية وزعموا أنها كانت قرآنا و نسخت

قبله حتى ان السيوطي روى في أسباب النزول ان الآية كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلا فينساها نهاراً فحزن لذلك فنزلت الآية . قال الاستاذ الامام : ولا شك عندي في أن هذه الرواية مكذوبة وان مثل هذا النسيان محال على الانبياء عليهم السلام لانهم معصومون في التبليغ والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) وقوله (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وقد قال المحدثون والاصوليون : ان من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فان هذا النسيان ينافي العصمة المجمع عليها

وقالوا في تفسير قوله تعالى بعد ما ذكر ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ انه ورد مورد الاستدلال على القدرة على النسخ بالمعنى الذي قالوه أي انه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود لانه مما تناله قدرته ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض ﴾ الآية . والخطاب في (تعلم) للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يتمضون من كلام اليهود وغيرهم من المعترضين على النسخ ، وضعيف الايمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به فيخشى عليه من الركون الى الشبهة أو الحيرة فيها ففي الكلام تثبيت لمن كان كذلك من الضعفاء ودعم لايمانهم ، وتوجيه الكلام الى شخص يراد غيره شائع في كلام العرب والمولدين: ولذلك قال بعض العلماء ، نزل القرآن على طريق قولهم « إياك أعني واسمعي يا جاره » واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكما من الاحكام . ومن آية ارادة

الامة بالخطاب الالتفات عن الافراد الى الجمع بقوله ﴿ ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي ان وليكم وناصركم هو الله تعالى وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ، ولا ينبغي أن يستهويكم انكارهم فيميلكم عن دينكم فانه لا قيمة له ولا للمنكرين إذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم اذا كان الله هو مولاكم وناصركم . واذ أراد الله بكم سوءا فلا يملكون أن يدفعوه عنكم

ثم قال تعالى ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾

وهذا كلام جديد منقطع عما قبله وقالوا إن (أم) هنا للاستفهام لا للاضراب لان أم التى تستعمل بمعنى (بل) يقصد بها الاضراب عن الكلام السابق ولا يظهر الاضراب هنا . هذا ما اختاره الاستاذ الامام من قولهم

(قال) واستشهدوا لأم الاستفهامية بقول الشاعر :

فوالله لا أدرى أهنـد تقولت أم القوم ، أم كل إلىّ حبيب ؟

وبعض المفسرين يقولون إن «أم» هذه منقطعة للاضراب عن عدم علمهم بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم فهى تتضمن الاضراب والاستفهام معاً ، وتجد الجلالين يقدران ذلك فى تفسيرهما وقد قدرا فيه هنا « بل أتريدون » والحاصل أن المعنى هنا أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما واعناتاً ؟ يحذر المسلمين ما فعل أولئك وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال ﴿ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل﴾ أى إن ترك الآيات الموجودة والاعراض عنها لإعنات النبى ﷺ بسؤال غيرها لتكون بدلا منها هو من اختيار الكفر على الايمان واستحباب العمى على الهدى . وبدل وتبدل واستبدل يدل على جعل شيء فى موضع آخر بدلا منه والباء تقرن بالمبدل منه لا بالبدل كما أشرنا إليه فى تفسير (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير)

(الاستاذ الامام) هذا تقرير ما جرى عليه المفسرون فى الآيات . واذا وازنا بين سياق آية (ما ننسخ) وآية (واذا بدلنا آية مكان آية) نجد أن الاولى ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) والثانية بقوله (والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) ونحن نعلم شدة العناية فى أسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات . فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء فى الآية الثانية يقتضى أن يراد بالآيات فيها آيات الاحكام

وأما ذكر القدرة والتقرير بها فى الآية الاولى فلا يناسب موضوع الاحكام ونسخها وانما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) لكان لنا أن نقول إنه أراد نسخ آيات الاحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن أو الحال التى كانت فيها تلك الاحكام موافقة للمصلحة . وقد تحير العلماء فى فهم

الإنساء على الوجه الذى ذكروه حتى قال بعضهم إن معنى (ننسها) نتركها على ماهى عليه من غير نسخ وأنت ترى أن هذا و إن صح لغة لايلتئم مع تفسيرهم إذ لامعنى للاتيان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة (قال) والمعنى الصحيح الذى يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هى مايؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم أى (ماننسخ من آية) نقيمها دليلا على نبوة نبى من الأنبياء أى نزيلها ونترك تأييد نبى آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فاننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف فى الملك نأتى بخير منها فى قوة الاقناع و إثبات النبوة أو مثلها فى ذلك . ومن كان هذا شأنه فى قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه .والآية فى أصل اللغة هى الدليل والحجة والعلامة على صحة الشيء وسميت جمل القرآن آيات لأنها بإعجازها حجج على صدق النبي ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحى من الله عز وجل ، من قبيل تسمية الخاص باسم العام.

ولقد كان من يهود من يشك فى رسالته عليه السلام بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل ، ولقد تقدمت الآيات فى تفنيد زعمهم هذا وقالوا (لولا أوتى مثلما أوتى موسى) أى من الآيات ، فرد الله تعالى عليهم فى مواضع منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) الخ ومنها هذه الآيات والخطاب فيها المؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم كأنه يقول إن قدرة الله تعالى ليست محدودة ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات أو بآحاد منها لاتتناول غيرها ، وليست الحجة محصورة فى الآيات السابقة لاتتعداها ، بل الله قادر على أن يأتى بخير من الآيات التى أعطاها موسى وبمثلها ، فانه لايعجز قدرته شىء ،ولا يخرج عن ملكه شىء ، كما أن رحمته ليست محصورة فى شعب واحد فيخصه بالنبوة،ويحصر فيه هداية الرسالة ،كلا إن رحمته وسعت كل شىء، كما أن قدرته تتصرف بكل شىء من ملك السموات والأرض الذى لايشاركه فيه مشارك،ولاينازعه فيه منازع،فيكون وليا ونصيرا لمن كفر بنعمه وانحرف عن سننه

أنظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها فى هذا المقام فظهر أن ذكر القدرة

وسعة الملك إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل دون معنى الأحكام الشرعية والأقوال الدالة عليها من حيث هى دالة عليها لامن حيث هى دالة على النبوة . ويزيد هذا سفورا ووضوحا قوله عقبه (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟) فقد كان بنو اسرائيل لم يكتفوا بما أعطى موسى من الآيات وتجرءوا على طلب غيرها وقالوا (ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها حتى رأوا تسع آيات بينات ولم يؤمنوا . وقوله تعالى (كماسئل موسى) يشمل كل ذلك

قد أرشدنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن فى طلب الآيات وعدم الاذعان لما يجىء به النبى منها والاكتفاء به بعد العجز عن معاوضته هو دأب المطبوعين على الكفر الجامدين على المعاندة والمجاحدة ، فانه قال بعد إنكار هذا الطلب (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقدضل سورة السبيل) ويوضح هذا قوله تعالى فى آية أخرى (١٧ : ٥٩ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) والمراد الآيات المقترحة، بدليل السياق، وهو اتفاق بين المفسرين .ولو كان الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام بأحكام تنسخها لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه . وقوله تعالى (فقد ضل سواء السبيل) معناه أنه أخطأ وسط الجادة ومال إلى أحد الجانبين ومتى انحرف السائر فى سيره عن الوسط يخرج عن المنهج و يبعدعنه كلما أوغل فى السير فيهلك دون الوصول إلى المقصد . والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير فى طريقهما ، ومن مال عن الحق وقع فى الباطل لامحالة (١٠ : ٢٢ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟)

هذا هو التفسير الذى تتصل به الايات و يلتئم بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة ، وهو الذى يتقبله العقل ، يستحليه الذوق اذ لايحتاج إلى شىء من التكلف فى فهم نظمه ولا فى توخيه مفرداته كالإنساء والقدرة والملك[1] وقد اضطر القائلون بأن المراد بالنسخ نسخ الاحكام - مع ماعرفت من التكلف - إلى القول بجو

---

(١) بعد نشر هذا التحقيق فى المنار بزمن طويل علمت ان الشيخ محى الدين بن عربى سبق إلى مثله فذكره مختصراً فى تفسيرله كتبه على طريق المفسرين دون الصوفية

نسيان الوحى ، وطفقوا يلتمسون الدلائل على ذلك ، حتى أوردوا قوله عز وجل (١٨:٢٤واذكر ربك إذا نسيت)وليس من هذا الموضوع ولا المخاطب به النبى ﷺ وانما جاء على طريق الحكاية[1] وأما قوله تعالى (٧٨:٦،٧سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله) فهو يؤكد عدم النسيان لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار كما فى قوله تعالى (١١:١٠٨خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع . وقوله (٧:١٨٨ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله)والنكتة فى الاستثناء بيان هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها فى نفسها ولو شاء الله تعالى أن يغيرها لفعل ، وهذا الاعتقاد من مهمات الدين، فلاغرو أن أن تزاح عنه الأوهام فى كل مقام يمكن أن تعرض فيه. فليس امتناع نسيان الوحى طبيعة لازمة للنبى ، وانما هو تأييد ومنحة من الله تعالى ، وليس خلود أهل الجنة فى الجنة واجب عقلى أو طبيعى ، وانما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو ننسأها) أى نؤخرها ، ولا يظهر هذا المعنى فى مقام نسخ الاحكام كما يظهر فى نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الأنبياء فان الآية التى تقترح على نبى لأنها كانت لنبى قبله قد تنسخ بآية جديدة خير منها أو مثلها ، وقد تؤخر بالآية الجديدة ، ثم تعطى فى وقت آخر بعد الاقتراح ، ولكن تأخير آيات الأحكام ليس له معنى ظاهر . ـ

---

(١٠٩) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١٠) وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

---

(١) الاول لانزاع فيه ، والثانى رأى الاستاذ دون الجمهور

بين الله تعالى فى الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسداً له ولقومه على نعمة النبوة بل هم يزيدون على ذلك ماقصه تعالى بقوله ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وماتكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التى عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة فى الدارين ، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه ، كما كان يتوقع علماء يهود فى عصر التنزيل ، وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله تعالى قبل آيات (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) وقد بين الله لنا ماكان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين فى دينهم كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعلّ ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم، كما سيأتى فى سورة آل عمران ، وفى هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر فى نفوس بعض المسلمين .

وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات أن يعلم المسلمون أن مايبدو من أهل الكتاب أحياناً من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصح الذى يبعث عليه الاعتقاد . وقال (حسداً من عند أنفسهم)ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه ، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق ، ولذلك قفاه بقوله ﴿ من بعد ماتبين لهم الحق ﴾ أى بالآيات التى جاء بها النبي ﷺ وبانطباق مايحفظون من بشارات كتبهم بنبى آخر الزمان عليه

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وماينبعث عنه بمايليق بهم من محاسن الأخلاق فقال ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لارادة

العموم ، أى عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو، فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين (٢٥ : ٦٣ الذين يمشون على الأرض هوناً و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)

أقول : العفو ترك العقاب على الذنب (٩ : ٦٦ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب .

(قال الأستاذ الإمام) وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة . لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول : لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فانكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للقوى الجاهل (قال) وفى إنزال المؤمنين على ضعفهم منزل الأقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ماثبتوا على حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل فان الحق هو الذى يصرع الباطل ، كما قلنا غير مرة ، و إنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه . ثم قال تعالى ﴿ حتى يأتى الله بأمره ﴾ فوعدهم بأن سيمدهم بمعونته ، و يؤيدهم بنصره، ثم أحالهم بقوله ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ على قدرته النافذة التى لا يشذ عنها شىء فى العالمين ، تأييداً للوعد وكشفاً لشبهة من عساه يقول : أنى لهذه الشرذمة القليلة العدد ، الضعيفة القوى ، أن تنتحل لنفسها وصف الملوك العالين ، وتقف مع الأمم القوية موقف العافين قادرين ؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه : إن الذى أوقفها هذا الموقف ، ومنحها هـذا الوصف ، هو القادر على أن يهبها من القوة ماتتضاءل دونه جميع القوى ، وهو مايؤيد به سبحانه من يقوم بالحق و يثبت عليه (٢٢ : ٤٠ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقد فعل .

(أقول) جعل شيخنا الأمر فى الغاية التى قيد بها العفو والصفح واحد الأمور، إذ فسره بالنصر وأكثر المفسرين جعلوه واحد الأوامر وهو الأمر بقتالهم، و يعبر بعضهم بآية السيف و يعنون آية التوبة التى فيها حكم الجزية . وقال بعضهم: المراد هنا الأمر بقتل بنى قريظة و إجلاء بنى النضير ، وقالوا: إنه توقيت لا يصح أن يسمى منسوخا أى فى عرف الأصوليين ، و إن روى عن ابن عباس

وغيره . وذلك أن النبي (ص) كان عاهد جميع اليهود المجاورين له في المدينة عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فغدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين عليه مراراً وكان يعفو عنهم و يصفح حتى أذن الله له بقتالهم و إجلائهم

(قال الأستاذ) ثم بعد الوعد بالنصر والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة دلهم على بعض وسائل تحققه ، وهي الصلاة التي توثق عروة الإيمان وتعلي الهمة وترفع النفس بمناجاة الله العلي الكبير ، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها ، والتعارف في مساجدها . والزكاة التي تصل بين الأغنياء والفقراء فتتكون باتصالهم وحدة الأمة حتى تكون كجسم واحد ،فقال﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ولم تذكر إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة في موضع من الكتاب الحكيم إلا والمقام يقتضي الذكر لبيان فائدة خاصة لهذا الأمر لا يمكن أن تستفاد من ذكرهما في موضع آخر .

وقد تقدم أن إقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقا ، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية،وذلك بالتوجه إلى الله تعالى ومناجاته والانقطاع إليه عما عداه ، و إشعار القلب عظمته وكبرياءه ، فبهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله ، وتتنزه النفس أن تأتي الفواحش والمنكرات، وتستنير البصيرة فتكون أقوى نفاذاً في الحق وأشد بعداً عن الأهواء ، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيها الصلاة من القوة المعنوية ومن الثقة بقدرة الله تعالى ، فاذا كان قوله تعالى بعد الوعد بالنصر (إن الله على كل شيء قدير) دليلا أيد به الوعد فقوله (وأقيموا الصلاة) هداية إلى طريق الإقناع التام بهذا الدليل حتى يكون وجداناً للنفس لا تزلزله الشبهات ، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات .

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد ، والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع ، ثم إن فيها من معنى العبادة ما في الصلاة فان المال — كما يقولون — شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيداً في إيمانه ، فهي إصلاح روحي أيضا .

و بعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشتبه من ضعفاء الايمان في نصر الله المؤمنين ، وجعل السلطان لهم على الكافرين ، وبيان أن إقامة

هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان فى الدنيا بين لهم أنها من أسباب السعادة فى الآخرة، فقال ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ ولكن البيان جاء فى صورة عامة، وهذا من الأساليب التى لاتكاد تجد لها فى غير القرآن نظيراً — ينتقل من بيان حكم إلى آخر، فيكون الثانى قائما بنفسه وشاملا للأول بعمومه وتكون صلة العموم والخصوص هى الرابط فى النظم. وقوله تعالى (تجدوه) هو كقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وقالوا: إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه، ولكن لما كان الجزاء مبنياً على أثر العمل فى نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه. ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الاحسان فيه ويدل على تحققه، فقال ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئاً

(الاستاذ الامام) هذه الآيات هى آخر ما أدب الله تعالى به المؤمنين فى هذا المقام على مايخامر البعض منهم وما يعن له من الشبه فى مستقبل الاسلام وتأييده تعالى لنبيه وإعزازه لحزبه، وكان أولها قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا) وكأن منشأ تلك الخواطر هو مايرونه فى التنزيل المرة بعد المرة وما يشاهدونه من عمل النبي ﷺ من الجزم بأن الأسباب مقرونة بمسبباتها وأن حوادث الكون جارية على سنن مطردة، وما كان هذا الفريق من المؤمنين يعلم قبل إعلام الله تعالى إياهم بأن الايمان الصحيح الذى يتوكل صاحبه — بعد اتخاذ الأسباب والوسائل — على القدرة الالهية والعناية الغيبية، وعمل الصالحات الذى يصلح النفوس، ويؤلف مع الاعتقاد بين القلوب، هما أكبر أسباب القوة، وأقرب وسائل السيادة والسعادة، وقد جاء هذا الارشاد والتأديب فى سياق الكلام على أهل الكتاب، لأن مكرهم السيء كان مثاراً لبعض الخواطر فى المسلمين فالكلام تأديب للمؤمنين ورد على اليهود. ثم انتقل إلى الكلام على أهل الكتاب عامة وما يلام عليه الفريقان منهم — اليهود والنصارى — فقال:

(١١١) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ. تِلْكَ

أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١١٢) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَـٰبَ . كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذا بيان لحالين آخرين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم ما كان المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونها ــ أما الأولى فما بينه تعالى بقوله ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهو عطف على قوله (ود كثير من أهل الكتاب) أي قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ،وقالت النصارى كذلك في أنفسهم ، وهو اختصار بديع غير مخل. وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ولا ينافي انسحاب حكمها على الآخرين ، أن نفراً من الأولين قالوا ذلك بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم كما يروى . وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له في كتبهم المنزلة فقال ﴿تلك أمانيهم . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ والأماني جمع أمنية ، وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه . وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها تتضمن أماني متعددة هي لوازم لها ، كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم ، ولهذا ذكر الأماني بالجمع ولم يقل تلك أمنيتهم . وقد انفرد بهذا الوجه الاستاذ الامام ، وهناك وجوه أخرى وهي أن الاشارة بتلك أمانيهم لقوله (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية وقوله (ود كثير) وقوله (وقالوا لن يدخل الجنة) وقيل: إن في الكلام مضافاً محذوفاً أي أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لاتوجد في غير القرآن من الكتب السماوية ، وهي أنه لايقبل من أحد قول لادليل عليه ، ولا

يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها ، ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها و براهينها ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم و إن لم يعرفوا برهانه ، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون، سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا ، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله (١٢: ١٠٧ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة ، و يستدل على قدرة الله و إرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية، وهي كثيرة جداً في القرآن ، و بالأدلة النظرية والعقليـة كقوله (٢١ : ١٠٨ لو كان فيهما آلهـة إلا الله لفسدتا) وغير ذلك ، و يستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والافضاء إلى المنافع .

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة ، لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به و يدعوه إليه . وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد ، وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد ، حتى كأن الاسلام خرج عن حده ، أو انقلب إلى ضده . وصار الذين يعلمون أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد . و بالمطالبة بالبرهان والدليل ، وعلم الناس استقلال الفكر ، مع المشاورة في الأمر ، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل ، و يعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل . و ياليته كان الأخذ بقال الله، وقيل فيما يروى عن رسول الله، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان (٥٣: ٢٣ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)

قال تعالى رداً عليهم ﴿ بلى ﴾ وهي كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق فهي مبطلة لقولهم (لن يدخل الجنة) الخ ، أي بلى إنه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى ، لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب ، و إنما هي مبذولة

لكل من يطلبها و يعمل لها عملها ، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ إسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده وتخصيص

بالعبادة دون سواه، كما أشار إلى ذلك فى قوله (إياك نعبد و إياك نستعين)وغيرها من الآيات . وقد عبر هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشيء بإسلام الوجه كما عبر عنه بتوجيه الوجه فى قوله تعالى حكاية عن ابراهيم(٦ :٧٩ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعاً لقصده واشتغال القلب به عبر عنه به وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة (وهى القبلة) بأمر الله مذكراً بإقبال القلب على الله الذى لا تحدده الجهات، فالإنسان يتضرع و يسجد لله تعالى بوجهه وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع وظاهر أن المراد من إسلام الوجه لله توحيده بالعبادة والاخلاص له فى العمل ، بأن لا يجعل العبد بينه و بينه وسطاء يقربونه إليه زلفى ، فانه أقرب إليه من حبل الوريد . ومن هنا يفهم معنى الاسلام الذى يكون به المرء مسلماً .

ذكر التوحيد والإيمان الخالص ولم يجعل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى واستحقاق الكرامة فى دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل فقال (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) وتلك سنة القرآن تقرن الايمان بعمل الصالحات كقوله (٤ : ١٢٣، ١٢٤ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) وهذا فى معنى الآيات التى نفسرها. نفى أماني المسلمين كما نفى أمانى أهل الكتاب، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطا بالايمان والعمل الصالح معاً . وكقوله (٢١ :٩٤ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) الآية .

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه إلى الله والمحسن فى عمله الأجر عند الله نفى عنه الخوف الذى يرهق الكافرين والمسيئين فى هذه الدنيا وفى تلك الدار الآخرة والحزن الذى يصيبهم فقال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ولا شك أن المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية، وأساءوا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية .

ترى أصحاب النزغات الوثنية فى خوف دائم مما لا يخيف ، لأنهم يعتقدون

بثبوت السلطة الغيبية القاهرة لكل مايظهر لهم منه عمل لايهتدون إلى سببه ولا يعرفون تأويله ، يستخذون للدجالين والمشعوذين ، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة ، إذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك ، وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض العباد ، وتراهم فى جزع وهلع من حدوث الحوادث ، ونزول الكوارث ، لايصبرون فى البأساء والضراء . ولا ينفقون فى الرخاء والسراء (٧٠ : ١٩ ـ ٢٣ إن الانسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) هذه حال من فقد التوحيد الخالص وحرم من العمل الصالح فى هذه الحياة الدنيا (٤١ : ١٦ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) وإنما كان صاحب النزغات الوثنية فى خوف مما يستقبله ، وحزن مما ينزل به ، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التى يحكمها فى نفسه ، ويجعلها حجابا بينه وبين ربه ، لايمكنه أن يعتمد فى الشدائد عليها ، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها ، وما هو من سلطتها على يقين ، وانما هو من الظانين أو الواهمين

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنه لافاعل إلا الله تعالى وأنه من رحمته قد هدى الانسان إلى السنن الحكيمة التى يجرى عليها فى أفعاله ، فاذا أصابه مايكره بحث فى سببه واجتهد فى تلافيه من السنة التى سنها الله تعالى لذلك ، فان كان أمراً لامرد له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم ، فلا يحار ولا يضطرب لأن سنده قوى عزيز ، والقوة التى يلجأ إليها كبيرة لايعجزها شىء ، فاذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضى الخوف لايكون أثرهما إلا كما يطيف الخاطر بالبال ، ولايلبث أن يعرض له الزوال (١٣ : ٢٨ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكأنه تعالى يقول لأهل الكتاب : لاتغرنكم الأمانى ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الأنبياء ، فهذه هى طريق الجنة ، أسلموا وجوهكم لله تسلموا واعملوا الصالحات تؤجروا ، وقد أفرد الضمير فى قوله (فله أجره) مراعاة للفظ (من) وجمعه فى قول (ولاخوف عليهم) الخ مراعاة لمعناها

بعد أن ذكر تزكية كل فريق من أهل الكتاب نفسه وحكمه بحرمان غير

من رحمة الله كيفما كانت حاله ذكر طعن كل فريق منهما بالآخر خاصة فقال ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ من الدين حقيق يعتد به ، فالشيء فى اللغة هو الموجود المتحقق، والاعتقادات الخيالية التى لاتنطبق على موجود فى الخارج لاتسمى شيئا ، فكفروا بعيسى وهم يتلون التوراة التى تبشر به وتذكر من العلامات ماينطبق عليه ، ولا تزال اليهود إلى اليوم تدعى أن المسيح المبشر به فى التوراة لما يأت وتنتظر ظهوره و إعادته الملك إلى شعب اسرائيل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ من الدين حقيق يعتد به لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم يقول كل فريق منهم مايقول ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أى يتلو كل منهم كتابه فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر ولم يؤمنوا به فهم مخالفون لكتابهم ، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول بلسان المسيح : إنه جاء متمما للناموس موسى ، لاناقضاً له ، وهم قد نقضوه ، فدينهم واحد ، ترك بعضهم أوله و بعضهم آخره فلم يؤمن به كله أحد منهم ، والكتاب الذى يقرؤون حجة عليهم .

ثم قال تعالى ﴿كذلك﴾ أى نحو ذلك السخف والجزاف ﴿قال الذين لايعلمون﴾ من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿مثل قولهم﴾ تعصب كل لملته التى جعلها جنسية وزعم أنها هى المنجية لكل من وسم بها ورضى باسمها ولقبها ، والحق وراء جميع المزاعم لايتقيد باسماء ولا ألقاب ، و إنما هو إيمان خالص وعمل صالح ، ولو اهتدى الناس إلى هذا لما تفرقوا فى الدين واختلفوا فى أصوله ولكنهم تعصبوا وتحزبوا لأهوائهم ، فتفرقوا واختلفوا فى آرائهم ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فإنه هو العليم بما عليه كل فريق من حق و باطل . ولم يبين لنا تعالى هنا بماذا يحكم . وقال بعض المفسرين إنه يكذبهم جميعاً ثم يلقيهم فى النار ، ولكن الذى يدل عليه القرآن أنه يحق الحق و يجعل أهله فى النعيم ، و يبطل الباطل و يلقى بأهله فى الجحيم .

هذا هو معنى الآية . و يروى فى سبب نزولها أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبى ﷺ فقال كل فريق منهم ماقال فى إنكار حقيقة دين

الآخر . قال الأستاذ الإمام : إن فهم الآية لايتوقف على هذه الرواية ، فالآية تحكى لنا اعتقاد كل طائفة بالأخرى سواء قال ذلك من ذكر أو لم يقله . على أن مايروى فى أسباب النزول من مثل ذلك هو من تاريخ الآيات وما فيها من الوقائع ، وما روى فى أسباب النزول عندنا غير كاف فى ذلك ، فلا بد لنا من البحث والاطلاع على تاريخ الملل والأمم التى تكلم عنها القرآن لأجل أن نفهمه تمام الفهم ونعرف مايحكيه عنهم من العقائد والشئون والأعمال، هل كان عامافيهم أو كان فى طائفة منهم وأسند إلى الأمة لما نبهنا عليه مراراً من ارادة تكافلها ومؤاخذة الجميع بما يصدر عن بعض الأفراد لأنهم كلفوا إزالة المنكر والتناهى عنه؟

والعبرة فى الآية أن أهل الكتاب فى تضليل بعضهم بعضاً واعتقاد كل واحد فى الآخر أنه ليس على شىء حقيق من أمر الدين مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود : قد صاروا إلى حال من التهافت واتباع الأهواء لايعتد معها بقول أحد منهم فى نفسه ولا فى غيره ؛ فطعنهم فى النبى ﷺ وإعراضهم عن الايمان به لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق ، بل لا يصلح شبهة على ذلك لأنهم أهل أهواء ، وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء ، فإذا كانت اليهود كفرت بعيسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لإعادة مجدهم وتجديد عزهم ، وإذا كانت النصارى قد رفضت التوراة وكفرت أهلها وهى حجتهم على دينهم ، فكيف يعتد بكفر هؤلاء وهؤلاء بمحمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم ، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم، وهم لايفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم ؟

وفى الآية إرشاد إلى بطلان التقليد مؤيد لما فى الآية التى تطالب المدعى بالبرهان ، وإلى النعى على المقلدين المتعصبين لآرائهم ، المتبعين لأهوائهم، وإلى التحرى فى الحكم على الشىء يعتقد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقده ، فلا ينبغى للعاقل أن يحكم على شىء إلا بعد البحث والتحرى ومعرفة مكان الخطأ والتزييل بينه وبين ماعساه يكون معه صوابا . ألم تر أن سياق الآيات ناطق بإنكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان ، ولا فصل ولا فرقان ، مع

أن كل واحد منهم على شيء من الحق وشيء من الباطل لأن أصل دينه حق ثم طرأت عليه نزعات الوثنية والبدع وعرض له التحريف والتأويل ، فتجرد من كل حق لم يكن إلا تعصباً للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص ، وأنى للمقلدين بذلك ؟ وانظر كيف ألحق التقليدُ أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهى بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئاً ؟ هذا ما فعله التقليد بهم وبمن بعدهم لأنه عدو للعلم فى كل زمان وكل مكان .

---

(١١٤) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٥) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٦) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٧) بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

الكلام فى أهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم ، فقوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ﴾ الآية فيه وجوه (أحدها) أنه يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة وهى دخول تيطس الرومانى بيت المقدس وتخريبها حتى صارت المدينة تلا من التراب، وهدمه هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يبق منه إلا بعض الجدر المدعثرة ، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة ، وكان المسيح عليه السلام قد أوعد اليهود بذلك . وقال بعض المفسرين إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل

قال الأستاذ الإمام : ولا أدرى هل يصح هذا الخبر أم لا فإن قائليه لم يأتوا عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية ، ولكنني أعلم أن المسيحيين على قلتهم وتشتتهم

واستخفافهم من اضطهاد اليهود كانوا قد وصلوا إلى (رومية) وكانوا يودون الايقاع باليهود الذين اضطروهم إلى الخروج من بلادهم انتقاماً منهم وتحقيقاً لوعيد المسيح، وأن الرومانيين — وإن كانوا وثنيين يرون أن اليهود ليسوا على شيء — لم تكن حروبهم دينية وإنما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشغبهم وفتنهم أو للطمع فى بلادهم وذلك لا يقضى بهتك المعبد وإحراق كتب الدين . فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد فى إغارة تيطس ، ولكن لا يجزم به الا إذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر

ومن الغريب: أن ابن جرير الطبرى قال فى تفسيره: إن الآية فى اتحاد المسيحيين مع بختنصر البابلى على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بست مئة وثلاث وثلاثين سنة . ولو لم يكن مؤرخا من أكبر المؤرخين لا لتمس له العذر بحمل قوله على حادثة أدريان الرومانى الذى جاء بعد المسيح بمئة وثلاثين سنة ، و بنى مدينة على أطلال أورشليم وزينها وجعل فيها الحمامات ، و بنى هيكلا للمشترى على أطلال هيكل سليمان ، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة وجعل جزاء من يدخلها القتل ، فلذلك كان اليهود يسمونه بختنصر الثاني لشدة ماقاسوا من ظلمه واضطهاده . ولكن هذا لا يصح أن يكون عذراً للمؤرخ

(الثاني) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) نزل فى منع مشركى العرب النبي وأصحابه من دخول مكة فى قصة عمرة الحديبية، وقالوا إن حادثة الرومانيين كانت قد طال عليها الامد فلامناسبة لارادتها بالآية . واعترض هذا القول بان مشركى العرب ماسعوا فى خراب الكعبة ، بل كانوا عمروها فى الجاهلية وكانوا يعظمونها و يرونها مناط عزهم ومحل شرفهم وفخرهم . وقال (الاستاذ الامام) يصح أن تكون الآية فى الأمرين على التوزيع ، فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة والذين سعوا فى خرابها هم مشركو الرومانيين . و يكون قرن ما عمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيه اسم الله بزيارة النبي وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركى الرومانيين من التخريب من قبيل الاشارة إلى تساوى الفعلين فى القبح

(الثالث) أن الكلام فى أهل الكتاب وأن الآية ليست منبئة بأمر وقع ،

ولكن بأمر سيقع ، وهو ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصدهم إياهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد

(الرابع) وهو مبنى أيضاً على أن الآية منبئة عن أمر سيقع أن المراد بها حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيراً من المساجد . كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب فى طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم إنهم ليسوا على شىء من الدين وطعن النصارى فى اليهود كذلك و بعد قوله فى المشركين الذين لا يعلمون الكتاب انهم قالوا مثل قولهم لم يبق إلا ماسيقع للمسلمين وفى المسلمين فأنبأ الله تعالى بهذه الحادثة من الاخبار بالغيب فوقعت وكانت حادثتهم من أكبر الاحداث فى المسلمين فانهم استولوا على جزء كبير من ممالك الاسلام وهدموا المساجد وعاثوا فى الارض فساداً ولم يكن فى أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد القرامطة فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل

(قال شيخنا) سواء كانت الآية فى حادثة واقعة أو منتظرة أم كانت وعيداً للذين لا يحترمون المعابد على الاطلاق، هى على كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح و بتحريم السعى فى خراب المعابد ، و بالحكم على الذين يصدون الناس عنها و يسعون فى خرابها - أى هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الانكار لان المنع من ذكر الله تعالى وابطال شعائر المعابد التى تذكر به و تشعر القلوب عظمته انتهاك لحرمة الدين يفضى إلى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم فيمسون كالهمل وتفشو فيهم المنكرات والفواحش ، وانتهاك الحرمات ، وهضم الحقوق ، وسفك الدماء . وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر ، ولا ينافى ذلك ماعساه يطرأ على العبادة أو يوجد فى المساجد من الاشياء المبتدعة التى لم يأمر بها الكتاب . فمن علم بهذه البدع فعليه أن ينكرها و يسعى فى إزالتها ولا يجوز له السعى فى إزالة المعابد من الأرض لما فى ذلك من الفساد الذى أشرنا اليه . وهذا هو السر فى حكم الشريعة الاسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب

و بيعهم وصوامعهم وعبادهم واحترام معابد الذين لهم شبهة كتاب أيضا كالمجوس والصابئين ، بل الأستاذ الأمام يعد الصابئين من أهل الكتاب . وأما الوثنيون الخلص الذين اتخذوا من دون الله أولياء و يبنون المساجد لذكر غيره والتقرب إلى سواه فهؤلاء لم يتعرض لذكرهم ولم يتوعد من يمنعهم من سخفهم

(أقول) لكن ذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم مابنى من المساجد والقباب على قبور كثير من الأئمة آل البيت وأئمة الفقه وغيرهم من الصالحين، وارتكبوا فيها المحظورات الكثيرة التي يعد بعضها من الشرك الصريح و بعضها من البدع والمعاصى ، ولاسيما المعاصى التى تفعل تديناً وتقربا وتوسلا إلى الله تعالى كما ترى فى كتاب الزواجر للفقيه ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم وفى كثير من كتب الحنابلة و يحتجون بهدم النبي ﷺ لمسجد الضرار ، و إنما يعنى شيخنا بتعطيل المساجد هنا ابطال التدين والعبادة مطلقا كما يعلم مما يأتى لا ابطال البدع التى شوهت الإسلام

ثم قال تعالى فى شأن المعتدين على المساجد ﴿ أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ أى فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين ؟ ولا ينبغى للعاقل أن يقدم على أمر إلا بعد النظر فيه والعلم بدرجة نفعه أو ضره . وماكانت عبادة الله تعالى إلا نافعة وماكان تركها إلا ضاراً . وما عساه يوجد فى عبادات الأمم من الخرافات الضارة فإنما المكروه منه مافيه مما يبعد عن عبادة الله تعالى و يوقع فى إشراك غيره فيها . على أن العبادة الممزوجة بنزغات الوثنية ، أهون من التعطيل القاضى بالجحود المطلق ، لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله ﴿ لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ فأما خزى الدنيا فهو مايعقبه الظلم من فساد العمران ، المفضى إلى الذل والهوان ، وناهيك بظلم يحل القيود ، ويهدم الحدود ، و يغرى الناس بالفواحش والمنكرات ، و يسهل عليهم سبل الشرور والموبقات ، وهو ظلم ابطال العبادة من المساجد ، والسعى فى خراب المعابد ، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولا فى حكمه ، والفاتح الظالم غير أمين فى فتحه ، و إذا أردت

تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين ، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين ، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين ، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين ، وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين

ثم قال تعالى ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ ذهب المفسر (الجلال) إلى أن المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها لأنهما ناحيتاها ، وقال فى قوله ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أى أى مكان تستقبلونه فى صلاتكم فهناك وجه القبلة التى أمر الله بأن يتوجه إليها . ووجه الأستاذ الإمام هذا بقوله : إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلا شرع للناس مكاناً مخصوصا يستقبلونه فى عبادتهم إياه ، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى . ثم قال :

هذه الآية متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) الخ وأكثر المفسرين على خلاف ماقال الجلال فى تفسير المشرق والمغرب : قالوا إن المراد بهما الجهتان المعلومتان لكل أحد ، ولذلك خصهما بالذكر ، فهو كقوله تعالى (٥٥ : ١٧ رب المشرقين ورب المغربين) وهو يستلزم ماقاله الجلال فان المراد على كل حال : أية جهة استقبلت وتوجهت إليها فى صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى لأن كل الجهات له ﴿ إن الله واسع ﴾ لا يتحدد ولا يحصر فيصح أن يتوجه إليه فى كل مكان ﴿ عليم ﴾ بالمتوجه إليه أينما كان ، أى فاعبد الله حيثما كنت ، وتوجه إليه أينما حللت ، ولا تتقيد بالامكنة فان معبودك غير مقيد . أقول : بل هو فوق كل شىء بائنا منه .

وأزيد على ذلك أن بعض رواة المأثور قالوا إن هذه الآية نزلت قبل الأمر بالتوجه إلى قبلة معينة . وقال آخرون إنها نزلت فى تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، ولكن هذا فيه آيات مفصلة ستأتى فى أول الجزء الثانى من هذه السورة وقال بعضهم إنها نزلت فى صلاة التطوع فى السفر لا يشترط فيها استقبال القبلة . وقال آخرون إنها فيمن يجتهدون فى القبلة فيخطئون فإن صلاتهم صحيحة لأن إيجاب استقبال جهة معينة إنما هو المعنى الاجتماعى فى الصلاة ووحدة الأمة فيها . والتعليل يصح فى كل قول من هذه الأقوال ، فإنه أينما توجه المصلى فى

صلاته الصحيحة فهو متوجه إلى الله تعالى لا يقصد بصلاته غيره وهو تعالى مقبل عليه راض عنه . ومن المعلوم أن أهل الكتاب يلتزمون فى صلاتهم جهة معينة كالتزام النصارى جهة المشرق وأن استقبال المسلمين الكعبة يقتضى أن يصلى أهل كل قطر إلى جهة من الجهات الأربع فهم يصلون إلى جميع الجهات ، ولا ينافى ذلك توجههم إلى الله تعالى والوجه هنا قيل إنه بمعنى الجهة وهو صحيح لغة ، والمعنى : فهناك القبلة التى يرضاها لكم . وقيل إنه على حد (٥٨ : ٧ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) .

ووجه المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها ظاهر على هذا التفسير فان فيها إبطال ما كان عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن العبادة لله تعالى لا يصح أن تكون إلا فى الهيكل والمعبد المخصوص ، وفى إبطال هذا إزالة ما عساه يتوهم من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه من أنه وعيد على إبطال العبادة فى المواضع المخصوصة، لأنه إبطال لها بالمرة، إذ لا تصح إلا فى تلك المواضع، فهذه الآية تنفى ذلك التوهم من حيث تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهى أن الله تعالى لا تحده الجهات ، ولا تحصره الأمكنة ، ولا يتقرب إليه بالبقاع والمعاهد ، ولا تنحصر عبادته فى الهياكل والمساجد ، وإنما ذلك الوعيد لانتهاك حرمات الله وإبطال نوع من أنواع عبادته ، وهو العبادة الاجتماعية التى يجتمع لها الناس فى أشرف المعاهد على خير الأعمال التى تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم

وهذا الضرب من البيان مما امتاز به القرآن على سائر الكلام ، فانك لترى فيه فنونا من الاستدراك والاحتراس قد جاءت فى خلال القصص وسياق الأحكام تقرأ الآية فى حكم من الأحكام ، أو عظة من المواعظ ، أو واقعة تاريخية فيها عبرة من العبر ، فتراها مستقلة بالبيان ، ولكنها باتصالها بما قبلها قد أزالت وهما أو تممت حكما ، وكان ينبغى لأهل العربية أن يقتبسوا هذه الضروب من البيان، ويتوسعوا بها فى أساليب الكلام ، فان القرآن قد أطلق لهم اللغة من عقالها ، وعلمهم من الأساليب الرفيعة ما كانت تستحليه أذواقهم ، وتنفعل له قلوبهم ، وتهتز له نفوسهم ، وتتحرك به أريحيتهم، ولكنهم لم يوفقوا لاقتباس هذه الأساليب

الجديدة ، على أن ملكتهم فى حسن البيان ، قد ارتفعت بعد نزول القرآن .

(قال الأستاذ الامام) وسنعطى هذا الموضوع حقه من البيان فى موضع تكون مناسبته أقوى من هذه المناسبة

ثم عاد الكتاب إلى النسق السابق فى تعداد مخازى أهل الكتاب والمشركين بعد ما ذكر من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين أنه يعبد فى كل مكان، فقال جل وعز ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ فهذا عطف على قوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقوله (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء) الخ ويصح أن ينسب هذا إلى اليهود والنصارى والذين لا يعلمون جميعا ، وإلى فرقة واحدة منهم . ووجه العموم أن الله تعالى أخبرنا فى مواضع من كتابه بأن اليهود قالت : عزير ابن الله : وأن النصارى قالت : المسيح ابن الله : وأن المشركين قالوا : إن الملائكة بنات الله . ولا فرق فى الأحكام التى تستند إلى الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فان مثل هذا الإسناد منبىء بتكافل الأمم كما تقدم غير مرة . وقد نقل أن كلمة : عزير ابن الله : قالها بعض اليهود لا كلهم، وكذلك اعتقاد كون الملائكة بنات الله لم يكن عاما فى مشركى العرب ، وإنما عرف عن بعضهم . ثم رد على مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿ سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ نزه تعالى نفسه بكلمة (سبحانه) التى تفيد التنزيه ، مع التعجب مما ينافيه ، كأن الذى يعرفه تعالى لا ينبغى أن يصدر عنه مثل هذا القول الذى يشعر بأن له تعالى جنساً يماثله ، فان قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى وإنما يكون زاعما فيه المزاعم وظانا فيه الظنون : أى تنزيها له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء الجاهلون الظانون بالله غير الحق ، فانه لا جنس له فيكون له ولد منه ؛ وهذا الولد الذى نسبوه اليه تعالى لابد أن يكون من العالم العلوى وهو السماء ، أو من العالم السفلى وهو الأرض ، ولا يصلح شىء منهما أن يكون مجانساً له عز وجل ، لأن جميع ما فى السموات والأرض ملك له ، قانت لعزته وجلاله ، أى خاضع لقهره مسخر لمشيئته، فاذا كانوا سواء فى كونهم مسخرين له بفطرتهم ، منقادين لإرادته

بطبيعتهم واستعدادهم ، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب اليه وجعله ولداً مجانساً له (١٩: ٩٣ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) نعم إن له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحى ولكن هذا التخصيص لا يرتقى بالمخلوق إلى مرتبة الخالق ، ولا يعرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب، وإنما يودع سبحانه فى فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه (٢٠: ٥٠ أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة ، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلا من التفاوت بين المسيح و بين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله

وقد غلب فى الملكية ما لا يعقل فقال (له ما فى السموات) الخ لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعى الذى لا يشترط فيه الاختيار، لا التسخير الشرعى المعبر عنه بالتكليف الذى يفعله الكاسب باختياره ، و يستوى فى التسخير الطبيعى العاقل وغيره، ولكنه فى غير العاقل أظهر . ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقلاء لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذى يشعر بموجبه و يفعله باختياره ، و إن كان لغير العاقل قنوت يليق به. وجملة القول : أن الآية ناطقة بأن ما فى السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره ، فقد حكم على الجميع بالملكية و بالقنوت الذى يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة ، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التى تستعمل غالباً فى غير العاقل وهى كلمة (ما) لأن المعهود فى ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل ، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لأنه من أعمالهم، ومما يعهد منهم و يسند إليهم لغة وعرفا . وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه ، وأعلى البيان وأشرفه

ثم زاد هذين الحكمين بياناً وتأكيداً فقال ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ قال المفسرون ، إن البديع بمعنى المبدع فهو مشتق من الرباعى «أبدع» واستشهدوا ببيت من كلام عمرو بن معدى كرب جاء فيه (سميع) بمعنى مسمع ، وقالوا قد تعاقب

فعيل ومفعل فى حروف كثيرة ، كحكيم ومحكم وقعيد ومقعد وسخين ومسخن .
وقالوا إن الابداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق وهو لا يقتضى سبق المادة ، وأما الخلق فمعناه التقدير وهو يقتضى شيئاً موجوداً يقع فيه التقدير .
و إذا كان هو المبدع للسموات والأرض والمخترع لها والموجد لجميع مافيهما فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما على أنه جنس له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا
وكان الأصمعى ينكر فعيلا بمعنى مفعل لأن القياس بناؤه من الثلاثى ويقول إن بديعا صفة مشبهة بمعنى لا نظير له ، و بديع السموات معناه البديعة سمواته وفى هذا ترك للقياس الذى قضى فى الصفة المشبهة التى تضاف إلى الفاعل أن تكون متضمنة ضميرا يعود على الموصوف ، والحق أن تحكيم القياس فيما ثبت من كلام العرب تحكيم جائر ، فما كان للدخيل فى القوم أن يعمد إلى طائفة من كلامهم فيضع لها قانوناً يبطل به كلاما آخر ثبت عنهم ويعده خارجاً عن لغتهم بعد ثبوت نطقهم به . فاذا كان كل واحد من الوجهين صحيح المعنى ، حكمنا بصحة كل منهما ، والأول أظهر ، وشواهده المسموعة أكثر

وأما قوله ﴿ و إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ﴾ فمعناه أنه إذا أراد إيجاد أمر و إحداثه فانما يأمره أن يكون موجوداً فيكون موجوداً ، فكن و يكون من كان التامة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا ضرب من التمثيل أى أن تعلق إرادته تعالى بإيجاد الشيء يعقبه وجوده ، كأمر يصدر فيعقبه الامتثال ، فليس بعد الارادة إلا حصول المراد . وقال بعضهم بل هو قول حقيقى . قال الأستاذ الامام وقد وقع هذا الخلاف من أهل السنة وغيرهم وعجيب وقوعه منهم ، فان عندهم مذهبين فى المتشابهات التى يستحيل حملها على ظاهرها وهما مذهب السلف فى التفويض ، ومذهب الخلف فى التأويل ، وظاهر أن هذا من المتشابه ، والقاعدة فى تأويل مثله معروفة ومتفق عليها وهى إرجاع النقلى إلى العقلى لأنه الأصل ، وههنا يقولون : إن الأمر بمعنى تعلق الارادة وأن معنى (يكون) يوجد

وأقول : إن الأمر بكلمة كن هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين ، ويقابله أمر التكليف ، فالأول متعلق صفة الإرادة ، والثانى متعلق صفة الكلام ،

وأمر التكليف يخاطب به العاقل فيسمى المكلف ، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعدوم ، وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود ، إذ المراد به جعله موجوداً ، وانما يوجه إليه لأنه معلوم فالله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده وأنه سيوجد فى وقت كذا . فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما فى علمه فيوجد. وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه الأمر القدرى الكونى ، ويسمى مقابله الأمر الشرعى .

قرأ الجمهور (يكون) فى كل موضع بضم النون على تقديرفهو يكون كما أراد وقرأه ابن عامر بفتحها فى كل موضع إلا فى آل عمران والانعام بناء على أن جواب الامر بالفاء يكون منصوبا

ذلك شأنه تعالى فى الايجاد والتكوين وهو أغمض أسرار الالوهية فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول وذلك مالا مطمع فيه . وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذى يقربه من الفهم ، بما لا يتشعب فيه الوهم ، ولا يوجد فى الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير : يقول للشيء «كن» فيكون، فالتوالد محال فى جانبه تعالى لأن ما يعهد فى حدوث بعض الأشياء وتولدها من بعض فهو لا يعدو طريقين ـ الاستمداد القهرى الذى لامجال للاختيار فيه كحدوث الحرارة من النور وتولد العفونة من الماء يتحد بغيره ، والسعى الاختيارى كتولد الناس بالازدواج الذى يساقون إليه مع اختياره والقصد اليه . وإذا كان كل واحد من الأمرين محالا على الله تعالى وكان تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهى بأسرها ملكه ومسخرة لارادته فلا معنى لاضافة الولد اليه (٣٧: ١٨٠-١٨٢ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين)

---

(١١٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٩) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ (١٢٠) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ

قلنا إن السياق قد انتقل من الكلام فى بنى إسرائيل تجاه القرآن ودعوة الإسلام ورسوله إلى الكلام فى شئون المؤمنين معهم ومع النصارى والوثنيين . وشيخنا لا يزال يجمل السياق واحداً غير ملتفت فى التناسب بين الآيات إلى هذا التفصيل لذلك المجمل ، وقد قال هنا ما مثاله :

الكلام لا يزال فى القرآن ، وما كان من أمر الناس فى الايمان به وعدم الايمان ذكر فى الآيات المتقدمة آنفاً من شأن أهل الكتاب ماتبين به أن عدم إيمانهم بالنبى وما جاء به غير قادح فيه ، ولا ينهض شبهة عليه ، وأن مطاعنهم فيه متهافتة منقوضة بطعنهم فى أنفسهم ، وتخبطهم فى أمر كتبهم ، ثم انتقل إلى ذكر شبهة مشركى العرب وبين أنهم جروا فيها على الأصل المعهود من أمثالهم المشركين الذين سبقوهم بالضلال فقال ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ أى الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركى العرب . وقال الجلال إن المراد بالذين لا يعلمون كفار مكة خاصة ولا دليل على التخصيص ويرجح العموم كون الآية مدنية ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ كما كلم هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ من الآيات التى اقترحناها ، يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الآيات ﴿ كذلك قال الذين خلوا من قبلهم مثل قولهم ﴾ أى مثل هذا القول قال الكفار الذين أرسل الله اليهم الرسل من قبلهم فى معناه وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحى من دونهم واقترحوا عليهم الآيات تعنتاً وعناداً ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم تواصوا بما يقولون كما قال فى سورة الطور (أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون) ويشبه هذا ما ورد من أن الكفر ملة واحدة وذلك أن الحق واحد ومخالفته هى الباطل أو الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه . وآثار الشىء الواحد الكلى تتشابه فيمن تصدر عنهم وإن اختلفت الجزئيات. والتشابه

هنا إنما هو فى مكابرالحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى إليه واقتراح الآيات تعنتاً وعناداً

ومثال الأخلاف فى الجزئيات طلب قوم موسى رؤية الله جهرة ، وطلب قوم محمد أن يرقى فى السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرأونه . والطلب الذى مصدره العناد والتعنت لاتفيد إجابته لأن صاحبه لا يقصد به معرفة الحق ولذلك قال تعالى[1] (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) والدليل المعقول على هذا أنه مامن نبى إلا وقد جاء بآية أو آيات كونية أو عقلية وكانوا مع ذلك يصفونهم بالسحر ثم يقترحون عليهم الآيات ولذلك قال تعالى بعد حكاية شبهة هؤلاء الجاهلين ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أى أننا لم ندعك يامحمد بغير آية بل بينا الآيات على يديك بياناً لايدع للريب طريقاً إلى نفس من يعقلها. وقد قال (بينا الايات)ولم يقل أعطيناك الآيات للتفرقة والفصل بين آيات القرآن التى هى من علم الله وكلامه يظهر بها الحق بطريق معقول بين لايشتبه فيه الفهم ، ولا يحار فيه الذهن ، و بين الايات الكونية التى هى من صنعه يستخذى لها العقل و يخضع لها لشعوره بأنها من قوة فوق قوته . وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان : منهم من يسنده إلى القوة الغيبية العليا سواء كان له سبب خفى فى الواقع أم لا ومنهم من يسنده إلى الأسباب الخفية التى يسمونها السحر ، و إن كان فوق قدرة البشر ، ولذلك ضلت الأمم فى آيات الأنبياء السابقين وليس لأحد أن يضل فى آيات القرآن لأنها بينة معقولة ولذلك قال (ذلك الكتاب لاريب فيه)

نعم إن الايات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين .ولذلك قال (لقوم يوقنون) قال الأستاذ الإمام . الذين يوقنون هم الذين خلصت نفوسهم من كل رأى وتقليد وتوجهوا إلى طلب الحق فى الأمور الاعتقادية ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله و برهانه ، فهم إذا قام عندهم البرهان اعتقدوا

(١)راجع تفسيره فى سورة الأنعام من الجزء السابع

وأيقنوا إيقاناً، و إنما يتوقع اليقين من مثلهم لا من قوم يعتقدون الشيء أولا بلا دليل ولا برهان، ثم يلتمسون له الدليل لأن مقلديهم قالوا بوجوب معرفة الدليل فإذا أصابوه موافقاً لما اعتقدوا رضوا به و إن كان ظنياً، و إذا نهض لهم مخالفاً لتقاليدهم رفضوه وتعللوا بالتعلات المنتحلة، وهؤلاء هم الجماهير من الناس الذين وصفوا في الأثر بأنهم أتباع كل ناعق: والعبرة في خطاب الشرع بأهل اليقين الذين صفت نفوسهم، ومحصت أفكارهم، فسلموا من علة العناد والمكابرة المانعين لشعاع الحق أن ينفذ إلى العقول، ولحرارته أن تخترق الصدور إلى القلوب، هؤلاء هم أنصار الحق لأنهم بيقينهم لا يستطيعون المروق منه، ولا السكوت عن الانتصار له، ألم تر أن كبار الصحابة كانوا يراجعون النبي ﷺ فيما لم يظهر لهم دليله لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالدليل. هؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع لأجلهم، ولولا استعدادهم لها لما شرعت أولما نجحت[1] وأما سائر الناس فتبع لهم وعيال عليهم

ثم قال تعالى ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق الذي لا يضل من يأخذ به ولا تعبث به رياح الأباطيل والأوهام، بل يكون الآخذ به سعيدا بالطمأنينة واليقين. قال الأستاذ الإمام إن الحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغيرها فهو يقول: إنا أرسلناك بالعقائد الحق المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿ بشيرا ﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿ ونذيراً ﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة ﴿ ولا تسئل عن أصحاب الجحيم ﴾ أي فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم لأنك لم تبعث ملزما لهم ولا جباراً عليهم فيعد عدم إيمانهم تقصيراً منك تسئل عنه، بل بعثت معلماً وهاديا بالبيان والدعوة، وحسن الأسوة، لا هاديا بالفعل ولا ملزما بالقوة، (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) وفي الآية تسلية للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى

(١) راجع مقالة «الاصلاح والاسعاد على قدر الاستعداد» في مجلد المنار الرابع.

وفى الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لامسيطرين ، ولا متصرفين فى الأنفس ولامكرهين ، فاذا جاهدوا فانما يجاهدون دفاعا عن الحق لا إكراها عليه وفيها أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذى يهديهم إلى معرفة حقوق الله وحقوق العباد وفى قراءة نافع و يعقوب (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) بالنهى ، بالنهى أى لا تسأل عما سيلاقون من الانتقام فانه عظيم ، فمثل هذا النهى مستعمل فى التهويل لا فى حقيقته وهو استعمال معروف بين الناس حتى اليوم

وزعم بعض المفسرين أن النهى على حقيقته وأنه خاص بنهى النبى ﷺ عن السؤال عن أبويه ورووا فى ذلك أنه سأل جبريل عن قبريهما فدله عليهما فزارهما ودعا لهما وتمنى لو يعرف حالهما فى الآخرة وقال «ليت شعرى مافعل أبواى» فنزلت الآية فى ذلك . والحديث قال الحافظ العراقى إنه لم يقف عليه ، وقال السيوطى لم يرد فى ذلك إلا أثر معضل ضعيف الإسناد . قال الأستاذ الإمام وقد فشا هذا القول ولولا ذلك لم نذكره ، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو فى المسلمين بضعف العلم والصحيح يهجر وينسى . ولاشك أن مقام النبى عليه الصلاة والسلام فى معرفة أسرار الدين ، وحكم الله فى الأولين والآخرين ، ينافى صدور مثل هذا السؤال عنه ، كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه .

ثم قال عز وجل ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ فعاد إلى ذكر أهل الكتاب على ماعهدنا فى أساليب القرآن من ضروب الانتقال بالمناسبات الدقيقة . وقد قال الأستاذ الامام غير مرة إن القرآن لم يأت على طريقة المنشئين والمؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها فصلا أو بابا ، ولكن للقرآن أغراضاً يبرزها بصور مختلفة ، فكلما لاحت المناسبة لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه ، جاء به يجذب إليه الأذهان ، ويسارق به خطرات القلوب ، مع مراعاة التناسق ، وحفظ الأسلوب البليغ ، لهذا يتكرر فيه المعنى الواحد بعبارات متعددة ، ويتجلى الروح الواحد فى أشكال متنوعة فلم يذكر ههنا المشركين إلا لما بينهم وبين أهل الكتاب من التناسب والتقارب فى المجاحدة والمعاندة ، فكان ذكرهم من متممات الحجة على أهل الكتاب من حيث

أدى غرضاً مقصوداً فى ذاته . ولما كان ذكرهم فى عرض الكلام كالجملة الاعتراضية كان الرجوع إلى سرد شؤون أهل الكتاب مع النبي عليه السلام رجوعا إلى أصل الموضوع

وقال فى معنى الآية : من شأن الانسان أن يتألم من القبيح أشد التألم إذا وقع ممن لا يتوقع منه فكان النبي عليه الصلاة والسلام يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الايمان به وأن لا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد ، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته ، و إسرافهم فى مجاحدته أشد مما رأى من مشركى العرب الذين جاء لمحو دينهم من الأرض ، مع موافقته لأهل الكتاب فى أصل دينهم ومقصده من توحيد الله تعالى والاخلاص له وتقويم عوج الفطرة الانسانية الذى طرأ عليها بسبب التقاليد ، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الانسان من الارتقاء العقلى والأدبى ، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى (٣:٦٣ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم) الآية وغيرها من الآيات . ولقد كان من الصعب لولا إعلام الله تعالى أن تعرف درجة فتك التقليد بعقول أهل الكتاب و إفساد الأهواء لقلوبهم ، لذلك سلى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم و إيذائهم بآيات كثيرة عرفه فيها حقيقة حالهم ، منها هذه الآية الناطقة بأن كلا من اليهود والنصارى على اتحادهم فى أصل الدين قد تعصب لتقاليده واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شىء إلا الدخول فيها وقبول لقبها فقوله تعالى (حتى تتبع ملتهم) مراد به ماهم عليه من التقاليد والأهواء التى غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم فى الآيات السابقة .

ثم أمره تعالى فى مقابلة ذلك بقوله ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أى اجهر بقول الحق وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذى أنزله على أنبيائه دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بآرائهم وأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعا كل شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شىء ، أى فإن أردت استرضاءهم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ، ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ التى أضافوها على كتبهم ، وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم ، ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾

اليقين ، بالوحى الالهى المبين ، الذى بين ما كان منهم من تحويل القول عن معناه بالتأويل ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ﴿ مالك من الله ولى ولا نصير ﴾ أى فانك لن تنجح ولن تصل إلى حقك بمجاراتهم على باطلهم ، لأن الله لا ينصرك على ذلك إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى، طريقا إلى الهدى ، والضال لا يرضيه إلا موافقته على ضلاله ، ومجاراته على فساده ، وإذا لم يكن الله هو الذى يتولى شئونك وينصرك بمعونته فمن ذا الذى ينصرك ويتولاك من بعده؟

(أقول) ومفهوم هذا المصرح به فى آيات أخرى أن ثباته على هدى الله المؤيد بالعلم هو الذى يكون سببا لتوليه تعالى له ونصره إياه عليهم . ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضى الوقوع فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ وإنما هو فرض فرض لبيان مضمونه الذى ذكرنا ، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعى الهدى على علم صحيح وأنهم هم الغالبون المنصورون : وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمثل فى كل تنازع بينه وبين مادونه .

(الأستاذ الامام) من تدبر هذا الانذار الشديد الموجه من الله تعالى إلى نبى الرحمة ، المؤيد منه بالكرامة والعصمة ، علم أن المراد به الوعيد والتشديد على الأمة ، على حد « إياك أعنى واسمعى ياجاره » فان الله تعالى يخاطب الناس كافة فى شخص النبى ﷺ كما جرى عرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء فقد يقال للملك : إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا : والمراد إذا فعلته دولتك أو أمتك وقد تقدم غير مرة إسناد عمل بعض الأفراد إلى الأمة كلها ولكن قوله (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم) وهو يعلم جل شأنه أنه لا يتبع أهواءهم فى حال من الأحوال ، وقد عصمه من الزيغ والضلال ، إنما جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتى بعده ممن يتبع سنته ويأخذ بهديه . فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدع بالحق والانتصار له ، وعدم المبالاة بمن يخالفه . مهما قوى حزبهم ، واشتد أمرهم ، وإنه لتهديد ترتعد منه فرائص الذين يخشون ربهم، ولا سيما إذا أنسوا من أنفسهم ضعفا فى الحق كأن تركوا الجهر به أو الدفاع عنه خوفا من إنكار العامة عليهم ، ولغط الناس بهم ، فمن عرف الحق وعرف

أن الله تعالى ولى أهله وناصرهم ، لايخاف فى تأييده لومة لائم ، ولا يغترن أحـد بمن يسميهم الناس علماء وعارفين فى سكوتهم عن الحق ، ومجاراتهم لأهل الباطل فإنهم ليسوا على شيء من العلم الحقيقى ? وإن هى إلا كلمات يتلقفونها ، وعادات يتقلدونها ، لاحجة للأحياء فيها ، سوى قولهم إن الميتين درجوا عليهـا (قال) « وليس هذا هو العلم الذى جاء به النبي ﷺ و إنما هو شيء كان يلقب بالعلم عند الضالين من أهل الكتاب والمشركين كذلك ، وقد نفى عنه كونه علما على الحقيقة بمثل قوله (إن يتبعون إلا الظن) و بقوله (لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) فمن أخذ بقول القائلين ، واتبع ماوجد عليه السابقين ، بدون بينة يعرف بها وجه الحق من ذلك ــ وكتاب الله بين يديه لاينظر فيه ولا يرجع إليه فقد اتبع الهوى بعد الذى جاء من العلم إلى النبى ﷺ وباء بالخزى فى الدنيـا و بالنكال فى الآخرة ولم يكن ولن يكون له من الله ولى ولا نصير ، اللهم أعنا على الجهر بالحق بعد ماعرفناه ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا :

---

(١٢١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ (١٢٢) يَـٰبَنِى إِسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ (١٢٣) وَاتَّقُوا يَوْماً لَاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

الصلة بين قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) الآية و بين ماقبلها واضحة جلية وهى أن هذه جاءت فى موضع الاستدراك على ما سبقها من إيئـاس النبي والمؤمنين من أهل الـكتاب . فقد علمنا أن آية (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى) قد سلت ماكان يخالج النفوس من الرجاء بإيمان أهل الكتاب كلهم ، وهذه الآية تنطق بأن منهم من يرجى إيمانه وهم الذين وصفهم بما هو علة الرجاء ومناط

الأمل وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته ، وعدم الجمود على الظواهر والتقاليد ، والاكتفاء بالأماني والظنون ، كأنه يقول إن كانت نفسك تحدثك بأن أهل الكتاب أقرب إلى الإيمان بما جئت به لأنه يشبه ماعندهم ويصدق أنبياءهم وأصول شرائعهم من حيث يقتلع جذور دين الوثنيين ويمحوه محوا فيكون الوثنيون أجدر من أهل الكتاب بمعاندتك ومجاحدتك ـ فاعلم أن هؤلاء قد ألحقوا بدينهم من التقاليد والمخترعات ، وألصقوا به من البدع والعادات ، ما غرهم فى دينهم بغير فهم ، وجعلهم يتعصبون له بغير عقل ، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الإيمان من أولئك الذين يعبدون الأوثان ، وذلك أنهم اتخذوا الدين جنسية فليس لهم منه إلا الجمود على عادات صارت مميزة للمنتسبين إليه ، ولكن لايزال فيهم نفر يرجى منهم تدبر الشيء والتمييز بين الحق والباطل وهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ أى يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه ، وفائدة نوط التكليف به ، لايتقيدون فى ذلك بآراء من سبقهم فيه، ولا بتحريفهم كلمه عن مواضعه ﴿ أولئك ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقى فى الدين ، وإقامة قواعده على الأساس المتين ؛ و ﴿ يؤمنون به ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذى يزيل ما بينهم من الخلاف ويهديهم إلى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة ﴿ ومن يكفر به ﴾ من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الاكثرون ، ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ لهذه السعادة ، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة ، سواء كان كفرهم بتحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية ، أم بإهماله اكتفاء بقول علمائهم . ويجوز أن يكون الضمير فى قوله (به) للهدى الذى ذكر فى الآيات السابقة .

(الاستاذ الامام) عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى أن ذلك هو المقصود من التلاوة التى يشترك فيها أهل الاهواء والبدع مع أهل العلم والفهم . والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفى رضاهم عن النبى ﷺ نفياً مؤكداً لاحظ لهم من الكتاب إلا مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالالفاظ ؛ لايعقلون عقائده ، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه ، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه ؛ لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء والاكتفاء بما يقولون ، فلا عجب إذا أعرضوا عما جاء به

النبى ولا ضرر فى إعراضهم . وأما الآخرون فانهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين ، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين ، يعقلون ان ماجاء به هو الحق الذى يتفق مع مصلحة البشر فى ترقية أرواحهم ، وفى نظام معايشهم ، فيؤمنون به وانما ينتفع بايمان أمثالهم

وجملة القول أن هذا التعبير أفاد حكما جديداً و إرشاداً عظيما وهو أن الذى يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً فلاحظ له من الايمان بالكتاب لأنه لايفهم أسراره ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الألفاظ لاتفيد الهداية وإن كان القارىء يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها[1] لأن هذا الفهم من قبيل التصور ، وما التصور إلا خيال يلوح ويتراءى ، ثم يغيب و يتناءى، وانما الفهم فهم التصديق والإذعان ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشداً ملاحظاً أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيهتدى و يرشد ، والمقلدون محرومون من هذا فلا يخطر لهم ببال انهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله تعالى وانما الهداية عندهم محصورة فى كلام رؤسائهم الدينيين ، ولا سيما إذا كانوا ميتين .

و إذا كنا نعتبر بما قص الله تعالى علينا من خبر أهل الكتاب، كما قال (لقد

---

(١) يؤيد هذا ماذكره الامام الغزالى فى بحث التخلى عن موانع فهم القرآن عند التلاوة وهو أن حجب الفهم أربعة (أولها) أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عز وجل » . (ثانيها) أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول اليه ببصيرة و مشاهدة، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفا على مسموعه، فان لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التى تخالف مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله، ولمثل هذا قالت الصوفية . ان العلم حجاب . وارادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها اكثر الناس بمجرد التقليد او بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها اليهم » اه المراد منه بنصه (راجع الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن فى الاحياء)

كان فى قصصهم عبرة لأولى الباب) فإننا نعرف حكم أهل القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والإنجيل كما نعرفه من مثل قوله عز وجل (٤٧: ٢٣ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقوله (٣٨: ٢٨ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فكل هذه الآيات والعبر لم تحل دون اتباع هذه الأمة سنن من قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما أنبئت للتحذير ، والقرآن حجة عليها كما ورد فى الحديث «والقرآن حجة لك أو عليك» [1] ولا شك أن من يتلو ألفاظ القرآن وهو معرض عن هدايته غير معتبر بوعده ووعيده فهو كالمستهزىء به.

سأل سائل من المقلدين حاضرى الدرس بأن العلماء قالوا : إن القرآن يتعبد بتلاوته. فقال الأستاذ الإمام: نعم ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك وكيف يقولون ذلك والله الذى أنزله يقول إنه أنزله (ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فالقرآن وكذلك السنة يصرحان فى مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه وجعل معناه أو من معناه أن الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكر . وقد جاء من الأحاديث مايصف حال قوم يأتون بعد « يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم » وقد سماهم شرار الخلق ، فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغانى والمطربات ، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين ، ثم هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله فى قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين* أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وضرب الأستاذ مثلا رجلا يرسل كتاباً إلى آخر فيقرأه المرسل إليه هذرمة أو يترنم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكلف نفسه إجابة ماطلب فيه ثم يسأل الرسول أو غيره : ماذا قال صاحب الكتاب فيه وماذا يريد منه ؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به؟ فالمثل ظاهر وإن كان الحق لايقاس على الخلق ، فإن الكتاب لايرسل لأجل ورقه ، ولا لأجل نقوشه

(١) جملة من حديث رواه مسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا

ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به [1]

(الأستاذ الإمام) إن الاستهداء بالقرآن ، واجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان ، فعلى كل قارىء أن يتلو القرآن بالتدبر وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به ، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية فإنه يفهم من القرآن ما يهتدى به ، ومن كان أمياً أو عجمياً فإنه ينبغى له أن يسأل القارئين أن يقرأوا له القرآن و يفهموه معناه ، وقد تقدم التنبيه على هذا فى مقدمة تفسير سورة الفاتحة . بل قال الأستاذ فى هذا المقام: إننى أعتقد أنه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن أو يسمعه كله ولو مرة واحدة فى عمره ، ومن فوائد ذلك أن يأمن من إنكار شىء منه إذا عرض عليه أو سمعه مع التشكيك فيه .

أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان فقال ﴿يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ وقد سبق التذكير بهذه النعمة فى أول المحاجة ثم أعيدهنا للمناسبة الظاهرة ، وهى أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به ، وذكرهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفاراً . فاذا كان ابتدأ العظة والدعوة بذكر هذا التفضيل لتتوجه إليها الأنظار و تصغى إليها الأسماع كما تقدم فى تفسير الآية الأولى (٤٧) فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانيا بعد

(١) سبق الامام الغزالى إلى مثل هذا المثل فذكره فى الاحياء غير مرة وهذه عبارة له فيه قال « مثال العاصى إذا قرأ القرآن وكرره مثل من يكرر كتاب الملك فى كل يوم مرات وقد كتب اليه فى عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء والمقت » اهـ من الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن . ونقول : إن الاحاديث التى وردت فى الترغيب بالتلاوة من غير ذكر التدبر تحمل على اعتبار التدبر المعلوم من الآيات والاحاديث الأخرى . على أن حفظ ألفاظ القرآن مقصود لينقل بالتواتر ولا ينافى هذا كونه حجة على القارىء الذى لا يهتدى ولا يعتبر به كما فى الحديث الصحيح

التوبيخ والتقريع ، لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذى يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما فى الآية التالية ، وليس هـذا من التكرار الذى يتحاماه البلغاء و إنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه. كأن هذه الآية تمهيد لما بعدها وهو فذلكة القصة ، والمقصود من إقامة الحجة

ذلك قوله تعالى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الاعراض عن فهم كتاب الله بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه و يتدبرونه ، و إنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا ، فانه يوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئا . و يؤيد الآية حديث الصحيحين « يافاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » الخ و إذا كان لا يجزى فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه فلا تنفعكم شفاعتهم أيضا ، كأنه لا يقبل منكم عدل ولا فداء تفتدون به وتجعلونه معادلا لما فرطتم فيه

كما قال ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ وكانوا يعتقـدون بالمكفرات تؤخذ عدلا عما فرطوا فيه و بشفاعة أنبيائهم فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر ثم قطع حبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أى إنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرهما .

وقد تقدم فى تفسير الآيات الأولى مايغنى عن الإطالة هنا وليس فى هذه زيادة فى المعنى إلا أن التعبير قد اختلف تفننا ، ففى الآية الأولى تقدم ذكر الشفاعة منفية القبول ، وتأخر ذكر العدل غير مأخوذ ، وفى هذه الآية نفى قبول العدل أولا ثم نفى نفع الشفاعة ثانياً . وكأنه يشير بهذا التفنن إلى أنه لا فرق بين الفداء والشفاعة فى الجواز والمنع فمن منع العوض فى الآخر لزمه منع الشفاعة فان جوزها جوزه

---

(١٢٤) وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى . قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ

أقول : بعد أن أقام الله الحجة على أهل الكتاب وبين شؤونهم فى الكفر

بالنبي الذى كانوا ينتظرونه لبشارة رسلهم به وشؤونهم فى التلاعب بدينهم وشؤونهم مع المؤمنين — بين فى هذه الآيات ومابعدها ما يستند إليه الاسلام ونبي الاسلام من أصل ونسب يجله أهل الكتاب والعرب جميعاً وهو ملة إبراهيم ونسبه ، فهو فى هذا السياق يبين لأهل الكتاب ولا سيما اليهود المحتكرين للوحى فى قومهم والمفضلين لأنفسهم على العرب بنسبهم أن هذا لو كان حجة لما قامت هذه الحجة على محمد ﷺ وقومه ، إذ الملة فى الأصل واحدة والنسب واحد ولكنهم كفروا النعمتين بماتقدم ذكره من أعمالهم فجاء النبى الموعود به لإصلاح حالهم وحال غيرهم وسيأتى قوله تعالى فى هذا السياق (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وجرى شيخنا فى الدرس على طيته فى التناسب بين هذا السياق وما قبله فقال ما مثاله:

كان الكلام فى أول السورة إلى هذه الآية بأسلوب واحد فى سياق واحد : ذكر حقية الكتاب وكونه من نصوع البرهان بحيث يدفع ريب المرتابين أن يدنو منه أو يتسامى إليه ، ثم ذكر أصناف الناس فى أمر الإيمان به وعدم الإيمان به وأطال الحجاج والمناظرة فى خطاب أهل الكتاب خاصة لما تقدم من أنهم كانوا موضع الرجاء فى المبادرة إلى الإيمان بالنبى وما جاء به لأنه وافقهم فى أصل الدين وصدق أنبياءهم ، وكتبهم وذكرهم بما نسوا ، وعلمهم ماجهلوا ، وأصلح لهم ماحرفوا وزادهم معرفة بأسرار الدين وحكمته ، كما أنهم كانوا فى موضع الشبهة عند المشركين والمنافقين بما كفروا ، وفى موضع الحجة عليهم بما آمنوا ، قال تعالى فى الاحتجاج على المشركين(٢٦:١٩٧ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) وقدجاءت محاجة أهل الكتاب على طريقة الإطناب لما كانوا عليه من جمود القرائح والبعد عن البلاغة كما حكى عنهم أنهم قالوا « قلوبنا غلف » ومن فساد الأذهان بالتعود على التأويل والتحريف ، فكان يبدأ لهم المعنى ويعاد ، ويساق إليهم القول بطرق بينة ، ويؤكد بضروب من التأكيد ، تبعد به عن قبول التأويل والتحويل ، وكان مما حجوا به التذكير بحال سلفهم الأنبياء وبحالهم معهم من عصيانهم وإيذائهم بل قتلهم فى عهدهم ، والغرور بانتظار شفاعتهم والاستغناء بها من بعدهم

ثم إن الكلام فى هذه الآية « وإذ ابتلى ابراهيم ربه » وما بعدها موجه إلى

مشركي العرب ، ووجه الاتصال بينها و بين ماقبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح ، وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركي قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح ، فانهم ينتسبون إلى إسماعيل و إبراهيم و يفتخرون بأنهما بنيا لهم الكعبة معبدهم الأكبر : وكانوا في عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التي تعرف لهم هذا النسب .

و إنك لترى الكلام هنا جاريا على طريقة الايجاز والإشارة لما كان عليه العرب من حدة الفكر وصفاء الأذهان ، ودقة الفهم ورقة الوجدان ، على أن هذه الآيات تصلح حجة على الفريقين لأن أهل الكتاب كافة يجلون ابراهيم عليه الصلاة والسلام و يعتقدون نبوته ، والاسرائيليون منهم ينتسبون إليه ، ولكن الخطاب في قصته موجه إلى العرب أولا و بالذات ، فتلك حجج القرآن على أهل الكتاب الذي جاء لإصلاح دينهم وترقيتهم فيه ودين الله واحد في جوهره ، وهذه حججه على أهل الشرك والوثنية الخاصة التي جاء لمحوها من الأرض و إثبات نقيضها وهو التوحيد والتنزيه و إثبات البعث والنشور ، وقد أقام الحجج على هذين الأصلين من الطرق العقلية والكونية في مواضع كثيرة ولا سيما في السور المكية .

قال تبارك اسمه ﴿و إذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ أقول أشهر الأقوال وأظهرها في متعلق «إذ» هنا قولان (١) أنه مقدر معلوم من السياق ومن أمثاله وهو «اذكر» و إذا جعل الخطاب للرسول ﷺ أي «واذكر» لأهل الكتاب ولقومك وغيرهم (إذ ابتلى إبراهيم ربه) الخ و إذا جعل الخطاب للمكلفين (واذكروا) وتقدم نظيره في خطاب بني إسرائيل (٢) أنه متعلق بقوله (قال إني جاعلك للناس إماما) والكلمات جمع كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الجمل المفيدة من الكلام . والمراد منها هنا مضمونها من أمر ونهي ، روى عكرمة عن ابن عباس قال : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا ابراهيم ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الاسلام . . واستنبطها ابن عباس بالعد من أربع سور ليس فيها خطاب له عليه الصلاة والسلام . وقال شيخنا في الدرس : جعل التكليف بالكلمات لأنها تدل عليها وتعرف بواسطة ولم يذكر الكلمات ماهي ولا الاتمام كيف كان ، لأن العرب تفهم المراد بهذا الابهام والاجمال

وأن المقام مقام إثبات أن الله تعالى عامل ابراهيم معاملة المبتلى أى المختبر له لتظهر حقيقة حاله ويترتب عليها ماهو أثرها ، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال . هذا هو المبادر ولكن المفسرين لم يألوا فى تفسير الكلمات والخبط فى تعيينها فقال بعضهم: إنها مناسك الحج ، وقال آخرون : إنها خصال الايمان واستخرجوها من آيات من القرآن ، وذهب بعضهم إلى أن الإشارة بالكلمات إلى الكوكب والقمر والشمس التى رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى ، وكأن قائل هذا يعتقد أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان يظن أن هـذه الكواكب أربابا وحاشَ لله ما كان منه إلا أن قال (هذا ربى) تمهيداً للحجة والبرهان ولذلك قال تعالى بعد حكاية ذلك عنه(٦: ٨٢ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) وذهب قوم إلى أن المراد بها جعل الله إياه إماما وتكليفه بإقامة البيت وتطهيره وأن بقية الآية مفسر للابهام فيها . وادعى بعضهم أن المراد أمره فى المنام بذبح ولده وإنما هذا الأمر كلمة واحدة فكيف جعلوها عشراً ؟ وزعم آخرون أن الكلمات هى الخصال العشر التى تسمى خصال الفطرة : وهى قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وتقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الابط والاستحداد وقيل غير ذلك .

قال الأستاذ الامام عند إيراد قول المفسر (الجلال) فى تفسير الكلمات إنها الخصال العشر : إن هذا من الجراءة الغريبة على القرآن ولا شك عندى فى أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزؤا ، وأى سخافة أشد من سخافة من يقول: إن الله تعالى ابتلى نبياً من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور وأثنى عليه بإتمامها وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماما للناس وأصلا لشجرة النبوة — وإن هذه الخصال لو كلف بها صبى مميز لسهل عليه إتمامها ولم يعد ذلك منه أمراً عظيما — ؟ والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله تعالى به ولا ينبغى تعيين المراد به إلا بنص عن المعصوم

هذا ملخص ما قاله شيخنا فى الدرس وهو صفوة الحقيقة ، ولكن كتب إليه رجل من المشتغلين بالعلم فى سورية كتاباً عقب قراءته ذلك فى المنار يقول فيه: إن

تفسير الكلمات بخصال الفطرة مروى عن ترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما فكيف يخالفه فيه؟ وشدد النكير فى ذلك وأطنب فى مدح ابن عباس . وقد أرسل إلى الأستاذ كتابه عند وصوله وكتب عليه : الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان . . : فكتبت إليه وكان صديقاً لى كتاباً لطيفا كان مما قلته فيه على ما أتذكر : إننا لم نر أحداً من المفسرين ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس فى كل ما يروى عنه وان صح سنده عنده ، فكيف إذا لم يصح ؟ وقد قال الشيخ محمد عبده إنه يجل ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدقها ، ولما كانت مثل هذه الشبهة أو الطعن فى أى عالم بأنه خالف فلانا الصحابى أو الامام فلاناً مما يروج فى سوق العوام نذكر هنا ما قاله شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى بعد ذكر رواياته المختلفة فى تفسير (الكلمات) عن ابن عباس وغيره من مفسرى السلف ونقله عنه ابن كثير مقرا له ، قال هذا : قال أبو جعفر ابن جرير ماحاصله : إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ماذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع (قال) ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له اه المراد منه وهو عين ماذهب إليه شيخنا وهذه الحجة يدلى بها ابن جرير فى مواضع كثيرة من تفسيره وهى الحق

ذكر تعالى أن ابراهيم أتم الكلمات وأنه تعالى ﴿قال﴾ له ﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾ وقد فصلت الجملة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر تدل عليه القرينة قال شيخنا ولم يقل فقال إنى جاعلك : للاشعار بأن هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة وهى لاتنال بكسب الكاسب . وليس فى الكلام دليل على أن الابتلاء كان قبل النبوة . وأما فائدة الابتلاء فهى تعريف ابراهيم عليه السلام بنفسه وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص — وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم — فقام على عهده بالحنيفية وهى الايمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة ، وتسلسل ذلك فى ذريته خاصة فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم .

وماذا قال إبراهيم لما بشره الله تعالى بجعله إماما للناس ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال: واجعل من ذريتي أئمة للناس، وهو إيجاز في الحكاية عنه لا يعهد مثله الا في القرآن. وقد جرى ابراهيم ﷺ على سنة الفطرة في دعائه هذا فان الانسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها، ليكون له حظ من البقاء جسدا وروحا. ومن دعاء ابراهيم الذى حكاه الله عنه فى السورة المسماة باسمه (١٤: ٤٠ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) وقد راعى الأدب في طلبه، فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها، لأنه الممكن وفى هذا مراعاة لسنن الفطرة أيضاً. وذلك من شروط الدعاء وآدابه فمن خالف فى دعائه سنن الله فى خليقته أو فى شريعته فهو غير جدير بالإجابة، بل هو سيء الأدب مع الله تعالى، لأنه يدعوه لان يبطل لأجله سنته التي لاتتبدل ولا تتحول أو ينسخ شريعته بعد ختم النبوة و إتمام الدين.

و بماذا أجاب الله ابراهيم حين دعاه هذا الدعا؟ ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي إنني أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ولكن عهدي بالامامة لا ينال الظالمين، لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم، ففي العبارة من الإيجاز ما يناسب ما قبلها. و إنما اكتفى فى الجواب بذكر المانع من منصب الامامة مطلقا وهو الظلم لتنفير ذرية إبراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتحاموه و ينشئوا أولادهم على كراهته، و يربوهم على التباعد عنه لكيلا يقعوا فيه فيحرموا من هذا المنصب العظيم الذى هو أعلى المناصب وأشرفها، ولتنفير سائر الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم، فان الناس قد اعتادوا الاقتداء بالرؤساء والملوك الظالمين لأنفسهم ولغيرهم بالخروج عن الشريعة إلا ما يوافق أهواءهم، و يحرفون أو يؤولون الاحكام لتطابق شهواتهم، وقد درجوا على ذلك فى كل عصر ماعدا عصر النبوة وما قاربه، كعصر خلافة النبوة كما يعلم من شهادة التاريخ التى لا ترد

أقول: وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالظلم هنا أشد أنواعه قبحا وضررا وهو الشرك والكفر، ومنه (٣١: ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) (٢: ٢٥٤ والكافرون هم الظالمون) ولكن لا دليل هنا على الحصر أو القصر، ومن يظلم الناس من الموحدين المقرين

بالرسالة غير أهل لامامتهم لأنه قدوة باطل وشر يفسد عليهم دينهم ودنياهم . وإذا كان فقهاؤنا يقولون بأن الامام لاينبذ عهده إلا بالكفر الصريح دون الظلم والفسق فانما يقولون ذلك خوفا من وقوع الفتنة ، لا لأن الظالم أهل للامامة ، ألم ترأنهم يشترطون فى اختياره و بيعته العدالة ، ومن قواعدهم أنه يغتفر فى البقاء والاستمرار ما لا يغتفر فى الابتداء ، وليس هذا فى كل شيء أيضا

(قال الأستاذ) الامامة الصحيحة والأسوة الحسنة هى فيما تكون عليه الأرواح من الصفات الفاضلة والملكات العلمية التى تملك على صاحبها طرق العمل فتسوقه إلى خيرها وتزعه عن شرها ، ولاحظ للظالمين فى شيء منها ، وإنما هم أصحاب الرسم وأهل الخداع والانخداع بالظاهر ، ولذلك يصفون أعمالهم وأحكامهم بالرسمية . وقد جعل الله إبراهيم إماما للناس وذكر لنا فى كتابه كثيراً من صفاته الجليلة كقوله تعالى (١٦ : ١١٩ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً)الآيات وقوله (١١ : ٧٤ إن إبراهيم لحليم أواه منيب) ولم يذكر لنا شيئاً من زيه وصفة ثيابه، ولا وصف أنواع طعامه وشرابه ، بل أرشدنا إلى أن دعوته الصالحة لايدخل فيها ولا ينتفع بها أحد من ذريته إلا من اجتنب الظلم لنفسه وللناس

قال: وقد أخذوا من هذه الآية حكما أصولياً وهو أن الظالم لا يجوز أن يولى منصب الامامة العظمى ، واشترطوا لصحة الخلافة فيما اشترطوا العلم والعدل ، ونقل أن أبا حنيفة (رح) كان يفتى سراً بجواز الخروج على المنصور و يساعد علياً بن الحسن على ما كان ينزع إليه من الخروج عليه . اكتفى الأستاذ الامام من الدرس بهذا القدر من الاستشهاد . ومن الناس من يعلل إباء أبى حنيفة وغيره من الأئمة منصب القضاء فى زمن المنصور وأمثاله من الامراء باعتقاد عدم صحة إمامتهم ، وعدم انعقاد ولايتهم ، و يروى أن أبا حنيفة كان يرى يومئذ أن الامامة يجب ن تكون للعلويين خاصة

ثم ذكر الأستاذ الامام هنا أئمة العلم وقال : إن الناس لم يرعووا عن الاقتداء بالظالمين حتى بعد هذا التحذير الذى أوحاه الله إلى إبراهيم ثم أعلم به محمداً عليهما

الصلاة والسلام فإنهم ظلوا على دين ملوكهم وهم اليوم وقبل اليوم يدعون الاقتداء بالأئمة الأربعة رضي الله عنهم وهم كاذبون فى هذه الدعوى فإنهم ليسوا على شيء من سيرتهم فى التخلق بأخلاق القرآن ، وتحرى اتباع الكتاب والسنة فى جميع الأعمال.

اكتفى الأستاذ الإمام بهذه الإشارة فى الدرس ونزيدها إيضاحا فنقول : قد غلبت على الناس أهواء السلاطين والحكام الظالمين ، حتى إن هؤلاء الأئمة الأربعة لم يسلموا من أولئك الظالمين ، فقد سجن أبو حنيفة وحاولوا إكراهه على قبول القضاء لما رأوا من إقبال الناس على الأخذ عنه فلم يقبل ، فضربوه وحبسوه ولم يقبل كما هو مشهور . وضرب الإمام مالك سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان ، نقله ابن خلكان عن شذور العقود لابن الجوزي ، ونقل عن الواقدى أنه لم يكن فى آخر عهده يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة وكان يقول ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره . وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس (رضى الله عنهما) وهو عم أبى جعفر المنصور وقالوا له إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء ، فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمراً عظيما . وخبر طلب هارون الرشيد الشافعى للقضاء وإبائه واختفائه ثم هربه مشهور وسببه الورع ، وأشهر منه محنة الإمام أحمد وحبسه وضربه الضرب المبرح ليقول بخلق القرآن . فهكذا عامل الملوك الظالمون هؤلاء الأئمة و بلغوا منهم ومن الناس بظلمهم ما أرادوا من إفساد الدين والدنيا

وكلنا يعلم أن أولئك الذين ظلموا الأئمة الذين يدعى الأمراء والحكام اليوم اتباعهم كانوا أقل توغلا وإسرافا فى الظلم من أكثر الملوك والأمراء المتأخرين ، وإنك لترى أكثر الناس تبعاً لأهواء هؤلاء الرؤساء إلا من وفقه الله وهداه وقليل ماهم بل هم الغرباء فى الأرض .

والعبرة فى مثل ما أشرنا إليه من الأحداث أن الظالمين من حكام هذه الأمة بدأوا بتحكيم أهوائهم السياسية فى الدين وأهله من القرن الأول ، وكانوا إذا رأوا الناس قد أقبلوا على رجل من رجال الدين استمالوه ، فان لم يمل إليهم آذوه وأهانوه. ولكن كان الدين وطلب الحق غالباً على أمر المسلمين ، فقد نقل المؤرخون أن

الامام مالكا لم يزل بعد ذلك الضرب فى علو ورفعة ، وكأنما كانت تلك السياط حلياً حلى به . ولو أمر أحد السلاطين المتأخرين بضرب عالم من أعلم أهل العصر لأنه لايرى عهد بيعته صحيحاً أو لأنه أفتى بما لايوافق غرضه (كما نقل عن مالك) لما رأيت له رفعة ولا احتراما عند الناس ، ولأعرض الجميع عنه . فأما العقلاء العارفون بفضله فيعرضون عنه بوجوههم ، وأما الغوغاء من العامة ومن فى حكمهم فيعرضون عنه بقلوبهم ووجوههم ، و يعتقدون كفره أو فسقه وابتداعه .

ذلك أن الظالمين من الأمراء قد استعانوا بالظالمين من الفقهاء على إقناع العامة بأنهم أئمة الدين الذين يجب اتباعهم حتى فى الأمور الدينية وحالوا بينهم و بين كتاب الله الذى ينطق بأن عهد الله بالأمامة لاينال الظالمين . وغشوهم بأن أئمة الفقه الأربعة يحكمون بذلك ، ولو عرف الناس سيرتهم مع خلفاء زمنهم لما تيسر غشهم — هذا و إن الحاكمين على عهدهم كانوا على علم بالكتاب والسنة واتباع لهما فى أكثر أعمالهم وأحكامهم. وأما المتأخرون فلا يعرفون من ذلك أكثر مما يعرفه السوقة و يعملون بخلاف مايعلمون ، بل يشرعون للناس أحكاما جديدة يأخذونها من قوانين الأمم تخالف الشريعة ولا توافق مصلحة الأمة و يلزمون عمالهم وقضاتهم الحكم بها باسمهم لا باسم الله تعالى (٥:٤٥ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)

---

(١٢٥) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٦) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

قوله تعالى ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ معطوف على ماقبله

والمعنى واذكر أيها الرسول - أو أيها الناس - إذ جعلنا البيت الحرام مثابة للناس وأمنا أى ذا أمن ، بأن خلقنا بما لنا من القدرة فى قلوب الناس من الميل إلى حجه والرحلة إليه المرة بعد المرة من كل فج وصوب ما كان به مثابة لهم ، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا ، ولفظ «البيت» من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام بمكة كالنجم على الثريا ، كان كل عربى يفهم هذا من إطلاق الكلمة .

يذكر الله تعالى العرب بهذه النعمة أو النعم العظيمة وهى جعل البيت الحرام مرجعاً للناس يقصدونه ثم يثوبون إليه ، ومأمنا لهم فى تلك البلاد بلاد المخاوف التى يتخطف الناس فيها من كل جانب ، و بدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام للبيت وأهله المؤمنين ، وفى هذا التذكير مافيه من الفائدة فى تقرير دعوة النبى ﷺ و بيان بنائها على أصول ملة ابراهيم ، الذى تحترمه قريش وغيرها من العرب وقد اختار المثابة على نحو القصد والمزار ، لأن لفظ المثابة يتضمن هذا و زيادة فإنه لا يقال : ثاب المرء إلى الشىء إلا إذا كان قصده أولا ثم رجع إليه . ولما كان البيت معبداً وشعاراً عاماً كان الناس الذين يدينون بزيارته والقصد إليه للعبادة يشتاقون الرجوع إليه ، فمن سهل عليه أن يثوب إليه فعل ، ومن لم يتمكن من الرجوع إليه بجثمانه ، رجع إليه بقلبه ووجدانه ، وكونه مثابة للناس أمر معروف فى الجاهلية والإسلام ، وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه ، وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه . وكذلك جعله أمناً معروف عندهم فقد كان الرجل يرى قاتل أبيه فى الحرم فلا يزعجه ، على ماهو معروف عندهم من حب الانتقام والتفاخر بأخذ الثأر

(الأستاذ الإمام) قد يقال : ماوجه المنة على العرب عامة بكون البيت أمناً للناس والفائدة فيه إنما هى للجناة والضعفاء الذين لا يقدرون على المدافعة عن أنفسهم ؟ والجواب عن هذا : أنه مامن قوى إلا ويوشك أن يضطر فى يوم من الأيام إلى مفزع يلجأ إليه لدفع عدو أقوى منه أو هدنة يصطلح فى غضونها مع خصم يرى سلمه خيراً من حربه ، وولاءه أولى من عدائه ، فبلاد كلها أخطار ومخاوف لا راحة فيها لأحد . وقد بين الله المنة على العرب إذ جعل لهم مكاناً آمنا بقوله فى سورة العنكبوت (٢٩: ٦٧ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا و يتخطف الناس من

حولهم ، أفبالباطل يؤمنون و بنعمة الله يكفرون ؟)

قال تعالى ﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى﴾ قرأ نافع وابن عامر « واتخذوا » بفتح الخاء على أنه فعل ماض معطوف على « جعلنا » والباقون بكسرها على أنه أمر أى وقلنا اتخذوا أو قائلين اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . فحذف القول للايجاز، وفائدته أن يستحضر ذهن التالى أو السامع المأمورين حاضرين والأمر يوجه إليهم ، فهو تصوير الماضى بصورة الحاضر ليقع فى نفوس المخاطبين بالقرآن أن الأمر يتناولهم ، وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم فى عهد أبيهم ابراهيم ، وهم ولده اسماعيل وآل بيته ومن أجاب دعوتهما إلى حج البيت ، لأنه حكاية تاريخية سيقت للفكاهة والتسلية بل شريعة ودين . وهذا القول أحسن من قول بعضهم إن « اتخذوا » أمر لأمة محمد ﷺ لأن ذلك القول يقتصر على معنى صيغة الأمر وماقلنا يتضمن مع ذلك معنى القراءة بصيغة الماضى الدالة على أن إبراهيم ومن معه قد اتخذوا مقامه مصلى ، ولأنه أبلغ لما فيه من تحريك شعور الخلف بشرف عمل السلف و بعثهم على الاقتداء بهم

و « مقام » اسم مكان من القيام ، وقد اختلف المفسرون فى مقام ابراهيم ، فقال بعضهم إنه الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء الكعبة . قاله ابن عباس وجابر وقتادة وغيرهم ورواه البخارى ، وعليه مفسرنا (الجلال) وقال آخرون : إنه الحرم كله وهو مروى عن النخعى ومجاهد . وروى عن ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها ، وقال الشعبى : إنه عرفة ومزدلفة والجمار . واختلفوا أيضا فى تفسير المصلى فقال من فسر المقام بالحجر إنه مكان الصلاة أى صلاتنا المخصوصة وعليه الجلال واستدلوا له بحديث جابر عند مسلم قال « إن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ الآية » وذهب الآخرون إلى أن المراد بالمصلى موضع الصلاة بمعناها اللغوى العام وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقا . والأستاذ الإمام يرجح قول هؤلاء وذكر من دليله أن الحجر لا يسع الصلاة المخصوصة ولذلك قال جابر « إن النبى صلى خلفه » فكيف يتخذ منه محل للصلاة ؟ وأجاب عن حديث مسلم وحديث أبى نعيم مرفوعا « هذا مقام ابراهيم »

بأنه ليس فيهما مايدل على أن الحجر هو المراد بمقام ابراهيم في الآية دون غيره وإنما صلاته تدل على أن الصلاة هناك مشروعة . على أن في سند حديث أبي نعيم مقالاء ، والخطاب في الأصل للمؤمنين في زمن ابراهيم عليه السلام ولم تكن صلاتنا هذه صلاتهم ، فحمل المقام على جميع شعائر الحج التي قام فيها ابراهيم والصلاة على معناها اللغوي الذي يشمل صلاة إبراهيم ومن كان معه على عبادته كما يشمل صلاتنا ومناسكنا أظهر ، كما قال الأستاذ الإمام . والصلاة عند العرب وغيرهم من الأمم تشمل الدعاء والثناء على الله والتوسل إليه بكل قول وعمل يدل على التوجه إليه سبحانه ، ويقول المحققون من الفقهاء : حيثما صليت من المسجد فثم مقام ابراهيم . والناس يتحرون صلاة ركعتي الطواف خلف البناء المرتفع الذي وضع فيه الحجر الذي فيه أثر قدم إبراهيم ﷺ إن أمكن ، والمروى أنه كان ملاصقا للكعبة فأخره إلى ذلك المكان عمر (رض) كما رواه عبد الرزاق بسند قوى عندهم ، وروى ابن مردويه عن مجاهد بسند ضعيف أن النبي ﷺ هو الذي أخره . وسيأتي في تفسير آل عمران من أول الجزء الرابع مزيد كلام في هذا المقام

قال تعالى ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي ﴾ الخ عهد إليه بالشيء وصاه به ، والمراد أن الله كلفهما أن يطهرا ذلك المكان الذي نسبه إليه وسماه بيته لأنه جعله معبداً يعبد فيه العبادة الصحيحة . ولم يذكر مايجب أن يطهراه منه ليشمل جميع الرجس الحسي والمعنوي كالشرك وأصنامه واللغو والرفث والتنازع .

وتخصيص الله تعالى ذلك البيت بالنسبة إلى ذاته المنزهة عن صفات الأجسام ليس لخصوصية في موقعه ولا في أحجاره ، وإنما كان بيتا لله لأن الله تعالى سماه بيته وأمر بأن يتوجه إليه المصلون ، وبأن يعبد فيه عبادة خاصة . والحكمة في ذلك أن البشر يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي مطلق لايتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة وهم في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم وشكره والتوسل إليه والثناء عليه واستمداد رحمته ومعونته لما في ذلك من الفائدة لهم لأنه يعلى مداركهم عن التقيد في دائرة الأسباب المعروفة على ضيقها وعن الاستخذاء لما لا يعرفون له سبباء ويرفع نفوسهم عن الرضى بالحياة الحيوانية . فلله الحمد والمنة أن عين لهم مكانا نسبه إليه فسماه بيته

رمزاً إلى أن ذاته المقدسة تحضره ، فاذا كان الحضور الحقيقى محالا عليها ، فانها تحضره رحمته الإلهية ، ولذلك كان التوجه إليه بمنزلة التوجه إلى تلك الذات العلية ، لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا . ولو كلف الله عباده بعبادته مطلقا ــ وقد علمهم بنظر العقل و إرشاد الشرع أنه ليس كمثله شيء لوقعوا فى الحيرة والاضطراب لايدرون كيف يتوجهون إلى ذات غيبية مطلقة . ولو اختار بعضهم لنفسه عبادة تليق بهذا التنزيه الذى أرشد إليه الكتاب وصدقه العقل لما اهتدى إليه الآخرون و بذلك يفقد المؤمنون الجامعة التى تجمعهم على أفضل الأعمال التى تؤلف بين قلوبهم ، لذلك قلنا : إن الله رحمهم إذ جعل لنفسه بيتا يقصدونه و يثوبون إليه عند الإمكان ، و يتوجهون إليه فى صلاتهم و إن بعد المكان ، ولا يخشى على المؤمن توهم الحلول فى ذات الله بنسبة البيت إليه بعد ما نفى سبحانه كل إيهام بقوله (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) .

أقول : ولا يرد على هذا كون السماء قبلة الدعاء لاشعارها بعلوه تعالى على جميع خلقه للفرق الظاهر بين الصلاة والدعاء .

وقوله تعالى ﴿للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ يؤيد ما رجحه الأستاذ الامام من جعل المصلى بالمعنى العام أى المعبد ، فانه بعد أمر الناس باتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، بين لنا أن إبراهيم واسماعيل طهراه بأمره لاداء أنواع من العبادات فيه كالطواف وفى معناه السعى بين الصفا والمروة والعكوف فى المسجد والركوع والسجود وهما من أعمال الصلاة . والركع السجود جمع الراكع والساجد والآية تدل على أن إبراهيم كان مأموراً هو ومن آمن به بهذه العبادات ، ولكن لا دليل فيها على أنهم كانوا يؤدونها على الوجه المشروع عندنا

﴿و إذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾ هذه الآية معطوفة على ماقبلها مسوقة لبيان منة أومنن أخرى على أهل الحرم وهى ماتضمنه دعاء ابراهيم من جعل البلد آمنا فى نفسه ، وهو غير ماسبقت به المنة من جعل البيت آمنا . وقد فسر الجلال (آمنا) بقوله : ذا أمن : مع أن المعنى ظاهر وهو أن يكون محفوظا من الأعداء الذين يقصدونه بالسوء ، وهو غير معنى كونه ذا أمن ، أى إن من يكون فيه يكون آمنا

ممن يسطو عليه فيظلمه أو ينتقم منه . وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فى ذلك ، ومن تعدى على البيت لم يطل زمن تعديه بحيث يقال: إنه قد مر زمن طويل لم يكن البيت فيه آمنا ؛ بل لم ينجح أحد تعدى عليه لذاته ، و إنما كان التمدى القصير هو التعدى العارض على بعض من اعتصم فيه ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ فسر الجلال الرزق من الثمرات بنقل جبريل الطائف من حوران فى بلاد الشام أو من فلسطين إلى مكانه الآن فى أرض الحجاز مع أن الكلام فى البيت و بلده مكة لا فى الطائف . ورزق أهل هذا البلد الأمين من الثمرات ظاهر معروف بالمشاهدة والاختبار المصدقين لما جاء به الكتاب فى سورة القصص بقوله (٢٨:٥٧ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء) فالثمرات تجبى وتجمع من حيث تكون وتساق إلى مكة، ولا فرق فى ذلك بين كونها من الطائف أو من الشام أو مصر أو الروم مثلا ، وكونها تجمع من أقطار متفرقة أظهر فى صدق الآية وأدل على التسخير . وحديث نقل الطائف لا يصح ولكنهم ألصقوه بكتاب الله وجعلوه تفسيرا له وهو برىء منه وغير محتاج فى صدقه إليه

وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين كما هو اللائق به ؛ ولكن الله واسع الرحمة وقد جعل رزق الدنيا عاما للمؤمن والكافر (١٧:٢٠ كُلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا) ولكن تمتيع الكافر محدود بهذا العمر القصير؛ ومصيره فى الآخرة إلى شر مصير ، وذلك جواب الله تعالى لابراهيم قال ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير ﴾ أى وأرزق من كفر أيضا فأمتعه بهذا الرزق قليلا وهو مدة وجوده فى الدنيا ثم أسوقه إلى عذاب النار سوقا اضطراريا لا يقصده هو ولا يعلم أن كفره ينتهى به اليه، وذلك أن لجميع أعمال البشر الاختيارية غايات وآثارا اضطرارية تفضى وتنتهى إليها بطبيعتها بحسب نظام الأسباب والمسببات ، كما يفضى الاسراف فى الشهوات أو التعب أو الراحة إلى بعض الأمراض فى الدنيا . فالكفار والفساق مختارون فى كفرهم وفسقهم، فعقابهم عليها إنما هو عقاب على أعمال اختيارية ، وهو أن كفرهم بآيات الله سيسوقهم إلى عذاب الله بما أقام الله تعالى عليه الإنسان من السنن الحكيمة ،

وأساسها أن علم الإنسان وأعماله النفسية والبدنية لها الأثر الذى يفضى به إلى سعادته أو شقائه اضطراراً ، ولما كانت هذه السنة بقضاء الله وتقديره صح أن يقال: إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وألجأه إليه إذ جعل الأرواح المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه فى الآخرة ، كما جعل أصحاب الأجساد القذرة عرضة للامراض فى الدنيا .

ولما كانت هذه العقائد والمعارف والأخلاق والأعمال كسبية وكان الإنسان متمكنا من اختيار الحق على الباطل والطيب على الخبيث ، وقد هداه الله إلى ذلك بما أعطاه من العقل ، وما نزله من الوحى — صح أن يقال : إنه ظلم نفسه وعرضها للعذاب والشقاء بأعماله التى مبدؤها كسبى ، وأثرها ضرورى

وفى قوله تعالى (ومن كفر) الخ إيجاز بالعطف على محذوف علم منه أنه تعالى استجاب دعاء ابراهيم فى المؤمنين ، فجعل لهم هذا الخير فى الدنيا وأعد لهم ماهو أفضل منه فى الآخرة . وهو إيجاز لم يكن يعهد فى غير القرآن جار على الأصل الذى تقدم بيانه فى خطاب القرآن للعرب خاصة دون ما كان يخاطب به بنى اسرائيل و إن كان كل مافى القرآن عبرة عامة لجميع المعتبرين ، كما تكرر عن الاستاذ الامام

---

(١٢٧) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٩) رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

ذكر الله تعالى العرب أولا بنعمته عليهم بهذا البيت : أن جعله مثابة للناس وأمنا ، و بدعاء ابرهيم عليه الصلاة والسلام لبلد البيت واستجابة الله تعالى دعاءه

إذ جعله بلداً آمنا تجبى إليه الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتع أهله بها ، وهى نعم يعرفونها لا ينكرها أحد ، وانتقل منها إلى التذكير بالنعم المعنوية فذكر عهده إلى ابراهيم واسماعيل بأن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود لينبههم باضافة البيت إلى نفسه أنه لايليق أن يعبد فيه غيره ، و بتطهيره لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة أنه يجب تنزيهه عن الاصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة وعن سائر الأعمال الذميمة كطواف العريان وكانوا يفعلونه

ثم ذكرهم بعد هذا بأن ابراهيم هو الذى بنى هذا البيت بمساعدة ابنه اسماعيل و ذكر لهم من دعائهما هنالك مايرشدهم إلى العبادة الصحيحة والدين الحق و يجذبهم إلى الاقتداء بذلك السلف الصالح الذى ينتمون إليه و يفاخرون به ، فإن قريشا كانت تنتسب إلى ابراهيم واسماعيل بحق وتدعى أنها على ملة ابراهيم، ولذلك كانت ترى أنها أهدى من الفرس والروم ، وسائر العرب تبع لقريش

قوله تعالى ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ﴾ ظاهر فى أنهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى فى تلك البلاد الوثنية ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا من ذلك بغير ماقصه الله تعالى علينا وتفننوا فى رواياتهم عن قدم البيت وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه وعن ارتفاعه إلى السماء فى وقت الطوفان ثم نزوله مرة أخرى ، وهذه الروايات يناقض ، أو يعارض بعضها بعضاً ، فهى فاسدة فى تناقضها وتعارضها ، وفاسدة فى عدم صحة أسانيدها ، وفاسدة فى مخالفتها لظاهر القرآن ، ولم يستح بعض الناس من ادخالها فى تفسير القرآن و إلصاقها به وهو برىء منها . ومن ذلك زعمهم أن الكعبة نزلت من السماء فى زمن آدم ووصفهم حج آدم إليها وتعارفه بحواء فى عرفة بعد أن كانت قد ضلت عنه بعد هبوطهما من الجنة، وحاولوا تأكيد ذلك بتزويرقبر لها فى جدة . وزعمهم أنها هبطت مرة أخرى إلى الأرض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان وحليت بالحجر الأسود ، وأن هذا الحجر كان ياقوتة بيضاء — وقيل زمردة — من يواقيت الجنة أو زمردها وأنها كانت مودعة فى باطن جبل أبى قبيس فتمخض الجبل فولدها وأن الحجر إنما اسود لملامسة النساء الحيض له، وقيل لاستلام المذنبين إياه ، وكل

هذه الروايات خرافات اسرائيلية بثها زنادقة اليهود فى المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه

(الأستاذ الامام) لو كان أولئك القصاصون يعرفون الماس لقالوا إن الحجر الأسود منه لأنه أبهج الجواهر منظراً وأكثرها بهاء ، وقد أراد هؤلاء أن يزينوا الدين ويرقشوه برواياتهم هذه ولكنها إذا راقت للبله من العامة فانها لا تروق لأهل العقل والعلم الذين يعلمون أن الشريف هو الضرب من الشرف المعنوى هو ما شرفه الله تعالى ، فشرف هذا البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إياه بيته ، وجعله موضعا لضروب من عبادته لا تكون فى غيره كما تقدم ، لا بكون أحجاره تفضل سائر الأحجار ، ولا بكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا بكونه من السماء ، ولا بانه من عالم الضياء ، وكذلك شرف الأنبياء على غيرهم من البشر ليس لمزية فى أجسامهم ولا فى ملابسهم ، وانما هو لاصطفاء الله تعالى إياهم ، وتخصيصهم بالنبوة التى هى أمر معنوى . وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة وأكثر نعمة منهم

وقد أفصح عن هذا المعنى الذى قرره الأستاذ الامام أمير المؤمنين ومشيد دعائم الاسلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إذ قال عند استلام الحجر الاسود « أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبلك ماقبلتك : ثم دنا فقبله » رواه أبو بكر بن أبى شيبة والامام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم من عدة طرق . وروى ابن أبى شيبة والدار قطنى فى العلل عن عيسى بن طلحة عن رجل رأى النبى ﷺ وقف عند الحجر فقال « انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ثم قبله ، ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال : إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا إنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ماقبلتك » وحديث عمر يؤيد الرواية المرفوعة ، و إنما قدمناه لأنه أصح سنداً . وما روى من مراجعة علىّ لعمر فى ذلك غير صحيح ، فلا يعول عليه . والحديث يرشدنا إلى أن الحجر لا مزية له فى ذاته فهو كسائر الحجارة ، وانما استلامه أمر تعبدى فى معنى استقبال الكعبة وجعل التوجه إليها توجها إلى الله الذى لا يحدده مكان ولا تحصره جهة من الجهات ، على

أنه قد غرز فى طبائع البشر تكريم البيوت والمعاهد، والآثار والمشاهد، التى تنسب للاحياء، أو تضاف إلى العظماء

أمر على الديار ديار ليلى　　أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبى　　ولكن حب من سكن الديارا

وإنما يكون التعظيم والتكريم للديار، فى حال غيبة الساكن والديّار، لأن النفس إذا حرمت من المشاهدة التى تذكى نار الحب، وتهيج الاحساس والشعور بلذة القرب، تحاول أن تذكى تلك النار، بالتعلل بالاطلال والآثار، ولا يقال لماذا خصص الحجر الاسود بالتقبيل؟ فان كل مشعر من تلك المشاعر قد خص بمزية تثير شعوراً دينيا خاصاً يليق به، فلا يقال: لماذا كان الوقوف والاجتماع، وتعارف أهل الآفاق والاصقاع، مخصوصا بعرفة دون غيرها من البقاع. ولهذه المشاعر والشعائر معان وأسرار أخرى عند بعض الخواص، لا ينبغى شرحها لعامة الناس

وقد جهل القصاص تلك الاحاديث والآثار، وهذه المعانى والأسرار، وجعلوا مزية البيت الحرام ومشاعره وحجره المكرم محصورة فى مخالفتها لسائر الحجارة وكون أصلها من جواهر الجنة التى هى من عالم الغيب، ولو كان ذلك صحيحاً لبقيت حجارتها كما كانت عند ما نزلت من الجنة بزعمهم وقد راجت بضاعتهم المزجاة عند أهل العلم والعقل عند من لا يعرف من الدين إلا هذه الرسوم الظاهرة، ومنها كسوة الكعبة الحريرية المزركشة فانها عند عامتنا فى هذه الأزمنة من أعظم شعائر الدين، وإن حرم حضور احتفالها أو رؤيتها بعض علماء الأزهر المتأخرين (كالباجورى) وليس هذا التحريم لذاتها فانها مشروعة بل لما فى الاحتفال بها من البدع وما عليه العوام من اعتقاد البركة فيها وفى جملها الذى يقبل مقوده الأمراء والوزراء ورؤساء العلماء الرسميين المدهنين لهم، وهكذا كل واحد يفهم الدين، ويأخذ من كتب الأولين والآخرين، ما يناسب استمداد عقله، ويحسن فى نظر جيرانه وأهله، حتى يخرج المسلمون من هذه الفوضى فى الدين والعلم: ويدير شئونهم الاجتماعية أهل الحكمة والفهم، فيضعون لهم نظاما يتبع فى تعميم التربية والتعليم (٣ : ١٠١ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)

ومن مباحث اللفظ فى الجملة : أن القواعد جمع قاعدة وهى ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من الساقات، ورفعها إعلاء البناء عليها أو إعلاؤها نفسها على الخلاف و«من البيت» قال الجلال إنه متعلق بيرفع، وهذا إنما يصح إذا أريد بالبيت العرصة أو البقعة التى وقع فيها البناء، والاكثرون على أن «من» للبيان وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران، وهناك قول ثالث وهو أن «من» للتبعيض بناء على أن البيت مجموع العرصة والبناء . قال الاستاذ الامام : وفى الكلام نكتة لطيفة وهى أن ذكر القواعد أولا ينبه الذهن ويحركه إلى طلب معرفة القواعد ماهى؟ وقواعد أى شىء هى ؟ فاذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن وقعا فى النفس، وأشد تمكنا فى الذهن، وأما النكتة فى تأخير ذكر اسماعيل عن ذكر المفعول، مع أن الظاهر أن يقال : وإذ يرفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت : فهى الالماع إلى كون المأمور من الله ببناء البيت هو ابراهيم، وإنما كان اسماعيل مساعداً له وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة

وقوله تعالى ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ الخ حكاية لدعاء ابراهيم واسماعيل عند البناء وهو أنهما كانا يقولان ذلك، حذف القول للايجاز الذى عهد من القرآن فى خطاب العرب كما تقدم؛ وجملة القول بيان لحالها وقتئذ . وتقبل الله العمل: قبله ورضى به ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لاقوالنا ﴿ العليم ﴾ بأعمالنا وبنيتنا فيها

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ المسلم والمسلِّم والمستسلم واحد وهو المنقاد الخاضع والمراد بالكلمة مايشمل التوحيد والاخلاص لله تعالى فى الاعتقاد والعمل جميعا ومعنى الأول - أى الاخلاص فى الاعتقاد - أن لايتوجه المسلم بقلبه إلا إلى الله ولا يستعين بأحد فيما وراء الأسباب الظاهرة إلا بالله، ومعنى الثانى أن يقصد بعمله مرضاة الله تعالى لا اتباع الهوى وإرضاء الشهوة، وإنما يرضيه تعالى منا ان نزكى نفوسنا بمكارم الأخلاق، ونرقى عقولنا بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبرهان، فبذلك نكون محل عنايته تعالى ومستودع معرفته وموضع كرامته، ومن يقصد بأعماله إرضاء شهوته واتباع هواه لايزيد نفسه إلا خبثاً، وبذلك يكون بعيداً عن الإسلام ويصدق عليه قوله (٢٥: ٤٣ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا؟)

وقد يقال : إن الانسان يندفع لمعظم الأعمال بسائق طلب المنفعة واللذة وهو سائق فطرى ، فكيف ينافيه الاسلام وهو دين الفطرة . ومثاله طلب الغذاء لقوام الجسم يسوق اليه التلذذ بالطعام ، ومثل ذلك طلب اللذات العقلية والأدبية فكيف يمكن أن يكون مايطلب للذة خالصاً لله وحده ؟ والجواب : أن الاسلام قد حل هذه المسألة حلا لايجده الانسان فى ديانة أخرى ، ذلك أنه لم يحرم علينا إلا ماهو ضار بنا ، ولم يوجب علينا إلا ماهو نافع لنا ، وقد أباح لنا مالا ضرر فى فعله ولا فى تركه من ضروب الزينة واللذة إذا قصد بها مجرد اللذة . وأما إذا قصد بها مع اللذة غرض صحيح وفعلت بنية صالحة فهى فى حكم الطاعات التى يثاب عليها، ومن نية المرء الصالحة فى الزينة والطيب أن يسر اخوانه بلقائه ، وأن يظهر نعم الله عليه، وأن يتقرب إلى امرأته و يدخل السرور عليها ، وانما الهوى المذموم فى الاسلام هو الهوى الباطل كأن يتزين الرجل و يتطيب للمفاخرة والمباهاة أو ليستميل اليه النساء الأجنبيات عنه ، و بذلك تكون الزينة مذمومة شرعا «وانما الأعمال بالنيات»

دعا هذا النبيان العظيمان لأنفسهما بحقيقة الاسلام ثم دعوا بذلك لذريتهما فقالا ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ أى واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كاسلامنا ليستمر الاسلام لك بقوة الأمة وتعاون الجماعة . قال الاستاذ الامام : أضافا الذرية إلى ضمير الاثنين للدلالة على أن المراد الذرية التى تنسب إليهما معاً وهى مايكون من ولد اسماعيل ، اللفظ ظاهر فى هذا المعنى و يرجحه الحال والمحل الذى كانا فيه، وعزم ابراهيم على أن يدع اسماعيل فى بلاد العرب داعياً إلى توحيد الله ، و إسلام القلب اليه ، و يرجع هو إلى بلاد الشام ، وكذلك الدعاء لهذه الذرية بأن يبعث الله فيهم رسولا منهم كما سيأتى . وقد استجاب الله تعالى دعاء ابراهيم وولده عليهما السلام ، وجعل فى ذريتهما أمة الإسلام، و بعث فيها منها خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، و إلى هذا الدعاء الاشارة بقوله فى سورة الحج(٢٢:٧٨ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل)[1] وعلم مما تقدم أن المراد بالإسلام

(١) ظاهر استشهاد شيخنا بالآية : أنه كان يفهم أن الضمير فى قوله (هو سماكم المسلمين) يرجع إلى ابراهيم . والتحقيق أنه يرجع إلى الله تعالى

معناه الذى شرحناه فمن قام به هذا المعنى فهو المسلم فى عرف القرآن وليس المراد به اسم فى حكم الجامد يطلق على أمة مخصوصة حتى يكون كل من يولد فيها أو يقبل لقبها مسلماً ذلك الإسلام الذى نطق به القرآن ، و يكون من الذين تنالهم دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد جرى ابراهيم وولده على سنة الفطرة فى هذا الدعاء أيضاً فخصاه ببعض الذرية لأنه قد يكون منها من لا يتناول الإسلام

﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أى علمنا إياها علما يكون كالرؤية البصرية فى الجلاء والوضوح ، والمناسك جمع منسك بفتح السين فى الأفصح من النسك (بضمتين) ومعناه غاية العبادة ، وغلب استعمال النسك فى عبادة الحج خاصة ؛ والمناسك فى معالمه أو أعماله ﴿ وتب علينا ﴾ أى وفقنا للتوبة لنتوب ونرجع إليك من كل حال أوعمل يشغلنا عنك . و يدل عليه قوله تعالى(٩: ١١٨ ثم تاب عليهم ليتوبوا) أو المعنى اقبل توبتنا ، ومنه الحديث «و يتوب الله على من تاب» وتاب - بالمثناة - كثاب (بالمثلثة) ومعناه رجع . و يقال : تاب العبد إلى ربه أى رجع اليه لأن اقتراف الذنب إعراض عن الله أى عن طريق دينه وموجبات رضوانه ، و يقال : تاب الله على العبد : لأن التوبة من الله تتضمن معنى الرحمة والعطف كأن الرحمة الإلهية تنحرف عن المذنب باقترافه أسباب العقوبة فاذا تاب عادت إليه ، وعطف ربه عليه، والتوبة تختلف باختلاف درجات الناس فعبدك يتوب اليك من ترك ما أمرته بفعله ، أو فعل ما أمرته بتركه ؛ وصديقك يتوب اليك و يعتذر إذا هو قصر فى عمل لك فيه فائدة مما فى إمكانه واستطاعته ؛ وولدك يتوب إذا قصر فى أدب من الآداب التى ترشده إليها ليكون فى نفسه عزيزاً كريما . وكذلك تختلف توبات التائبين إلى الله تعالى باختلاف درجاتهم فى معرفته ، وفهم أسرار شريعته ، فعامة المؤمنين لا يعرفون من موجبات سخط الله تعالى وأسباب عقوبته إلا المعاصى التى شددت الشريعة فى النهى عنها ، و إذا تابوا من عمل سيء فانما يتوبون منها ، وخواص المؤمنين يعرفون أن لكل عمل سيء لوثة فى النفس تبعد بها عن الكمال ، ولكل عمل صالح أثراً فيها يقربها من الله وصفاته ، فالتقصير فى الصالحات يعد عند هؤلاء من الذنوب التى تهبط بالنفس وتبعدها عن الله تعالى ، فهى إذا

قصرت فيها تتوب ، وإذا شمرت لاتأمن النقائص والعيوب، ويختلف اتهام هؤلاء الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يعرض لها من الآفات في سيرها ، ومعرفتهم بكمال الله جل جلاله ومعنى القرب منه واستحقاق رضوانه ، ولذلك قال بعض العارفين : حسنات الابرار سيئات المقربين ، ومن هنا نفهم معنى التوبة التي طلبها ابراهيم واسماعيل ، عليهما وعلى آلهما الصلاة والتسليم ، ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ أى إنك أنت وحدك الكثير التوب على عبادك وإن كثر تحولهم عن سبيلك بتوفيقهم للتوبة اليك ، وقبول توبتهم منهم الرحيم بالتائبين

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ أى من أنفسهم ويتضمن هذا الدعاء لهم بالارتقاء الذى يؤهلهم ويعدهم لظهور النبى منهم . وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم النبيين والمرسلين ﷺ كما ورد فى حديث أحمد « أنا دعوة ابراهيم وبشارة عيسى » الخ ، ثم وصف هذا الرسول بقوله ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ الدالة على وحدانيتك وتنزيهك وعظمة شأنك ، والدالة على صدق رسلك إلى خلقك ، فالمراد بالآيات الآيات الكونية والعقلية ، أو المراد آيات الوحى التى تنزلها عليه فتكون دليلا على صدقه ، ومشتملة على تفصيل آيات الله فى خلقه ، كبراهين التوحيد والتنزيه ، ودلائل النبوة والبعث ، وتلاوتها . ذكرها المرة بعد المرة لترسخ فى النفس ، وتؤثر فى القلب

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ قال الأستاذ الامام : فسروا الكتاب بالقرآن والحكمة بالسنة والثانى غير مسلم على عمومه ، أما الأول فله وجه ، وعليه يكون المراد بالآيات فيما سبق دلائل العقائد وبراهينها كما تقدم فيما سبق دون الوحى وإلا كان مكرراً . وفيه وجه ثان وهو أن المراد بالكتاب مصدر كتب يقال : كتب كتابا وكتابة : وإنما الدعاء لأمة أمية لابد فى إصلاحها وتهذيبها من تعليمها الكتابة وقد كانت الأمم المجاورة لها من أهل الكتاب فلا يتيسر لها اللحاق بها أو سبقها ، حتى تكون من الكاتبين مثلها ، وأما الحكمة فهى فى كل شىء معرفة سره وفائدته والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ومقاصدها ، وقد بين النبى ﷺ ذلك بسيرته فى المسلمين ، وما فيها من الفقه فى الدين ، فان أرادوا من السنة هذا

المعنى فى تفسير الحكمة فهو مسلم ، وهو الذى كان يفهم من اسمها فى الصدر الأول
و إن أرادوا بالسنة ما يفسرها به أهل الأصول والمحدثون فلا تصح على إطلاقها
فالحكمة مأخوذة من الحكمة ـ بالتحريك ـ وهى ماأحاط بحنكى الفرس من اللجام
وفيها العذاران ، وفى ذلك معنى ما يضبط به الشيء ، ومن ذلك إحكام الأمر واتقانه.
وما كل من يروى الأحاديث يحقق له هذا المعنى ، ولكن الذى يتفقه فى الدين
ويفهم أسراره ومقاصده يصح أن يقال : إنه قد أوتى الحكمة التى قال الله فيها
(٢ : ٢٦٩ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) ولن يكون أحد داخلا
فى دعوة إبراهيم حتى يقبل تعليم الحكمة من هذا النبى الكريم

علم إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفى فى
إصلاح الأمم و إسعادها ، بل لابد أن يقرن التعليم بالتربية على الفضائل والحمل
على الأعمال الصالحة بحسن الأسوة والسياسة فقالا ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يطهر نفوسهم
من الأخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك العادات الرديئة ، ويعودها الأعمال
الحسنة التى تطبع فى النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الأعمال القبيحة التى
تغريها بالشر، ثم ختما الدعاء بهذا الثناء ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ العزيز هو
القوى الغالب على أمره فلا ينال بضيم ، ولا يغلب على أمر ، والحكيم هو الذى
يضع الأشياء أحسن موضع ، ويتقن العمل ويحسن الصنع ، والسر فى ذكر هذين
الوصفين هنا إزالة ما ربما يعلق بالذهن ، أو يسبق إلى الوهم ، من أن هذه الأمور
التى دعى بها للعرب منافية لطباعهم ، بعيدة من أحوالهم ومعايشهم ، فإنهم جمدوا
على بداوتهم ، وألفوا غلظتهم وخشونتهم ، فهم أعداء العلم والحكمة ، خصماء
التهذيب والتربية ، لا يخضعون لنظام ، ولا يؤخذون بالأحكام ، ولا استعداد فيهم
للمدنية والحضارة ، التى هى أثر تعليم الكتاب والحكمة ، وتزكية أفراد الأمة : فكان
يتوقع أن يقول قائل : من يقدر أن يغير طباع هذه الأمة المعروفة بالخشونة والقسوة،
فيجعلها من أهل العلم والمدنية والحكمة؟ لولا أن علم أن المدعو والمسئول هو العزيز
الذى لا مرد لأمره ، والحكيم الذى لا معقب لحكمه

(١٣٠) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣١) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣٢) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٣) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٤) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

الكلام فى هذه الآيات متصل بما سبقه من ابتداء قوله (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) فقد ذكر أنه تعالى ابتلى ابراهيم بكلمات فأتمهن ، وأنه جعله إماما للناس وجعل من ذريته أئمة ، وأنه عهد اليه ببناء بيته وتطهيره لعبادته ففعل ، وكان يومئذ يدعو بما علم منه ما هى ملته ، وإن هى إلا توحيد الله وإسلام القلب إليه والاخلاص له بالأعمال ، وتعظيم البيت بتطهيره وإقامة المناسك فيه عن بصيرة بأسرارها تجعل المعنى المتصور ، كالمحسوس المبصر . ثم قال بعد هذا ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ أى امتهنها واستخف بها . كأنه تعالى يقول : هذه هى ملة أبيكم ابراهيم الذى تنتسبون اليه وتفخرون به ، فكيف ترغبون عنها ، وتنتحلون لانفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً لا بالذات ولا بالوساطة .

قال ﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ بهذه الملة فجعلناه إماماً للناس وجعلنا فى ذريته الكتاب والنبوة ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ لجوار الله بعمله بهذه الملة ودعوته إليها وإرشاده الناس بها . فملة جعلت لابراهيم هذه المكانة عند الله

تعالى فى الدنيا والآخرة لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وجنى على إدراك عقله فاستحب العمى على الهدى ، وإن خسر الآخرة والأولى

ومن مباحث اللفظ فى الآية: قول الجلال فى تفسير (سفه نفسه) أى جهل أنها مخلوقة لله : قال الأستاذ الامام: ولم يقل بهذا أحد من المفسرين الذين يعتد بهم والسياق لا يقتضيه ، وسفه يستعمل لازماً ومتعديا ومعنى المتعدى استخف وامتهن وأخره الجلال وهو الراجح . وفى الكشاف أن (نفسه) تمييز لفاعل (سفه)ولا يمنع من ذلك الإضافة إلى الضمير لأنه تعريف لفظى ، والمعنى أنه لا يرغب عن ذلك إلا من سفهت نفسه أى حمقت . وقدم هذا القول كأنه رجحه على ماقبله اه

وأقول: سفه بالضم ـ كضخم ـ سفاهة صار سفيها ؛ وسفه بالكسر ـ كتعب ـ سفها هو الذى قيل :إنه يستعمل لازما ومتعديا ، وقيل بل هو لازم دائما وأن أصل سفه نفسه بالرفع ، فنصب على التمييز كسفه نفساً ، فأضيفت النفس إلى ضميره كما تقدم ومثله غبن رأيه . وسيأتى توضيح معناه فى تفسير (سيقول السفهاء)

﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ أى اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من آياته ونصب له من بيناته ، فأجاب الدعوة و ﴿ قال أسلمت لرب العالمين ﴾ والجلال قدر كلمة «اذكر» متعلقاً للظرف « إذ » كما هى عادته فى مثله و إن وجد فى الكلام ما يتعلق به ، كقوله هنا « اصطفيناه » وقد نشأ إبراهيم ﷺ فى قوم يعبدون الكواكب و يتخذون الأصنام ، فأراه الله حجته ، وأنار بصيرته ، فنفذت أشعتها من العالم الشمسى ، وأدركت أن لجميع العالمين رباً واحداً منفرداً بالخلق والتدبير وحاجه قومه فبهرهم ببرهانه ، وأفحمهم ببيانه ، وقد قص الله تعالى خبره معهم فى سورة الأنعام ، وسيأتى تفسير الآيات إن شاء الله تعالى

﴿ ووصى بها ﴾ أى بالملة أو الخصلة التى ذكرت أخيراً ﴿ إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ بنيه أيضاً، إذ قال كل منهما لولده ﴿ يابنىّ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ أى اختاره لكم بهدايتكم إليه وجعل الوحى فيكم ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أى فحافظوا على الإسلام لله والاخلاص فى الانقياد إليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة

واحدة لئلا تموتوا فيها فتموتوا غير مسلمين ، فإن الإنسان لا يضمن حياته بين الشهيق والزفير . ويتضمن هذا النهى إرشاد من كان منحرفا عن الإسلام إلى عدم اليأس ، وأن يبادر بالرجوع إليه والاعتصام بحبله لئلا يموت على غيره .

وفى هذه الآية انتقال إلى إشراك أهل الكتاب وغيرهم من العالمين مع العرب فى التذكير والإرشاد إلى الإسلام ولذلك ذكرت وصية يعقوب، واختلف الأسلوب، فقد كان جاريا على طريقة الإيجاز، فانتقل إلى طريقة الإطناب والإلحاح، لما تقدم الإلماع إليه من مراعاة الأولى فى خطاب العرب والثانية فى خطاب أهل الكتاب ، الذين لا يكتفون بالاشارة والعبارة المختصرة لجمود أذهانهم واعتيادهم على التأويل والتحريف . وفصل بين العاطف والمعطوف بالمفعول ولم يقل : ووصى بها ابراهيم ويعقوب بنيهما ، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما فى وقت واحد أو أنها خاصة بأبنائهما معاً وهم أولاد يعقوب على نحو ماتقدم فى تفسير (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)

ذكر ملة ابراهيم وحكم الراغب عنها ووصية بنيه بها ووصية حفيده يعقوب بنيه بها أيضاً ، وذلك يشعر بأن بنى ابراهيم كانوا يوصون بما أوصاهم أبوهم. فإن يعقوب أخذ الوصية عن أبيه اسحاق . وذلك من ضروب الإيجاز الدقيقة . ثم أراد أن يقرر أمر هذه الوصية ويؤكدها ويقيم الحجة بها على أهل الكتاب

فقال ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ﴾

أقول: هذا إضراب عما قبله وانتقال إلى استفهام إنكارى وجه إلى اليهود عن وصية جدهم يعقوب لآبائهم الأسباط ، ويجوز أن يكون معناه أكنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ احتضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده سؤال تقرير ليشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص والسؤال بما أعم من السؤال بمن لأن هذا خاص بمن يعقل وما نزل منزلته بسبب يجيز ذلك، والسؤال بكلمة «ما» يعم العاقل وغيره ، وتتعين «ما» فى السؤال عن العاقل إذا أريد وصفه نحو (قال فرعون ومارب العالمين ؟) وهذا الاصطلاح للنحاة لايدل على جواز وصف الله تعالى بلفظ «العاقل» شرعا لأن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل

واسحق ﴾ عرفوا الاله بالاضافة إلى آبائهم لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين خالق السموات والأرض وحده ، ودعوا الامم إلى ذلك فى وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من الكواكب والاصنام والحيوانات وغيرها ، ولذلك قال سحرة موسى عنـد ما آمنوا (آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) واسماعيل عم يعقوب ذكر مع آبائه للتغليب أو لتشبيه العم بالأب ، كما فى حـديث « عم الرجل صنو أبيه » رواه الشيخان . والجمع بين الحقيقة والمجاز جائز يكثر فى القرآن وفاقا للشافعى وابن جرير الطبرى وخلافا لجمهور الاصوليين ﴿ إلها واحداً ﴾ أى نعبده حال كونه إلها واحداً ، أو نخص بالعبادة إلها واحداً لا نشرك معه أحداً بدعاء ، ولا توجه فى قضاء حاجة ولا غير ذلك من العبادات ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى والحال أننا نحن منقادون مذعنون مستسلمون له وحده دون غيره كما يدل عليه تقديم الظرف « له » وقال الأستاذ الامام فى الآية مامعناه :

خلاصة هذه الوصية عقيدة الوحدانية فى العبادة واسلام القلب لله تعالى والاخلاص له . وتكرار لفظ (الاسلام) فى هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين . ذلك أن العرب كانت تدعى أن لها ديناً خاصاً بها وأنه الحق ، وإن اختلفت فيه القبائل والشعوب ، ومنهم من كان ينتمى إلى ابراهيم على وثنيتهم ، وكذلك اليهود والنصارى كل يدعى ديناً خاصاً به وأنه الحق ، فبينت هذه الآيات أن هذه الدعاوى من التعصب للتقاليد وأن دين الله تعالى واحد فى حقيقته ، وروحه التوحيد والاستسـلام لله تعالى والخضوع والاذعان لهـداية الانبياء ، وبهـذا كان يوصى أولئك النبيون أبناءهم وأممهم . فتبين أن دين الله تعالى واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبى ، ولذلك قال فى آية أخرى (٤٣ : ١٣ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيـه) فالتفرق فى الدين ماجاء إلا من الجهل والتعصب للاهواء ، والمحافظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء ، فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق فى الدين والاجتماع على أصليـه : العقلى وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبى وهو الاسلام والاخلاص لله فى جميع الأعمال .

وعلم من هذا أن لفظ الاسلام والمسلمين فى كلام ابراهيم واسماعيل و يعقوب يراد به معناه الذى تقدم ، فمن لم يكن متحققاً بهذا المعنى فليس بمسلم أى ليس على دين الله القيم الذى كان عليه جميع أنبياء الله . وأما لفظ الاسلام فى عرفنا اليوم فهو لقب يطلق على طوائف من الناس لهم مميزات دينية وعادية تميزهم عن سائر طوائف الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى . ولا يشترط فى إطلاق هذا اللقب العرفى عند أهله أن يكون المسلم خاضعاً مسلماً لدين الله مخلصاً له أعماله ، بل يطلقونه أيضاً على من ابتدع فيه ماليس منه ، أوما ينافيه ، ومن فسق عنه واتخذ إلهه هواه . ومعنى الاسلام الذى دعا إليه القرآن تقوم به الحجة على المشركين ، و يعترف به اليهود والنصارى لأنه روح كل دين ، وهو الذى دعا إليه النبى ﷺ ، والدعوة إلى اللقب لامعنى لها . قال الأستاذ الامام : بعد تقريره هذا المعنى : و به يظهر خطأ من خصص الرغبة عن ملة ابراهيم بالميل إلى اليهودية أو النصرانية

ومن مباحث اللفظ فى الآية أن « أم » تستعمل فى الاستفهام إذا كان مبنياً على كلام سابق كما هنا لما فيها من الاشعار بالانتقال ففيها معنى الاضراب

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون ﴾

أقول : الامة هنا الجماعة من الناس والمشار إليه يعقوب وآباؤه وأبناؤه . و إذا بدأت بالافضل قلت ابراهيم وأولاده وأحفاده المذكورون فى الآية السابقة . (قد خلت) مضت وذهبت من هذا العالم (لها ما كسبت) من عمل تجزى به ، (ولكم ما كسبتم) من عمل تجزون به ، ولا يجزى أحد بعمل غيره (ولا تسئلون) يوم الحساب والجزاء (عما كانوا يعملون) سؤال حساب وجزاء ، ولا يسئلون عما تعملون كذلك ، بل كل يسئل عن عمله و يجازى به دون عمل غيره ، فلا ينتفع أحد بعمل غيره ولا يتضرر به من حيث هو عمله ، إلا أنه قد ينتفع أو يتضرر بعمل غيره إذا كان هو سبباً له لأنه أرشده إليه وكان قدوة له فيه

(الأستاذ الامام) جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية ابراهيم لبنيه واسماعيل وإسحاق و يعقوب لبنيهم استدراكا على ماعساه يقع فى أذهان ذرارى هؤلاء الانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام من أن هذا السلف الذى له

عند الله هذه المكانة يشفع لهم فينجون و يسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب اليهم . فبين الله فى هذه الآية أن سنته فى عباده أن لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله . وقد بين فى سورة النجم أن هذه القضية من أصول الدين العامة التى جاء بها الأنبياء من قبل (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى و إبراهيم الذى وفى * أن لا تزوا وازرة وزر أخرى * وأن ليس للانسان إلا ما سعى) الخ . و بين فى آيات متعددة فى سور متفرقة ، أن المرسلين لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون اليه كان ناجياً ، و إن بعد عنهم فى النسب ، ومن أعرض عن هديهم كان هالكا و إن أدلى إليهم بأقرب سبب (قال ١١ : ٤٥ يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح)و إذا لم تنتفع بهم ذرياتهم الذين لم يقتدوا بهم فكيف ينتفع بهم أولئك البعداء الذين ليس بينهم وبينهم صلة إلا الأقوال الكاذبة التى يعبر عنها أهل هذا العصر (بالمحسوبية) و يقولون فى مخاطبة أصحاب القبور عند الاستغاثة بهم « المحسوب كالمنسوب » وما أحسن قول الإمام الغزالى : إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمآن يروى بشرب والده و إن لم يشرب فالعاصى ينجو بصلاح والده . والآيات التى تؤيد هذه الآية كثيرة جداً فهى أصل من أصول الدين الإلهى لايفيد معها تأويل المغرورين ، ولا غرور الجاهلين

---

(١٣٥) وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ ابرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٦) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ الَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ الىٰ إِبْرَاهِيمَ وَاسْمٰعِيلَ وَاسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٧) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ، وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٨) صِبْغَةَ اللهِ ، ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ؟ وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ

بين فى الآيات السابقة حقيقة ملة إبراهيم فى سياق دعوة العرب إلى الاسلام ثم أشرك معهم أهل الكتاب لأنهم أقرب إلى الإيمان بإبراهيم وأجدر بإجلاله واتباعه ، وانتقل الكلام بهذه المناسبة إلى بيان وحدة الدين الإلهى واتفاق النبيين فى جوهره ، و بيان جهل أهل الكتاب بهذه الوحدة ، وقصر نظرهم على مايمتاز به كل دين من الفروع والجزئيات ، أو التقاليد التى أضافوها على التوراة والإنجيل فبعد بها كل فريق من الآخر أشد البعد ، وصار الدين الواحد كفراً و إيمانا ، كل فريق من أهله يحتكر الايمان لنفسه و يرمى الآخر بالكفر والإلحاد . و إن كان نبيهم واحداً وكتابهم واحداً .

فقوله تعالى ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ بيان لعقيدة الفريقين فى التفرق فى الدين والضمير فى (قالوا) لأهل الكتاب و « أو » للتوزيع أو التنويع ، أى إن اليهود يدعون إلى اليهودية التى هم عليها و يحصرون الهداية فيها والنصارى يدعون إلى النصرانية التى هم عليها و يحصرون الهداية فيها — وهذا الأسلوب معهود فى اللغة ـ ولو صدق أى واحد منهما لما كان إبراهيم مهتديا لأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى والمهتدين لذلك قال تعالى ملقنا لنبيه البرهان الأقوى فى محاجتهم ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ أى بل نتبع أو اتبعوا ملة إبراهيم الذى لانزاع فى هداه ولا فى هديه ، فهى الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ . العريقة فى التوحيد والاخلاص بلا وثنية ولا شرك .

والحنيف فى اللغة : المائل . و إنما أطلق على إبراهيم . لأن الناس فى عصره كانوا على طريقة واحدةوهى الكفر، فخالفهم كلهم وتنكب طريقتهم ولايسمى المائل حنيفا إلا إذا كان الميل عن الجادة المعبدة وفى الأساس : من مال عن كل دين أعوج . و يطلق على المستقيم، و به فسر الكلمة بعضهم وأورد له شاهداً من اللغة وهو أقرب . ومن التأويلات البعيدة : ماروى من تفسير الحنيف بالحاج ووجه القول به أنه مما حفظ من دين إبراهيم .

الأستاذ الإمام : قال بعض المشتغلين بالعربية من الافرنج إن الحنيفية هى

ماكان عليه العرب من الشرك واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى فى زمن الجاهلية « إن فعلت هذا أكون حنيفيا » وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة وقد ناظرت بعض الافرنج فى هذا فلم يجد مايحتج به إلا عبارة ذلك النصرانى وهو الآن يجمع كل مانقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها ، ولا دليل فى كلمة النصرانى العربى على أن الكلمة تدل لغة على الشرك ، وإنما مراده بكلمته البراءة من دين العرب مطلقا. ذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء و ينتسبون إلى ابراهيم و يزعمون أنهم على دينه ،وكان الناس يسمونهم الحنفاء أيضاء والسبب فى التسمية والدعوى أن سلفهم كانوا على ملة ابراهيم حقيقة ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها ـ نسوا بعضها بالمرة وخرجوا ببعض آخر عن أصله ووصفه كالحج، ونفى الشرك عن ابراهيم فى آخر الآية احتراس من وهم الواهمين ، وتكذيب لدعوى المدعين .

أقول : لابدع أن ينسى الأميون ماكانوا عليه فان أهل الكتاب خرجوا بدينهم عن وضعه الأول فنسوا بعضا وحرفوا بعضا وزادوا فيه ونقصوا منه . فاليهود أضافوا التلمود إلى ماعندهم من التوراة وسموا مجموع ذلك مع تفاسيره وآراء أحبارهم فيه باليهودية . وأما النصارى فقد ظهر دينهم بشكل لورآه الحواريون الذين أخذوا الدين عن المسيح مباشرة لماعرفوا أى دين هو .وهؤلاء المسلمون على حفظ كتابهم فى الصدور والسطور يعملون باسم الدين أعمالا يظنها الجاهلون بدينهم أعظم أركان الدين ، وماهى من الدين و إنما هى بدع المضلين ، فالافرنج يكتبون فى رحلاتهم أن رقص المولوية ، من أعظم العبادات الإسلامية ، وأن مايكون فى جامع القلعة فى ليالى المولد والمعراج ونصف شعبان من الرقص والعزف بالطبول والدفوف وغيرها من أهم الشعائر الإسلامية ، وسماها بعضهم (الصلاة الكبرى) ولولا أن القرآن محفوظ وسنة الرسول وسيرة السلف الصالح مدونتان فى الكتب لنسينا الأصل واكتفينا بهذه البدع فان مئات الألوف التى تحج مشاهد أهل البيت والجيلانى بالعراق والبدوى وأمثاله بمصر كل عام لايقيم الصلاة

ويؤتى الزكاة ويحج البيت منهم إلا أقلهم ، ولهم فى عبادتهم الباطلة أخشع منهم فى عبادتهم المشروعة ، ولكن الله أراد بقاء هذا الدين وحفظه وسيرجع إلى كتابه الراجعون ، ويهتدى به المهتدون ولوكره المقلدون ، وعند ذلك تنقشع ظلمات هذه البدع التى هم فيها يتخبطون .

وقد توهم بعض العلماء أن هذا الجواب « بل ملة إبراهيم » الخ جاء على طريقة الإقناع وليس حجة حقيقية، ووجهوه بقولهم : إن أهل الكتاب يعاندون الحق ويكابرون فى معجزة النبى ﷺ فأمر الله نبيه بأن يلزمهم بالدلائل الاقناعية التى لايقدرون على مكابرتها والمراء فيها . والحق أن هذا الجواب حجة حقيقية ، وقد أشرنا إلى وجهها الوجيه أول الكلام فى تفسير الآية . وقد تجرأ كثير من العلماء على مثل هذا الكلام فى كثير من الآيات التى احتج بها القرآن حتى فى إثبات الوحدانية . والسبب فى ذلك: افتتانهم بالطريقة النظرية التى أخذوها عن كتب اليونان ، ولقد اهتدى بحجج القرآن الألوف وألوف الألوف وقلما اهتدى بتلك الأدلة النظرية المحضة أحد من الناس . وإنما تفيد فى دفع شبهاتهم التى يوردونها على العقائد ، ولا فائدة فيها سوى المراء والجدل . وقد محيت فى عصرنا تلك الشبهات، ورغب الناس عن هاتيك النظريات ،وقام بناء العلم على أسس الوقائع والحوادث والمجربات .

وقال الجلال : ان الآية نزلت فى يهود المدينة ونصارى نجران فهم القائلون ماذكر .والتحقيق أن الآية فى بيان طبيعة أهل الملتين كما تقدم ،وقول يهود المدينة ونصارى نجران ماذكر - إن صح - لا يقتضى التخصيص فإنهم ما قالوا إلا ماهو لسان حال ملتهم . وغيرهم يقول مثل قولهم ، أويصدق التأملين باعتقاده وسيرته

أمر الله النبى بان يدعو الى اتباع ملة ابراهيم ثم أمر المؤمنين بمثل ذلك فقال

﴿ قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل و إسحق و يعقوب والاسباط ﴾ أى لاتكن دعوتكم الى شىء خاص بكم يفصل بينكم و بين سائر أهل الأديان السماوية بل انظروا الى جهة الجمع والاتفاق ، وادعوا الى أصل الدين وروحه الذى لاخلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين ، مع

الاسلام لرب العالمين ، لانعبد إلا الله ، ولا نفرق بين أحد من رسل الله .

والأسباط أولاد يعقوب والفرق أو الشعوب الإثنى عشر المتشعبة منهم . قال تعالى (٧: ١٥٩ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما) وقد ورد أن أولاد يعقوب كانوا أنبياء ولم يرد أنهم كانوا مرسلين فان صح هذا كما يفهم من إطلاق الأستاذ الامام فى الدرس فالمراد بالأسباط الاطلاق الأول و إلا كان فى الكلام تقدير مضاف أى أنبياء الأسباط ، كأنه قال : وسائر أنبياء بنى إسرائيل وهو المختار ، ولم يصح فى نبوة غير يوسف من أبناء يعقوب شيء .

﴿ وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾ قال الأستاذ الامام و ههنا نكتة دقيقة فى اختلاف التعبير عن الوحى الذى منحه الله الأنبياء إذ عبر بأنزل تارة و بأوتى تارة أخرى ، وهى أن التعبير بأنزل ذكر هنا فى جانب الأنبياء الذين ليس لهم كتب تؤثر ، ولا صحف تنقل ، وذلك أن إنزال الوحى على نبى لا يستلزم إعطاءه كتاباً يؤثر عنه ، وهذا ظاهر إذا كان النبى غير مرسل فان الوحى إليه يكون خاصاً به ، و يكون إرشاده للناس أن يعملوا بشرع رسول آخر إن كان بعث فيهم رسول و إلا كان قدوة فى الخير وممداً للنفوس لبعثة نبى مرسل ، وأما النبى المرسل فقد يؤمر بالتبليغ الشفاهى ولا يعطى كتاباً باقياً وقد يكتب مايوحى اليه فى عصره فيضيع من بعده ، فهؤلاء الرسل الكرام الذين عبر عنهم بقوله (وما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحق و يعقوب والأسباط) لا يؤثر عن أحد منهم كتاب مسند صحيح ولا غير صحيح، وإنما نؤمن بأنهم كانوا أنبياء . وأن ما نزل عليهم هو دين الله الحق ، وأنه موافق فى جوهره وأصوله لما أنزل على من بعدهم . وما ذكر الله من ملة إبراهيم بالنص هو روح ذلك الوحى كله . وقد جاء فى سورة النجم وسورة الأعلى ذكر صحف لإبراهيم . وقال الجلال هنا: إنها عشر . فنؤمن أنه كان له صحف ولا نزيد على ماورد شيئاً، وأما اسماعيل و إسحق و يعقوب والأسباط فلم يثبت أن لهم صحفا ولا كتباً ، فنؤمن بما أنزل إليهم بالاجمال ونعتقد أنه عين ملة إبراهيم وجاء التعبير عن وحى الذين كان لهم كتب تؤثر بقوله (وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) فهو يشير بالايتاء إلى أن ما أوحى إليهم

له وجود يمكن الرجوع إليه والنظر فيه فان أقوامهم يؤثرون عنهم كتبا .

وأقول الآن : إن المراد الإيمان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين والمرسلين إجمالا ، وأنه كان وحيا من الله فلا نكذب أحداً منهم بما ادعاه ودعا اليه فى عصره ، بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعض . فان ذلك لايضرنا ، لأن الإيمان التفصيلي والعمل مقصور على ما أنزل إلينا ، فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة « أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال النبى ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (آمنا بالله) الآية » وروى ابن أبى حاتم فى تفسيره عن معقل بن يسار مرفوعا « آمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وليسعكم القرآن » وأما ما ذكره شيخنا من نكتة اختلاف التعبير فيشكل بقوله فى أول الآية (وما أنزل إلينا) أى معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعد (وما أوتى النبيون) ولم يعلم أنه كان لغير داود منهم كتاب منزل . على أن عدم العلم بكتب أنزلت على إبراهيم وإسماعيل وإسحق لايدل على عدم تلك الكتب . ولعل نكتة اختلاف التعبير أن يشمل ما أوتى موسى وعيسى تلك الآيات التى أيدهما بها كما قال (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) ثم قال (وما أوتى النبيون من ربهم) ليدل على أن ذلك لم يكن خاصا بموسى وعيسى والله أعلم

وقال بعد ماذكر الفريقين ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ أى سواء منهم من له كتاب يؤثر ومن ليس له ذلك ، نؤمن بالجميع إجمالا ونأخذ التفصيل عن خاتمهم الذى بين لنا أصل ملتهم التى كانوا عليها وزادنا من الحكم والأحكام . ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان ، والعمدة فى الدين على إسلام القلب لله تعالى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى مذعنون منقادون كما يقتضى الإيمان الصحيح ولستم كذلك أهل الكتاب وإنما أنتم متبعون لأهوائكم وتقاليدكم لا تحولون عنها

﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ قال صاحب الكشاف : إن الآية تعريض بأهل الكتاب وتبكيت لهم ، وقال الجلال : إن لفظ «مثل» زائد واستنكر الأستاذ الإمام ذلك واستكبره كعادته فانه يخطىء كل من يقول : إن فى القرآن كلمة

زائدة أو حرفا زائداً ، وقال : إن لمثل هنا معنى لطيفا ونكتة دقيقة. وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون بالله و بما أنزل على الأنبياء ولكن طرأت على إيمانهم بالله نزغات الوثنية ، وأضاعوا لباب ما أنزل على الأنبياء وهو الإخلاص والتوحيد وتزكية النفس والتأليف بين الناس ، وتمسكوا بالقشور وهي رسوم العبادات الظاهرة ونقصوا منها وزادوا عليها ما يبعد كلا منهم عن الآخر و يزيد في عداوته و بغضائه له ، ففسقوا عن مقصد الدين من حيث يدعون العمل بالدين . فلما بين الله لنا حقيقة دين الأنبياء وأنه واحد لا خلاف فيه ولا تفريق ، وأن هؤلاء الذين يدعون اتباع الأنبياء قد ضلوا عنه فوقعوا في الخلاف والشقاق ، أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوهم إلى الإيمان الصحيح بالله و بما أنزل على النبيين والمرسلين بأن يؤمنوا بمثل ما نؤمن نحن به لا بما هم عليه من ادعاء حلول الله في بعض البشر ، وكون رسولهم إلهاً أو ابن الله ومن التفرق والشقاق لأجل الخلاف في بعض الرسوم والتقاليد . فالذي يؤمنون به في الله ليس مثل الذي نؤمن به ، فنحن نؤمن بالتنزيه ، وهم يؤمنون بالتشبيه ، وعلى ذلك القياس ، فلو قال : فإن آمنوا بالله و بما أنزل على أولئك النبيين وما أوتوه ، فقد اهتدوا . لكان لهم أن يجادلونا بقولهم : إننا نحن المؤمنون بذلك دونكم ، ولفظ «مثل» هو الذي يقطع عرق الجدل .

على أن المساواة في الإيمان بين شخصين بحيث يكون إيمان أحدهما كإيمان الآخر في صفته وقوته وانطباقه على المؤمن به وما يكون في نفس كل منهما من متعلق الإيمان يكاد يكون محالا فكيف يتساوى إيمان أمم وشعوب كثيرة مع الخلاف العظيم في طرق التعليم والتربية والفهم والإدراك. ولو كانت القراءة : فإن آمنوا بما آمنتم به . كما روى عن ابن عباس في الشواذ لكان الأولى أن يقدر المثل فكيف نقول وقد ورد لفظ مثل متواتراً : إنه زائد ؟

﴿ وإن تولوا ﴾ أي أعرضوا عما تدعوهم إليه من الرجوع إلى أصل دين الأنبياء ولبابه بإيمان كإيمانكم ﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ أي إن أمرهم محصور في المعاداة والمشاقة أي الإيذاء والإيقاع في المشقة أو شق العصا بتحري الخلاف والتعصب لما يفصلهم و يبينهم منكم ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ أي يكفيك إيذاءهم ومكرهم

السيء ويؤيد دعوتك ، وينصر أمتك ، فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين وإن كان الخطاب خاصاً . فإن أهل الكتاب وغيرهم ماشاقوا النبى لذاته وما كان لهم حظ فى مقاومة شخصه ، فالإيذاء كان متوجها إليه من حيث هو نبى يدعو إلى دين غير ما كانوا عليه . وقد أنجز الله وعده للنبي والمؤمنين عند ما كانوا على ذلك الإيمان وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرفوا من بعدهم عنه خرجوا عن الوعد، ولو عادوا لعادالله عليهم بالكفاية والنصر (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز)

﴿صبغة الله﴾ أى صبغنا بما ذكر من ملة ابراهيم صبغة الله وفطرته فطرنا عليها وهى ماصبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده على سنة الفطرة فلا دخل فيها للتقاليد الوضعية ولا لآراء الرؤساء وأهواء الزعماء ، وإنما هو من الله تعالى بلا واسطة متوسط ولا صنع صانع . والصبغة فى أصل اللغة صيغة للهيئة من صبغ الثوب إذا لونه بلون خاص ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أى لا أحسن من صبغته فهى جماع الخير الذى يؤلف بين الشعوب والقبائل ، ويزكى النفوس ويطهر العقول والقلوب . وأما ما أضافه أهل الكتاب إلى الدين من آراء أحبارهم ورهبانهم فهو من الصنعة الإنسانية ، والصبغة البشرية ، قد جعل الدين الواحد مذاهب متفرقة مفرقة ، والأمة الواحدة شيعاً متنافرة متمزقة ﴿ونحن له﴾ وحده ﴿عابدون﴾ فلا نتخذ أحبارنا وعلماءنا أربابا يزيدون فى ديننا وينقصون ، ويحلون لنا بآرائهم ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا صبغة الله الموجبة للتوحيد ، ويثبتون مكانها صبغة البشر القاضية بالشرك والتنديد .

قال الأستاذ الإمام : والآية تشير إلى أنه لا حاجة فى الإسلام إلى تمييز المسلم من غيره بأعمال صناعية كالمعمودية عند النصارى مثلا ، وإنما المدار فيه على ماصبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص وحب الخير والاعتدال والقصد فى الأمور (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون)

---

(١٣٩) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا .

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٤٠) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى؟ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤١) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

هذا ضرب آخر من محاجة أهل الكتاب جار على نسق سابقه مؤتلف معه متصل به غير منقطع ولا نازل فى واقعة خاصة للرد على كلمات قالها اليهود كما ذهب اليه (الجلال) وغيره، إذ قالوا : إن اليهود قالوا يجب أن يكون جميع الناس تابعين لنا فى الدين لأن الأنبياء منا والشريعة نزلت علينا ولم يعهد فى العرب أنبياء ولا شرائع . نعم لا ننكر صدور هذا القول من اليهود فانهم كانوا يقولون مثله دائما وإنما نقول إن الآيات متناسقة مع ماقبلها متممة له مزيلة لشبهات كانت فاشية فى القوم فى كل مكان ، لاخاصة برد قول لأحد يهود الحجاز .

الآيات السابقة بينت أن الملة الصحيحة هى ملة إبراهيم وهى لم تكن يهودية ولا نصرانية ، وإنما هى صبغة الله التى لاصنع لأحد فيها ، بل هى بريئة من اصطلاحات الناس وتقاليد الرؤساء ، فهى الجديرة بالاتباع ، ولكن التقاليد والأوضاع قد طمستها بعد ماجرى الأنبياء عليها ، وحلت تلك التقاليد محلها حتى ذابت هى فيها وخفيت فلم تعد تعرف ، ولذلك جاء محمد عليه الصلاة والسلام ببيانها ، ودعوة الناس إلى الرجوع إليها ، فبين تعالى بتلك المحاجة الحق الذى يجب التعويل عليه ، ثم أخذ فى هذه الآيات يزيل الموانع ويبطل الشبهات المعترضة فى طريق ذلك الحق ، فأمر نبيه بما ترى من الحجة فى قوله :

﴿ قل أتحاجوننا فى الله ﴾ بدعوا كم الاختصاص بالقرب منه وزعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، ومن أين جاءكم هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ ورب العالمين ، فنسبة

الجميع إليه واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، وهو الرب وهم المربوبون ، وإنما يتفاضلون بالأعمال البدنية والنفسية ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ التى تختص آثارها بنا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ كذلك ، وروح الأعمال كلها الإخلاص فهو وحده الذى يجعلها مقربة لصاحبها من الله تعالى ووسيلة لمرضاته ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ من دونكم ، فانكم اتكلتم على أنسابكم وأحسابكم ، واغتررتم بما كان من صلاح آبائكم وأجدادكم ، واتخذتم لكم وسطاء وشفعاء منهم تعتمدون على جاههم ، مع انحرافكم عن صراطهم ، وما هو إلا التقرب إلى الله تعالى باحسان الأعمال ، مع الإخلاص المبنى على صدق الإيمان ، وهو ماندعوكم إليه الآن ، فكيف تزعمون أن الإدلاء إلى ذلك السلف الصالح بالنسب ، والتوسل إليهم بالقول هو الذى ينفع عند الله تعالى ، وأن الاستقامة على صراطهم المستقيم والتوسل إلى الله تعالى بما كانوا يتوسلون إليه به من صالح الأعمال والإخلاص فى القلب لاينفع ولا يفيد ، وما كان سلفكم مرضياً عندالله تعالى إلا به ؟ هل كان ابراهيم مقربا من الله تعالى بأبيه آزر المشرك ، أم كان قربه وفضله باخلاصه واسلام قلبه إلى ربه ؟ وكما جعل الله النبوة فى ابراهيم وجعله إماما للناس فى الإسلام والاخلاص جعلها كذلك فى محمد ﷺ ، فاذا صح لكم إنكار نبوة محمد لأنه لم يكن فى سلفه العرب أنبياء فأنكروا نبوة ابراهيم ، فان العلة واحدة ، فكيف لا يتحد المعلول ؟

وحاصل معنى الآية : ابطال معنى شبهة أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنه لا ينجو من كان على غير طريقتهم وإن أحسن فى عمله وأخلص فى قصده ، وأنهم هم الناجون الفائزون وإن أساءوا عملا ونية ، لأن أنبياءهم هم الذين ينجونهم ويخلصونهم بجاههم ، فالفوز عندهم بعمل سلفهم ، لا باصلاح أنفسهم ولا أعمالهم وهذا الاعتقاد هدم لدين الله الذى بعث به جميع أنبيائه ودرج عليه من اتبع سبيلهم ، فان روح الدين الألهى وملاكه هو التوحيد والإخلاص المعبر عنه بالإسلام وكل عمل أمر به الدين فانما الغرض منه اصلاح القلب والعقل بسلامة الاعتقاد وحسن القصد ، فاذا زال هذا المعنى وحفظت جميع الأعمال الصورية فإنها لاتفيد شيئاً ، بل إنها تضر بدونه ، لأنها تشغل الإنسان بما لا يفيد ، وتصده عن المفيد

ولا شك أن أهل الكتاب كانوا قد أزهقوا هـذا الروح الالهي من دينهم فسواء كان ماحفظوه من التقاليد والأعمال مأثوراً عن أنبيائهم أم غير مأثور ، إنهم ليسوا على دين الله ، ومن كان على بصيرة منهم عرف أن ماجاء به محمد ﷺ هو إحياء لروح الدين الذى كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين . وتكميل لشرائعه وآدابه بما يصلح لجميع البشر فى كل زمان ومكان .

ثم إن من تأمل هذا وتأمل حال المسلمين يظهر له أنهم قد اتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع ، وسيرجع من يريد الله بهم الخير إلى دين الله تعالى بالرجوع إلى كتابه الذى حرم عليهم تقليد آراء الناس فجازوه بأن حرموا العمل به ، كما رجع الألوف وألوف الألوف من أهل الكتاب إلى ذلك فى القرون الأولى من ظهور الإسلام وسيرجع غيرهم من سائر البشر إليه فيم العالمين (ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق و يعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ ﴾ قال الأستاذ الامام : ان «أم» هنا معادلة لما قبلها خلافا للجلال ومن على رأيه القائلين : إنها بمعنى بل — كأنه قال : أتقولون إن هذا الامتياز لكم علينا والاختصاص بالقرب من الله دوننا هو من الله والحال أنه ربنا وربكم الخ ؟ أم تقولون: إن امتياز اليهودية أو النصرانية التى أنتم عليها بأن ابراهيم واسماعيل واسحاق و يعقوب والاسباط كانوا عليها ؟ إن كنتم تقولون هذا فان الله يكذبكم فيه، وأنتم تعلمون أيضاً أن اسمى اليهودية والنصرانية حدثا بعد هؤلاء ، بل حدث اسم اليهودية بعد موسى واسم النصرانية بعد عيسى كما حدث لليهود تقاليد كثيرة صار مجموعها مميزاً لهم . وأما النصارى فجميع تقاليدهم الخاصة بهم المميزة للنصرانية حادثة ، فان عيسى عليه السلام كان عدو للتقاليد ، ولهذا كان النصارى على كثرة ما أحدثوا أقرب إلى الإسلام ، لأنهم لم ينسوا جميعاً كيف زلزل روح الله تقاليد اليهود الظاهرة ما كان منها فى التـوراة وما لم يكن ، ولـكن الذين ادعوا اتبـاعه زادوا عليهم من بعده فى ابتداع التقاليد والرسوم .

وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الرد على اليهود، إذ كانوا يقولون: إن ابراهيم كان يهوديا ، وعلى النصارى إذ كانوا يقولون : إنه كان نصرانيا . قال

الأستاذ الامام: وهذا غير صحيح . كلا إن الآية نزلت في إقامة الحجة عليهم بأنهم يعتقدون أن ابراهيم كان على الحق وأن ملته هي الملة الالهية المرضية عند الله تعالى وإذا كان الأمر كذلك وكانت هذه التقاليد التي تقلدوها غير معروفة على عهد ابراهيم فما بالهم صاروا ينوطون النجاة بها ويزعمون أن ما عداها كفر وضلال ؟ فهو لايثبت لهم القول بأن ابراهيم كان يهودياً أو نصرانيا وإنما يقول انهم لايقدرون على القول بذلك لان البداهة قاضية بكذبهم فيه ، ولذلك قال لنبيه ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ أي إذا كان الله قد ارتضى للناس ملة ابراهيم باعترافكم وتصديق كتبكم وذلك قبل وجود اليهودية والنصرانية فلماذا لا ترضون أنتم تلك الملة لأنفسكم ؟. أأنتم أعلم بالمرضي عند الله أم الله أعلم بما يرضيه ومالا يرضيه ؟ لاشك أن الله يعلم وأنتم لاتعلمون وقد صرح ابن جرير الطبري بان قراءة (أم يقولون) بالتحتية شاذة وعلى القول بانها سبعية يكون في الكلام التفات (وأقول) قراءة التاء هي لابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وهي للخطاب ، وقراءة الياء للباقين فلا عبرة بعد ابن جرير اياها شاذة

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ ﴾ في هذا الاستفهام وجهان أحدهما أنه متمم لما قبله من إقامة الحجة بملة ابراهيم ، يقول إن عندكم شهادة من الله بان ابراهيم كان على حق وكان مرضيا عند الله تعالى فاذا كتمتم ذلك لأجل الطعن بالإسلام فقد كتمتم شهادة الله وكنتم أظلم الظالمين ، وإذا اعترفتم به فاما أن تقولوا إنكم أنتم أعلم من الله بما يرضيه ، وإما أن تقوم عليكم الحجة وتحق عليكم الكلمة ان لم تؤمنوا بما تدعون اليه من ملة ابراهيم ، وأحد الأمرين ثابت ، لايقبل مراوغة مباهت.

والوجه الثاني – وهو أظهر – أن الشهادة المكتومة هي شهادة الكتاب المبشرة بأن الله يبعث فيهم نبياً من بني اخوتهم وهم العرب أبناء اسماعيل ، وكانوا ولايزالون يكتمونها بالانكار على غير المطلع على التوراة وبالتحريف على المطلع ، فهو يبين هنا – بعد إقامة الحجة بابراهيم على أن زعمهم حصر الوحي في بني إسرائيل باطل – أن هناك شهادة صريحة بأن الله سيبعث فيهم نبيا من العرب : فكان هذا دليلا ثالثا وراء الدليل العقلي المشار اليه بقوله (وهو ربنا وربكم) والدليل الالزامي المشار اليه بقوله (أم تقولون إن ابراهيم وإسماعيل) الخ ، فكأنه يقول :

إن هؤلاء إلا مجادلون فى الحق بعد ما تبين ، مباهتون للنبي مع العلم بأنه نبي، اذ ما كان لهم أن يشتبهوا فى أمره بعد شهادة كتابهم له ، فاذا كان ظلمهم أنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم ، وهو كتمان شهادة الله تعالى تعصبا لجنسيتهم الدينية التى ارتبط بها الرؤساء بالمرؤسين بروابط المنافع الدنيوية من مال وجاه فكيف ينتظر منهم أن يصغوا الى بيان ، أو يخضعوا لبرهان ؟ والاستفهام هنا يتضمن التوبيخ والتقريع، المؤكدين بالوعيد فى قوله ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ و إنما الجزاء على الأعمال ، ثم ختم المحاجة بتأكيد أمر العمل وعدم فائدة النسب فقال

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون ﴾ وانما تسئلون عن أعمالكم وتجازون عليها ، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها ، وهذه قاعدة يثبتها كل دين قويم ، وكل عقل سليم ، ولكن قاعدة الوثنية القاضية باعتماد الناس فى طلب سعادة الآخرة و بعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين تغلب مع الجهل كل دين وكل عقل ، ومنبع الجهل التقليد المانع من النظر فى الأدلة العقلية والدينية جميعا ، اللهم إلا مكابرة الحس والعقل ، وتأويل نصوص الشرع، تطبيقا لها على مايقول المقلَّدون المتبَعون (بفتح اللام والباء) وقد أول المؤولون نصوص أديانهم تقريراً لاتباع رؤسائهم والاعتماد على جاههم فى الآخرة لذلك جاء القرآن يبالغ فى تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها وفى الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم فى العمل الصالح ، ولذلك أعاد هذه الآية بنصها فى مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الأنبياء العظام، المعتمدين على شفاعتهم وجاههم و إن قصروا عن غيرهم فى الأعمال. وفائدة الاعادة تأكيد تقرير قاعدة بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء، بحيث لا يطمع فى تأويل القول طامع، والاشعار بمعنى يعطيه السياق هنا و هو أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفة لأعمال سلفهم من الأنبياء فهم فى الحقيقة على غير دينهم

وقد سبق القول بأن الآية أفادت فى وضعها الأول أن ابراهيم و بنيه وحفدته قد مضوا إلى ربهم بسلامة قلوبهم و إخلاصهم فى أعمالهم ، وانقطعت النسبة بينهم و بين من جاء بعدهم، فتنكب طريقهم وانحرف عن صراطهم، و إن أدلى اليهم بالنسب

فكل واحد من السلف والخلف مجزى بعمله لا ينفع أحداً منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذلك الغير ولا شخصه بالأولى ، وذلك أنها جاءت عقب بيان ملة ابراهيم وإيصاء بعضهم بعضا بها و بيان دروجهم عليها ، ثم جاء بعد ذلك الاحتجاج على القوم بمن يعتقدون فيهم الخير والكمال وكونهم لم يكونوا على هذه اليهودية ولا هذه النصرانية اللذين حدثتا بعدهم ، فجاءت قاعدة الأعمال فى هذا الموضع تبين أن المتخالفين فى الأعمال والمقاصد لايكونون متحدين فى الدين ولا متساوين فى الجزاء ، فأفادت هنا مالم تفده هناك . وللمسلمين أن يحاسبوا أنفسهم ، ويحكموا قاعدة العمل والجزاء بينهم و بين سلفهم ، ولا يغتروا بالتسمية إن كانوا يعقلون

وأزيد على ماتقدم أن انتفاع الناس بعضهم ببعض فى الدنيا إنما يكون بمقتضى سنن الله تعالى فى الأسباب والمسببات ، ومن المعلوم شرعاً وعقلا : أن الميت ينقطع عمله بخروجه من عالم الأسباب إلى البرزخ من عالم الغيب ، وأما الآخرة فلا كسب فيها ، وأمرها إلى الله وحده ظاهراً وباطنا ، كما قال تعالى (٨٢ : ١٩ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله)

﴿ استدراكات وبيان لأغلاط معنوية فى هذا الجزء ﴾

(١)

فى أواخر ص٤٨ : أقول إن هذه الأمثلة تؤيد ماقاله الأستاذ الإمام إلخ وهذا القول لا يصح على إطلاقه فان كلام ابن القيم مخالف لكلام شيخنا من بعض الوجوه كما يعلم من بياننا لكل منهما وزد على ذلك ان اسم «الرحمن» جاء فى التنزيل ثانيا لاسم الذات «الله» فهو لا يلاحظ فيه تعلق الرحمة بالمرحومين فعلا كما يدل عليه استعماله فى مقامات ليست من موضوع الرحمة بل بعضها عام و بعضها فى موضوع العذاب كقوله تعالى فى حكاية إنذار ابراهيم لأبيه (ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) وقوله (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وقوله (وخشى الرحمن بالغيب) وقوله (إن يردن الرحمن بضر) ومن الآيات التى موضوعها عام ماورد فى الرد على من قالوا «اتخذ الله ولداً» فحكى قولهم باسم الرحمن كما حكاه باسم الله

(٢)

أشرنا فى ص ٥٤ إلى حديث الأجر على حروف القرآن فى التلاوة ولم نذكر تخريجه كعادتنا، وهو فى الترمذى من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا من طريق محمد بن كعب القرظى بلفظ « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول «ألم» حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ثم قال: روى من غير هذا الوجه عن أبى الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم ووقفه بعض . اه أقول : وهو فى مستدرك الحاكم بلفظ « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . ان هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما انى لا أقول «ألم» حرف ولكن ألف ولام وميم » قال الحاكم هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بصالح بن عمر . اه . أقول: رواه من طريق صالح بن عمر عن ابراهيم بن مسلم الهجرى ــ بفتح الهاء والجيم ــ قال الحافظ الذهبى فى تلخيصه: صالح ثقة خرج له مسلم ولكن ابراهيم بن مسلم ضعيف اه أقول: ومما أخذ عليه رفع عدة أحاديث موقوفة

وفى ص ٥٨ الاستشهاد بحديث « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » من سياق شيخنا غير مخرج، وهو فى الكبير للطبرانى من حديث ابن عباس وسنده ضعيف

(٣)

قولنا فى القاعدة الأولى (فى ص ١١١) ولكنه فى الدنيا اضافى مطرد فى الأمم الخ فيه ضعف وإبهام اجمال ، والمراد به الوعد بسعادة متبع هدى الله عز وجل باعتبار متعلقه ، أعنى أن الأمم المهتدية بالدين تكون سعيدة بالنسبة إلى الأمم غير المهتدية باطراد، وأما الأفراد فتكون سعادتهم حتى بالاضافة الى غير المهتدين غير مطردة، فان منهم من يصيبه من الأمراض وشدة الفقر والبؤس ما يكون به أسوأ حالا من بعض غير المهتدين إلا أن يعتبر فى المقابلة بين كل فردين من المهتدين وغير المهتدين تساويهما فى الأحوال البدنية والاجتماعية والمعاشية فحينئذ يكون المهتدى أسعد من غيره بالحالة النفسية لأنه يكون أصبر على البؤس والضراء من غير المهتدى. وهذا أمر خفى لا تظهر به سعادة بعض الأفراد على بعض للناس ، ويراجع ما يدل على هذه القاعدة من هذا الجزء بالاستعانة بالفهرس العام، كلمة السعادة فى حرف السين وكلمة الدين فى حرف الدال

(٤)

قولنا فى السطر الرابع من ص ١٢٠ « وكله من ثمرات الايمان » جملة خبرية معترضة بين قولنا « ان الايمان » وما عطف عليه وبين خبر إن الذى هو « سببان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير » وقولنا فى السطر الثامن من هذه الصفحة « ومنها تعليل تحريم الربا » خطأ صوابه ومن أدلتها تعليل الخ وقولنا فى السطر العاشر « فان الذى يقرض المحتاج » الخ صوابه : فان الذى كان يقرض المحتاج إلى أجل كان يقول له إذا حل الأجل : إما أن تقضى الخ

(٥)

فى ص ٢٠٩ إيراد فى ادعاء كهنة أهل الكتاب أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة، والجواب عنه ، ولكن الجواب لم يبين فيه كل مايجب بيانه ولا أهمه ، وهو أن علماء اللاهوت لايدعون ما ذكر فى الايراد بل يصرحون بأن فيها مسائل كثيرة مخالفة لما هو مقرر فى العلوم والفنون والتاريخ ولكن هذه المخالفة لاتنافى عندهم صحة الدين ولا قداسة هذه الكتب لأن المسائل المذكورة ليست من أمور الدين التى تتعلق بها عصمة الأنبياء عليهم السلام . وقد طرقنا أبواب هذا البحث فى (المنار) مراراً وتغلغلنا فيها أحياناً. ومن ذلك مقال نشرناه فى الجزء الثانى من المجلد السادس (صفحة ٣٢١) عقب ما كتب فى شأن عثور بعض علماء الآثار العادية من الالمان على شريعة حمورابى منقوشة على عمود من صم الصفا فى العراق ، فقد ظهر لهم أن معظم شريعة التوراة موافقة لهذه الشريعة ، كما ظهر لبعض المحققين منهم أن أسفار هذه التوراة مشتملة على المئات أو الالوف من الألفاظ البابلية المحضة ، فجزم الأحرار من هؤلاء الباحثين بأن التوراة مقتبسة ليست وحيا من الله تعالى. وقد صرح بذلك العلامة اللاهوتى الاثرى (دليتش) أحد اعضاء جمعية الشرق فى خطبة له (محاضرة) حضرها قيصر ألمانية (غليوم الثانى) والقيصرة وجماهير العلماء والكبراء وقد صرح هذا العالم الألمانى الكبير فى خطبته ـ أو محاضرته ـ هذه بما استنتجه مما ذكره ، وهو أنه لا حاجة إلى دين وراء وجدان الخير المغروس فى الفطرة قائلا « إنما نضع أيدينا على قلوبنا ولا نحتاج إلى وحي غير الوحى الذى يصدر عنها » وقد أنكرت الصحف الدينية عليه طعنه، وعلى القيصر المشهور بالتدين أنه جالسه بعد

إلقاء الخطبة ولا طفه ولم ينكر عليه هدمه لصرح الدين من أساسه فكتب القيصر إلى صديقه الأميرال (هولمن) كتابا طويلا يثبت فيه تمسكه بالدين كما اشتهر عنه ومما قاله فيه :

« من البديهي عندي أن التوراة تحتوي على عدة فصول تاريخية . وهي من البشر لا من وحي الله ، ومن ذلك الفصل الذي ورد فيه أن الله أعطى موسى على جبل سيناء شريعة بني إسرائيل فإني أعتقد أنه لا يمكن اعتبار تلك الشريعة موحى بها من الله إلا اعتباراً شعريا رمزيا لأن موسى قد نقل تلك الشرائع عن شرائع أقدم منها على الأرجح ، وربما كان أصلها مأخوذاً من « شرائع حمورابي » - إلى أن قال : - وإني أستنتج مما تقدم ما يأتي :

«(١) إني أؤمن بإله واحد (٢) إننا معشر الرجال نحتاج في معرفة هذا الإله إلى شيء يمثل إرادته ، وأولادنا أشد احتياجا منا إلى ذلك (٣) إن الشيء الذي يمثل إرادة الله عندنا هو التوراة التي وصلت إلينا بالتقليد . وإذا فندت المكتشفات الأثرية بعض رواياتها وذهبت بشيء من رونق تاريخ الشعب المختار - شعب إسرائيل - فلا ضير في ذلك لأن روح التوراة يبقى سليما مهما يطرأ على ظاهرها من الاعتلال والاختلال . وهذا الروح هو الله وأعماله .

« إن الدين لم يكن من محدثات العلم فيختلف باختلاف العلم والتاريخ ، وإنما هو فيضان من قلب الانسان ووجدانه بما له من الصلة بالله » اهـ المراد منه

وقد بينا في تعليقنا على كتاب القيصر هذا وفي مقالات أخرى في المنار وفي تفسيرنا هذا بأن مجموع ما ثبت عند علماء التاريخ والآثار العادية وسائر العلوم في شأن التوراة - وكذا الانجيل - يؤيد حكم القرآن فيهما وفي أهلهما وهو أن الفريقين أوتوا نصيبا من الكتاب الالهي لا الكتاب كله ، وأنهم نسوا حظا عظيما منه ، وأنهم حرفوا ما عندهم منه . فعقلاء الافرنج وعلماؤهم المتدينون يرون أن ما بقي فيه من النور والهدى وسيرة الأنبياء تجب المحافظة عليه والاهتداء به . ولولا الجهل بحقيقة الاسلام من بعضهم والعصبية السياسية من بعض لآمنوا بالقرآن الذي سبقهم كلهم إلى تصفية سيرة أولئك الأنبياء الكرام من الشوائب ، وبيانه لخلاصة هداهم وطرحه ما عدا ذلك ثم تكميله للهدى والنور المأثور عنهم حتى كانت النسبة بين نورهم ونوره كالنسبة بين نور سراج الزيت ونور الكهرباء بل نور الشمس على أنه أوحي إلى رجل أمي لم يقرأ من تلك الكتب ولا غيرها شيئا

الله أكبر إن دين محمد　　وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا

على أنهم سيلجؤون أو سوف يأوون إلى حظيرة الاسلام ونور القرآن على حين نرى مقلدتهم من ملاحدة المسلمين يمرقون من الاسلام تقليدا لأحرارهم الذين مرقوا من النصرانية بعد أن عجزوا عن التوفيق بين حقائق العلم ونصوص كتبهم ، فانظر إلى هذا العمى والارتكاس فى قوم ينبذون الدين الذى أيده العلم والتاريخ بما يعده معجزة له ، تقليداً لقوم ينبذون دينهم لمخالفة العلم والتاريخ له

عمى القلوب عموا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليداً

(وليراجع القارىء فى هذا البحث نفسه ص ٢١٢ـ ٢١٤ من هذا الجزء نفسه)

(٦)

ذكرت فى ص ٢٩٤ ما قاله الأستاذ الامام فى تفسير (واركعوا مع الراكعين) بعد الأمر باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وفاتنى ان أذكر ما أفهمه أنا فى هذا الأمر بعد الأمرين هو أنه أمر بصلاة الجماعة أى وصلوا مع المصلين لا فرادى ، وهو يؤيد بظاهره قول من قال بوجوبها . ويصح الجمع بينه وبين ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى . ويأتى مثله فى أمر مريم عليها السلام بذلك وحينئذ لا يحتاج إلى بيان حكمة أو نكتة لقوله تعالى (مع الراكعين) دون الراكعات لأن تغليب الذكور فى صلاة الجماعة أظهر من تغليبهم فى الصلاة مطلقاً .

(٧)

تكرر فى هذا الجزء ويتكرر فى سائر الأجزاء الكلام فى جعل الدين عصبية جنسية ورابطة من الروابط السياسية وأن اليهود والنصارى قد فعلوا هذا من قبل فاتبع المسلمون سنتهم فيه . وأن هذا لا ينفع أصحابه فى الآخرة وقد يضرهم إذا خالفوا الحق أو اتبعوا الباطل لمحض العصبية وإنما ينفعهم هنالك الإيمان الصحيح والعمل الصالح ونزيد على ذلك : أن الجمع بين هذا وبين التمسك بالجنسية الدينية بالحق لا بالعصبية الجاهلية مما تتم به قوة الحق والدين . والله يتولى المتقين .

﴿ تم طبع هذا الجزء لأول مرة بفضل الله وحمده فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ ﴾

وكان قد نشر مختصراً متفرقا فى مجلدات المنار من الثالث (كما تقدم فى فاتحتنا) إلى الجزء الثانى من المجلد السابع الذى صدر فى غرة صفر سنة ١٣٢٢ وقد ظهر لنا بعد طبعه بعض الخطأ والابهام فبيناه فيما ترى .

﴿ وتمت الطبعة الثانية فى شهر ذى الحجة ١٣٦٦ ﴾

﴿ تم والحمد لله ﴾

خطأ وصواب

تفسير المنـــار جزء أول

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	١٠	صاقين	صادقين
٤	١٧	الدين	الذين
٥	١٧	الآيات	لآيات
٩	٢٠	حرفوا فيه	حرفوا فيها
١٦	٤	إرث	إرث الله
١٦	٦	فصيح	صحيح
١٧	١٥	تابع له وداء	تابع له
١٩	١٢	طالب	طلب
١٩	١٦	الاصلاح	الاصطلاح
٢٣	١٠	الواحدة	الوحدة
٣١	٥	واجب	فهو واجب
٣٧	٢٠	وللفاتحة	والفاتحة
٣٩	١٩	قال	قال قال
٤٢	١٢	مسميات	مسمياتها
٤٤	٦	مايقرره	ما يقرر
٥٩	٤	مخ	من مخ
٦٨	٨	والعلمية	والعملية
٧٢	١٩	إيتـار	إيثار
٧٣	٢٥	بذاته	لذاته
٧٥	رأس الصفحة	صفة	صفتى
٧٧	٢٢	إن الله	إن لله

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٠	٤	لايضح	لايصح
٨٩	١٣	يستحضر	فلم يستحضر
٩٤	٢	فيعد	فبعد
١٠١	٩	أبو قاسم	أبو القاسم
١٠١	١٩	وأخذالثالثة	وأخذفي الثالثة
١٠٩	١٤	والأقزبين	والأقربين
١١٣	٨	اتبعو	اتبعوا
١١٤	٥	آبائنا	آباءنا
١١٤	٢٢	يجعل	بجعل
١١٥	١١	أمرتهم	أمرتكم
١٢٠	١٨	وضعها	بوضعها
١٢٢	٤	رضي الله عنه	كرم الله وجهه
١٣٣	٢٠	قوله: ويتضمن الى قوله: على الاعمال سطر ٢١ مكرر	
١٣٨	١٠	رضي الله عنه	كرم الله وجهه
١٣٩	رأس الصفحة	س ١	س ٢
١٣٩	٤	أبلغ	بلغ
١٣٩	٩	الايمان	الايمان به
١٤٠	٣	بعد	بعدم
١٤٠	١٢	واستهزاءاً	أو استهزاءاً
١٤٠	١٨	شبهه	شبهته

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٢	٧	فرسوخهم	لرسوخهم
١٤٥	٦ هامش	تحامى	تتحامى
١٥١	٤	النهج	المنهج
١٥٣	١	إلى تحسين	لا إلى تحسين
١٥٣	١٧	ينطق	ينطبق
١٥٧	٨	المقلد	المقلدين
١٦٠	٦	سننهم	سنتهم
١٦٠	٨	أم لاسلف	أم من لاسلف
١٦٧	١	اشتراه	اشتراء
١٧٠	٧	لينفعه	ينفعه
١٧١	١١	وعاقوا	وعافوا
١٧٢	١١	قراره	قرار
١٧٢	٢٠	ويجمون	ويجنون
١٧٦	رأس الصفحة	الكهله باء	الكهرباء
١٧٦	٢٥	للفصل	الفصل
١٧٩	٤	المعنين	المعنيين
١٧٩	٢٠	مخصوصون	مخصوصين
١٨١	٤	أتباعهم	إتباعهم
١٨٥	٢٥	لا يكن	لا يمكن
١٨٧	١٦	بعض	ببعض
١٩٤	١٥	إعجاز	إعجازه
١٩٦	٣	بعدارة	بعداره
١٩٦	١٤	يحذوا	يحذو
١٩٩	رأس الصفحة	تألفها	تأليفه
١٩٩	١٤	ما أبدوا	ما ابدؤا
١٩٩	١٧	المثنين	المثين
٢٠٠	٥	وتقول	ونقول
٢١٢	٧	تفكير	تفكر
٢١٦	١١	المنفقين	المتقنين
٢١٩	٩	بعمل	بعمل غريب
٢١٩	٢١	يخلوا	يخلو
٢٢٠	١٣	من قبل	بأنه من قبل
٢٢٢	٦	الحق	الحق
٢٢٧	١٠	المؤمنين	المؤمنون
٢٣٠	٣	المصنفين	المتفننين
٢٣١	٢٤	دار الخلود	دارا الخلود
٢٣٢	٥	لكل	للكل
٢٣٤	١٢	اثنين	اثنتين
٢٣٦	٢٤	ينفرد	ينفر
٢٣٨	١١	المتطرفين	المتظارفين
٢٣٩	١٩	ذكرنا	ذكر
٢٤٠	١	أن	وأن
٢٤٤	١٥	بملذات	بلذات
٢٤٥	١١	وحياتكم	وحياتيكم
٢٤٦	٢٢	أن وجوه	إن وجوه
٢٤٦	٦	والتوجيه	والتوجه
٢٥٨	١٥	فدحرهم	فدمرهم
٢٦٢	١٧	بعدم	لعدم
٢٦٤	١٩	تمتاز	تمتاز
٢٦٦	١١	وخطأ	وخطاه
٢٧٧	١٣	لاتنطبق	لاتنطبق
٢٧٨	رأس الصفحة	وزوجته	وزوجه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٤	١١	ما يقربه	ما يقاربه
٢٨٧	٨	ستشبع	تستشبع
٢٨٧	١٨	هدى	هداى
٢٨٨	٢	تجعلها	نجعلها
٢٩٠	٢	الحجج	الحجة
٢٩٥	٢٩	إخوانهم	إخوتهم
٣٠٦	٢١	والمحرفة	والمحرقة
٣٠٧	٧	مطلقة	مطلقا
٣٠٨	٢٢	الفرد	المفرد
٣١١	هامش ٢	اصلاح	اصطلاح
٣١٣	٥	ويتسلل	ويتسلسل
٣١٥	٧	أرشد	أرشده
٣٢٨	٧	آباؤهم	آباءهم
٣٣٠	٢	الذل	الذلة
٣٣٢	٢١	يقتلون	ويقتلون
٣٣٧	٢	ظاهره	ظاهرة
٣٤٠	٣	فرقهم	قرعهم
٣٤٠	٨	الاطماع	ذلك الاطماع
٣٤١	٢٠	الحجة	لحجة
٣٥٦	١٩	لأمم	لا أمم
٣٥٦	٢٠	بها	بهما
٣٦٠	٣	الأنسخة	إلا نسخة
٣٦٣	١١	لا يحيط	لاتحيط
٣٦٤	١٦	الأحال	الآجال
٣٦٤	١٧	أخذَنا	أخذْنا
٣٦٥	رأس الصفحة	موضع	موضوع
٣٧٠	»	١	ج ١
٣٧٧	»	ببلاغة	بلاغة
٣٧٨	١	بمفومها	بمفهومها
٣٨٠	١٦	قليلا	فقليلا
٣٨٢	١٨	واحدا	واحد
٣٩٢	١١	وفيه	فيه
٣٩٥	٨	يتوجهون	لايتوجهون
٣٠٧	٢٤	الفقة	الفقيه
٤١٧	١٢	يشك	يشكك
٤٢١	٨	فاتكا	فاتكم
٤٢٢	١٨	الاقناع	الاقتناع
٤٢٧	٢٥	غير	غيره
٤٤٠	١٦	الذين خلوا	الذين
٤٤١	١	مكابر	مكابرة
٤٤٢	٢٤	سلية	تسلية
٥٥٠	١٤	وذكرهم	ذكرهم
٤٦٧	٦	هو الضرب	هذا الضرب
٤٧٦	١٣	ووصية بنيه	ووصيته بنيه
٤٨٠	١٠	(قالوا)	(وقالوا)
٤٨١	١٨	مسند	بسند
٤٨٤	١	يؤثرون	يأثرون
٤٨٦	٩	الوصفية	الوضعية
٤٩٦	٦	بعده	بعد
٤٩٦	١٨	سنتهم	ستنهم
٤٩٦	٢٥	فيما ترى	فيما ترى من الاستدراكات